سيناك مونكو





تاريخ الحب

ترجمة : د. محمد الرحموني

تاريخ الحب



سيناك مونكو

ترجمة وتقديم وتعليق

د. محمد الرحموني

مراجعة: د. ماهر تريمش

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة

تاريخ الحب

سيناك مونكو

HQ16.C412 2010
Cénac-Moncaut, J. 1814-1871.
تاريخ الحب في العصور الحديثة لدى الغاليين
والمسيحيين والبرابرة ومن العصر الوسيط إلى القرن الثامن عشر / تأليف سيناك
مونكو ؛ ترجمة و تقديم و تعليق
محمد الرحموني.- أبوظبي : هيئة أبوظبي
للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
ص 369 : 17x24 سم.
ترجمة كتاب : Histoire de l'AMOUR
تدمك: 978-9948-01-616-8
١-أوروبا - العادات و التقاليد.
أ-رحموني، محمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Cenac Moncault: L'histoire de l'amour:
Amyot Editeur Paris 1863



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

تاريخ الحب

المحتوى

القسم الأول: الحب لدى الغاليين والمسيحيين

القسم الثاني: الحب في ظل غزو البرابرة

القسم الثالث: الحب في ظل الشعراء الجوّالين: التروبادور والتروفار

القسم الرابع: الحب منذ عصر النهضة

الضمائم

عن الكتاب: تاريخ الحب من وجهة نظر أخلاقية

1

«تاريخ الحب في العصور الحديثة لدى الغاليين والمسيحيين والبرابرة ومن العصر الوسيط إلى القرن الثامن عشر» هو الجزء الثاني من البحث الذي خصصه المؤلف لتتبع تاريخ الحب منذ العصور القديمة إلى القرن الثامن عشر. صدر الكتاب في باريس سنة 1863 عن مؤسسة أميوت للنشر (Amyot Editeur). ويحتوي على أربعة أقسام هي على التوالي:

الحب لدى الغاليين والمسيحيين

الحب في ظل غزو البرابرة

الحب في ظل الشعراء الجوالين: التروبادور والتروفار

الحب منذ عصر النهضة.

2

وكما هو بيّن فقد عمد المؤلف إلى تتبع تاريخ الحب في أوروبا استنادا إلى تاريخها السياسي والحضاري وكان هدفه المعلن بيان العلاقة الجدلية بين الحب وما عرفته أوروبا من تحولات سياسية ودينية واجتماعية وأدبية. والحقيقة أن تاريخ الحب كما عرضه المؤلف ليس في النهاية سوى تاريخ المرأة مومساً وجارية ومحظية وسرية و«حرمة» وسيدة قصروملكة وراهبة وأديبة.. وزوجة وبنتا وعشيقة... وهو بالنتيجة تاريخ فجورها وصمودها وتضحياتها، تاريخ اضطهادها وانتقامها..

ولذلك فإن التاريخ الذي «قصّه» علينا المؤلف بأسلوب بليغ وشائق كانت المرأة، باعتبارها رمز الحب والأخلاق في التاريخ، محركه الأساسي، لذلك كان يتحدث على الدوام عن «عصور التفسخ الأخلاقي» و«عصور الأخلاق النبيلة». وانتهى به الأمر في

القسم الأخير من الكتاب إلى الخلاصة التالية: «كان العصر الميروفنجيني والكارلوفنجيني عصر السريات والجواري وكان العصر الوسيط عصر الحبيبات والسيّدات المفضلات المدللات. أما عصر النهضة فقد دشن عصر العشيقات». وأن تكون المرأة رمز الحب في التاريخ يعني أن الحب هو محرك التاريخ، كما هي السياسة لدى أرسطو والصراع الطبقي لدى ماركس، وبالفعل فالحب، في نظر مونكو، هو الذي ساهم في القضاء على الوثنية وانتشار المسيحية، وهو الذي نقل غزاة أوروبا البرابرة من التوحش إلى الحضارة. وهو في صيغته العربية الإسلامية قد أحدث ثورة أخلاقية واجتماعية وحتى أدبية في أوروبا العصر الوسيط (دور مسلمي الأندلس في انتشار الحب في أوروبا= القسم الثالث من الكتاب) وهوالذي جسّر الفجوة بين الطبقات العليا (النبلاء والبورجوازية) وعامة الشعب. ومن هنا فإن ما عرفته أوروبا من حروب سياسية ودينية ومن تحولات اجتماعية كان الجانب الأخلاقي دافعها الأساسي.

الأسلوب القصصي الذي اعتمده المؤلف لم يمنعه من التحليل النفسي والاجتماعي والسياسي إذ لم يكتفِ بسرد أخبار النساء بل كان غالبا ما يفسر سلوكهن؛ ففي الفصل المخصص لـ «الدير والحب»، على سبيل المثال، تعمق في «التحليل النفسي»، فلم يقف عند إدانة ما كان يحصل في الأديرة والصوامع من موبقات وفاحشة بل زاد على ذلك بتحليل دقيق لنفسيات الراهبات مصورا ما كان يعتمل في دواخلهن من شهوات مكبوتة وأحلام «مخصية» نتيجة أنهن لم يكنّ بحكم طبائعهن مهيئات لحياة التبتل. وكانت خلاصة تحليله أنه لا يمكن إجبار العذارى على التبتل فذلك يفضي حتما إلى الزنى. وفي الفصول التي خصصها للحب في المرحلة الإقطاعية نلحظ تركيز المؤلف على دور القوانين والعادات وحتى العمارة الإقطاعية في ما كانت تعيشه المرأة من غبن واضطهاد كانت علامته الكبرى ما عرف آنذاك بـ«حق التفخيذ» **Droit du seigneur** الذي كان يبيح للسيد مجامعة (وفي الحقيقة اغتصاب) عروس مقطعه أو قنّه ليلة الزفاف. ولعل أمتع التحاليل في الكتاب هي تلك التحاليل السياسية، من وجهة نظر أخلاقية طبعا، للثورة الفرنسية، فقد لعبت فيها

المرأة أدوارا خطيرة وكان الوضع الأخلاقي دافعها الأساسي. كما لعب دورا في ما عرفته من تطورات.

3

أمّا عن مصادر المؤلف فقد كانت في القسمين الأولين مصادر دينية (الإنجيل خصوصا) وتاريخية (تاريخ غريغوريوس التوري بالخصوص Gregoire de Tours) بالأساس. وفي القسمين الأخيرين كانت مصادره أدبية بامتياز، ولا غرو في ذلك فقد صرح المؤلف أن الحب قد جلب إليه منذ العصور الوسطى كل الأجناس الأدبية بما في ذلك الهجاء بل إنه كان مصدر ابتداع أجناس أدبية وظهور مدارس شعرية ومسرحية جديدة لعل أهمها مدرسة الشعراء الجوالين المعروفين باسم التروبادور Troubadours الذين ظهروا في جنوب أوروبا ثم في شمالها.

4

تكمن قيمة الكتاب في أهمية الفترة التاريخية التي يشملها بحيث إنه عرض أمامنا تاريخ أوروبا العام من العهد الغالّي إلى القرن الثامن عشر، كما تمكنا بفضله من الإلمام (= أخذ فكرة عامة) بوضعية المرأة الأوروبية مما يغري بإنجاز دراسة مقارنة بين وضع المرأة الأوروبية والمرأة المسلمة في تلك الفترة التاريخية. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الدراسة، إذا قدّر لها أن ترى النور، ستقوّم الكثير من اللغط الذي قيل بشأن وضعية المرأة في الإسلام دينا وحضارة وتاريخا. والحقيقة أن المؤلف قد وفر لنا بعض عناصر هذه الدراسة المقارنة عندما أبدى إعجابه «المتحفظ» (باعتباره مسيحيا متحمّسا) بوضعية المرأة المسلمة سواء فى الشريعة (ثناؤه على تحريم الإسلام للتبتّل) أو في التاريخ (إصراره على أنّ «المومس المسلمة» هي أسطورة ولا وجود لها في التاريخ). إضافة إلى ذلك ففي الكتاب عنصر توثيقي معتبر يتعلق خاصة بالحياة اليومية لشعوب أوروبا (المآكل والثياب والعادات

والتقاليد...) وفي هذا السياق استوقفتنا تلك التفاصيل المهمة التي وفرها لنا عن حفلات أعراس المسلمين في الأندلس وما تتميز به من إفراط في اللهو والطرب وما تنطوي عليه من عادات وطقوس مازالت آثارها إلى اليوم في بلدان شمال إفريقيا.

الملاحظة الأولى التي نسوقها في هذا الإطار أننا اعتمدنا نسخة إلكترونية رديئة من حيث الطبعة ومليئة بالأخطاء المطبعية واللغوية. ولم يتسن لنا الحصول على الكتاب لأسباب خارجة عن نطاقنا. إضافة إلى أن الكثير من الكلمات والمصطلحات والأساليب قد تجاوزتها اللغة الفرنسية اليوم فهي من باب المهمل. ثم إن كثيرا من الكلمات تغيرت طريقة كتابتها مما أوقعنا في شبهات واستوجب منا جهدا إضافيا للعثور على الكلمة المعنية.

الأمر الثاني الذي عانينا منه في الكتاب هو كثرة سجلات القول وتنوعها (سجلات دينية وتاريخية وجغرافية وأدبية وفلسفية...) وهي سجلات لا يمكن للمترجم مهما كانت خبرته أن يكون عارفا بها معرفة وافية، فما بالك إذا اجتمعت في كتاب واحد. ولذلك فقد كانت مشاكل الترجمة تتنوع من قسم إلى آخر، ففي القسمين الأولين كانت لغة الكتاب تغلب عليها النزعة القصصية مما حتّم علينا الاحتياط حتى يكون النص العربي نصا قصصيا مستساغا، ولذلك سمحنا لأنفسنا في بعض المواضع بزيادة بعض الجمل القصيرة أو الحروف والأدوات التفسيرية حتى نتجاوز جمود الأسلوب الفرنسي. أمّا القسم الثالث فقد «سهرنا منه الليالي» ففيه «ما يصعب حقا ترجمته» وأعني بذلك:

* أسماء الأجناس الأدبية الأوروبية وهي أجناس لم تعرفها الثقافة العربية قديما وحديثا، فلم يعرف العرب: الـballade , lai , fabliau, madrigaux , rondeau , romancero alba, sonnet الخ. ومما زاد الطين بلة أن هذه الأجناس متفرعة إلى أجناس صغرى ومختلفة من عصر إلى عصر ومن بلد إلى آخر فـ«القصة الشعرية» fabliau أصناف وألوان هي في فرنسا غيرها في إيطاليا كما يتغير شكلها بتغير موضوعها.. ونفس الأمر بالنسبة إلى «الحكاية الشعرية» Lai. فالأمر يحتاج الاطلاع على هذه الأجناس الأدبية واستشارة المختصين فيها. ولذلك فإن ترجمتنا لهذه الأسماء هي مجرد محاولة أولية عزاؤنا في ذلك

أن المؤلف قد أسعفنا بتعريف لبعضها وأن الأمل يظل منوطاً بطبعة ثانية للكتاب نستدرك فيها كل ما فاتنا.

* مصطلحات مدرسة الشعراء الجوالين، وهي مصطلحات على غاية من الدقة واللطافة لا يكفي فيها الرجوع إلى المعاجم بل لابد من دراستها في سياقاتها التي وردت فيها في شعرهم والأمر يحتاج جهد المختصين.

وإضافة إلى هذه الصعوبات توقفنا مليا عند كلمة galanterie (الظرف) التي لم يخلُ منها فصل بل صفحة، ذلك أن المؤلف يستعملها في سياقات مختلفة بل ومتناقضة أحيانا فهي تعني:

- الفاحشة والزنى
- دلال النساء وغنجهن
- الكياسة والشطارة
- حسن الهيئة
- حسن معاملة النساء
- الحب
- الغزل
- الحب الإباحي
- سلوكاً اجتماعياً راقياً
- التحضر

إنها عبارة تتعلق بالعواطف وبالسلوك الاجتماعي. ولما لم تسعفنا المعاجم العربية بمرادنا نظرنا في الثقافة العربية القديمة فقد ورد في «باب سنن الظرف» من كتاب «الظرف والظرفاء» لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء: «اعلم أن عماد الظرف عند الظرفاء وأهل المعرفة والأدباء حفظ الجوار والوفاء بالذمار...ولن يكون الظريف ظريفا

حتى تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة...وقال بعض الأدباء الظرف ظلف النفس ورقة الطبع وصدق اللهجة وكتمان السر». وورد في «باب مباينة ذوي التظرف لذوي التكلف»: «اعلم أنّ من كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء سيرهم على ما تولدت به المكارم واجتنابهم لخسيس المآثم...وأنهم لا يداخلون أحدا في حديثة ولا يتطلعون على قارئ في كتابه..ولا يتبصقون ولا يتثاءبون...ولا يأكلون على قارعة الطريق ولا في مسجد ولا في سوق..ولا يجاهرون بالزنا ولا ينطقون بالخنى...». من الواضح أن معنى الظرف لدى الوشاء يقتصر على معنى واحد إيجابي.

ولأجل ذلك ترجمنا هذه العبارة بحسب السياقات التي وردت فيها فهي تعني أحيانا «الظرف» وأحيانا أخرى «الظرف الغزلي» وثالثة «الإباحية» ورابعة «الظرف العفيف» وخامسة «الشطارة».

لقد سعينا في هذا العمل إلى أن نقدم للقارئ العربي «نصا عربيا» مع حرصنا الشديد على حفظ حقوق النص الفرنسي. وإضافة إلى ذلك حرصنا على التعريف ولو بإيجاز بأقصى قدر ممكن من الأعلام والبلدان والأقوام والجماعات والأحداث، خصوصا عندما يكون ذلك ضروريا لفهم النص، كما أحجمنا على مناقشة المؤلف في بعض أفكاره خصوصا تلك المتعلقة بالإسلام احتراما منا للمؤلف وللقارئ العربي على حدّ سواء.

القسم الأول

الحب لدى الغاليين والمسيحيين

1

الحب في بلاد الغال

قسم التاريخ منذ أقدم العصور العالم قسمين: الشرق حيث المرأة مستعبدة ومجرد أداة للّذّة الحسية، أما في الغرب فقد كانت المرأة فخورة بنفسها، مستقلة، ممتشقة راية قوتها وكرامتها.

كانت بلاد الإغريق تنتمي من جهة أصلها إلى الشرق، ولكن لمّا كانت على تخوم الغرب فقد لعبت دور الرابط بين العالمين. ولذلك بدأت المرأة تدرك فيها معنى الحرية ومبادئها.

أما روما فكانت تنتمي للغرب، وقد بدت لنا فيها المرأة حرة وفخورة بذاتها في الواقع المعيش وإن كانت مقهورة وخاضعة بحكم القانون.

وفي باقي الغرب أي بلاد الغال وإسبانيا وجرمانيا واسكندنافيا، فقد تمكنت المرأة من حلّ معضلة الاستقلالية في الواقع وفي القانون، فقد أسست سلطتها ومساواتها مع الرجل في المجتمع على عفوية مشاعرها وعلى حريتها في اختيار زوجها.

ومع ذلك فلا يمكن أن نمنّي النفس بأنّ النزعة الحسّية الشرقية المستبدّة قد خبت نهائيا، فمن المؤكّد أنها ستتسلّل إلى مجتمعاتنا من حين لآخر لتزعجها. ولكنّ نجاحها العابر ذاك سيعجّل بهزيمتها. وإنه من رحم صراع هذين المبدأين، حرية المرأة من جهة، وخضوعها من جهة أخرى تلوح، قيمة هذا الكتاب.

ورغم أن النساء الرومانيات قد غنمن مكانة كبيرة في المجتمع السياسي المدني بفضل استقلالهن العاطفي ووجاهة اختياراتهن التي أثبتناها سابقا[1] فإنّ الغاليات والجرمانيات قد تفوقن عليهن منذ قرون عدة بما كسبنه من سلطة وتأثير. تبدو إذن سلطة المرأة، وبالأحرى

(1) يشير المؤلف إلى الجزء الأول من هذا الكتاب وهو بعنوان: «**تاريخ الحب في العصور القديمة لدى العبرانيين وشعوب الشرق والإغريق والرومان**» وقد صدر سنة 1862. (المترجم).

سلطة الحب لدى أسلافنا سلطة أصيلة. لقد انبثقت من رحم تلك الأرض العزيزة انبثاق الصخور وأشجار السنديان في جبال الدرويد[1] Druides. لم تعرف حرية الحب في تلك الربوع طفولة، ومن البديهي ألاّ تعرف شيخوخة، لقد ظهرت مكتملة القوة منذ القرون الأولى وظلت على ما هي عليه من الحيوية إلى القرون الأخيرة. لقد عوض الحب القويّ الصافي القومية الغالية الآفلة دون أن يفقد شيئا من حسنه.

إن نشأة مدينة مرسيليا Marseille أخاذة وشاعرية كما لو كانت فصلا من الأوديسا. إن تاريخها يبدأ بقصة حبّ غاية في النبل والصدق بحيث يمكننا اعتبارها بمثابة قران بين الروح الإغريقي والروح الغالي.

وتفصيل ذلك أنه سنة ستمائة قبل ميلاد المسيح ألقى قارب فوسياني[2] مراسيه قرب إقليم بوش دي رونBouches–du–Rhône على أرض السيقوبريج[3] Segobriges فاستقبل الملك نان Nann، ملك البلاد أولئك الغرباء بكل لطافة الضيافة القديمة، فأقيمت حفلة كبيرة في قصره جمع فيها على مائدة الأكل عددا كبيرا من الراغبين في خطبة ابنته التي كان عليها أن تختار بنفسها عريسا من بينهم. حثّ الملك نان الفوسيين على الجلوس إلى مائدة العائلة فسارعوا بالقبول. لم تحضر الشابة المسماة **جيبتيس** *Gyptis* أو بيتا *Petta* الحفل، فقد كانت العادات تحتم عليها ألا تظهر إلا في آخر المأدبة مشهرة بيدها كأس الزواج La coupe d’hymen لتهديه للرجل الذي اختارته زوجا لها.

ولما استحال وجود امرأة بلا فضول وبلا حب اطلاع، علينا أن نفترض أن بيتا قد اختلست النظر إلى المأدبة حتى تقرر في النهاية اختيار الرجل الأجدر بحبها والأكثر وسامة

---

(1) الدرويد هم كهنة الشعوب الكلتية في بلاد الغال وبريطانيا قديما. كانوا يمارسون التطبيب بالأعشاب. وكانت شعائرهم تقوم على عبادة الشمس والاعتقاد بخلود الروح. (المترجم)

(2) نسبة إلى شعب الفوسيين phocéens في آسيا الصغرى الذي ينتسب إلى مدينة فوسا Foça الإغريقية الواقعة على ضفاف بحر ايجه. وقد سيطر الفوسيون على ضفاف المتوسط إلى حدود سنة 546 ق. م تاريخ سقوط عاصمتهم في يد الفرس. (المترجم).

(3) قبيلة ليغورية سكنت ضفاف المتوسط في مرحلة مابين مرحلتي «التاريخ» و«ما قبل التاريخ» Protohistoire في أوروبا و يكاد يرتبط ذكرها لدى المؤرخين بقصة تأسيس مدينة مرسيليا.(المترجم)

من بين المدعوين ومن ثم الأجدر بأن يكون زوجها. إن الطريقة التي انتهى بها الحفل تؤكد هذه الفرضية فعندما بانت «بيتا» لم تهد الكأس التي كانت تشهرها إلى شاب سيكوبريجي من أبناء جلدتها وإنما أهدته إلى زعيم الغرباء، إلى أوكسان Euxéne الفوساياني الذي كان في زيارة لتلك البلاد لأول مرة في حياته. ولم يلبث أن أثار ذلك الاختيار غير المنتظر أقاويل غليظة تهامس بها المرشحون السابقون. ولكن الشابة الغالية تمسكت بحقها الذي تحميه الآلهة، رغم أن القوانين تعاقب عليه.

احترم الأب قرار ابنته فما كان من المرشحين الخاسرين إلاّ أن امتثلوا له. وهكذا تزوجت بيتا أوكسان فسمّاها أرستوكسان Aristoxène ومعناها في الإغريقية «**أكثر الضيفات رشاقة**».ثمّ استقر بصورة نهائية في أفضل ولايات والده. وهكذا أسّست مدينة **ماسالي**[1] *Massalie* نزولا عند رغبة شابة كانت متعجلة نوعا ما في اتخاذ قرارها.

بعد ثلاثة قرون من هذه القصة كان مشهد أقلّ شاعرية من السابق يوفّر لنا شهادة شاملة وحاسمة على سلطة المرأة الغالية رغم أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بالحبّ.

كان القائد حنّبعل متوجها في حملة إلى إيطاليا ولمّا وصل إلى ضفاف نهر التهت Teht شرق جبال البيريني عقد معاهدة تحالف مع الأهالي غاية في الغرابة والشهرة: «تعرض شكاوى الغاليين ضدّ القرطاجنيين أمام حنّبعل أو قوّاده في إسبانيا، وأمّا شكاوى القرطاجنيين ضدّ الأهالي فتنظر فيها نساء الأهالي ويكون حكمهنّ باتّا».

لم تكن تلك الاستثناءات الخاصة بقبائل الليغور Ligures[2] في جبال البيريني أمرا ظرفيا وإنما كانت تستند إلى التقاليد الأكثر قدامة، فقد اعتبرت النساء قوّامات على الرجال في مجال العواطف والعدالة لذلك كنّ يتصدّين باستمرار في المحكمة للنقاشات السياسية والمدنية التي كان يثيرها أبناء وطنهنّ. لقد كنّ يختلطن بالمقاتلين في الحروب القبلية

(1) ماسالي هو الاسم القديم لمدينة مرسيليا (المترجم)

(2) مجموعة من القبائل عاشت في أوروبا في المرحلة الفاصلة بين «ما قبل التاريخ» و« التاريخ» (Protohistoire). دخلوا في حرب مع الرومان ما بين سنتي 239 و 173 ق.م.(المترجم).

ويحكمن بين كلّ المتنازعين ويكون حكمهنّ باتّا. وبذلك هنّ يستعدن لمصلحة جنسهنّ امتيازات دبورة اليهودية[1] la Juive Débora التي كانت تلعب باقتدار كبير دور قاضية بني إسرائيل الكبيرة على ضفاف نهر الأردن.

إنّ ما تمتّعت به المرأة الغالية من إجلال إنما يعود بلا ريب إلى عزّة نفسها التي كانت أساس علاقتها بالرجال. إنّ معاشرة النساء لم تنحطّ لدى الكلتيين Celtes[2] إلى مجرّد بحث عن التسلية والترويح عن النفس كما كان الحال في بلاد اليونان وروما. فلم يكن الرجل يغازل المرأة بطالة وظرفا وإنما كان الحبّ يؤخذ مأخذ الجدّ، فيشترط في المحبّ النضج، ولذا كان يعاب على من كان حدثا أن يحبّ. وفي هذا السياق كتب أوليجالوس Aulugèle: «لقد كان عارا على رجل غالي أن يعاشر امرأة قبل سن العشرين»[3]. فقد كان ينبغي للعفة أن تنظم علاقات الجنسين قبل الزواج إذ هي ضمان الشجاعة والقوة، وهما فضيلتان أساسيتان لدى كل الأقوام المحاربين.

لقد كان من الطبيعي، والحال تلك، أن تحوز المرأة ثروة شخصية أو أن تشارك زوجها أملاكه، لقد كرس القانون ذلك التشارك في الثروة. فحتى الأطفال، ثروة الشعوب الشابة، يتقاسمهما الزوجان، فيظلون تحت رعاية الأمّ إلى أن يبلغوا سنّ الرشد وقبل أن يسجلوا في ديوان الجند، ولكن بمجرد أن يحق لهم حمل السلاح يصبحون تحت رعاية الأب.

لقد تكفلت الطبيعة بالتصديق على سيادة النساء الغاليات بما أنعمت به عليهن من فضائل: قوامات ممشوقة ورشيقة وأجسام لينة وممتلئة ووجوه ناصعة البياض، لذلك فإن الرومان والإغريق، أكثر الشعوب دراية بعالم النساء، رفعوهن إلى مصاف أجمل المخلوقات

---

(1) دبورة اليهودية هي نبية يهودية. وهي المرأة الوحيدة المذكورة ضمن قضاة بني إسرائيل. وقد شغلت هذا المنصب لمدة أربعين عاما أي من 1260 إلى 1221 ق. م. لمزيد التفاصيل انظر قصتها في «**العهد القديم، سفر القضاة** الإصحاح 4 و5.» (المترجم)

(2) مجموعة أوروبية تستعمل اللغة الكلتية التي تعتبر فرعا من اللغات الهندو أوروبية. وقد كانت هذه اللغة مهيمنة في أوروبا في المرحلة السابقة مباشرة لظهور «التاريخ».(المترجم)

(3) Nuits. att. Liv. VI

في العالم[1].

لقد ولد الإنسان فنانا، فهو بطبعه على علاقة بجمال الأشياء المرئية والظاهرة، فذلك الجمال الظاهر هو الذي يشدّه فيتعلّق به.لذلك كانت الشمس والبحر والجبال والأشجار أول معبودات الإنسان البدائي لأنها كانت أجمل ما في الكون وأجلّه».. واستنادا إلى نفس المبدأ فإن معظم سلطان الجرمانيات والغاليات يعود الفضل فيه إلى جمال أجسادهنّ ونفاذ نظرهنّ وجلالة وقارهن. إن الإغريقيات اللواتي بدأن يتحررن كنّ الأجمل في زمانهن وفي بلادهن»[2].أما نساء الشعوب المتوحشة البائسات فربما كان قبحهن المنفّر سببا في ما عانينه من احتقار واضطهاد.

إن الفضائل الخُلُقية للنساء الغاليات شأن الشجاعة والحيوية تكمّل فضائلهن الخَلْقية، ولّما كان وجودهن مرتهنا بوجود أزواجهنّ أكثر مما كان عليه الحال لدى الرومانيات فإنهن لم يكن لينفصلن عنهم حتى أثناء الحملات الحربية، لقد كنّ يقاسمنهم المخاطر والبطولات والسراء والضراء، وكان على المرأة الغالية الحبلى العاملة في الحقول عدم التوقف عن عملها إلى حين لحظة الولادة، وبمجرد أن تضع مولودها تودعه في فرش من أوراق الأشجار وتستأنف عملها حتى لا يقتطع سيدها من أجرة يومها الوقت الذي استغرقته عملية الولادة[3].

أما عندما تكون الغالية زوجة جندي أو قائد فهي تُرى أثناء المعارك والحصار خلف المقاتلين تحرضهم على القتال حتى النصر أو الموت... وإذا ما انكسرت صفوف الجيش الأمامية فإنها ترتمي عند أقدام الجند محتضنة أطفالها وذلك لمنع فرارهم. لقد كانت تستجير بأمومتها وحبّها وتنعى عليهم تخاذلهم ثم سرعان ما تعود تبشرهم بالنصر، وهي بذلك تدفع أكثر الجنود رعبا إلى معاودة الكرّ، وإذا ما انتصر العدو رغم كل ذلك الجهد والحزم وإذا ما شعرت بخطر الاسترقاق فإنها تربو بنفسها عن تحمل ذلك العار فتسعى إلى الموت

(1) - Plutarque, De virtut. mulier – Amédée Thierry, Histoire des Gaulois. T.1, P. 267 ; T.II p 18 et 19.

(2) - Diodore de Sicile 1. V – Strabon 1. IV – Athénée 1.XIII

(3) - Thierry, t.II, p 17.

مع زوجها أو حبيبها المصروع، فالموت وحده هو الذي يجمع بينهما. وهكذا يقضي جنون الحب والوطنية بأن ترمي أطفالها تحت عجلات العربات، وتطعن نفسها، وتلقي بنفسها من أعالي الصخور حتى تنجو من شماتة الأعداء وتتحد إلى الأبد مع أولئك الذين كانوا أحبتها في الدنيا.

إن المشاعر التي تبدو في غاية النبل لدى الشعوب غير الحُرة لا تعدمها في الغالب الأنانية؛ فالرجل والمرأة يتحابان طمعا في اللذة يتقاسمانها، على غرار الرجل في الحريم اليوناني، والذي كان Gynécées يملك المرأة الأَمَةَ دون أن يحبها لأنها لا تقاسمه مآثره ولا مخاطره ولأن الخدمات المنزلية القليلة التي تؤمنها له إنما هي من باب الواجب وليست لأجل سواد عينيه.

وفي المقابل يعدّ الحب لدى نساء الشعوب الحرة أمرا عظيما كما يكون الوفاء لديهن عميقا وبطوليا أحيانا؛ فالمرأة تهب نفسها لزوجها وتشاركه معاركه الحربية وتواسيه عند الضراء وتتحمل معه أعباء الحياة، وتعرف كيف تألم وتموت لأجله، وكلّ فعل وفاء بينهما هو رباط حب جديد وعربون ودّ متجدد.

تتضافر كل تلك الأحداث وتتجلّى في اللحظة التي تخرج فيها الشعوب من البربرية وتضع أقدامها على عتبة الحضارة وتكوّن في العادة أرضية مناسبة لانبثاق أنبل تعابير الحب وأقواها. إن الإنسان لا يمكنه، وهو في مرحلة الهمجية الخالصة وكذا في مرحلة التوحش أن يوازن بين أحاسيس الجسد ومشاعر القلب؛ فكفة الأحاسيس هي من الثقل بحيث تهوي أمامها كفة المشاعر.

إلا أن توازن هاتين القوتين في ظلّ حضارة متقدمة جدا (وليس لدينا، مع الأسف، سوى فائض من الأمثلة) هو أيضا مفقود وإن كان ذلك في الاتجاه المعاكس، والنتيجة هي ذاتها، إخلال يتوازن العنصرين.

وفي المقابل تشكل حضارة صاعدة ذات منزع وسطي ومفعمة بحماس الشباب وأحلامه تربة خصبة لنمو المشاعر العظيمة وخصوصا الحب، وعندها يمتلئ الجسد

بالنشاط الطبيعي الضروري لنمو أعظم الأفكار ولممارسة أعظم الفضائل.

إن الحب يستفيد من هذا التوازن المثالي بين القوى الخَلقية والقوى الخُلقية فيدرك أقصى ما يمكنه إدراكه من قوة وسلطة.

عندما تختار المرأة زوجها بكل حرية ويسيران معا في دروب الحياة الشاقة يقلّ الزنى. فلقد كان الرجل في بلاد الغال دائم الحذر في ما يتعلق بنسب أولاده، فقانون الدم ليس مجرد كلمة فاقدة للمعنى لدى الشعوب العظيمة. إنّ الأب لا يتساهل أبدا في هذا الموضوع إذ يسعى إلى التخلص من كل ما يمكن أن يكدّر صفاء العرق وصحة النسب فذلك رأس الشرف.

ففي الشمال يوكل الرجل الغالي الشاكّ في نسب ابنه إلى الإله رين Rhin أمر الكشف عن الخطيئة ومعاقبة المخطئ: يوضع المولود على خشبة هي له بمثابة الزورق، وإذا ما استمسك ذلك المخلوق الضعيف على الماء فأمه بريئة فيحتضنه والده بحنان وأما إذا ما هوت الخشبة فإنّ الأب يثبت بذلك الخطيئة على زوجته، ولكن غضبه لا يطالها وإنما يطال المولود إذ يسلمه للماء ليبتلعه[1].

لا يمثل ذلك الدور المزدوج المدني والحربي كل سلطات المرأة الغالية وقوتها، بل هي ارتقت في السلم الاجتماعي بصفتها من ممارسات الشعائر الدرويدية؛ ففي تلك الشعائر تلعب الكاهنات الغاليات الدرويديات[2] Druidesses دورا دينيا بارز الإلغاز يرفعهن نحو الألوهية درجة لا يدركها الكهنة أنفسهم.

لقد كان من الطبيعي أن تلازم أولئك الممثلات للإرادة الإلهية أبهة غامضة جديرة بأن تفرض على الرجال احترامهن ومهابتهن، فالشهيرات منهن كن يقمن معابدهن في جزر أرخبيل الأرموريكان[3] Armoricain وقد صعّبت العواصف المتواصلة الوصول إليها.

(1) - Thierny, t.II, p 70.

(2) هنّ كاهنات بلاد الغال القديمة. وكانت تنسب إليهن قدرات سحرية وشبقية كبيرة.(المترجم)

(3) سلسلة جبلية تقع في غرب أوروبا وتحديدا في منطقة بريطانيا الفرنسية.(المترجم)

وحتى الملاّحة الذين كانوا يغامرون بالرسوّ بها فقد كانت تصدهم، على ما يحكي، ظواهر عجيبة وأصوات بارود وزوابع. ولم لا والطبيعة خلقت لطاعتهن، فالبحر يزبد ويسكن بأمرهن، كما أنه بإمكانهن الظهور في كل الأشكال بما في ذلك الأشكال الحيوانية. ثمّ إنهن يعلمن الغيب ويداوين كل الأمراض[1].

وفضلا عن ذلك، وسواء أكانت الساحرات الغاليات مجبرات على حياة الترهب شأن راهبات الآلهة فستا Vestales[2] أم كنّ متزوجات فقد شكلت الطهارة والعفة الأساسين المألوفين لاجتماعهنّ. إن العذارى التسع لمجمع الكهنة في سينا Sena في أقصى شرق بلاد الأرموريك لا يظهرن إلاّ للملاّحة المغامرين الذين كانوا يجوبون البحر وسط العواصف في سبيل الوصول إليهن وطلب شفاعتهنّ.

كانت رويهبات[3] جزر أرخبيل الأ لوار la Loire يبدين عصيّات على كل فضول الإنسيين ومع ذلك فلم يكنّ ممتنعات عن كل الرجال، فقد كن متزوجات، وأزواجهنّ لم يكونوا يزعجونهن كثيرا. ولكن هؤلاء الأزواج، كما هو الحال لدى نظرائهم أزواج الأمازونياتAmazones[4]، لا يتمتعون سوى بالحدّ الأدنى من حقوقهم الزوجية، لقد كانوا محتجزين في البرّ في الوقت الذي كانت زوجاتهم يعشن في الجزر. وكانوا يوجهون كل نشاطهم لخدمة الشعائر المقدسة، وينتظرون بفارغ الصبر أن تأتي زوجاتهم الكاهنات لزيارتهم سرّا في أوقات معلومة من الليل وهنّ يجدّفن بأنفسهن فيقبلْنهم على عجل

---

(1) - Thierry, t, II, p 93 à 97.

(2) نسبة إلى الآلهة فستا Vesta آلهة الوفاء لدى الرومان. وهي آلهة عذراء. ويتمثل دور الراهبات Vestales في حراسة النار المقدسة الموقدة في معبد آلهتهن.(المترجم)

(3) وردت في النص عبارة Nannettes وهي كلمة غير موجودة في اللغة الفرنسية لذلك رجّحنا أنّ الكلمة الصواب هي Nonnettes وهي تصغير لكلمة Nonnes وتعني الراهبة التي تعيش في الدير.(المترجم)

(4) حسب الأسطورة الإغريقية وجد شعب على ضفاف البحر الأسود يتكوّن من النساء المحاربات فقط. كنّ يواجهن أبطال الإغريق. وكنّ يتلفن الثدي اليمنى لكل أنثى مولودة (ومن هنا جاءت تسميتهن بعديمات الأثداء بلغة الإغريق) وذلك حتّى يسهل عليهن استعمال القوس والنبل. وكنّ يقتلن كل مولود ذكر. لمزيد التفاصيل، راجع: (المترجم)
Dictionnaire Encyclopédique,(grand forma), Hachette. Paris 2001.p.52

ويسرعن بالعودة وحيدات، غير مكترثات بصرخات أزواجهن وقد تركنهم وحيدين ينادونهن دون جدوى. تلك اللذة العابرة وذلك الحب المفعم بالرمزية لهما خصائص غريبة جمعت في الآن نفسه بين الشاعرية والورع، وما لنا في الأمر نكر. إنها الروحانية القاهرة لهيجان الجسد، إنه القلب الساعي إلى التخلص من كدورات الجسد ولكنه لا يدرك خلاصه إدراكا كاملا فيضعف في النهاية أمام تلك الإغراءات للحظة واحدة ثم سرعان ما يعاود صراعه الأبدي.

هل ثمة في تلك المواعيد الشهرية حب؟ ربما كثيرا. هو حب ينبجس فوّارا لا يقهر ولا يرد في ذينك النصفين اللذين يشكلان ذات الكائن الواحد واللذين طالما حيل بينهما وطالما حرما من كل اتصال.

حياة التعفف تلك التي لا تقطعها سوى فترات من اللذة الموسمية لم تكن سائدة في كل مجامع الكهنة، فقد تسرب إلى تلك الديانة التأملية نفس حسّي شرقي: تسرب إلى أسرار الكهنة الدرويديين نفس آسيوي كان ما زال مفعما بذكريات جزيرة ساموتراس[1] Samothrace وبابل فأيقظ فيها شبقا وتهتكا، ففي بعض المجتمعات كانت الكاهنات الدرويديات ينتقلن فجأة من حياة تعفف صارمة إلى حياة إباحية جامحة: تتهتك العذارى فجأة فلا يمكنهن كشف الأسرار إلا للرجل الذي يدنسهن في حين تتسلح الأخريات، وريثات صويحبات الإله ديونوزوس[2] وشَبِقَاتُ جبل سيتيرون،[3] Citheron بصناجق الدينوزيين الصاخبة ويؤدين شعائرهن الليلية على دق الطبول وصراخ المريدين الفزعين. وعلى ضوء المشاعل كنّ يمشين عاريات وأجسادهن موشومات بالأسود، وهن في أشد حالات الشطح. إنّ ذلك الوجد وتلك الإثارة يبدوان على غاية من الغرابة، كيف لا

---

(1) هي إحدى جزر بحر ايجه. كانت في العصور القديمة مقرّا للآلهة جعل منها مكانا مقدّسا لدى الإغريق (المترجم)

(2) هن نساء يرمزن إلى الطقوس العربيدية (المترجم)

(3) هو الجبل المخصص للإله زوس في الميثولوجيا الإغريقية. وتعود التسمية إلى الإله سيترون الذي قتل أسد الجبل. (المترجم)

والرجال ممنوعون من حضور تلك الحفلات[1].

لقد تسربت العادات الشرقية في صور أخرى حتى داخل الأسر فقد ذكر المؤرخ أميدي تياري Amédée Thierry أنّ جماعات كانت تعيش وسط بلاد الغال قد عرفت ظاهرة الحريم، إذ كانت المرأة لديها خاضعة طبقا للقوانين العبرية الصارمة.فقد كان الرجال المنحدرون من قبيلة التكتوساج[2] Tectosages في آسيا الصغرى هم الذين جلبوا، بلا شك، من ناحية أنصير Ancyre عادة استرقاق المرأة، فالزوج عندهم بيده رزق المرأة وفي سنانه موتها. فهو يحيي بذلك عادات احشويروش Assuérus وبلطشاصر Balthazar [3] الاستبدادية. ووفقا لتلك العادات إذا ما صادف أن مرض الرجل ومات وشاعت أراجيف حول سبب مرضه فإنّ كل زوجاته يعذبن، وإذا ما توافرت أدنى القرائن التي تدينهن فإنهن يحرقن كما تحرق الأرامل الهندوسيات. ولكن تلك العادات الدخيلة لم تظهر سوى في المراحل الأولى ولدى قلة من القبائل. فحرية المرأة وسلطانها هما الشريعة الغالبة في الغرب.

---

(1) راجع الجزء الأول من كتابنا ص 170–174

(2) شعب كلتي استقر في منطقة الأناضول بتركيا.(المترجم)

(3) هما ملكان فارسيان من سلالة الإخمينيين حكم الأول ما بين 485و465 ق.م. وعرف بخلاعته وتهتكه. وأمّا الثاني فقد توفي مقتولا حوالي سنة 539 ق. م. لمزيد التفاصيل: انظر قصتهما في العهد القديم، سفر دانيال وسفر أستير. (المترجم)

2
الحب الجرماني

إن الخصال التي تميز المرأة في بلاد الغال تضحى عندما نلج جرمانيا، أكثر صفاء وسموا، فالوفاء في جرمانيا أكثر صعوبة مما هو عليه في بلاد الغال، والكبر فيها أكثر تعجرفا، أما الفضائل والأهواء فأكثر فظاظة.

إن العذارى في جرمانيا لا يدفعن مهرا عند الزواج، فالخاطب هو المطالب بتقديم هدايا إلى العائلة. وعندما تجتمع العائلة وتخوض في الأمر يعدّ قبولها للهدايا إيذانا بإتمام مراسم الزواج، ولكن تلك الهدايا ليست أبدا أثاثا فاخرا أو أدوات تجميل كفيلة بإثارة عُجبِ المرأة بل أدوات تذكّرها بما ينتظرها من الواجبات المهمة التي عليها أداؤها، فتهدى مثلا ثيرانا أو حصانا مسرجا أو رمحا أو سيفا أو درعا. ومن جهتها تقدم لزوجها هدايا مماثلة هي شهادة أخرى على ما يحوط وجودهما من تكافل مثالي... وهكذا فعلى المرأة الجرمانية شأنها شأن المرأة في بلاد الغال – أن تقاسم زوجها ضرّاءه. إنها لا تكتفي، مثلما هو حال المرأة الرومانية، بمشاركته غزواته مشاركة معنوية بل تصحبه فعلا راجلة أو راكبة عربة مشدودة إلى ثيران ضخام وتشهد معه كل معاركه وتواسيه في ضيقه وشدته[1].

(1) كتب تاسيتوس Tacite بأنه أثناء المعركة كان الجرمانيون يسمعون عويل نسائهم وصراخ أطفالهم. إنّهم الشهود الذين يؤثّرون فيهم كثيرا، والذين يتوق المادحون إلى مدحهم. فإذا أصيبوا فإنهم سيجدون نساءهم وأمهاتهم يعددن الجرحى دونما جزع ويتسابقن لمصّ جراحهم. إنهن يأتين بالطعام للمقاتلين ويحثونهم على إجادة القتال. ولقد أوقفت النساء أكثر من مرة الجيوش وهي على وشك التشتت فجددن المعركة بتحذير المقاتلين وبدعائهم الدائم. وكن يكشفن صدورهن أمام الفرّار واصفات لهم فظائع الأسر، فالرجال الجرمانيون يفزعون من وقوع نسائهم في الأسر أكثر مما يفزعون من وقوعهم هم فيه. ومصداقا لذلك فان الطريقة المثلى للتأكد من وفاء شعب هي أن نطالبه بأن يقدم بعض الصبايا ذوات الأصل الشريف رهائن.(*De moribus*، ch VIII et XVIII)

وهناك تواجههم النساء بالسيوف والفؤوس مكشرات عن أنيابهن حانقات ومتألمات ومطلقات صرخات رهيبة وضاربات في الآن نفسه أولئك الفارين وأولئك الذين يطاردونهن، يضربن الأوائل باعتبارهم خونة والآخرين باعتبارهم أعداء. إنهن يرتمين وسط الجموع قابضات بأيدٍ عارية على سيوف الجند الرومان ونازعات عنهم دروعهم فيصبن جرّاء ذلك بجروح ويفتك بهن الجند دون أن يتراجعن ضاربات بذلك مثلا لشجاعة عظيمة.=

ظلت الحرب وأهوالها إلى يومنا هذا الامتحان الأكبر للأهواء المتأججة؛ فالجندي البعيد عن أهله الذي لا يصادف سوى عدد قليل من النساء يعنّ دوما بخاطره إلى تلك التي تركها في بلاده. إنها هي التي تبث فيه القدر الكبير من الشجاعة التي يبديها في الحرب. وإن النصر الذي دونه حياته هو هديته لها... ومن جهتها، أليست الحيرة والانتظار اللذان ينهكانها دليلا على انشداد خاطرها إليه؟ ألا تشقى من أجله؟ ألا تحيا لأجله هو فقط ؟ أوليس لأجله تحافظ على جمالها؟ وإذا كان صمت المراعي وهدووها هما النبع الثري للحنين فإن الفراق وآلام الحرب هي التي توقد نار الوفاء العظيم.

وإذا كان حب الجندي وحبّ حبيبته يهيج بتأثير المخاوف والمخاطر المتربّصة، فكيف حال الحب لدى العشاق أوالأزواج الذين يشهدون معا نفس المعركة. فلكم تنتشي المرأة الجرمانية وهي تنظر إلى حبيبها يعاجل الأعداء بطعناته الشديدة، وكم تتألم وهي ترى السهام تخترق جسده وتهرق دمه. وكم تكون سعادتهما كبيرة عندما يلتقيان سالمين عقب المعركة فتمتزج لديهما مشاعر النخوة والألم. وتنتابهما مشاعر أخر تعمل كلها مجتمعة على تهييج عواطفهما.(1)

= (Plutarque, Marius p.118)

ثم أضاف بلوطارق واصفا معركة نهر بادوس التي خاضوها ضد شعب السمبر: «هناك رأينا أفجع الأشياء وأرعبها، كانت النساء متشحات بالسواد على عرباتهن يقتلن الفرّار فتلك تقتل زوجها والأخرى أخاها وثالثة أباها ورابعة ابنها. ثم يعمدن إلى صغارهن فيخنقهم بأيديهن و يرمين بهم تحت عجلات العربات و قوائم الخيل. وفي خاتمة المطاف ينتحرن. وقد روي أنّ إحداهن قد شنقت نفسها بمجر العجلة بعد أن ربطت ولديها من رقبتيهما إلى قدميها واحد من هذا الجانب و الآخر من الجانب المقابل.

(Plutarque, *Marius* p.118.133)

(1) عندما قاد سيفيلوسCivilis ثورة الباتافيين Batave على الجيش الروماني النظامي كانت أمّه وأخواته وكل النساء يحملن أطفالهن ويتبعن الفيلق يحمين ظهره. ولدى اقتراب الرومان آذن عويل أولئك النسوة ببداية المعركة وقد اختلط عويلهن بأناشيد المحاربين وانتهى الأمر بهزيمة الرومان و اندحارهم.

(Tacite, *hist*, liv.IV ch. XVIII)

ثمّ إنّ القائد ميموس ليباركوس Mummis Lupercus أسر في المعركة. فلمن يا ترى أهدى سيفيلوس تلك الغنيمة البشرية؟ إلى امرأة، إلى فاليدا valléda الشهيرة.

وإنه لفي خضم تلك الأفراح والأتراح التي عاشاها سويّا في ساحة الوغى يرتفع حب المرأة الجرمانية درجة عمّا تكنه المرأة الرومانية لزوجها من حب لدى عودته مظفرا من الحرب، ذلك أن المرأة الرومانية لا تعلم مآثر زوجها في الحرب إلا خبرا بعدما يزول الخطر وتضمّد الجراح. وفي المقابل لا تكتفي الجرمانيات بالشجاعة سبيلا إلى العظمة بل إنهن يتفوقن على الرجال بما ألهمنه من نفس إلهي، فقد روي أن أرواحهن متصلات بالحكمة الأبدية، فيستشرن، كما الغاليات، عند الملمّات ويسمح لهن بحضور الاجتماعات السياسية(1).

وليست المرأة البدائية المسماة في الأساطير الاسكندنافية والجرمانية **فرايا**(2) ***Freya*** الرمز الشرقي للعبودية والخضوع، وإنما هي رمز الحب الحيوي ورمز الخصوبة.

إن الدين والأخلاق يدفعان المرأة الجرمانية إلى تلك الدرجة من السلطة والتفوق فتغدو في بعض الأحيان ملكة. ولقد عرّفنا المؤرخ الروماني تاسيتوس بشعب في أقصى الشمال، تحكمه ملكة(3)، هو شعب **السيتونيين** ***Sitones***.

لقد شكلت حيوية المرأة وتفانيها وكذا إخلاصها مناعة جرمانيا أكثر مما شكلته غاباتها الكثيفة، فالحب الصافي يُبقي الشعوب مثلما تفنيها الإباحية والدعارة. لذلك فإن الرومان الذين عبروا نهر الران لم يستطيعوا أن يشيدوا في ما وراءه منشآت حقيقية.

للفاتحين المتحضرين خطة واحدة هم دوما متأكّدون من نجاحها، وهي كذلك بالفعل، شرط أن يجدوا الطريقة الملائمة لتطبيقها: إنهم يجتهدون في دفع النساء نحو الخيانة فهم يعلمون علم اليقين أن الأحداث الأكثر خطورة تحبك بأتفه الدسائس وأن الملوك يخلعون بأوضع المكائد وبها تطيعهم الشعوب.

---

(1) - Tacite, De moribus, ch. VII ; Histoire, liv. IV, ch LXI, LXIII

(2) هي آلهة وثنية جرمانية. وتعني الكلمة في الجرمانية «سيّدة» وتعني في اللغة الإزلندية «عشيقة».(المترجم).

(3) ولكن المؤرخ الفيلسوف تغاضى في ذلك الصدد عن إعجابه بأخلاق أولئك البرابرة الساذجة في حين ظل يتذكر على الدوام انحلال الرومان الذي كان شاهدا عليه فاعتبر ذلك الملك قمة انحطاط الإنسان وأعلن آنّ السيتونيين قد انحدروا إلى ما دون العبودية لأنهم ملّكوا عليهم امرأة».

لقد اختبر الرومان أيما اختبار تلك الدبلوماسية الجنسية في بلاد اليونان وفي الشرق، وفي بلاط كليوباترا وميثرا Mithridate. وإذا كان كل من لوكيلوس Luculus وسيلا Sylla وأنطوان Antoine وقيصر Cesar وكراسيس Crassus وبومبوس[1] Pompée قد تعرفوا إلى نساء طاهرات وجسورات دافعن عن أوطانهن وظللن مع ذلك وفيات لأزواجهن فإن القدر قد وضع في طريقهم كثيرا من اللواتي يؤثرن إشباع شهواتهن وخيلائهن على حساب الشرف الذي لا يبالين به، وعلى حساب الوطنية التي يمقتنها.

لطالما رغب الرومان في احتلال جرمانيا وذلك عبر تأليب النساء على الخيانة والزنى ولا يعدمهم لإنجاز ذلك القوادون الماهرون ولا الدساسون الماكرون المتمرسون على تطويع النساء. ولكن بأية طريقة سيزعزعون كبرياء الجرمانيات المقدامات ؟ وعبر أية فرجة سيهتكون ستر حياتهنّ الزوجية الخاصة؟ هل سيطمعونهن بفاخر الثياب ؟ ولكنّ الجرمانية لا تلبس سوى نوع من اللباس الحربي Sagum وفستاناً من الكتان ذي حاشية حمراء، أما ساقاها فمكشوفتان ويداها عاريتان لا أساور فيهما، وإن أبسط تبديل لثيابها القومية البسيطة يجعلها أضحوكة أهلها.

هل سيسعون إلى إفساد شابة عبر إهدائها كنوزا ثمينة حتى تطمع في الزواج من أمير؟ وماذا ستفعل بكل تلك الثروة ؟ فمهرها لا ينبغي أن يكون غير جياد وزوج من الثيران وسلاح. ثمّ إنها لمّا تتزوج تنحصر ثروتها في إنجاب زُرافة من الأبناء يكونون موفوري الصحة، في طفولتهم، وذوي شجاعة وبأس عندما يصيرون قادرين على حمل السلاح. إنّ العوز مهما كان قاسيا لا يمكنه أن يعكر صفو حبّها لأبنائها، لا سيّما إن عادة وأد الأطفال التي شاعت في روما منذ أن تكاثرت ثرواتها كانت مجهولة في غابات جرمانيا الفقيرة[2].

وإضافة إلى ذلك فإن الغاوي لا تتاح له فرصة دخول منزل الجرماني في غيابه لغواية زوجته أو اغتصاب ابنته، وذلك أن النساء لا يوجدن أبدا لوحدهن، فقد كن دوما بصحبة

(1) أباطرة وقوّاد رومان.(المترجم)

(2) - Tacite, *De Moribus*, I, XIX

آبائهن أو أزواجهن في كل الحملات الحربية، وإذا ما آل الأمر بإحداهن إلى أن تنفر من عائلتها أو زوجها وتفكر في هجرهم خفية فيلزمها جرأة غير معهودة حتى تواجه عواقب تلك الخطيئة... فعندما تفتن برجل، وإن كان جرمانيا، تكون بذلك قد فقدت شرفها وإن كانت عزباء. ولن تظفر بزوج مهما عظمت ثروتها وأيّا كان حاميها. وإذا ما زنت المرأة بعد زواجها فإن زوجها يعرضها لهزء الجمهور بأن يحلق شعر رأسها ويلقى بها في أزقة المدينة عارية وهناك يتناوب عليها القوم بالضرب ويلطخونها بالطين. إن ذلك العقاب الذي يحظى بموافقة القوم كلهم يعدّ من الموانع الجدّية لحدوث خلافات زوجية. إن جاذبية المجوهرات والرغبة في التغيير عاجزان عن التصدي لمثل ذلك الشنار فتقلّب القلب والغنج هي مجرّد أهواء عابرة لا تدفع المرأة إلى التنكر لواجباتها إلا لدى الشعوب التي أضحت فيها الخيانة نوعا من الشطارة، ينظر إليها بكثير من التقدير، وزلة يغفرها أكثر المتشددين تطرفا، ولكن عندما ترفض الأمة بأسرها الخيانة وعندما يوصد الناس أبوابهم في وجوه المذنبين ويشنعّون بهم فإن المرأة عندئذ تود كثيرا أن تكون صورتها ناصعة لدى الجمهور وأن تظل دوما مبجلة ومحبوبة لا أن تكون تافهة ومعرضة للاستهزاء.

ولكن يمكن للبعض أن يعترض بالقول إن المرأة الجرمانية لا تقل ذكاء عن المرأة الرومانية فهي في النهاية امرأة ومن ثم يمكنها أن تحوط مغامراتها الغرامية بالسرية والكتمان فتوقع زوجها المنغّص في كيدها وتتخلص منه بتسميمه. وعندها يخلو لها الجو مع عشيقها زوج المستقبل. ولكن هيهات إن القانون الجرماني قد توقع الأمر فقضى على الزانية بألاّ تبلغ آمالها إذ حرم الزواج ثانية على أساس أنه الدافع الأساسي للقتل. لقد سعى ذلك القانون إلى أن يلزم الفتاة عندما تتزوج «بأن يكون حبّها كلّه لزوجها كما لو كان الأول والأخير في حياتها»[1].

وإحقاقا للحق فإن المرأة عندما تتزوج تجد فرصا قوية للسعادة والتبجيل فلا تشاركها في زوجها أية محظية: فقد روى تاسيتوس أنّ «الجرمانيين يكتفون بزوجة واحدة. وإذا ما

(1) - Tacite, *De moribus*, ch. XIX

حاد بعض النبلاء، وهم قلة، عن العادات القومية فإن ما يدفعهم إلى ذلك ليس الهوى وإنما هم يفعلونه مجاملة لبعض العائلات المتنفّذة الراغبة في التحالف معهم».

يبدو إذن أن الفرق بين المرأة في بلاد الغال والمرأة الجرمانية يكاد يكون معدوما. ومن ثم يمكننا، انطلاقا من وجهة النظر الأخلاقية التي نعتمدها، أن نعيد كل شعوب أوروبا الغربية إلى أصل واحد وتسمية واحدة: الشعوب الغالية– الجرمانية؛ فللمرأة حصة الأسد في كل مكان يشهد حربا، أي في الميدان الواسع الممتد من نهر أبرة Ebre في شمال إسبانيا إلى نهر الدانوب، ومن جبال الآلب إلى بحر البلطيق، إذ تبرز مساوية للرجل في كل شيء، عشيقا وزوجا.

تلك السجيّة التي تتميز بها المرأة الغالية – الجرمانية، التي كانت تشتغل بالتناوب قاضية كبيرة ورفيقة للمحاربين، وساحرة وكاهنة، لم يفتّ فيها مرّ السنين. بل على العكس من ذلك ما تفتأ تعظم بتعاظم آلام القوم. ولقد أخذت تلك السجية رونقا جديدا فتجسدت في نهاية عهد الإمبراطورية الغالية أي نحو سنة سبعين للميلاد، في رمزين رائعين هما إيبونين Eponine وفاليدا Velléda.

تشبه فاليدا في الآن نفسه دبورة اليهودية وكاليبسو Calypso[1] الإغريقية. لقد كانت نموذج الكاهنة القومية التي تصل الوطن الأرضي بالوطن السماوي، إذ كانت لها صلة بالدين من جهة اطلاعها على الأسرار الدرويدية، وبالسياسة من جهة علاقتها بسيفيلويس Civilis الذي كان يستشيرها في أموره استشارة نوما Numa. لإيجيري[2] Egérie.

ولما كان عرشها مُقاماً في العالم ما فوق الأرضي فقد علمت الغيب فبشّرت الغاليين بانتصارهم ونعتْ إلى الرومان هزيمتهم. وبالفعل انتصر الغاليون وتشتت شمل الرومان. ولقد كان سيفيلوس وفاليدا يتكاملان منذ الأزل، الأول قائدا للمحاربين والثانية لسان

---

(1) هي، في الأسطورة الإغريقية، ابنة الإله أطلس وقد عشقت أوليس وحبسته في مغارة سعيا منها إلى أن تنسيه بلاده وزوجته.(المترجم)

(2) يتعلق الأمر بالامبراطور الروماني نوما بومبيليوس (715–673 ق. م) الذي ادعى أن تنظيمه للمؤسسات الدينية الرومانية هو من وحي الآلهة إيجيري.(المترجم)

حال الآلهة، وقد شكّلا بذلك ما يشبه المملكة العجيبة التي كانت تهدد بضمّ بلاد الغال وجرمانيا تحت لواء إمبراطورية عسكرية وكهنوتية كفيلة بتحطيم القوة الرومانية.

كانت فاليدا زاهدة في الظهور على الملأ، ولكي يعظم احترام الشعوب لها كانت تتخفّى عن الأنظار في قمة قلعة ولا تتواصل مع أولئك الذين يترددون عليها إلا بواسطة أحد أفراد عائلتها. لم تكن حالة شاذة ضمن عائلة الساحرات بل هي أكثرها شهرة، ولم تسبقها إلى ذلك سوى Aurinia ولم تليها سوى قانا Ganna زمن الامبراطور دوميتيان Domitien.

ولكن هل كانت سيرة فاليدا التي كتبها المؤرخ تاسيتوس سيرة مكتملة ؟ لا نعتقد ذلك، لأنه تغافل أوغفل عن الجانب الأكثر شاعرية في تلك الشخصية الكبيرة... فلم يعر اهتماما للجانب العاطفي في شخصيتها. ولقد تكفل شاتوبريان[1] Chateaubriand –وقد كان أكثر منه اطلاعاً بالموضوع، بسدّ تلك الثغرة فقدمها لنا عاشقة، غزيرة العاطفة، جياشة، رابطة الجأش، وفي كلمة قدمها لنا في صورة المرأة الجرمانية الحقّ مما دفع تاسيتوس نفسه إلى تصديق تلك الصورة الخيالية فقبلها على أنها الحقيقة.

وبفضل ذلك الحبّ لم تكتمل صورة الراهبة في حدّ ذاتها بل اكتملت معها صورة الحب الغالي– الجرماني. ذلك أنّ كل عاطفة لها هدف نهائي تسعى له فيرفعها إلى ما فوق الطبيعة ويحلّق بها عاليا في ركن من السماء. لقد بدأ تحرّر الحبّ اليوناني بحبّ امرأة ساحرة لأوليس Ulysse. ومن جهة أخرى أسبغت الكاهنات الغاليات في جزيرة سينا Sena وأولئك المتنبئات (*Fatidicoe*، و *Fatoe* أو *Fadoe*) كما يسمّيهنّ الرومان، على عواطف بنات قومهنّ القوية والغزيرة شعاعا روحيا وغامضا رفعهن درجة وبه شرفن فقد كان نورا سماويا. وستعمل خليفاتهنّ، ساحرات العصر الوسيط، على لعب ذلك الدور فلوّن مشاعر أسلافنا الصافية ذات المنحى الفروسي بشيء من الأحلام والأوهام

---

(1) أديب وسياسي فرنسي ولد سنة 1768 وتوفي سنة 1848. وقد «ترجم «لفاليدا» في كتابه «الشهداء» les Martyrs (شهداء المسيحية) الصادر سنة 1809. لمزيد التفاصيل راجع:

Encyclopédie Universalis ,2004 (version électronique , article Chateaubriand) (المترجم).

أعطت للحب سلطانا إضافيا. وغذته بآمال سحرية وبسعادة حالمة. وهكذا برزت فاليدا نموذج الكاهنة الغالية لتكوّن الصورة التي بها اكتملت تشكيلة البطلات الغاليات– الجرمانيات. كنا قد بينا سابقا أن غير الغاليات الجرمانيات كنّ يحببن بكل حرية سواء أكُنّ عازبات بصدد اختيار أزواج المستقبل بكل حرية أم زوجات محاربين أم قاضيات يفصلن في دعاوى الرجال. وعلى العكس من ذلك فإن الكاهنة تحبّ إيحاء وإلهاما لأنها امرأة مقضي عليها بالتبتّل بحكم القوانين وهي نفسها مدفوعة إلى الحبّ بقوة عليا. ولقد فهم شاتوبريان كلّ الفهم غضب بطلته فهو لم يجعل الآخرين يحبّونها باعتبارها شابة قصرت عن أن تكون عفيفة، بل باعتبارها كاهنة تضحي بعهودها وبالإله ذاته في سبيل الحب. إن العفّة في المجتمع يمكنها، اعتمادا على قواها الذاتية، أن تصمد بعض الوقت في وجه الإغراءات ذلك أن العيش على أمل حب شرعي قريب المنال، من شأنه أن يثلج الفؤاد الصبور، فالاستسلام للحب يحصل دائما قبل نفاد كل أسباب المقاومة.

وعلى خلاف ذلك فإنّ مقاومة الكاهنة للإغراءات هي بالتأكيد أطول، والمعركة معها أكثر ضراوة. فلكم تتعذب بداخلها قبل أن تقطع حبل الوصال مع الإله، وقبل أن تتحدى عنايته التي تحيط بكل شيء، وغضبه الذي لا يرحم. ولكي يتخلص الحب من هموم النفس تلك عليه أن يقوى درجة فذة هي أقوى عشر مرات من تلك التي يحتاجها لترويض فتاة سهلة المنال. إنّ هوى الكاهنة المكبوت لسنوات طويلة لا يفيض إلا في آخر لحظة بعد أن يستنفد كل صبره.

وقبل أن تنهار أمام هيجان الأحاسيس وخفقان القلب كان عليها أن تعيش فترة هذيان وجنون تنسى فيها أن الإله موجود وأنه هو الذي يرسل الصواعق وأن عباده المؤمنين مستعدون لقتل الكاهنات الكافرات، لقد كان يسري في داخلها ما يشبه قصف الزوابع والعواصف فيصيبها العمى والضلال فتضحّي بحياتها في سبيل لذة عابرة وفي سبيل إشباع فضولها.

إن مثل ذلك الصراع بين الطبيعة البشرية والقوانين المتشددة، وانحسار الإيمان ذاك في

مسائل الحب، هما من الأهمية بحيث لا يمكننا التغاضي عن الإشارة إلى وجودهما لدى الغاليين سيما في اللحظة التي ستظهر فيها المسيحية وتتغلغل في بلاد الغال.

لم يكتف كلّ من إيبونين وسابينوس Sabinus معاصري فاليدا وسيفيلوس بمقاتلة الرومان ببسالة وإنما استوعبا كل ما أمكن أن يظهره الحب من وفاء في تقاليد القدماء. فقد عمد سابينوس بعد أن اختفى في الغابات والكهوف هربا من انتقام الرومان، إلى عبدين أعتقهما ليذيعا بين الناس خبر موته. انطلت روايتهما على إيبونين فأصابها شديد الألم فكانت تتمرغ على الأرض وتنتحب وتقطّع شعرها. ثم إنها صامت ثلاثة أيام عن الأكل، كما ذكر المؤرخ بلوطارق. لقد أشرفت على الهلاك جوعا لو لم يطمئنها سابينوس بعد أن بلغه خبر يأسها بأنه ما زال على قيد الحياة... ولكنه رجاها أن لا تُظهر على الملأ مشاعر الفرح بل بأن تزيد من علامات الألم حتى يصدّق الغاليون والرومان خبر موته. إنه لمن اليسير فهم الوضعية الغريبة لإيبونين ولكن التعبير عنها عسير بمثل عسر التعبير عن المفارقة الناتجة عن ذلك الجمع بين تباكيها على سابينوس وفرحتها الحقيقية المكبوتة. لقد أحسنت لعب دورها في «كوميديا الألم، ألمها لموت المنفي سابينوس».

لم يقو كتمانها ذاك على مجابهة لهيب مشاعر الحب، لقد كانت تغمرها رغبة في لقائه فلحقت به ليلا في مخبئه ثم عادت قبل طلوع الشمس... ولمّا كان اللقاء الأول حميميا لم يكن بإمكانها أن لا تعاود رؤيته مثنى وثلاثا ورباعا... لقد شجعها اللقاء الأول وجرّأها على أن تقيم معه في كهفه. وبعد سبعة أشهر قضياها بين الخوف والسعادة عزمت على الذهاب إلى الامبراطور وسبازيانوس Vespasien طالبة عفوه، وهو الذي اشتهر بحلمه، فتوجهت إلى روما مصحوبة بسابينوس وقد تنكر في هيئة عبد، ولكن سعيها خاب فعادت معه إلى بلاد الغال واختفيا في مخبإ جديد ثم طواهما النسيان لمدة تسع سنوات. وأثناء تلك المدة التي عاشاها متنقلين بين الكهوف أنجبت طفلتين أرضعتهما كما ترضع اللبوءة شبليها في عرينها.

وأخيرا اكتشف أمر المنفيين وحملا مقيّدين إلى روما وهناك ارتمت إيبونين تحت أقدام

وسبازيانوس وقالت له، وهي تشير إلى طفليها: «أيها القيصر، لقد أنجبتهما وأطعمتهما في الكهوف حتى أضاعف من عدد المتضرعين تحت أقدامك يطلبون عفوك»، فما كان من الحضور إلا أن أجهشوا بالبكاء تأثرا. ولكنه ظل على قساوته فأمر بتعذيب سابينوس. ولكن ألم التعذيب، على شدته، لم ينل منها. لقد بدا ضياع آخر فرصة أمل وكأنه يزيدها شجاعة. عندئذ صاحت في وجهه: «اجعلني على الأقل أموت مع سابينوس فوجهك وقوانينك الجائرة أكثر فظاعة ألف مرة من ظلمات القبر».

يمكننا اعتبار وفاء إيبونين أرقى تعبير عن الحبّ في بلاد الغال، لقد جمع حبّها بين الرقة والجموح وبين الإقدام والوفاء. وصفو القول، لقد كان أكملَ حبٍّ عرفه التاريخ. إنه أكبر من حب أرتميز[1] Artémise وكثير من العاشقين؛ فحبّهم نما صامتا وآمنا في حين نما حب إيبونين في جو من الصراع وقوي بفعل الألم. ولكم هي هانئة الشعوب التي عرفت مثل تلك الأمجاد إن عليها أن تحفظها، وأن تكون فيها للآخرين أسوة.

وحتى في عصر انهيار بلاد الغال، وعندما خضع الجميع لروما، استعاد الغاليون حماسة الفخر الوطني، تلك التي انبجست في قلوب النساء. ومن منا لا يذكر فكتوريا العظيمة المسماة أم **المعسكرات** *Mere des camps* (نهاية القرن الثالث للميلاد) التي كانت تتجمل بالأوسمة مثل ديانا السماوية وتضع مشعلا على جبينها أو تلبس ثوب صياد. لقد كانت نموذجا للمرأة التي تجمع بين الكهانة والملوكية. وإنها بمثابة فاليدا وقد خرجت لتوّها من قلعتها التي احتمت بها لتتبختر بين صفوف الجند تثير إعجابهم. لقد أرادوا تنصيبها إمبراطورة ومهدوا للأمر بضرب سكة كتب عليها: **الإمبراطورة فكتوريا**، ولكنها رفضت ذلك المنصب ولم تتمتع حتى بامتيازاته، لأنها، وبحكم مسؤوليتها، عن مصائر بلاد الغال، كانت تنصّب القياصرة وتعزلهم. ولكن أيّة طينة من الرجال نصّبتهم أباطرة ؟ زرّادون مثل ماريوس *Marius*؟ صحيح أنه سقط عن عرشه في لمح البصر، ولكن تيتريكوس Tetricus كان أكثر جدية. لقد نهضت بفضله الإمبراطورية الغالية من كبوتها، ثم إنه سبب لروما

---

(1) هي آلهة الصيد لدى الإغريق وتسمى لدى الرومان ديانا. (المترجم)

متاعب شديدة.

لم تكن النساء في مقاطعة بريطانيا الفرنسية، زمن توحّشها، يكتفين بتعيين الأباطرة أو بمصاحبة الجيوش في الحرب بل كنّ يقدنها[1]. واحدة من بين ملكات المقاطعة اسمها كلرتيزمانديا Cartismandua، ولا جناح من قول الحقيقة، قد وظفت سلطانها لهزيمة بلادها وتسليمها للرومان. لقد كانت فاجرة مثل سميراميس[2] Sémiramis فاغترّت بالثناء وتخلت عن زوجها فينوس Vénuse لتسلم عرشها وامتيازاته إلى مروّض الجياد فلّوكات Vellocat. فما كان من سكان مقاطعة بريطانيا إلاّ أن انتفضوا بقيادة فينوس مدينين الآلهة الزناة، وحتى الرومان الذين سارعوا إلى نجدة حليفتهم لم يستطيعوا منع انتصار فينوس وانتقامه.

ولكن كارتيزمانديا المخلوعة عن عرشها لم يعد لها من عزاء سوى أن ترى الرومان يحطمون معابد الدرويديين ويغتصبون الكاهنات. إلاّ أنّ بوديسيا Baudicea الذي تزعّم البروتون لم يتوان عن معاقبة الرومان على فظاعاتهم وكارتيزمانديا على خيانتها.

وهكذا أضافت بلاد الغال وجرمانيا إلى الحضارة الناشئة في الغرب عنصرا لا ينبغي إغفاله في هذه الدراسة. هذا العنصر المضاف هو حرية المرأة وكرامتها ومساواتها بالرجل، وكل الفضائل مثل الحيوية والشجاعة والعفّة إلى حد ما، التي ميزت الأمازونيات وكذا امرأة التوراة القوية.

لنكتفي مؤقتا بهذه النقاط الرئيسية: إن الجرمانيين هم أسلافنا ومنهم انحدر الإفرنج وكذلك الغاليون، ومن جبلّة هذين الشعبين ظهرت للوجود الأمة التي تتزعم أوروبا.

(1) قال المؤرخ تاسيتوس لقد اعتاد البروتون أن يحاربوا تحت إمرة النساء، فهم لا يأبهون ابدأ بجنس من يقودهم. (*Annal*, t.XIV)

(2) **سميراميس** هي ملكة آشورية (800 ق.م). واسمها **سيمورامات** ومعناه الحمامة أمها ربة السمك ديركتو وقد هجرتها في الصحراء عند مولدها فأطعمتها الحمائم، ولما صارت ابنة عام واحد وجدها راع اسمه أميس عند محل صخري فتبناها. كانت ذات جمال فتان وأطلق عليها اسم سميراميس. وقدمها لمستشار الملك أنيس وتزوجها. أعجب بها الملك نينوس بعد فترة من حصار بكترا حيث أثبتت جدارتها في فتح الحصن فقرر الزواج منها بعد أن أجبر أنيس على الانتحار.(المترجم)

لقد اتهم تاسيتوس وكذا المؤرخون الفلاسفة بالمغالاة في تعظيم صفاء الأخلاق الجرمانية حتّى يبرزوا بكل ما أوتوا من مضاء فساد الرومان، لقد كانت هذه التهمة خطأ تصدى له التاريخ بأسره.

تنقسم الأمم في كل العصور إلى قسمين كبيرين، سياسيا وأخلاقيا: فنجد من جهة الشعوب الفاسدة المستسلمة للدعارة والإسراف، هذه الشعوب هي الشعوب المهزومة.

ونجد من جهة أخرى أنّ الشعوب القوية هي التي تؤسس مجدها على صفاء الحب وعلى الشجاعة وعلى الإخلاص والصبر، هذه الشعوب هي التي تزدهر وتنتصر.

إلاّ أنّ العالم الروماني انهار عن طريق غزو البرابرة تاركا مكانه للعالم الجرماني. ومن ثم حاز الغاليون- الجرمانيون أخلاق الشعوب الفتية، وأما الرومان فكانوا يعانون من مساوئ الشعوب المنهكة. ولا ينبغي لنا أن نسأم من تكرار هذا القول فلربّما نحن نعيش في زمن نحتاج فيه إلى إعادة تحيين تلك الحقائق في الذاكرة.

ومن المؤكد أنه كلما كانت المرأة محبوبة ومحترمة باعتبارها رمزا للشرف ولكرامة الأسرة اكتسب الرجل الشجاعة والفخر والاستقلال الفكري. وبمثل هذا تتأسس الأمم العظيمة. وكلما كانت المرأة بمثابة أداة زينة نتباهى بها، ولعبة نبيعها ونشتريها، وأداة للشهرة والنجاح كانت الدعارة سبيلا إلى الاستبداد وسيادة الغرائز المرتكسة، وممهدة لبلادة المشاعر.

ولكن وجود المرأة القوية لا يكفي لمواجهة ضرورات الحضارة الجديدة، فتربية أطفال أشداء، والقتال حتى الموت مع الزوج، لم يعودا كافيين لتحديد مصائر المرأة، فهناك عنصر جديد لا يقل أهمية ينبغي أن ينضاف إلى الكبرياء الجرماني حتى يعاضد المرأة في سعيها المتواصل إلى تحقيق أهداف الوجود، ذلك العنصر الجديد هو المحبة. ولمّا كان العالم القديم يجهله فقد نزل به الوحي في الشرق. وسيعمل المسيحيون على نشره على وجه البسيطة.

وهكذا أفضى بنا الأمر إلى العودة نحو منبع تلك الفضيلة الاجتماعية الكبيرة، ومن ثمّ النظر في الإنجيل.

3
الحب في الإنجيل

ينبغي فعل الكثير حتى نجدد النظر في موضوع الحب في الإنجيل. لقد كتبت آلاف الصفحات حول هذا الموضوع ولكن بوجهات نظر متناقضة كل التناقض ومتحيّزة كلّ التحيز فوجب إذا إعادة النظر فيه حتى تنجلي الحقيقة.

لا أحد بإمكانه إنكار وجود حالة وسطى بين زهد بعض الرجال ومغالاة البعض الآخر في اللذائذ الحسية، ولذا فإن هذه الحالة الوسطية هي التي نروم إبرازها.

وبتجنبنا العقبتين المذكورتين نكون سائرين في درب الحياة الحقيقية ودرب الحكمة العملية نائين بأنفسنا عن أصحاب النزعات الغالية.

لقد عرفت يهودا Judée، قبل بروز إيبونين وفاليدا بثلاثين سنة، بطلة فريدة من نوعها، تلك البطلة لم تحمل أبدا السلاح ومن ثم لم تُرِق دمَ أحد. إنها لم تثنِ أبدا المحاربين الفارين عن فرارهم، ولم تُزهق أرواح الأطفال لتجنّبهم الرق. لم تكن امرأةً من نساء ذلك المجتمع المتوحش القاسي. وفي كلمة كانت سليلة مجتمع متحضر جدا. ولمّا كانت قد وُهبت طبعا على غاية من الاستقلالية فقد أرخت العنان لكل رغباتها غير آبهة بلوم معاصريها أو مدحهم. تلك البطلة اسمها مريم المجدلية Marie Madeleine.

من منا لا يعرف قصّتها في تلك الحكاية الإنجيلية المفعمة بالأسرار والمفاجآت. إنّ قصّتها تبدو ماجنة بالنسبة إلى الذين يقفون على الأحداث دون الأخذ بعين الاعتبار ظروفها. في حين تبدو للذين يسبرون أغوارها غنية بالعبر. لذا ينبغي لنا الوقوف عند الأمر.

إن العلاقات بين الجنسين ذات أهمية قصوى في مسيرة الإنسانية، لذلك لم يأت المسيح بحلول نهائية لهذا الموضوع العويص. فتعاليمه حول هذا الموضوع كانت على غاية من البساطة ووضوح العبارة، وموعظته الشهيرة على الجبل جلت تعاليمه بكل وضوح.

وإننا لنتساءل: كيف أمكن لأولئك الشراح الخائبين أن يشرحوا تعاليمه مزيّفين الطبيعة والمعنى:

«وسمعتم أنه قيل للأقدمين: لا تزنِ ولكنني أقول لكم: كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها فقد زنى بها في قلبه»[1].

معنى ذلك، في عرفهم، أنه لا يكفي أن نمتنع عن سرقة متاع غيرنا بل الأسوأ من ذلك أن نرغب فيه.

«وقيل أيضا: من طلق زوجته فليعطها وثيقة الطلاق»[2].

«أما أنا فأقول لكم: كل من طلق زوجته لغير علة الزنى، فهو يجعلها ترتكب الزنى، ومن تزوج بمطلقة فهو يرتكب الزنى»[3].

«وتقدم إليه بعض الفاريسيين Pharisiens يجربونه فسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق زوجته لأي سبب ؟ فأجابهم قائلا: ألم تقرؤوا أن الخالق جعل الإنسان منذ البدء ذكرا وأنثى. وقال: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتحد بزوجته، فيصير الاثنان جسدا واحدا، فليس في ما بعد اثنان بل جسد واحد فلا يفرّقن الإنسان ما قد قرنه الله»[4].

«فقال له تلاميذه: إن كانت هذه حال الزوج مع الزوجة فعدم الزواج أفضل؟ فأجابهم: هذا الكلام لا يقبله الجميع، بل الذين أنعم عليهم بذلك، فإن بعض الخصيان يولدون من بطون أمهاتهم خصيانا؛ وبعضهم قد خصاهم الناس ؛ وغيرهم قد خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماء»[5].

لنوضح الأمر: لا يجب على الرجل أن يتزوج سوى امرأة واحدة، والمرأة سوى رجل واحد. فيظلان متحدين إلى الأبد. قال القدّيس بولس Saint Paul مطورا شريعة المسيح:

(1) إنجيل متى 5: 27–29

(2) إنجيل متى 5: 31

(3) إنجيل متى 5: 32

(4) إنجيل متّى 19: 3–6

(5) إنجيل متى 19: 10–12

«ليكن لكل رجل زوجته ولكل امرأة زوجها، وليوف الزوج زوجته حقها الواجب وكذلك الزوجة حق زوجها»[1].

«فلا سلطة للمرأة على جسدها بل لزوجها، وكذلك أيضا لا سلطة للزوج على جسده بل لزوجته»[2].

إنها تعاليم مشهورة مقارنة بالزمن الذي قيلت فيه فلا يمكن للرجل أن يضطهد المرأة مستقبلا كما كان الأمر في الماضي، إنه لن يستعبدها فقد أضحى الزواج عقدا بين كائنين متساويين يملك بموجبه أحدهما الآخر ويتعاونان لإنجاب الذرية.

هذه المساواة بين الرجل والمرأة لا تمنع كون الرجل يفضل المرأة في العائلة فقد قال القديس بولس: «فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل. والرجل لم يوجد لأجل المرأة بل المرأة وجدت لأجل الرجل.غير أنه في الرب، ليست المرأة من دون الرجل ولا الرجل من دون المرأة، فكما أن المرأة أخذت من الرجل، فإن الرجل يكتمل بالمرأة، وإنما كل شيء من الله»[3].

«أيتها الزوجات اخضعن لأزواجكن كما للرب فإن الزوج هو رأس الزوجة، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة (جسده). وهو نفسه مخلص الجسد.أيها الأزواج أحبّوا زوجاتكم مثلما أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لأجلها»[4].

وصفوة القول إن هذه الحقوق والواجبات المعترف بها من كلا الجانبين، لا تنطوي أبدا عل محاباة للرجل اللهم إلا نادرا. ونخلص في النهاية إلى ما يلي:

«أما أنتم أيضا، كلّ بمفرده، ليحب كل واحد منكم زوجته كنفسه، وأما الزوجة، فعليها أن تهاب زوجها».[5]

(1) رسالة بولس الأولى إلى مؤمني كورنثيوس 7: 2—3.

(2) رسالة بولس الأولى إلى مؤمني كورنثيوس 7: 4—5.

(3) نفسه.

(4) الرسالة إلى مؤمني أفسس 5: 22 —24.

(5) الرسالة إلى مؤمني أفسس 5: 33.

إنّ اتحاد شطري هذا الجسد الواحد هو من الكمال بحيث لا يكسره اختلاف ديني الرجل والمرأة، إن الايمان لا يقوى على مواجهة ناموس الطبيعة:

«إذا كان لأخ زوجة غير مؤمنة وترتضي أن تساكنه فلا يتركها، وإن كان لامرأة زوج غير مؤمن ويرتضي أن يساكنها فلا تتركه. ذلك لأن الزوج غير المؤمن قد تقدس في زوجته والزوجة غير المؤمنة قد تقدست في زوجها، وإلا كان الأولاد في مثل هذا الزواج نجسين والحال أنهم مقدسون...فكيف تعلمين أيتها الزوجة ما إذا كان زوجك سيخلص على يدك؟ أو كيف تعلم أيها الزوج ما إذ كانت زوجتك ستخلص على يدك»[1]؟

كم سار الأنبياء في طريق الرحمة والمحبة... ولقد لعنوا بني إسرائيل لأنهم تزوجوا من الغربيات وتحديدا من بنات مواب[2] Moab. لقد أضحت المرأة الآن حرة. والزواج لا يكرس استبداد أحد الزوجين وإنما هو اتحاد قلبين متساويين. إن المسيحيين يثقون ثقة عمياء في الحبّ، فهم يعتقدون أن الكافر لا يمكنه مقاومة الكلام المعسول والنظرات الرقيقة وكذا حميميّة فراش الزوجية. وسيكون لهذا الاعتقاد أبعاد أكبر إذ ستصبح المرأة الأداة الأساسية لتنصير الناس.

إن إعلان الزواج الأحادي وأبدية الرابطة الزوجية كان أكثر من مجرد تقديس للزواج. لقد كان أجلى تعظيم للحب أوحى به الإله.

(1) في الرسالة التي بعث بها القديس جيروم Saint Jérôme الى لئيتا *loeta* فصّل فيها فكر القديس بولس ببيان مؤثر: «إن المنزل الطاهر المؤمن يطهّر الرجل غير المؤمن فهو مدعو وموعود بالايمان. وإنّ ذاك الرجل محاط في منزله بالجماعة المؤمنة المكونة من أبنائه وأحفاده. وأنا على يقين بأن جوبيتارJupiter ذاته كان سيؤمن بالمسيح لو كان محاطا بعائلة مماثلة. إنك قد لا تأخذين هذه الكلمات مأخذ الجدّ... ومع ذلك أؤكد لك أنّ الناس لا يولدون مسيحيين بل يصبحون كذلك.

(funt, non nascuntur christiani)

فإذا لم يكن التعقل هو الذي يدفع الإنسان إلى ذلك فلا أقل من أن يدفعه الحياء البشري أو الخجل... إنّ من واجبي أن أقول لك ذلك أيتها التقية لئيتا ابنتي في المسيح، حتى لا تيأسي من خلاص والدك، وحتى يكون هذا الايمان ذاته الذي يصنع عزّتك هو مخلّصك ومخلّص ابنتك وأبيك، علما بأن ما يعجز عنه الإنسان يقدر عليه الإله» (*Lettre* VII).

(2) هي مملكة قديمة ذكرت في الإنجيل وتقع على الضفة الشرقية لنهر الأردن. لمزيد التفاصيل راجع «**العهد القديم**»، سفر «الأعداد» (المترجم)

غير أن الزواج الأحادي وما يقتضيه من وفاء وإخلاص وتعاون على مصاعب الحياة لا يكون ممكنا إلا بشرط أن يتعارف الزوجان تعارفا تاما، وأن يتحدا قلبا وجسدا، وأن تكون لهما نفس الرغبات والشهوات. إن المسيح، وهو يرنو إلى هذا المآل، قد أدان مسبقا زعم الزهاد بأن الزواج ليس سوى تضحية في سبيل الإله، وأن الأزواج لا ينبغي لهم أن يجمعوا بين اللذة والأبوّة في الآن ذاته. ولكن عليهم، على العكس من ذلك، أن لا يتلامسوا إلا وقد غطوا أجسادهم بمسوح وأدّوا أقدس الواجبات الدينية بعد أن يكونوا قد تشفّعوا إلى الإله بالصوم.

لقد حرم المسيح كذلك عادات الحضارة القديمة ومنها تعدد الزوجات باعتباره غلوّاً يؤدي إلى التخمة ويدنس الكائن الذي وجب احترامه، كما حرم أن يكون الحرص بما هو سعي إلى المال والطموح، دافعا إلى الزواج لأنّ من شأن ذلك أن يميت القلب ويفضي إلى الزنى ويجعل الآباء مستبدّين فيزوّجون أبناءهم الشبّان دون أن يأخذوا بعين الاعتبار رغباتهم. ويفضي أخيرا إلى الاستبداد العائلي البعيد كل البعد عن مشاعر الودّ والرقة. وهكذا تمتّع الزوجان،، في ظلّ الشريعة الجديدة، بحرية الحب قبل الزواج وبالمساواة بعده.

لا تختلف هذه العقيدة كثيرا عن تلك التي كان الغاليون– الجرمانيون يمارسونها فعلا. لقد اكتشف أولئك البرابرة منذ الوهلة الأولى، وبمجرد الاستناد إلى مفاهيم العلم الطبيعي وإلى العقل السليم، الشريعة الحقيقية للحب، وهي الشريعة التي كان على المسيح أن ينشرها لأوّل مرّة في الشرق الفاسد.

لقد تحدث المسيح في هذا الشأن تماما مثلما فعلت إيبونين أو جنود أرمينوس Arminius.

هذا الانحراف بالحرية والمساواة في الزواج عن مسارهما يفضي بنا إلى الحديث عن قصة مريم المجدلية وبعض نساء الإنجيل الأخريات.

فكيف نفسر أن المسيح لم يسحق أولئك الذين اجتمع بهم وكانوا أكثر المنكرين لهذا

القانون اللطيف، قانون الاتحاد في المحبة، بل، بالعكس، منحهم عفوه الرقيق؟ وكيف نفسّر أنه تجاذب أطراف الحديث قرب بئر يعقوب مع السامرية، ومع المرأة ذات الأزواج الخمسة أو بالأحرى ذات العشاق الخمسة، دون أن يأتي على سيرتها بل بالعكس، شرب شاكرا الماء من قربتها(1)؟

وكيف نفسّر أنه خلّص المرأة الزانية من أيدي الذين كانوا يريدون رجمها، وخلّى سبيلها مكتفيا بدعوتها إلى أن لا تخطئ مستقبلا(2)؟

وكيف نفسّر أنه روى بكل أريحية قصة العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات(3)؟

(1) وجاءت امرأة سامرية إلى البئر لتأخذ ماء، فقال لها يسوع: «اسقيني» فإن تلاميذه كانوا قد ذهبوا إلى البلدة ليشتروا طعاما، فقالت له المرأة السامرية: «أنت يهودي وأنا سامرية، فكيف تطلب مني أن أسقيك ؟» فإن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أهل السامرة، فأجابها يسوع: «لو كنت تعرفين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك: اسقيني، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا» فقالت المرأة: «ولكن يا سيد، ليس معك دلو، والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحي ؟ هل أنت أعظم من أبينا يعقوب الذي أورثنا هذه البئر، وقد شرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟» فقال لها يسوع: «كل من يشرب من هذا الماء يعود فيعطش، ولكن الذي يشرب من الماء الذي أعطيه أنا، لن يعطش بعد ذلك أبدا، بل إن ما أعطيه من ماء يصبح في داخله نبعا يفيض فيعطي حياة أبدية» فقالت له المرأة: «يا سيد، أعطني هذا الماء فلا أعطش ولا أعود إلى هنا لآخذ ماء»

فقال لها: «اذهبي وادعي زوجك، وارجعي إلى هنا» فأجابت: «ليس لي زوج» فقال: صدقت إذ قلت: ليس لي زوج فقد كان لك خمسة أزواج، والذي تعيشين معه الآن ليس زوجك. هذا قلته بالصدق، فقالت له المرأة: يا سيد، أرى أنك نبي. (**إنجيل يوحنا**: 4: 7–19)

(2) وأحضر إليه معلمو الشريعة والفريسيون امرأة ضبطت تزني، وأوقفوها في الوسط، وقالوا له: «يا معلم، هذه المرأة ضبطت وهي تزني، وقد أوصانا موسى في شريعته بإعدام أمثالها رجما بالحجارة، فما قولك أنت ؟» سألوه ذلك لكي يحرجوه فيجدوا تهمة يحاكمونه بها، أما هو فانحنى وبدأ يكتب بإصبعه على الأرض ولكنهم ألحوا عليه بالسؤال، فاعتدل وقال لهم: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر» ثم انحنى وعاد يكتب على الأرض، فلما سمعوا هذا الكلام انسحبوا جميعا واحدا تلو الآخر، ابتداء من الشيوخ، وبقي يسوع وحده، والمرأة واقفة في مكانها، فاعتدل وقال لها: «أين هم أيتها المرأة ؟ ألم يحكم عليك أحد منهم؟» أجابت: «لا أحد يا سيد».فقال لها: «وأنا لا أحكم عليك، اذهبي ولا تعودي تخطئين «(**إنجيل يوحنّا** 8: 3–11)

(3) هذا المقطع من الإنجيل على غاية من المجون إذ يرحل بنا إلى غرف الحريم حيث تسود شهوة على غاية من الفجور. إنّ الأخلاق لم تتغيّر أبدا منذ عهد داود وسليمان، فكأنّنا نقرأ فصلا إضافيا من نشيد الأناشيد. فهؤلاء عشر عذارى هنّ جوارٍ يملكهنّ رجل واحد، ينتظرن الزوج، أي فارس الأحلام. إنهنّ صورة من إستير التي تستعدّ لقضاء ليلة حبّ مع احشويرش. فما الفرق يا ترى بين الجاهلات والحكيمات؟ لقد اعتادت الحكيمات أن يجهّزن مصابيحهنّ =

وأخيرا، كيف نفسّر أن مريم المجدلية، المرأة **العاهرة** التي أنكرها الفريسيون أنفسهم، لمّا وقفت أمامه فإنه لم يطردها بل أحاطها بطيبته وشجعها وجعلها في الحال من ضمن تلاميذه المبجلين[1]؟

كل ذلك يعني أن كل خطايا أولئك العذارى الجاهلات إنّما هي النتيجة الحتمية للمؤسسات القديمة وخصوصا لقانون الرق الذي يثقل كاهل المرأة ويمحق حرية اختيارها ويدفعها إلى الضياع.

إنّ المرأة التي تخلى عنها والدها، بل باعها للرجل الذي خطبها ليست لها القدرة ولا الوقت لاختيار من كان من المفروض أن تحبه، ومن كان من المفروض أن يحترمها، ومن كان من المفروض أن تقاسمه الحياة بحبّ. ثم إننا نتساءل ماذا كانت تفعل لدى اليهود

= بالزيت في حين نسيت الجاهلات فعل ذلك. إنّهنّ ينتظرن سيّدهنّ: «وإذا أبطأ العريس، نعسن جميعا ونمن. وفي منتصف الليل، دوى الهتاف، ها هو العريس آت ؛ فانطلقن لملاقاته فنهضت العذارى جميعا وجهّزن مصابيحهن وقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا بعض الزيت من عندكن، فإن مصابيحنا تنطفئ، فأجابت الحكيمات: ربما لا يكفي لنا ولكن فاذهبن بالأحرى إلى بائعي الزيت واشترين لكنّ. وبينما الجاهلات ذاهبات للشراء، وصل العريس، فدخلت المستعدات معه إلى قاعة العرس، وأغلق الباب، وبعد حين، رجعت العذارى الأخريات، وقلن: يا سيد، يا سيد، افتح لنا فأجاب العريس: الحق أقول لكن: إني لا أعرفكن فاسهروا إذن، لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة» (**إنجيل متّى** 25:1–13)

(1) – وكان في المدينة امرأة خاطئة، فما إن علمت أنه متكئ في بيت الفريسي، حتى جاءت تحمل قارورة عطر، ووقفت من ورائه عند قدميه باكية، وأخذت تبلّ قدميه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها، وتقبل قدميه بحرارة وتدهنهما بالعطر. فلما رأى الفريسيّ الذي دعاه ذلك، حدث نفسه قائلا: «لو كان هذا نبيا، لعلم من هي هذه المرأة التي تلمسه، وما حالها ؛ فإنها خاطئة» فرد عليه يسوع قائلا: «يا سمعان، عندي شيء أقوله لك». أجاب: «قل يا معلم» فقال: «كان لأحد المتعاملين بالدين، دين على اثنين: على أحدهما خمس مئة دينار، وعلى الآخر خمسون. ولكن إذ لم يكن عندهما ما يدفعانه وفاء للدين، سامحهما كليهما، فأيهما يكون أكثر حبا له ؟» فأجاب سمعان: «أظن الذي سامحه بالدين الأكبر» فقال له: «حكمت حكما صحيحا» ثم التفت إلى المرأة، وقال لسمعان: «أترى هذه المرأة ؟ إني دخلت بيتك ولم تقدم لي ماء لغسل قدمي أمّا هي، فقد غسلت قدمي بالدموع ومسحتهما بشعرها، أنت لم تقبلني قبلة واحدة أما هي، فمنذ دخولي لم تتوقف عن تقبيل قدمي، أنت لم تدهن رأسي بزيت أما هي، فقد دهنت قدمي بالعطر. لهذا السبب أقول لك: إن خطاياها الكثيرة قد غفرت، لهذا أحبّت كثيرا، ولكن الذي يغفر له القليل، يحب قليلا» ثم قال لها: «مغفورة لك خطاياك» فأخذ المتكئون يسائلون أنفسهم: «من هو هذا الذي يغفر الخطايا أيضا؟» وقال للمرأة: «إيمانك قد خلصك، اذهبي بسلام». (**إنجيل لوقا** 7:38–50)

وفي بلاد اليونان وأحيانا كثيرة في روما ؟ إنها لا تتأخر عن إبداء كرهها للزوج الذي ترتبط به دون سابق معرفة حالما تلتقيه، ففكرة الفجور تعشش في داخلها حتى قبيل أن تنغلق عليها أبواب الحريم.

إن الرجل الذي كان يصيبه السأم بفعل سهولة التسري، وكثرة المتع الحسّية يحتقر المرأة التي يتمتع بجسدها حتى التخمة دون أن يحبها، ومن ثمّ كان الجفاء التام أثناء الزواج بمثابة حرب نفسية بين أولئك الذين دعاهم الإله إلى أن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا.

إنه من رحم هذه الوضعية كما بينا ذلك سابقا ظهرت النساء المتحررات المسمّيات **المومسات الراقيات** *hetaires*[1]. لقد اشتهرن في يهودا وفي اليونان واكتسبن شهرة مضرجة بالدماء في روما. وعندما غفر المسيح للمرأة الزانية، لمريم المجدلية «لأنها أحبت كثيرا» فإنه كان يضع في اعتباره صرامة القوانين القديمة التي كانت تدفع المرأة الأبية إلى التمرد وتبث فيها رغبة في الاستقلال قد تتحوّل إلى تفسخ أخلاقي. لقد نظر المسيح في مجتمعه عن قرب ولكنه لم ينزعج من شروره. بل كان يقف مليا على الداء حتّى يجد له الدواء الناجع. لقد كان الحب الحقيقي أمرا نادر الوجود في العالم القديم الغارق حتّى أذنيه في فساد لا مثيل له، إننا نصادف في كل مكان شهوة لا حبا، دعارة لا حنانا.

لقد كان المسيح، وهو يتأمل كل شيء ببصيرة إلهاً يقدّر الأشياء حقّ قدرها ويشرّع مبادئ الحكمة الحقيقية دون إفراط ولا تفريط، لقد كان قنوعا ويحبّ بهدوء، إنه لا ينصح أبدا بإماتة الجسد بطريقة مبالغ فيها ولا بالصوم أو الزهد... ولمّا كان يعيش في عالم محروم من كل ضروب مشاعر الحب فقد كان يتطوع لحضور حفلات الأعراس. وعندما لا يجد الضيوف الخمر فقد كان يأتيهم متعمدا بمعجزات يشربون بفضلها الخمر. ولكنه كان يرى في مريم المجدلية، عندما تمثل أمامه **مومسا وعشيقة** *amica* متمردة على القوانين البالية. ولمّا كان بعث لإبطال تلك القوانين فقد غفر لها لأن مثل تلك القوانين تمنع ذيوع حب شرعي. لقد غفر لها كذلك لأنها لم تكن رغم ضلالها، لهوفا. ولا فاتنة للرجال ولا

(1) هنّ مومسات إغريقيات راقيات اجتماعيا وفكريا. وكانت لهن صلات بكبار رجال السياسة والفلسفة. (المترجم)

متفسخة، ولأنها كانت، في ضلالها، **قد أحبت كثيرا**... لم يطاوع قلبها جسدها، لذلك لم يذو نهائيا. لقد آبت من رحلة ضلالها بتلك النعمة الغالية، نعمة الندم التي تمحو ما شاء الله من الخطايا. وقد تجلت بطريقة مؤثرة جدا لمّا بللت قدمي المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها.

وعبثا حاول الشرّاح، عن حسن نية، تأويل كلمات المسيح: «لقد أحبت كثيرا» على أنها تعني «لقد أحبتني كثيرا». إن تلك التقوى الخادعة لا تنطلي على أحد: فتلك المرأة الشهوانية كانت حديثة عهد بالإيمان وبالتالي فإنّ كلمات المسيح لا تعبّر عن العاطفة الجليلة التي بدأت تكنها نحوه، لقد كانت مريم المجدلية فاسقة عندما جاءت إلى سمعان. وقد أبدى ضيوفه كل دهشتهم لرؤية تلك المرأة **العاهرة** تدنو من المسيح، ولرؤية المسيح يرحب بها. لذلك فليس المسيح هو الذي أحبته كثيرا، فلم يكن الوقت يسعفها كي تحبه، ولكنْ شركاءها في العهر.

قد نتساءل هل يمكن لامرأة عاهرة أن تحب بصدق، بالمعنى الجليل الذي أعطاه المسيح لهذه الكلمة؟ لنوضح المسألة: لقد كانت مريم المجدلية وهي تعيش حياة في منتهى الحرية تنقل فؤادها في الهوى باستمرار فوضعت بذلك نفسها موضع شبهة، غير أنّ ذلك التنقل المتكاثر في الهوى له دافع حقيقي وشريف، لقد كان قلبها تواقا، ولم تكن لتقنع بعلاقات ممتعة عابرة، بل كان مناها أن تجد رجلا قادرا على فهمها، لقد كانت تعيش حياتين موصولتين وصلا شديدا بود عميق. وتلك هي الحياة ذاتها التي طالب المسيح الناس بالسعي إليها.

وفي خضم بحثها عن العظيم والجميل والشريف كانت إخفاقات كثيرة في انتظارها. لقد كانت صبورة في حبها متسرعة في البوح به لذا عرّضت نفسها لأن تؤخذ بالظاهر. وكان يخيّل إليها أنها ستجد عقب كل خطوة تخطوها الرجل الشهم والشجاع الذي تبحث عنه. لقد أحبته بصدق وبحرارة حب المرأة الرجل الذي يجسّد نموذج الكمال الإنساني... وبعد تجربة دامت بضعة أشهر أراها حبيب القلب مرارة الواقع الذي حجبته

المظاهر الخارجية... عندها صحت من وهمها وهجرت ذلك الكائن المدنس وانطلقت مجددا في مطاردة السراب. وهكذا انتهت، بعد كل محاولة وخيبة إلى اكتساب عادة سرعة تنقل الفؤاد التي جعلت منها المرأة **العاهرة**، ولكن أولئك الذين نعتوا مريم المجدلية بهذه الصفة لم يكونوا على دراية بدوافع ذلك التقلب ولا بما سبّبه لها من آلام. لم يكونوا على دراية أن غنجها أبعد من أن يكون بسبب شبق الشهوة بل هو بسبب مطالب نفس أبية لم تجد مبتغاها بطريقة شرعية.

هذا هو إذن معنى أن تكون مريم المجدلية امرأة **أحبت كثيرا**. وقبل أن تلتقي سمعان غفر لها المسيح ذنوبها وهو الذي لم يغب عنه كفاحها وعذابها.

في كل العصور واجه الناس مصاعب كبيرة سعيا للظفر بالطيب والجميل الذين حلموا بهما، وإن على الذين يرغبون في إقامة علاقات متكافئة ومنسجمة روحيا أن يكدّوا كثيرا وطويلا. فهذه الحاجة البشرية لم تندثر بظهور المسيحية وإنما تغيّرت طريقة إدراكها فقط.

في المجتمع الوثني كان الرجل والمرأة كلاهما في بحث عن قرينه، ينخرطان في مساع لا تعدمها النزعة الحسّية. لقد كانا يختبران أحدهما الآخر فكان الجمع بين حبّ القلب وشهوة الحواسّ بمثابة تمهيد للزواج[1]، أمّا في المسيحية فيبحث الزوجان عن أحدهما الآخر ولكن عن طريق اختبار الروح والقلب فينظر الطرفان في الجانب الروحي أوّلا ثمّ يتمّ الاختيار بتوءدة وتبصّر.

لم تكن مريم المجدلية مسيحية ومأساتها في أنّها كانت تبحث عن شريك حياتها على الطريقة القديمة أي بروحها وجسدها، ولكنها سرعان ما علمت إلهاما بوجود رجل جدير بأن يحَبّ ويُخدم ويُعبد. إنه المسيح المشهور بحكمته وقوّته، لذا تعلقت به وأغدقت عليه أسمى آيات الإجلال. لقد غمرت رأسه بالعطر تذكارا من عاداتها الحسية، وبللت قدميه بالدموع. وعندما زارها في بيتها تركت أختها مرتا Marthe منهمكة في شؤون المنزل

---

(1) يشهد لذلك زواج الخطف الرمزي لدى الرومان الذي لا يعتبر فيه الزواج شرعيا إلا بعد مضي عام من المعاشرة *mariage par uzum*، وطرد الجارية عندما تفقد القدرة على إمتاع سيّدها، وعموما سهولة الطلاق.

الكثيرة واختارت هي النصيب الصالح في هذا العالم، أي محاورة المسيح، روح المسيح. وبشعاع ذلك النور الرباني تغيرت حياتها كلّ التغيّر، فعوض أن تتوق مستقبلا إلى حب عاطفي وجسدي تبحث عنه لدى الرجال رمت ظهريا الأحاسيس التي قادتها إلى الخطيئة ولم تحتفظ للمستقبل سوى بما تكابده من عشق ووجد تحملهما المسيح.

ولكن لنترك جانبا هذا الهوس الصوفي فقد يبعدنا عن الحب بمعناه الحقيقي...، لنترك مريم المجدلية ترقّع أخطاء حواسها بمشاعر روحية، ولنعد إلى الواقع، وسط التجاذبات والميول الأكثر انسجاما مع الطبيعة الإنسانية.

لقد عرضنا المبادئ الجديدة التي ينبغي أن تنظم الحب أثناء الزواج، لنتفحّص الآن الكيفية التي تلقت بها الآداب العامة تعاليم الإنجيل: لقد كانت لدينا نظرية فماذا عن التطبيق؟

4
الحب لدى المسيحيين الأوائل

هل رأيت ذلك المنزل المنزوي في الحقول أو في ضاحية مدينة كبيرة ؟ هناك تعيش عائلة حديثة العهد بالإيمان. نساؤها يلبسن الصوف أو الكتان ولا يعرفن القماش الفاخر ولا الخضاب ولا الحلي ولا مواد التجميل ولا شيء مما يصطنع من تجميل مزيف غايته خداع العيون مثلما تخدع بعض الابتسامات القلوب(1).

إن حياة أولئك النساء أبسط من ملابسهن. لقد كن يتحاشين الصحبة الصاخبة الماجنة وحضور الحفلات وألعاب السيرك، ويتجنبن الضحك بأصوات عالية وكذا الهزل والكلام المثير للغرائز. وباختصار كنّ يتحاشين كل ما يدخل تحت باب الظرف وفنّ الحب. أمّا الرجال فكانوا يلزمون أعمالهم في حين تلزم النساء بيوتهن يقمن بشؤونها، يغزلن ويفصّلن القماش على طريقة نساء بني إسرائيل. وكنّ يربين الأطفال ويداوين الشيوخ ولا يغادرن بيوتهن إلا لزيارة الفقراء في أكواخهم أو للعبادة في الكنيسة(2). إن المسيحي وقد

(1) إن لباس المسيحيين هو رداء الفلاسفة: رداء ترتوليانوس Tertullien و القدّيس هيراقليدس Saint Heracléas، فإذا ما أراد مسيحي اتهام مسيحي مزيف بالدجل فإنه يتهمه أمام القاضي بأنه يحب الحلاقين يغتسل في الحمام باستمرار وبأنه يجعّد شعره ولا يغض بصره بحضرة وبأنه أكول ويشرب الخمر.

(Fleury , *Mœurs des chrétiens* ; ch XI)

(2) يقول ترتوليانوس: كانت المرأة المسيحية تزور إخوانها في أشدّ الأكواخ بؤسا. وكانت تنهض في الليل لتصلي ولتحضر حفلات الكنيسة، وتحضر القداس، أو تزور السجون للتخفيف عن المسيحيين المسجونين وإراقة الماء تحت أقدام القديسين. وعندما يصل أخ غريب فإنّها تعدّ بيتها لاستقباله. وأثناء الحفلات كانت تتجنّب أداء الأناشيد الدنيوية والأغاني الإباحية. إنها لا تشبه ذلك النوع من الكاهنات المتهتّكات اللواتي كن يأكلن اللحم ويشربن الخمر حتى التخمة فلا يستطعن هضمه إلا بشق الأنفس، أو كن يستفرغن ما أكلنه وشربنه ليعاودن الأكل. كن يبتهلن إلى المسيح ويبدين ميلهن إلى الاعتدال عن طريق الصلاة للإله. إنهن لا يشهدن الحفلات والمشاهد الوثنية بل يقرن في بيوتهنّ ولا يغادرنها إلا لأسباب مهمة، كأن يعدن إخوانهن المرضى وكأن يحضرن قداسا أو يستمعن إلى كلمات المخلّص. لا يلبسن أبدا أساور في أيديهن، فأيديهن جعلت لحمل أثقال السلاسل، ولا يضعن أبدا على رؤوسهن اللؤلؤ والزمرد فرؤوسهن مهدّدة دوما بسيف الاضطهاد.

(Tertullien, Ad uxor, Liv, II – *De cultu feninarum*, liv. II).

حيل بينه وبين ضروب اللهو الناتجة عن الإسراف والبَطالة الوثنيين، يتمتع بطاقة إضافية يوظفها في العمل الروحي وله كفاية من الوقت والحماسة، يوظفهما في كفاحه. ومن ثمة هناك ثلاثة أشياء ستشغله شغلا تاما: عبادة الإله والمحبة والحب.

إن الحب باعتباره أكثر العواطف إنسانية وقوة سيعرف انتشارا كبيرا بتأثير ديانة يمكن تلخيصها في كلمة حب: حب الإله والخيّرين. وسيكون له نتائج معاكسة تماما للحب الوثني الذي ارتضى لنفسه أن يكون مجردا من الحنان، إذ تساهل مع الزنى حتى عُدِم الزواج والإنجاب معا. وهكذا ضعف المجتمع الوثني وما انفك يتفتت يوما فيوما.أمّا المجتمع المسيحي فكان يقوى وينهض لأنّ وازع التعفف مقترنا بحب القلب يغري بالزواج إغراء لا يقاوَم وبالإكثار من الذرية التي هي هدفه النهائي.

لقد ورثت المسيحية ومنذ البدء سببين من أسباب القوة والنجاح، وهما السببان اللذان أهملهما المجتمع القديم: تقوية مؤسسة الأسرة والإكثار السريع من النسل.

إنّ تنظيم المجتمع المسيحي لم يتوانَ أبدا عن تسهيل نشأة الحبّ منذ السنّ التي يخفق فيها القلب للنظرة الأولى ويهيج لأدنى الإشارات.

كان الشباب في المجتمعات الوثنية يعيشون منفصلين عن النساء الفاضلات، وإذا لم يكن الشاب حبيس البيت مثل تلماك Télémaque فإنه لن يلتقي في الخارج سوى عدد قليل من الصبايا الغريبات عن العائلة. لقد كانت أولئك النسوة الفاضلات محتجزات في الحريم في الوقت الذي يكون فيه الشاب منشغلا باللهو والمصارعة والألعاب الحربية وبدراسة الفلسفة. ورغم أن مراقبته تقلّ في عصور الانحطاط فلم تكن لديه أبدا الرغبة في الزواج بأول فتاة يضعها القدر في طريقه في سن مراهقته. فقد كانت حسابات البخل والطموح تمنعه من الزواج قبل سنّ الثلاثين. ومع ذلك لم يكن أحمق حتى يكبت شهواته الجنسية إلى تلك السنّ. لقد كان يحفظ عن ظهر قلب ألاعيب الحب التي كانت تعلّمه بدورها كيف يوقع بفتاة شابة. وإذا امتنع عليه ذلك فإنه يستعيض عن هذا الفشل بأن يقصد النساء معزيات الحزانى المحترفات اللواتي توفّرهن له كلّ طبقات المجتمع.

وعلى العكس من ذلك كان الشاب المسيحي يختلط منذ طفولته بالنساء المتفرغات لشؤون المنزل أو المترددات على الاجتماعات الدينية فيتعرف ضرورة وباكرا على شابة ودودة سرعان ما تأسره بنظرتها مهما كانت محتشمة. ومع ذلك فإنّ حرارة شوقه لا تدفعه أبدا إلى أن يفكر في مخاتلتها ليتمكن منها سريعا، إنه يعرف مبادئ القانون[1] والعقوبات الرادعة الواردة في الكتاب المقدس، ثم إنه لا يفضّل الترويح عن نفسه بمعاشرة البغايا الوثنيات، فمعاشرتهن أكبر من أن تكون مجرد نجاسة، إنها ردة.

وإذا ما سدّت على الشابين كل الطرق المؤدية إلى الظرف القديم فليس عليهما إلا أن يفكرا في أمر واحد وطموح واحد: الزواج، إنه واجب لذيذ وغاية نبيلة، وعليهما بذل كل الجهود لإدراكه.

إنّ الرغبة في الزواج لا تنفصل عن الحبّ الحقيقي إذ من المستحيل التمييز بينهما. إن المحب الصادق لا يمكنه أن يفقه معنى الحياة دون أن يتملك تلك التي يحبها ملكا تاما ودائما، ولكن تلك الملكية اللانهائية تعني في النهاية الزواج. وإذا ما احترم جوهر الزواج، وإذا ما كان الرباط بين الزوجين منزها عن كل نية مسبقة للنكوص فلا أهمية للإجراءات الشكلية. إنّ الذي يتلكأ في الالتزام التزاما أبديا بالزواج ليس محبا صادقا، فهو يظهر بذلك قصر أمله في الزواج، وكأنه قد ضجر منه أي كأنه كان يتوقع نهاية ذلك الحب، أو ليس في ذلك إنكار لوجود الحب ذاته؟

إن الآباء لا يعارضون أبناءهم المسيحيين في رغبتهم تلك العفيفة الصادقة بل هم يشجعونهم: إنهم يخشون أن تغلبهم الأهواء وتأخذهم الغفلة. ومصداقا لذلك فإن الدين الجديد يدعوهم إلى تجاوز كل العقبات التي تحول بينهم وبين الزواج مثل عدم تكافؤ الظروف والثروة والنسب. إن آباء الكنيسة ينصحون بالزواج المبكر، إنهم يوجبون على

---

(1) قال القديس جوستينيوس Saint Justin: «نحن لا نتزوج إلا لأجل إنجاب الذرية، وإذا لم نتزوج فإننا نحافظ على عفتنا حفاظا تاما، ولكن القدّيس إكليمنضس الاسكندري Saint Clément d'.Alexandrie. أضاف: إمّا أن نتزوج وإمّا أن نتعفف نهائيا».

الأولياء تزويج اليتامى والربائب حالما يبلغون، ومن المستحسن أن يزوجوهم أبناءهم[1]. فهم يخشون أن تنشأ بين أولئك الأطفال منذ سن التاسعة صداقات أبعد من أن تكون بريئة. تلك الصداقات وإذا ما شرعنت عن طريق الزواج تكون بمثابة عربون مودة وسعادة. وأمّا إذا ما قطعت هذه الصداقات لاعتبارات عائلية فيمكنها أن تكون باعثا على الحسرة ومهيّجة لذكريات قد تنغّص على الزوجين حياتهما وتفضي بهما في النهاية إلى أن يخون أحدهما الآخر.

وإذا ما عيّن يوم الزواج... فالاحتفالات لا تشبه أبدا احتفالات الوثنيين. ففي اليوم الموعود يتوجه الخطيبان وسط الجموع إلى الكنيسة ويتزوجان أمام الهيكل فيهدي الزوج زوجته خاتما نقش عليه صليب أو حمامة أو ملاك أو سمكة، ثم يحضران القداس ويباركهما الكاهن. وعند الفراغ من الطقوس الدينية لا مجال للهو ولا للمآدب الصاخبة، ولا مجال للغناء ولا للرقص الماجن. ويشيّع العروسان إلى بيتهما وسط صلوات الضيوف ودعواتهم لا بالصراخ والموسيقى الصاخبة. ومنذ تلك اللحظة لن ينشغل الزوجان سوى بأن يتحابا بصدق وأن يتعاشرا بسلام، وأن يسيرا في الدروب التي سطرتها لهما السماء. لقد اتحدا أمام الإله وعباده، فليكثرا من الذرية كما فعل إسحاق ويعقوب[2].

غير أنّ ما جُبل عليه الإنسان من تقلب وتبدل لا يسعفنا بأن نأمل في شهر عسل أبدي... لا تشوبه شائبة وذلك مهما قدمت حرية الاختيار التي تسبق الزواج من ضمانات

---

(1) Fleury, Chap XII

(2) إن قوانين العرس المسيحي متطابقة إلى حدّ كبير مع القوانين الطبيعية التي كان البدائيون الأكثر بعدا عن تقاليد الكتاب المقدس قد اكتشفوها وطبقوها منذ القرون الأولى. يشهد لذلك الزواج الإسرائيلي والزواج اللاكوني Lacédémonien (نسبة إلى لاكونيا وهي مقاطعة يونانية قديمة عاصمتها اسبرطة) اللذين تحدثنا عنهما في القسم الأول من الكتاب ص ص 45 وص 183–188.

كتب ترتوليانوس: «إنّ مؤمنين اثنين يحملان معا نفس النير ليسا سوى واحد، يصليان معا ويسجدان معا، ويصومان معا، ويعلم أحدهما الآخر، ويتواسيان ويذهبان معا إلى الكنيسة وإلى القداس. لا يتواريان عن الأنظار في فترات الاضطهاد أو في فترات الانفراج، ويعودان المرضى معا، ويزكيّان من تلقاء نفسيهما، ويحضران القداس دون وجل، وينشدان معا المزامير والتراتيل ويتواصيان بحمد الإله».

لاستمراره. إن السعادة الزوجية هشة فهي عرضة لكثير من تعكرات المزاج والنزوات والاشتراطات وخيبات الأمل والتبرّم. وهذه كلها تشكل تقلبات نفسية تفقد الزواج توازنه... لقد كان المسيح يحتفظ بدواء لعلاج مثل هذا النوع من المرض، ذلك الدواء هو الذي تحدثنا عنه في نهاية الفصل المخصص للحب لدى الشعوب الغالية– الجرمانية، إنه **المحبة**.

وبالفعل فقد بسط لنا الإنجيل، في هذا السياق، كيف يتأسس الحب على التعفف والوفاء وعلى الحرية والود. لقد خلق الإله **المحبة** ليتوّج بها خلقه.

ولكن قبل تقديم الدواء لابد من صنعه، وقبل الإذن باستعماله لابد من بيان كيفياته لأناس ظلوا إلى ذلك الوقت لا يكادون يعرفونه. لقد نزلت المحبة يوما إلى الأرض زمن راعوث Ruth وعرفه[1] Tobie ثم سرعان ما اختفت مخلّفة وراءها بعض الذكريات.

لقد ظهر المسيح وقال: «طوبى للرحماء فإنهم سيرحمون»[2].

«وسمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وباركوا لاَعنِيكُم وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم»[3].

ثم إن القديس بولس أكمل تعاليمه بهذه العبارات: «المحبة تصبر طويلا: وهي لطيفة. المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر ولا تتكبر. لا تتصرف بغير لياقة ولا تسعى إلى مصلحتها الخاصة. لا تستفز سريعا، ولا تنسب الشر لأحد. لا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق، إنها تستر كل شيء، وتصدق كل شيء وترجو كل شيء، وتتحمل كل شيء»[4].

إن التجديد الأساسي الذي جاءت به المسيحية يتمثل في ذلك البعد الأخلاقي الذي

(1) هما امرأتان فاضلتان مفعمتان محبة ورضا. انظر قصتهما في «العهد القديم، سفر راعوث، الإصحاح الرابع». (المترجم).

(2) – إنجيل متى 5: 7

(3) – إنجيل متى 5: 43–44.

(4) – رسالة بولس الأولى إلى مؤمني كورنثيوس 13: 4–7.

ميّزها عن كل الديانات السابقة، ألا وهو عقيدة الإخاء والمحبة: تبدو هذه العقيدة بمثابة النجم الساطع وسط عالم لم يعرف دوافع أخرى غير دافعي المصلحة والخوف أي الأنانية الوقحة والأنانية الوجلة. لقد كانت المرأة خاضعة لزوجها رعبا منه. وكانت تتعلق بالرجل لما تجده لديه من لذة. وكان الأمير يحكم الشعب إرضاء لكبريائه، وكان الناس يتكاتفون لتحصيل أكبر ربح ممكن باتحاد قوتهم.

ثمّ جاءت المسيحية بعقيدة مختلفة تماما ومن ثمّ تغيرت اهتمامات المجتمع. وإلى ذلك الحين كان العالم يعيش وفق الحكمة التالية: «العالم هو أنا، وأنا السيد المستبد». وكانت الشعوب والعبيد والعائلات جاثية عند أقدام قائل هذه الحكمة راضية بذلك الاستبداد مجيبة بحماس: «نعم، العالم هو أنت لأنّك السيد».

ولكن الإنسان تجرأ أخيرا على القول: «العالم هو هو، هو أنتم، هو نحن كلنا متساوون في كل الأشياء بقلوبنا وبأرواحنا لا برؤوسنا فقط... لا أحد يعلو علينا سوى رب السماء، ليساعد بعضنا البعض، لنتصادق حتى نواجه مصائب الحياة الدنيا...»، فإذا جمع هذا المبدأ بين رجلين سمّي أخوّة[1]. وإذا جمع بين الرجل والمرأة سمي بداهة الحب: حب قوامه الإخلاص وإنكار الذات واتصال بين جزئي النفس الواحدة.

لم تتخذ المحبة سمة تهذيبية ولطيفة إلا في إطار الزواج، ففي المجتمع القديم عندما يغضب الزوج ويكون شريرا وتتملكه الغيرة، وعندما تكون المرأة شرسة ومتقلبة، كان للقانون طريقة سهلة لمواجهة تلك الفوضى، إذ كان يتم الفصل بين القرينين حالما يتبرم أحدهما من الآخر. وهكذا يضع الطلاق حدا لكل ما يربطهما فيصيرا غريبين عن بعضهما

(1) – عبرت أسطورة الشهيدين جوليان Julien وفيريولس Féréol عن هذا الجانب من العقيدة بأسلوب بسيط وأخّاذ: كان القاضي العسكري فريولس قد تنصر عن طريق أحد جنوده هو جوليان ولكنهما هلكا في حملات الاضطهاد التي قادها ديوقلتيان Dioclétien. دفن الاثنان، أحدهما في فيينا Vienne وتحديدا في دوفيناي Dauphinée والآخر بتريود Briode ولكن اعتقاد المسيحيين الراسخ في أبدية صداقتهما وتعلقهما الوثيق ببعضهما بعضا دفعهم إلى أن يزوروا على مدى قرون ضريحيهما فيتضرعون إلى جوليان أمام ضريح فريول ويطلبون شفاعة هذا الأخير أمام ضريح الأوّل.(Eucher , *Acta sancti Martini* , *ap.Ruin*.- Tillemont. Hist. Eccles.)

البعض ومحرّمين على بعضهما البعض. ومن ثم يسعى كل واحد منهما إلى البحث عن حب جديد.

ألغى المسيح ذلك الإجراء الفظ فوعظ قائلا: «أيها الأزواج، لقد أضعتم الحبّ فمارسوا المحبة فلن تحبوا بعضكم بعضا كزوجين وإنما كأخوين وليتصدق الخيّر على الشرير ببعض العطف والتسامح».

في أفضل أزمنة الحب في بلاد الغال أو في جرمانيا لا نعدم قليلا من الأنانية تتخلل القلوب الأكثر إلفا فالمحب لا يحب إلا بشرط أن يحبّ، ولا يهب إخلاصه وحنانه بلا مقابل بل بمثله. أما المسيحي فأكثر سخاء إذ يغدق هذه العواطف على قرينه دون شرط المبادلة حتى وإن كان لا يأمل في أن يكون من الأثيرين لديه. فتبّاً للبخيل أو الجاحد الذي لا يفي بالعهد فهو سيظلّ رغم ذلك يحتفى به رغما عنه ويحترم رغما عنه ويحبّ رغما عنه.

ولكن لماذا نتوقع إمكانية حدوث تبرم وخلافات بين الأزواج في ظل توفر شروط السعادة والوفاء التي حبت بها الديانة الجديدة الحب، فبفضل الحرية يتحد كل شخص بالشخص المشاكل له الذي خلق خصيصا لأجله. وهكذا يجف منبع الفجور القديم فلن يكون هناك إلاّ القليل من أمثال أسبازيا[1] Aspasie وتاييس[2] Thaïs وفريني[3] Phrynée ومريم المجدلية.

كان ذلك هو المبدأ. وربما كنّا سنكون بإزاء نفس النتائج لو ظهرت المسيحية أول ما ظهرت في مجتمعات حيوية ومتوثبة لم تعرف الفاحشة: في بلاد الغال أو جرمانيا مثلا. ولقد كان يمكن لعقيدة الحب المفضي إلى الزواج أن تعم وتنتشر لو تم جمع بساطة الأخلاق

(1) هي امرأة يونانية مشهورة بجمالها وذكائها وقيل إنها كانت مومسا وتدير ماخورا. اتخذها رجل السياسة بيريكليس Pericles عُشيقة. (المترجم)

(2) انظر قصتها في القسم الثاني من الكتاب. (المترجم)

(3) هي مومس يونانية من الطبقات الاجتماعية الراقية. يقال إن أجرتها كانت مرتفعة جدا مما مكنّها من جمع ثروة كبيرة. (المترجم)

وقوة الطبع واستقلالية المرأة في بلاد الغال أو جرمانيا إلى مقاصد الشريعة المسيحية.

ولكن مع الأسف سارت الأمور سيرا مختلفا، ففي رأي المسيح، فقد الحبّ قيمته وسط أكثر المجتمعات فسادا في الدنيا في ذلك العهد. ومن ثم ظهرت العقبات ونشأ صراع محموم وقاس فاق كل الصراعات الإنسانية لأنه أدى إلى اضطهاد المؤمنين. لقد سفكت دماء آلاف المسيحيين الذين كانت غايتهم الوحيدة أن يرتووا بسعادة الإيمان والحب، وذلك بفعل تكالب الدعارة الرومانية على الإخلاص والحب اللذين كانا متفشيين بين الناس.

5
مقاومة الحب الوثني للحب المسيحي

كل التاريخ يشهد لذلك فليست المشاكل السياسية ولا الدينية هي التي كانت تدفع العالم القديم الريّاب والضجر نحو العنف الوحشي الذي لم تسلم منه أبسط المجالات الإنسانية. بل إنّ الحب الطاهر الحقيقي هو سبب حقد الوثنية، وهو الذي أثار كلّ غضب الشهوانيين.

في خضم الجهل الذي كان الوثنيون غارقين فيه، وفي الوقت الذي كانت فيه المعابد الرومانية تحتضن مختلف الآلهة، كان بإمكان المسيح أن يجد له بسهولة ضمن مجتمع الآلهة المكان الذي لم يجده في ظل حكم ألكسندر سيفيروس[1] Alexandre Sévère. لقد كانت معظم تعاليم المسيحية مثل الاستهانة بالألم، والقناعة وخلود الروح والجزاء الأبدي قد جاهر بها بعض الفلاسفة. وكان بإمكان الإنجيل أن يفتح مدارسه ويحتضن فيها، في سعة من الوقت تلاميذ. ولكن عندما يستمع شعب فاسد إلى الحواريين وهم ينشرون عقائدهم التي قضت على امتيازات النزعة الحسية القديمة وعلى تعدد الزوجات والطلاق والظرف والزنى فإنّ كل طبقاته من أدناها إلى أرفعها تلجأ إلى الحرب. لقد قيل بأن برابرة الشمال قد سلبوهم كل غال ونفيس، ولكن لو لم يعلمنا التاريخ أن الفظاعة لا تنفصل عن الفساد وأنّ الشعوب المنهارة تعتقد أنّها كذلك عندما تحرم من ملذات المشاعية الجنسية والزنى التي لا حد لها لما صدقنا حكايات العذاب الفظيع التي ابتدعوها.

مع ظهور المسيحية كان مذهب اللذة قد قضى على المعنى الأخلاقي فتحولت أنذل الأعمال إلى ظرف شائع ومرموق... لم يكن ترتوليانوس قد لاحظ فرقا بين ملابس النساء

(1) – كان ذلك الإمبراطور التقي الذي ضلّلته لفترة وجيزة شكوك النزعة الاصطفائية التي ملكت العقول آنذاك قد قرر ضم المسيح إلى مجتمع الآلهة الوثنية الذي كانت تستضيفه روما. ولمّا لم يكن بإمكانه اعتباره إلهاً بصفة علنية فقد وضعه مؤقتا في معبده المخصّص للأرواح المقدّسة Ames Saintes إلى جانب إبراهيم Abraham وأبولون Apollon وأورفاي (Orphée. (Lamprid. *Alex. Sev.* 123-129

العفيفات وملابس المتهتكات. فقد اختفت تلك العادات الصحية القديمة التي كانت تلزم الناس اعتبار المرأة من جهة تواضعها وقناعتها. في ذلك العصر لم تكن المرأة تملك من الذهب سوى خاتم الزواج تتزيّن به. فقد بلغت قناعتها تلك حدّا جهلت فيه شرب الخمر[1].

لكم تغير الزمن! «كانت النساء يمشين مثقلات بالحلي من أخمص القدمين إلى أعلى الرأس، وكانت رائحة الخمر تفوح من أفواههن كلما اقتربنا منهن. كان الرجال والنساء يعربدون في كل الساحات العامة ففسد الهواء بما كان يفوح من أفواه القوم الذين كانوا لا يستحون من فعل أي شيء على الملأ»[2]. أما النساء الرومانيات فكنّ يقمن جراءات أخرى. فقد اتهمهن ترتوليانوس بأنهن «كن يعبدن بغيّا اسمها لارنتين larentine وقد كانت متفسخة غاية التفسخ فوضعها في مرتبة أدنى من مرتبة تاييس وفريني. لقد أقمن هياكل لإله ترعرع في بلاط مدنس حتى يكون في خدمة أكثر الملذات دناءة، تلك التي تأباها الطبيعة الإنسانية. «لقد رأى ذلك المدافع المتحمس عن المسيحيين فجور **أنوبيس** الوقح *l'impudique Anubis* يُمثّل على المسرح وكذا فجور الرجال ونزواتهم ورأى ديانا وهي تجلد أمام الجميع، والإله باريس Paris وهو يفصل في نزاعات الآلهات الثلاث؛ والجميع يعرفون في أي لبوس قدّمهم الفن الجديد. لقد رأى ترتوليانوس، باختصار، كيف يعذب أحد الأشقياء على الحلبة تخليدا لذكرى الإله أتيس Attis إله مدينة بوسّام[3]

(1) كان أرباب الأسر قد عوّدوا بناتهم وزوجاتهم على تقبيلهم باستمرار حتّى يتأكدوا من خلال أنفاسهن ما إذا كن شربن الخمر أم لا. وغالبا ما كان الآباء والأزواج يقتلون كل من تتجرأ على التسلل إلى الأقبية وثقب براميل الخمر.

(Tertullien *Apologétique*, ch. VI)

(2) Tertullien. *Apolog* ; ch. XXXIX.

(3) Tertullien, *Apolog*. Ch XIII et XV

ثم إن القدّيس قبريانوس Saint Cyprien أكمل المشهد فاشتكى من: «حيل الأشخاص والخدع التي يستعملها الزناة كمكائد، وضعف المرأة الآثم والسخرية البذيئة وتسلط أرباب العائلات المحقّر أحيانا بفعل السخرية والمنحطّ أحيانا بفعل الفضيحة اللذين تمثّلهما أخلاقهم، تلك الأخلاق التي ضحّى بها في سبيل إضحاك الجمهور تحت مسميات أضحت في ما بعد أمثالا. فنرى على الركح ممثلا متخنّثا يجمع بين التعبير بالكلام والتعبير بالإيماء مما يجعل كلّ أعضاء جسمه ترتعد: فيعلن حضوره فتتأثر المدينة بكاملها. فمن ذك الذي يكون أول المُنشَدِّين إلى ذلك الكائن على=

.Possème

لقد كان الشبان المُجّان يتبعون شريكاتهم في الزنى داخل المعابد، وعندما كانوا يتفقون على مواعيد غرامية كان سدنة المعابد والأحبار يسارعون إلى مستترات يضعونها على ذمتهم. ولا عجب في ذلك فقد عمّ الزنى وغدت مشاعية النساء أمرا مقبولا أخلاقيا وزاده تسامح القضاة قبولا... ولتسهيل هذا الاختلاط الذي تخطّى المألوف وتخليصه من بعض ما يعوقه مورس الإجهاض على نطاق واسع. «لقد سمح بالتخلص ممن كان مضغة في رحم الأم»[1] وإذا ما سلم الجنين عقب محاولة الإجهاض الأولى يقتل حتما بعيد ولادته إما برميه في الماء وإما بتجويعه وتركه للبرد وإما برميه للكلاب المسعورة[2]. والأدهى من ذلك أن القانون لا فصل له في هذه الجرائم الشنيعة... وحتى عندما كان الوثنيون يريدون دفع الإنسانية إلى أن تمقت المسيحيين فإنهم لم يتهموهم بارتكاب هذه المفاسد الفظة التي صارت أفظع من أن توصف بالجريمة بل إنهم يتهمونهم بتحريم الزنى وبأنهم لم يكتفوا بقتل الأطفال بل عمدوا إلى أكلهم[3].

تمثل رد فعل المؤمن المسيحي على تلك الاتهامات الفظّة في السعي إلى إشاعة مبادئ الحنان الأبوي والحب العفيف. ولكنه لا يمنح أبدا فرصة أن يكون خيّرا ومحبا إذ تقابل فضائله بالتحريم والتعذيب.

إلا أن التهديد ظل مسلطا على المخطوبين والمتزوجين المتحابين. ولكن التعذيب

=الركح؟ لا أحد بإمكانه أن يضاهيه. فهذا شقّي يجلد نفسه ويعرّض وجهه للضربات التي تلطمه تعويضا عن خواء معدته، وذاك آخر يجهد نفسه لمقاومة جوع يتجاوز طاقة تحملّه البشرية حتى يفوز بعد ذلك بوسام الشراهة. وذاك ثالث يرقص عاريا...» (Saint Cyprien ، *Des spectacles*)

(1) Tertullien ; ch. IX.

(2) Tertullien ; ch IX

(3) بعد التضحية بالابن القربان الذي كانوا يتعاورون لحمه الخافق، كانوا يقيمون مأدبة جديرة بذلك المشهد المرعب: إن الشبق يؤدي إلى الفجور الأكثر إثارة، ففي اللحظة المقررة تطفأ الأنوار فجأة فيضربون بالحياء عرض الحائط ويتجرّدون من إنسانيتهم. وبفعل الصدف، تضرج ظلمات الليل بالعلاقات الجنسية المحرّمة بين الإخوة والأخوات وبين الأمهات وأبنائهن. (Saint Justin, *Martyr*. Apolog. I, 35 et 14)

ومهما بلغت فظاعته لم ينل من حبهم بل قوّاه، فالموت نفسه لا يستطيع أن يقطع حبهم قطعا نهائيا.

وعندما كانت النساء يمثلن أمام الوالي الروماني ويدفعن إلى الاختيار بين اللذة الحسيّة في القصور وحشرجة الموت في الحلبة فلا واحدة منهن سعت لتجنب الاختيار الثاني.

لقد كان التعذيب يوجد لديهن لذة روحية لا توصف طالما أنهن يكابدن ذلك من أجل أحبّائهنّ، فهن يعتبرن ذلك العذاب مقدمات للحب الأبدي في العالم الآخر.

انظروا إلى المسيحيين والمسيحيات، وقد عضتهم الأسود والنمور ومزقتهم. لقد اكتشفوا، في خضمّ الألم، نظرات الحبّ العظيمة وصيحات الوداع الرائعة، لذلك قرروا أن يكرروا المشهد ثانية في هذه الدنيا.

لقد كانت تلك النظرات والصيحات تمتصّ كل ما تبقى لهن من قوة إلى درجة أنّ العذاب الجسدي بدا هينا أمام فورة الفرح التي تظهرها الروح النشوانة. وبالفعل لم تكن الحيوانات المفترسة تعضّ سوى لحم ميت لا إحساس فيه.

لقد كان آباء الكنيسة – مدفوعين بحماسهم الديني – يُرجعون تلك الظاهرة حصرا إلى حماسة الإيمان في توقه إلى الزوج الصوفي... لذلك لا لم يكونوا يرون مانعا من التماس شعاع منها لفائدة الحب بحصر المعنى.

لم يكن المذهب الإشراقي المخالف لطبيعة الأشياء قد زعم بعدُ أن لا أثر للعواطف الدنيوية بعد الموت وأن الأمهات والعازبات وكذا العاشقين والأزواج لن يتعرفوا على بعضهم البعض في الدار الباقية يوم البعث. لقد كان المسيحيون في ذلك الوقت يؤمنون بخلود كل المشاعر الرقيقة، وباتحاد النفوس والقلوب التي كانت متحابّة في الدنيا يوم القيامة. لقد كان ذلك شعورهم الداخلي إضافة إلى أن الإنجيل لم يكن يعترض على ذلك المعتقد. وماذا بعد؟ إنه من المفروض أن يكون المخطوبون والأزواج وقد قذف بهم اتفاقا بين أنياب الحيوانات المفترسة قد عاينوا الدم المراق والأجسام الممزقة وسمعوا حشرجات

الاحتضار يطلقها محبوب، ومع ذلك فلا شيء تحطم بداخلهم، إذ أصبحوا كالحجر بلا إحساس حتى لا يسمعوا صوته ولا يفكروا إلاّ في المسيح وفي مجدهم الشخصي... وربما كان المسيح قد أنكر عليهم هذا الجحود...وربما قال لهم: «أحبوني قليلا ولكن أحبوا بعضكم البعض أكثر إلى آخر نفس في الحياة. ألم تتعاهدوا على الحب حتى الموت؟».

ورغم الاضطهاد وقلة العدد فقد تمكن المسيحيون من التسلل إلى المجتمع الروماني وزعزعته دون حقد أو عنف. لقد اتخذ صراعهم مع الوثنية صبغة دراماتيكية كبيرة في مدينة أنطاكية. وكان ذلك بمثابة الحدث الذي اختزل حَمَلة المسيحية ضد العالم القديم كله.

لقد كانت ضفاف نهر العاصي Oronte الساحرة على أبواب تلك المدينة الكبيرة مشهورة في العصور القديمة. فقد أطلقوا عليها اسم **حديقة دافني** *le jardin de Daphné*. وقد أقيم فيها معبد رائع وسط أشجار البرتقال والغار الوردي وكان فيه تمثال لأبولون Apollon كان محجّا مشهورا. وكان كل ما يحويه الشرق من مغامرين من الجنسين يتردد إلى ذلك المكان. فكان العشاق الأشقياء يختلفون إليه بحثا عن شفاء لحسراتهم لدى المواسين والمواسيات الذين كانوا يغرقونهم بما لا يعدّ من الآمال والعزاء.

لم تصمد أية قوة بشرية أمام التأثير الشبقي لهذا الموطن الثاني لفينوس وأدونيس. من ذلك أنّ الفيلق الروماني الذي كان معسكرا قرب أجمة **دافني** والذي تسمى باسمها لم يحافظ على الانضباط والأخلاق الحربية فكان يعيش حياة مائعة ويقيم احتفالات ماجنة. ولمّا قرر ألكسندر سيفيروس قيادة أولئك الجنود المتخنثين لمحاربة فارس واجه صعوبات حقيقية. وكان على المسؤول عن الانضباط العسكري أن يقيم عليهم أقسى الحدود وذلك حتى تخمد تلك الفتنة الداعرة. ومن على منصة المحكمة أطلق قراره الشائن: «أيها الوضعاء[1]: «ألقوا سلاحكم وانصرفوا». إنه لم يكن بد من ذلك الحكم المخزي حتى يخجل جنود

---

(1) نقترح هذه العبارة ترجمة لكلمة Bourgeois التي كانت تطلق على من لم يكن من طبقة النبلاء ولا من طبقة رجال الدين أي من عامة الناس.(المترجم)

دافني المرتزقة ويقرروا القتال تحت إمرته.[1].

ذلك كان حصن الإباحية المنيع الذي كان على المسيحية مهاجمته منذ عهد الحواريين الأوائل. لقد كانت المهمة شاقة. فقد أبدت فينوس **المومس** Vénus *Vulgivaga* المحاطة بجيش من الآلهة الماجنة مقاومة ضارية قضى فيها القديس بابيلاس Saint Babylas

لقد كان ذلك المحيط مثيرا جدا وهواؤه موبوءا إلى درجة أنّ كثيرا من المسيحيين.بما في ذلك الكهنة الذين كانوا يسعون جادين لدفع المحبين نحو شريعة الحب الصادق قد وجدوا أنفسهم مدفوعين نحو اللذة الدنيئة وكان في مقدمتهم البطريارق بول السميساطي Paul de Samozate.

لقد كان بول السميساطي موسرا يعيش حياة مترفة وكان مرزبانا في حلّة القداس وبتاج أسقف، يسكن القصور الفخمة ويصنع المآدب الفاخرة ويخطب في الناس بتفاصح كما لو كان قنصلا رومانيا. وكان يبيح لنفسه مجاملة شرف نيل أوسمة النصر. ذلك هو النموذج المثالي الذي يأتينا من الأعلى لقد فتن قسما كبيرا من رجال الدين وها هم نواب الكهان يعتقدون قولا وفعلا في مسيحية حسّية إلى أبعد الحدود تيمّنا.بمسيحية الأسقف بول السميساطي. كان بول كريما جوادا يجمع على المائدة بين لذّة الطعام ولذة الجلوس إلى أولئك الذين تعودوا على التحلق حول المائدة. فقد ذكر المؤرخ الكنسي يوسابيوس Eusèbe أن امرأتين آية في الجمال كانتا تقيمان قريبا منه وأنه **كان يتخذهما عشيقتين في أوقات فراغه**[2].

إن أسقفا بهذا الطبع ينبغي أن يقوم بدور بارز في بلاد الملك سليمان واحشويروش، انه يناسب الأهالي كل المناسبة ولكنه لن يجد حظوة لدى ورثة الحواريين. لذلك قادته ملذاته الدنيوية إلى محكمة الأساقفة الذين جرّدوه من رتبته ثم عزلوه[3].

---

(1) Lampridus, *Alex*. Sev. 133

(2) Livre VII , ch XXX

(3) Gibbon ; t: III ; p, 478, 480.

وبعد بضع سنوات كانت أنطاكية – وقد تهذبت أخلاقها نسبيا واستوطنها عدد كبير من المسيحيين الأرثوذكس شاهدة على ما عرفته غابة دفني من تحوّل عميق، فقد أهمل معبد أبولون وافتقر الكاهن الذي كان قائما عليه. فعدمت تلك الثيران الرائعة والكباش الضخمة التي كان يقدمها قرابين لعاشق دافني. ولم يبق في إسطبلات المعبد سوى إوزات معدودات هي تلك التي كانت مثار سخرية جوليان المرتد Julien l'Apostat في قصيدته الهجائية «**كاره اللحية**» *Misopogon*. لقد كفّ العشّاق عن أن يسارعوا إلى وسيط الوحي شوقا لمعرفة مصير آهاتهم ذاك الوسيط الذي كان في ما مضى مزاحما لوسيط وحي مجمع الآلهة بدلفس Delphes. لم يعد سكان أنطاكية يزورون الأجمة المقدسة إلاّ للدعاء على قبر القديس بابيلاس. وصاروا يقيمون القداس في الكنيسة التي بنيت قرب المعبد. وكانت شؤونها تدار بفضل عائدات أملاك أبولون القديمة التي أضحت وقفا على المسيح.

لقد عهد جوليان المرتدّ، باعث الوثنية المتحمّس، بتلك الأملاك إلى المعبد وسعى إلى أن يعيد إلى حدائق دفني أمجادها الغابرة فجدد زينتها وعيّن كهنة جددا نافسوا جدّيا كهنة الكنيسة المسيحية. ولكن المعبد احترق ذات مساء وتحول أبولون إلى رماد[1]. فرعب المحبون وزهدوا في أن يعبدوا إلهاً سقط عن عرشه ولم تعد له القدرة حتّى على حماية نفسه. وبدأ عدد لا بأس به منهم يقترب بوجل من المعبد الجديد.

تجاوز صراع الحبّين ضفاف نهر العاصي ليعمّ كل مناطق الإمبراطورية الرومانية حاملا معه تغييرات مماثلة، فقد أقيم في كل مكان مصلّى. وبمحاذاة كلّ معبد من معابد فينوس أو أية آلهة لطيفة شيد ضريح شهيد. وكان العشاق يتبعون أهواء قلوبهم وحواسهم فتارة يقدمون نذرهم إلى هذا المعبد وطورا إلى ذاك. ولكن المعبد انهار في آخر المطاف فاستولت الكنيسة على ثروته. وخلعت **الملكة العذراء**[2] *la Regina virginum* الجنيات وأنصاف الآلهة عن عروشها.

---

(1) Cibbon, t, V p. 366 à 377.

(2) مريم العذراء (المترجم).

وفي ظل حكم قسطنطين وخلفه انتصرت المسيحية وعمت وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية. ومع ذلك ظل الحب الوثني صامدا يقاوم بشراسة إذ لمّا منع في المعابد العامة وجد ملاذه الأخير في بعض الدور الخاصة فلجأ إليها متخذا من غنج النساء ستارا: لقد كانت أغلب النساء يزرعن على شبابيك بيوتهن أوعتباتها مشاتل لنباتات سريعة الذبول يسمينها **حدائق أدونيس** وهي مكوّنة من الخزام والحبق والزنبق. يضعن كل ذلك في أواني بداية فصل الربيع تخليدا لذكرى عاشق فينوس. وكن يستخرجن منها عطورات تتعطر بها الفلاحات والعاملات اللواتي يسعين إلى التزيّن في الحفلات أي، بلغة فرنسية قديمة، **يتبرجن**.

لقد كانت الطبقات الراقية غير متحمسة للزواج المسيحي العفيف المنزه عن كل منفعة مادية وعن كل تقتير... إن الزهد في مشاعر منفعية يفسد على أرباب العائلات عاداتهم وحساباتهم، فذلك الاتحاد العذري الذي لا طائل من ورائه لا يستهويهم كثيرا. إنهم يلجؤون إلى كل قدراتهم سعيا إلى الظفر بطريقة حاذقة يزوّجون بها بناتهم زواجا أكثر مرودية مادية من طريقة الحواريين، فعندما لا يجدون مهرا يقدمونه لهنّ يصنعون لهنّ خريطة لبروج السماء horoscope ويعلنونهن موعودات من قبل الطوالع بمستقبل أكثر زهوا. ولكن لمّا كانت النساء القادرات على بلوغ أعلى السلم الاجتماعي يجذبن إليهنّ في سعيهنّ ذاك الرجال الذين يرون أنهم أحسنوا الاختيار بالتعلق بهنّ، فإنّ ما لا يعدّ من المرشحين والراغبين في الارتقاء الاجتماعي بهذه الطريقة يتسابقون لخطبة الصبايا اللواتي يملكن ناصية المستقبل.

كان الحكيم باسيانوس Basianus، أحد كهنة معبد حمص Emèse في فينيقيا Phénicie، من أولئك الذين غنموا الكثير من ذلك النوع من النجاح. كانت له ابنة تدعى **جوليا دومنا**[1] *Julia Domna* لم ير مثلها في الحسن والذكاء. ولكن ماذا يفعل بهما؟ فهو

---

(1) حسناء سورية من مدينة حمص زوجة القيصر سيبتيموس سيفيروس ووالدة القيصر باسيانوس. توفيت في أنطاكيا سنة 217م.(المترجم)

لا يملك مالا كثيرا لتزويجها. ثم فجأة خطر بباله أن يكون مهرها خريطة بروج السماء العجيبة. ثم أشاع بين الجميع أنّ كل الطوالع اتفقت على أنّ ابنته موعودة بالملك وأن نجم السعد *le bonus eventus* لم يكن ينتظر سوى زواجها ليهديها تاجا. جذب ذلك الوعد الخلّب الراغبين في الزواج وكان بين بينهم ألكسندر سيفيروس الذي كان آنذاك مجرد وال في مقاطقة الغال الليوني la Gaule lyonnaise فتزوجها. وصحبته إلى روما وهناك أنشأت بلاطا للشعراء والأدباء ورجال السياسة والفلاسفة، وبذلك عبّدت الطريق لزوجها حتى يعتلي عرش الإمبراطورية... نجحت الحسناء السورية في إدراك هدفها بالسرعة القصوى. ولاحقا لمّا توفي زوجها وأبعدت عن العرش صحبة ذلك الذي ربّته في القصر لجأت إلى أنطاكية حيث ساورها طموحها الذي كانت تتقاسمه مع سيفيروس فأحاطت نفسها بمغامرين أكْفاء وذوي عزم. وسعت إلى استعادة مملكة سميراميس. ولم لا تنجح ؟ فلدى الشرق قابلية الاعتقاد في مواهب النساء وقدراتهن!

ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، فقد أخفقت في مسعاها، إلاّ أنّ والدها لم يخفق إخفاقا تامّا في الاستفادة من خريطة البروج، فقد أنجبت عائلته ثلاث ملكات جديرات بأن يكنّ على شاكلتها.

لا يشكل هذا النجاح السياسي الكبير المرتكز على الظرف القديم استثناء بل هو القاعدة العامة: فرغم ما عرفته المسيحية من تطورات فإنّ الأخلاق في العهد الإمبراطوري المتأخر ظلت على حالها. فهذه أنطاكية ورغم أنها أصبحت أحد أنجح المراكز المسيحية تقام في ساحاتها المهمة ودور خاصّتها ما لا يعد ويحصى من حفلات الشبق القديم. ومازالت أنطاكية تحتفظ بحريمها وبخصيانها الكثيرين. ولا فائدة في التذكير بالأثر الأخلاقي السيئ لاستخدام ذلك الصنف من الخدم.

كان على آباء الكنيسة والحال تلك أن يظلوا يقظين على الدوام، فلما كانت عقيدة الحب والزواج في خطر محدق كان عليهم أن يسهروا أشدّ السهر على حمايتها.

كان القديس غريغوريوس النيصي Gregorie de Nazianze أبرز المدافعين عن

تلك العقيدة إذ جدد تعاليم الإنجيل وأحاط المرأة بإكليل رائع من البراءة والرقة والوفاء والمحبة حتى يحميها من كل أحابيل مجتمع ظل ثلاثة أرباعه مشركين. وإننا لنجد رغبته في مقاومة الطمع والظرف والتفاخر والأنانية، وفي كلمة كل الشرور التي تقف حاجزا أمام سيادة الحب الصادق(1) في قصيدته التي كتبها لأولمبياس Olympias ابنة تيودوسوس

---

(1) تقول القصيدة: أألمبياس! : «لا يمكن للذهب ولا للماس ولا حتى الخضاب على الوجه أن يكون زينة للمرأة، بل هو مسخ بلا داع للذات وحجب شائن لصنعة الخالق. إن الأرجوان والذهب وكذا البذخ وأبهته، لا تصلح رداء إلا لتلك التي لا تتزين بحياة طاهرة شريفة.، حافظي على هذا الحسن الذي لا يمكن للبصر أن يقدّره حقّ قدره. انظري إلى الزهرة منتصبة على ساقها متزينة بنوّارها المزهر العطر. هكذا تكون الفضيلة.»

«كرّمي، بعد الإله، زوجك فهو العين التي تقودك وهو قدوة إرادتك. له وحده حبك وقلبك. لبّي رغباته الأكثر لطافة بحياء امرأة فاضلة. فأفراح الروح هي وحدها التي لا تنضب. أيتها المرأة لا تسترجلي فلا تفتخري بأصلك ولا بثوبك ولا بفضيلتك. إن فضيلة المرأة أن تنحني لمتطلبات الزواج. إن الرباط الذي يشدّ حياتكما قد جعلكما تشتركان في كل شيء. لا تعاندي زوجك إذا غضب واسيه إذا حزن. قولي له كلاما عذبا ونصائح حكيمة. فالحارس الحكيم لا يعالج بالقوة غضب الأسد الذي يرسل زئيرا تصطك منه الآذان، بل يروّضه بيد مُلاَطِفَة ناعمة وصوت حنون».

«لا تتهميه مهما كان انفعالك قويّا، بتضييع المال. فهو لك أغلى الكنوز، ولا بفشل مشاريعه فالشيطان يتلذذ بإفساد أكثر المشاريع إعدادا، ولا تتهميه بقلة الشجاعة ففي سيفه شعار القوة. تجنبي أن تمدحي الرجل الذي لا يحبه، فمدحك قد يخفي تأنيبا له بصفة غير مباشرة لذلك فهو سيشعر بالإهانة. إن الطهارة تناسب الزوج ولكن الزوجة أكثر. لتنشغلي بالغزل والنسيج واتركي لزوجك الأعمال خارج المنزل. لا تغادري بيتك أبدا. ولا تأخذنك تلك الملاهي العامية التي تتهافت عليها الجموع الصاخبة. إنها خطر على الاحتشام، حيث النظرات تستدعي النظرات، وعندها يذهب الشرف وتكون النفس عندها قابلة لكل أنواع الخطايا. شاركي مع صديقاتك الحكيمات في اللقاءات المقدسة فستغنمين منها كلمات تقية تنقش في قلبك فتنتزع منه الشر وتحل محله الخير».

«إن بيتك ينبغي أن يكون لك بمثابة المدينة بأسرها، فأنا أحب المرأة التي لا يعرفها الرجال، فلا تُرى أبدا مسرعة نحو مآدب الولادة أو الزواج حيث يسكر الناس ويرقصون ويضحكون وحيث الكل نشوان إن تلك العوارض المتشنجة الناتجة عن فرح هازل شأنها شأن ثورات الغضب العنيف لهي عار على المرأة، إذ **هي تفسد ملامحها الجميلة**.. صوني لسانك: إن المرأة التي لا تحفظ لسانها تشنع على زوجها لأن اللسان يزيّن في الغالب للمرء ارتكاب الذنوب، فمن الأحسن حبس الكلمة المثيرة والمتأنية عوض الإلقاء بها في غير محلها فنفشي بها سرّا.. اتركيهم يرغبون في سماعك. إن أذنيك المشنّفتين بالرصانة لهما أجمل من الجوهرة اللامعة،إذ ينبغي لهما أن تسمعا طيب الكلام وأن تطرحا جانبا الخبيث منه، وان لا تنفتحا وتنغلقا إلا في الوقت المناسب».

«اغمري زوجك بشعاع الخفر ينبعث من نظرات عذراء. إن الذين لا يغضون أبصارهم بحضرتك اجعليهم يخجلون بأن تطأطئي رأسك وبأن تسبغي على عينيك نقابا كأنه السحاب. كوني شريفة في تواضع». وأخيرا تذكري لأي هدف شرّع الإله الزواج. «انه يريد للحياة الإنسانية التي تتجدد بسيل غزير أن تبطئ السير. إنها حياة زائلة تموت =

.Théodose

كل النساء اللواتي قرأن هذه «المرافعة» افتخرن بجنسهن وبدورهن في هذه الحياة الدنيا. إن تلك القصيدة هي فن الحب بلا وجل وبلا حدود. وهي، على عكس قصيدة الحب العابر التي نظمها أوفيديوس Ovide، تبيّن السبل المؤدية بنجاح إلى تأسيس السعادة على الحب، والحب على ما يشبه عبادة الشيء الذي نحبه.

لقد سبق أن بيّنا أن لا شيء ينجّس الحب مثل صخب المدن الكبرى وملاهيها إذ هي تمنع النفس من التركيز ومن التحكم في قواها وبالنتيجة تمنعها من أن تكتشف النور الذي أودعه الإله فيها، إن العين التي لا تقوى على التحديق في الشمس تظل عينا فاترة وبلا أيّ تأثير. أمّا عندما تحدق في شعاعها فإنها تقود كلّ ذلك الشعاع نحو نقطة واحدة يخرج منها اللهب.

لقد سعى القديس غريغوريوس إلى إدراك منبع الحنان ذاك عبر محاربة طيش النفس واستعجال الملذات. لقد قال المسيح للمرأة: «لا تحبيّ غير رجل واحد» فأضاف هو: «كي تحبّي رجلا واحدا ينبغي ألا تعرفي غير رجل واحد».

عندما نأى القديس غريغوريوس بالمرأة عن صخب المجتمع وجنّب نظرها وسمعها زينة الدنيا التي لا تكاد تنتهي فتهيج رغباتها وتطلعاتها وتزيد من حسرتها وآمالها فإنه قد أحاطها بعزلة مصطنعة حَبَتْها بهدوء الحقول. وكنّا قد بيّنا أنّ الصمت والعزلة هما ممّا يتطلّبه الحبّ بوجه خاص[1]. إنّ الحبّ الصادق لا يحتمل أن يشرك به. إنّه موحّد لا يحبّ سوى محبوب واحد ولا يرغب سوى في معبد واحد يخدمه. إنه يدرك أنّ الفتنة والفوضى تقضيان على كلّ شيء تقتربان منه. يشهد لذلك تعدد الزوجات في الديانة المحمّدية ولدى الشعوب البدائية. إنّ الواحدية l'Unité هي التي تشكّل على العكس من

= في القبر وتبعث في المهد. ولكنني نسيت أن تيوديسيا Théodisie المحبوبة بجانبك. امتحي في سيرتها كما تمتحين في صورة حية. أقوالك وأفعالك. لقد تسلمتك من يدي والدك وإنّ تربيتك لهي من صنع يديها».

(1) Tome I , p.175 et suiv.

ذلك القوّة التي منها تكون الديمومة.

نجحت تعاليم القدّيس غريغوريوس أيّما نجاح. فهذه أولمبياس التي ربّاها فأحسن تربيتها فأعطت المثل في صدق عاطفتها. هي اليوم مخلصة لزوجها نبريديوس Nebridius إلى درجة أنه لا يجول بخاطرها أبدا أن تحبّ غيره. ولمّا ترمّلت بعد عشرين شهرا من زواجها ظلّ قلبها متعلّقا بالذي حال الموت بينها وبينه.

وعبثا جاءها أبوها في مُتَعَزَّلها بأمير إسباني شاب ذي ثروة ووسامة مشهودين على أمل أن ينسيها زوجها ولكنها صدته قائلة: «لو كان الإله قد شاء لي أن أكون حليلة رجل مدى الحياة لكان أبقى نيبرودوس حيّا فهو الوحيد الذي يستأهل حبي». ضجّ والدها من هذا الرفض فحبسها في القصر وحرمها حتى من مشاركة المؤمنين العبادة. لقد كان يروم بهذه الفظاظة إضعاف وفائها لزوجها ولكنّ أولمبياس تمكنت من الهرب والانضمام إلى جماعة الزهاد الذين وهبوا حياتهم للمحبة وإماتة الجسد.

لنعتبر جيدا بهذه الكيفية التي انتهت إليها أولمبياس الأرملة. إنها تجسد السبيل الطبيعية التي على الأرامل والعذارى المسيحيات المتبتلات سلوكها حتى ينتشر الحب الشرعي والخالد.

6
الحب والعذرية

هل ثمة عقيدة إنسانية صارمة لا تغرق مبادؤها في آتون الصراعات ولا تتمادى بعض الشيء في المغالاة؟ لقد اهتاج بعض المسيحيين لسماع صراخ شهداء السرك ولعنات معذبيهم، فأضحينا بإزاء روحانية جامحة تغاضت عن قوانين الطبيعة ثمّ إنّ الزهد قلب التعاليم التي جاء بها المسيح والقديس بولس رأسا على عقب. إنه يروم أن يفرض على الناس قوانين جديدة لا معنى لها لأن هذه القوانين ستفضي إلى الخراب إذا ما عمت.

إننا نسلم تسليما بقول القديس بولس: «تزوجوا تفلحوا، وإذا لم تتزوجوا كان فِلاحكم أكبر» لأنه سارع مضيفا: «ليفقه قولي العارفون. فممّا لا شك فيه أن في الأمر سوء فهم وشيئا غامضا ربما يكون من السهل فك غموضه».

نتذكر قول المسيح: «هناك مخصيون بالولادة وهناك الذين خصاهم الناس وهناك الذين خصوا أنفسهم بأنفسهم طمعا في ملكوت السماء». لقد كان القديس بولس يأخذ بعين الاعتبار كلّ هذه الاستثناءات لذلك أراد القول إنّ الذين يعلمون أن تكوينهم الجسدي واستعداداتهم النفسية تسمح لهم بالزواج يفعلون حسنا بالتزوج. وأمّا الذين حرمتهم الطبيعة من نعمة الزواج يفعلون حسنا بالتعفف... إن التّقاوي على الجسد لمجرد إقامة علاقات دينية ومدنية يورث الألم للقرين الذي يحلم بزواج أكثر امتلاء[1].

ينبغي أن نقرّ أن عقيدة الطهارة قد حملت المسيحيين على الزهد في مباهج الزواج المادية وفي حفلات الأعياد والصوم كما حملتهم على عدم إقامة أفراح الزواج في بعض فترات السنة. إن تلك الموانع العابرة التي تقف بالمرصاد للحب الشرعي لم تكن سوى

(1) إن نص القديس بولس لا يترك أيّ مجال للشك حيث قال: «ليتصرف كلّ حسب ما أنعم به عليه الرب وحسب الوظيفة التي خلق لأجلها وهذا ما أوصي به في كل الكنائس» (الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثيوس 7: 7)

وسيلة لتهييج الطاقات التي طالما كبتت[1].

بل إننا نتفهم نفور المسيحيين من الزواج ثانية. وإذا كان بعض الآباء يحللونه يساندهم في ذلك القديس بولس[2] فإنّ قدّيسين كبارا يحرّمونه ويأتي على رأسهم القدّيس جيروم Saint Jérôme والقديس غريغوريوس النيصي. إنّ الحبّ في عرفهم على غاية من القداسة والزواج على غاية من الجدّية إلى درجة أن الموت ذاته غير قادر على التفريق بين الزوجين، ذلك أنّ الرجل والمرأة في نظرهم مشدودان برباط أبديّ، ولذا فهم لا يتسامحون في انتقال من بقي حيّا من الزوجين إلى أحضان أخرى غير تلك التي ضمّته أوّل مرّة. لا ينبغي أن نندد بقسوة بهذا الغلوّ. فإذا كان القانون المدني لا يعير اهتماما لهذه اللطائف الروحية فإنّ النفس حرّة في تبنّيها والوفاء لها. ولكن وجهة نظر الآباء تلك كانت في كل العصور وجهة نظر أبطال الحب الدنيوي والحب الوثني ذاته. يشهد لذلك انتحار كلّ من هيرو Héro و بيرام Pyrame وترمل أرتيميز Artémise الأبدي وكذا قاما Gamma و بورتيا Portia وكورنيليا Cornélie وإيبونين وأخريات كثيرات[3].

---

(1) إن هذا التعفف ليس خاصية مسيحية فقد أشرنا سابقا إلى التعفف الذي فرضه الكهان والكاهنات الإغريق على أنفسهم بل إلى ما فرضته كذلك بعض النساء على أنفسهن من تعفّف عندما يرغبن في حضور بعض الحفلات. وقد ألزم العبرانيون والإسبرطيون، كذلك، الأزواج الشبّان بالانفصال المؤقت حتى لا يفرطوا في اللذائذ واخذوا بعين الاعتبار مصالح مجتمع يريدونه شديدا على الدوام.(180 t I، p)

(2) «فالمرأة المتزوجة تربطها الشريعة بزوجها ما دام حيا، ولكن إذا توفّي الزوج فالشريعة تحلها من الارتباط به ولذلك فما دام الزوج حيا تعتبر زانية إن صارت إلى رجل آخر. ولكن إذا توفّي الزوج تتحرر من الشريعة، حتى إنها لا تكون زانية إن صارت إلى رجل آخر»: (**الرسالة إلى مؤمني روما** 7: 3–1)

(3) اكتفى مجمع أرل Arles المنعقد سنة 314 بنصح الأزواج الشبّان الذين طلّقوا زوجاتهم بسبب الزنى إلى عدم التزوّج بأخرى ولكنه لم يجعل الأمر قانونا مطلقا. وأمّا القدّيس أوغسطينيوس فقد كان متردّدا كثيرا حول ما إذا كان الزوج الذي يتزوّج ثانية في مثل تلك الظروف مستوجبا للعقاب أم لا، ولكنّه أعلن أنّه في كل الحالات قد أتى **ذنبا صغيرا جدّا**.

(*Verialiter faltitur*) (Saint Augustin. *De fide in operibus*. C..XIX)

أمّا بالنسبة إلى القدّيس أمبروسيوس Saint Ambroise فلا شك لديه أن حقوق الحب الطبيعي غير قابلة للتصرف لذا فقد أعلن أن الرجل المفارق لزوجته بسبب زناها له كل الحق في التزوج بأخرى فمنع المرأة من التزوج ثانية لا ينطبق على الرجل، فللرجل حق ثابت دائم في امتلاك نصف دينه. اذ النص صريح بهذا الصدد: *quia non ista lege astringitur vir sicut mulier capax enim mulieris vir est (Epistola I, ad Corinth).*

لكن بعض اللاهوتيين لم يقفوا عند ذلك الحد... فللغلوّ إغراءاته التي لا يمكن ردّها، فلدى الإنسان رغبة جامحة في تجاوز الحدود. ومنذ العصور الأولى للمسيحية كان هناك زهاد نفروا من الحب وانحرفوا إلى أكثر البدع منافاة للعقل.

كتب الكاردينال فلوري Fleury يقول في شأنهم: «لقد حرّموا الزواج تحريما واعتبروا كل اتحاد بين الجنسين خطيئة». ولم يكتف بعضهم بالتبشير بهذه الأفكار بل سعى إلى فرضها بالقوة على أولئك الذين كانوا أقل استعدادا للرضا بها. وقد وصل الأمر بالشهير أوريجانوس Origène إلى اللجوء إلى قطع الأعضاء التناسلية... لقد عظم أمر ذلك الضلال المبين حتى خشي الناس قيام القيامة بسبب نفوق الرجال القادرين على حفظ النوع البشري. أمّا الكنيسة فقد بهتت للأمر فأصدرت قوانين ضد أولئك الهراطقة. لقد مثّلهم القديس إكليمنضس الاسكندري بأولئك الرّجال الذين سيظهرون في آخر الزمان ويحرّمون الزواج وفق نبوءة القديس بولس. وذكّر بأن القديس بطرس Saint.Pierre والقديس فيليبي Saint philippe كانا يفتخران بأنهما زوجان وأبوان في الآن ذاته. هدأ الكهنة الخواطر بجعلهم الزواج اتحادا مقدسا وبتصوير الإنسان على أنه شريك الإله في عملية الخلق. ومع ذلك ظلت لدى عدد كبير من آباء الكنيسة بعض المغالاة بخصوص العذرية إذ لم يكتفوا باشتراط وجودها لدى الصبايا اللواتي هنّ مجبولات على ذلك النوع من التصوّف بل سعوا إلى اشتراط وجودها حتى لدى اللواتي قد جبلن على طريق أخرى غير التصوف. إنهم يدفعونهنّ بذلك دفعا نحو مواجهة عنيفة مع طبيعتهن.

لقد كانت تلك العقيدة سهلة الانتشار، فقد عمد بعض الأحبار إلى استخدام فصاحة حماسية كادت أن تتمحّض إلى تهديد بترويض كل العصاة[1].

---

(1) أراد القديس جيروم أن يشجع **ديمتريا** *Demetria* على تلك التضحية الشّاقة فذكّرها بأسماء مجموعة من الشابات اللواتي نذرن عذريتهن إلى الإله. ثم أضاف قائلا «وأنت ديمتريا، لماذا تحافظين على حيائك بكل هذه الفتور ؟ الست حرة؟ وألا تملكين الشجاعة لتظلين كذلك؟ فإذا ما أظهرت كل هذا الضعف في ظروف آمنة فماذا أنت فاعلة عند الاضطهاد؟ فإذا كنت غير قادرة على تحمل نظرات والديك (ومن المحتمل أنهما كانا ينصحانها نصحا مناقضا تماما لنصائح الناسك) فكيف ستتحملين وجود محكمة المضطهدين... استمدي القوة من ذكرى البارّة أنياسAgnes. التي تغلبت على حداثة سنها وعلى المستبدّ، ونذرت عذريتها للشهادة. أيتها الشقية انك لا تعرفين، لا تعرفين =

ولكن آخرين كانوا ينصحون بالحفاظ على العذرية بلهجة فيها تحضيض وتودّد. ولكن فكرتهم لم تكن أقل رسوخا. مثال ذلك هيلار Hilaire كاهن مدينة بواتيي Poitiers الشهير. كان هيلار متزوّجا ولكنه كان يعيش بعيدا عن أسرته فقد اضطهد ونُفِيَ من بلاد الغال إلى الشرق. أعلمته زوجته يوما في رسالة أنها اختارت عريسا لابنتيهما أبرا Abra شابا غنيا من عائلة نبيلة وذات فضل كبير. وببراءة طفلة السادسة عشرة عبّرت أبرا في ضميمة عما تركته الفساتين الجميلة والجواهر الثمينة في نفسها من غبطة. ولم تكن العائلة تنتظر لإتمام مراسم عقد القران سوى موافقة الأب. لقد كان ذلك الحب الإنساني على نقيض التطلعات الزهدية للكاهن الغارق في الطهارة. فكاتب ابنته محاولا إقناعها بأفضلية المشاعر الروحية. ومن المؤكد أنّ ذلك الأب المسيحي لم يغال في استغلال سلطته ليفرض إرادته على ابنته، فهو بالتأكيد يحترم اختيارها الروحي. لذلك خاطب عقلها وإيمانها المسيحي: عرض عليها زواجا صوفيا بالمسيح. فهو رباط أرفع من ذلك الذي أعّد لها مع رجل من عامة الناس. لقد كانت لغته تضاهي لغة الحواريين الأوائل عذوبة(1).

= لمن الفضل في حفاظك على عذريتك؟ إنك لم ترتجفي أبدا بين أيدي متوحشة ولم تقعي في الأسر فتخلع عنك كل ملابسك. ولم تفزعي لمرأى اللواتي كن يدفعن عن أنفسهنّ الأعداء. لقد تألمت بداخلك لمرأى عذارى الإله يخطفن. إن موطنك الذي كان في ما مضى عروس المدائن ليس سوى مقبرة للشعب الروماني. وأنت المنفية في سواحل ليبيا ستتزوجين رجلا منفيا.

(Lettre VIII , *ad. Demetriamem*)

(1) قال لها بلغة العصر المجازية: «عندما جاءني خبر رجل شاب آية في الجمال وفاحش الثراء ويملك كسوة وحجارة كريمة لا تقدر بثمن. سلكت طريقا طويلة وشاقة للوصول إليه لكي أطلب إليه كَنْزَيْه لابنتي: ثوبه وحجارته الكريمة. إن هذا الثوب المنسوج من صوف لا يلحقه البلى، كان أبيض من الثلج وأرق من الحرير. كل جمال الأرض والسماء يكسف أمام بريق حجارته الكريمة. ومن يحوزها لن يمرض ولن يشيخ ولن يموت. لقد أراد الشاب أن يعهد بهما إلّي حتى أهديهما لك يا ابنتي. ولكن على شرط أن تكوني جديرة بهما، ولكنه يريدني أن أعرف أولا في ماذا تفكرين وفي ماذا ترغبين... ثم أضاف الكاهن القديس: يا ابنتي فكري في اهتمامي بك، اقرئي هذه الأسطر وأعيدي قراءتها. ثم أجيبيني بخطّ يدك حتى أعرف بماذا أجيب الرجل الشاب: فإذا ما قبلت هديته فسأقول لك من هو وماذا يريد، وبماذا يَعِدُ وعلى ماذا يقدر. وفي الانتظار أرسل إليك نشيدين دينيين نظمتهما لتنشدي واحدا في الصباح، والآخر في المساء حتى تكوني دائما في خاطري. وإذا ما صادف أنّ في الرسالة شيئا لم تستطيعي فهمه بسبب صغر سنك اسألي أمك التي تروم تربيتك وفق أخلاقها الخاصة. يا ابنتي العزيزة رعاك الله، خالقك، إلى الأبد».

إلا أنّ رغباته تعد في عرف الأمّ والبنت أوامر فلحظة عودته إلى المنزل في بواتيي كانت أبرا تلبس الفستان الأبيض ذا الحاشية الأرجوانية الذي تلبسه العذارى المسيحيات ذوات الأرومة النبيلة.

لقد عوّل هيلار وحتى أبرا نفسها على قوة الإيمان، فمن عيوب الحب أنه مكابر. لقد تملكت روحها العاشقة صورة ذاك الشاب الوسيم حتى إنها لم تعد قادرة على الفكاك منها. ثم إنّ أبرا ماتت بُعَيْد بضعة أشهر، وكانت قد عاهدت الإله على أن تظل عذراء، فكفنها أبوها المكلوم بنفسه. ثم إنّ الكنيسة رفعت شهيدة برّ الأبناء وعمى بصيرة الآباء إلى مصاف القديسات(1).

كانت لمعارضة الزهد للحب نتائج ذات طبيعة مختلفة. لقد أدت الرغبة الجامحة في دفع الصبايا الفقيرات نحو الزهد إلى الشعور باليأس. فانتقم الحب من العذرية التي فرضت عليهن فسقطن في الرذيلة.

من ذلك أنّ ماكرينيا Macrinia شقيقة القديس باسيلوس Basile نذرت نفسها للعذرية وذلك إثر وفاة رجل كانت تحبه. فتبعتها بعض النساء ونذرن أنفسهن للصلاة ولأعمال البرّ. وكان من بينهن أمّ وبناتها الثلاثة: قبلت أصغرهنّ هذا النوع من السجن وهي لم ترشد بعد فوجدت نفسها فريسة لأفكار جديدة وأحلام غريبة: لقد تجلّى لها الحب فبسط عليها سلطانه. وكانت لحظة مصيرية إذ ما لبث أن ظهر محب وخطبها وبذلك ودعت عالم العذارى لتذوق معه الملذات التي طالما صبت إليها.

ولكن الواقع لم يكن دائما أرضا تنبت الآمال، فسرعان ما أصابتها التخمة فهجرت فاتنها لتعيش مع الزاهدات(2). وملخّص الحكاية أن الفتاة العذراء لم تستقبل بالتوبيخ بل بالعكس قوبلت بفورة فرح شبيهة بتلك التي أطلقتها قديما عودة الابن الضال. تمثلت

---

(1) Hilarius , *epist. Abr*, 5 ----Hieronimus, epist,22

(2) هناك قصة مماثلة روتها هروزفيتا Hrosvita في مسرحها الذي سنهتم به لاحقا: حبست ابنة أخ الناسك أبراهام في حجرة ضيقة جدا ومع ذلك دخلها الحب فهربت الشابة مع عشيقها. ولمّا تخلى عنها لم تجرؤ على العودة إلى الناسك وانتهى بها المطاف إلى أن لجأت إلى دار مشبوهة يؤمّها الغرباء تمارس فيها معهم الرذيلة.

العقوبة الوحيدة التي أنزلت بها في كلمة رائعة ألقاها القديس باسيليوس حول لطائف البراءة. لم يكن المسيحيون قد عرفوا بعد اللعن الكنسي والعقاب الجسدي، لقد كان آباء الكنيسة ينصحون العذارى بالحفاظ على عذريتهن ولكنهم لم يفرضوا ذلك. وإذا ما فرطت إحداهن فيها فإنهم يوكلون عقابها إلى الإله.

عندما نتمعّن في الواقع يمكننا أن ندرك سبب نفور آباء الكنيسة من الزواج، لقد كانوا يخشون وقوع العذارى في شرك الكفر أو في شرك فتنة زوج غني وفاسق. ومهما وثقوا في قوة النساء فإنهم كانوا يعلمون أنهن لم يكن كلهن قادرات على مواجهة بعض المغريات. لقد كانوا يريدون حفظ إيمان الفتاة الشابة من تقلبات الزمن وذلك بأن لا تتزوج بغير المسيح.

وكما قال القديس قبريانوس: «إن العذارى هنّ اللواتي يصنعن فرح أمّنا الكنيسة ومجدها، فهي التي تشهد على خصوبتهنّ وكلّما تضاعف عددهن تضاعف جذل أمّنا القديسة».

مما لا شك فيه أنّ العذارى لا يتشابهن ولسن كلهن قادرات على زيادة غبطة كاهن قرطاج، القديس قبريانوس. فمن ضمن بعض النساء اللائي يقبلن ما يتطلبه ذلك الوضع من فروض قاسية كان هناك عدد لا بأس به منهن لا يتمسك سوى بمظاهره. إنّ المجتمع يعج بمدعيات العذرية اللواتي يشبهن كثيرا النساء الطليقات قديما. انزعج القديس قبريانوس من الأمر وقدم لنا صورة ثرية عن عزوبيتهن الظريفة... كتب يقول: «لقد كن يفتخرن بأصلهن وثروتهن. وكن يلوين على رؤوسهن ورقابهن عصائب فاخرة وأكاليل من الماس وأساور باهظة الثمن» ثم أضاف «فهل جعل الخالق هذه الأشياء لكي تحجب وراءها الوجوه ويبرز ما يريده الشيطان؟.. وهل سمح بمسخ العيون عبر صبغ الجفون؟ وهل سمح بطلاء الخدود بالأحمر حتى نواري ذبولها وبإظهار الشعر في غير لونه الطبيعيّ؟ وهل كان الخالق يريد من أحدنا أن يمسخ شخصه بإحلال المصنوع بدل الطبيعي..؟»

لم يكن القديس قبريانوس يعتبر أولئك المتبرجات في عداد العذارى، بل كان يروم

«إبعادهن بلطف عن القطيع كما تفرد النعاج المصابة حتى لا تعدي السليمة».

إنه يميز من بينهن «أولئك اللواتي لا يتوانين عن مشاركة المدعوّين فجورهم وعن البذاءة في القول وعن سماع وترديد ما ينافي الأخلاق وعن الظهور على المسرح حيث التنافس على الدعارة وحيث يطلق العنان للأهواء وحيث تتعلم الزوجة كيف تخون زوجها والزوج كيف يغازل النساء. لماذا تتردد تلك العذراء على تلك المجالس؟ إنها لا تبحث فيها بالتأكيد عن زوج! لقد غشيتها طاهرة وقد تغادرها مذنبة».

يبدو أن عذارى قرطاج لا يفرّقن بين الحسن والقبيح: «فما رأيكم في أولئك اللواتي يترددن على الحمام العمومي ويختلطن فيه بالرجال فيتعرين وينظرن إلى الآخرين عرايا، وهو أمر تأباه الآداب والحياء! لقد أصبحن أداة فسق. وهل بإمكانهن والحال تلك ألاّ يكن مذنبات بإثارتهن تلك..؟ إنّ ذلك الحمّام لا ينظفهن بل ينجّسهن... إنهن يضربن مواعيد أكثر ملاءمة للفحش من المسرح، ففي الحمّام يتجردن من كل حياء وفيه ينزعن ثيابهن وما تبقى لهن من شرف. وهناك تكون عذريتهن محلّ اتهام. فهل بإمكانهن المحافظة على عذريتهنّ في صحبة الرجال خارج الحمّام وهن اللواتي حرصن على التعري أمام عيون بها جوع إلى الفحش؟(1)»

هذا هو إذن الصنف من النساء الداعرات. صنف بدأ ينتشر بتشجيع بعض الآباء الذين حثوا على العزوبية. لقد طلبنا قديسات فلم نجد سوى عذارى عاهرات سليلات **بغايا وعشيقات** العصور السابقة.

وإذا ما تركنا جانبا وجهة النظر الأخلاقية واكتفينا فقط بالبعدين الاجتماعي والسياسي... فإنه ينبغي لنا ألاّ نغفل عن أنّ الظروف هي التي حتمت ذلك الطلب الكبير على العذارى. ألم تكن مصالح المسيحية الأساسية هي التي حتمت التضحية بطهارة بعض الفتيات الوجلات. في مكتوب منسوب إلى القديس قبريانوس نقرأ: «إن العذرية ليست حكرا على أحد، إنها طفولة دائمة. إنّ العذرية عاقر بل هي تمقت الأطفال فلا حمل ولا

(1) Saint Cyprien , *de Habitu virginum*

ترمل كذلك...».

هل كان القرن الثالث، قرن الصراع، إن وجد صراع، زمنا مناسبا لنصح المسيحيين بهذه **الطفولة الدائمة** وهذا الحرمان من النسل؟ أليس النصح بكمال عقيم من شأنه أن يحرم المجتمع والعائلة المحدق بهما الخطر من عون النساء الأكثر إخلاصا وفضلا؟ ألا يعني ذلك تسليم مقاليد العالم للفاجرات والماجنات؟

لقد كان الحواريون يفضلون الحب الطاهر وما يتحلى به من قوة. فهم لم يحظروه بل أباحوه ودعموه حتى يستغلوا تأثيره في خدمة الإيمان. لقد تعاملوا معه كما نتعامل مع جندي مقدام وقوي ندجّجه بالسلاح قبل الإلقاء به إلى المعركة. لقد كانوا يتجنبون دفع المرأة إلى الترهب والعزلة. إنهم يعلمون أنّه كلما تمكّن غازٍ من الأسرة كان ذلك مقدمة لانتصاره على الدولة. لقد كانوا يختارون نساء قويات مكافحات قادرات، بما لهن من حنان طبيعي، على قهر الرجال وتخليصهم من النزعة الحسية الوثنية. كانوا يستدعونهن للمشاركة في الحملة الانجيلية الكبيرة ويوكلون إليهن أمر هداية الكفار عن طريق الحب[1].

إن ملكة الإلهام خاصية نسائية على وجه التحديد وذلك بفضل حساسية المرأة وحدسها الروحي. ولا شيء يعادل سرعة بديهتها في قولها: «إنني أرى الإله الجديد إنني أؤمن به»[2].

(1) أعلن كل من القديس بولس، والقديس متّى Matthieu Saint والقديس جيروم أن المرأة مساوية للرجل في الكرامة (Saint. Paul ad. Corinth..c. VII ; Saint. Matthieu, c. XIX, Saint-Jérôme lettre (XXXIV).

وزاد القديس متّى عن ذلك انه إذا كانت المرأة دون الرجل في القوة الجسدية فهي تفوقه إيمانا وحبا (Chapitre IX, V, 22 ; XV, 28, XXVI, V... 12)

كما أنّ القديس بولس أعلن أنه عليها أن تكون مثل الرجل في خدمة الإله.

(2) لقد عرفت السامرية المسيح بواسطة كلمة ونظرة، فسارعت تنشر خبر وصوله في المدينة وكانت المجدلية الأولى من بين تلاميذه التي علمت بعودته إلى الحياة وتفهّمتها. وعندما وصل القديس بولس الى فيليبي Philippes صحبة تيموثاوس Timothée فقد عُرِفَ أمره بداية عن طريق جارية ساذجة رغم أنها لم تره قبل ذلك اليوم (*actes des Apôtres*. XVI) وعندما كان هيلار أسقف مدينة بواتيي يجوب فريجيا Phrygie لمحته فلاحة شابة تدعى فلورنسيا Florentia يدخل قريتها فنبهها صوت بداخلها وأسرعت إلى الكنيسة وهي تصرخ: «هذا هو عبد الإله. ثم ارتمت=

إنّ واجبها يحتّم عليها توجيه هذا الحدس نحو التنبؤ بانتصار العقيدة الجديدة وتخليص الإنسان من الآلهة المزيفة وتمكينه من اكتساب فصاحة المبشرين وإقدام الشهداء[1].

ولذلك ما انفكت الكنيسة تشيد بالخدمات التي قدمتها لها النساء فحباهنّ ترتوليانوس بكتاباته الأكثر بلاغة. أمّا القديس جيروم فقد جادلهن في معنى بعض الفقرات المبهمة من الكتاب المقدس. وقد منحت أكثرهن حماسة بالشعائر العمومية رتبة **كاهنة انجيلية** *Diaconesse* مهمّتها وعظ النساء وتعليمهن. وقد خلّص القديس أوغسطينيوس البنات الراشدات من سلطات أمّهاتهن في ما يتعلق بمشاغل الحياة المهمة وأعطاهن الحرية الكاملة في اختيار أزواجهن[2].

إنّ المرأة ما تنفك تظهر جدارتها بالثقة التي منحت إيّاها. فكانت في مقدمة شهداء الاضطهاد. إنّ نساء بلاد الغال بصفة خاصة يوظّفن لخدمة المسيحية تلك الطاقة العجيبة التي كانت جدّاتهن قد خصّصنها لخدمة الوطن والحب[3].

إنّ الهراطقة لم يتوانوا عن تقليد سياسة المسيحيين رغم رفضهم ما في أخلاقهم من منغصّات. لقد استعانوا هم أيضا بالنساء، ولكنهم كانوا يختارونهن بطرق أكثر حزما

= عند قدميه وتوسلت إليه أن يرسم على جبينها علامة الصليب التي تميّز المسيحيين. لبّى الأسقف رغباتها وانطلقت فلورنسيا نحو والدها وأمّها وكل عائلتها تدعوهم إلى التنصّر.

(1) كانت نونّا Nonna إحدى البطلات الأوليات في حملة النساء تلك زمن القديس غريغوريوس النيصي تزوجت من شاب من فرقة مشركة. ولكنّها توصلت بقوة حنانها وحبها إلى أن تهديه إلى المسيحية.

(2) يقول تروبلونغ M. Troplong «إنّ المسيحيين يسعون إلى أن يجدوا في المرأة مساعدا مؤثّرا. لقد أرادوا لها أن تأخذ نصيبها من منافع الدين المسيحي السياسية، ذلك الدين الذي ساهمت في الإعداد لتطوره ومازال كذلك بإمكانها أن تنمّيه (*Influence du christianisme*, p. 293).

(3) أثناء الاضطهاد الليوني الأول برزت كل من جوليا Julia وألبينا Albina وقراتا Grata وروقالا Rogala وإيميليا Emilia وبوستهومتنيا Posthumania وألبيس Alpis أوأنيولات Agnelette وقمنيت Gamnite ورودانا Rodan a وبومبيا Pompeia وكارتا Qarta وماترنا Materna وأنتونيا Antonia وجوستا Justa وألومنا Alumn aوأوزونيا Ausonia وخاصة بيليادا Bibliade والشهيرة بلاندين Blandine التين دوّختا المضطهدين بعدم اكتراثهما بالتعذيب. وفي روما كان لامرأة لوحدها شجاعة الترحّم على القديس بولس. وفي تولوز أدّت امرأتان نفس الواجب تجاه جثمان ساتورنيزوس Saturnin.

ويستبقينهن بمغريات مادية. من ذلك أنّ ماركوس Marcus زعيم الطائفة افتك زوجة صديقه كاتب الكاهن. وأمّا تلاميذه **الماركيزيون** فقد أظهروا براعة في غواية النساء الفاضلات حتى اتهموا باستعمال شراب المحبة والسحر. لقد كان كلامهم المعسول مبطنا بإيحاءات غرامية، إذ أنّ كلّ عقيدتهم كانت تتمحور حول **الاتحاد الصوفي**. إنّ طريقة تعليم المؤمنات حديثات العهد بالإيمان تبدأ بأن يطلبوا من المؤمنة الصعود إلى فراش الزوجية ثمّ يعظونها بالقول: «تزيّني كما تتزين الزوجة انتظارا لزوجها حتى **أكون أنا أنت وتكونين أنت هو**».

وقد روى القديس إيرينيؤوس Irénée أنه ما إن ينتهي أحد أولئك المبشّرين من تجربة التعلم فوق السرير مع بعض النساء ذوات النسب الرفيع حتى يسارع برفعها إلى مرتبة الكاهنة والمتنبئة. ثمّ يخاطبها قائلا: «لقد حلّت بك الحكمة. تكلمي وتنبئي» وإذا ما صادف أن تلعثمت البائسة غير المستعدة لأداء هذا الدور فإن الماركوزي يطلق عليها لعناته حتى يرعب الحضور. ثم يزمجر قائلا: «لا تتوقفي عن الكلام. قولي كل ما يجول بخاطرك فتلك هي النبوءة».وفعلا اغترت المرأة بمعسول كلامه ووقع لديها أنّها ستكون نبيّة بين الأنبياء، فنفذت الأمر ونطقت بما كان منتظرا أن تنطق به. وهكذا تواطأت مع ذلك الماركوزي الذي فتح لها باب المجد فتبادلا الهدايا والمنافع. وانتهى بهما المطاف كما هو متوقع إلى **اتحاد كامل**. علق القديس إيرينيؤوس بخبث قائلا: «أليس الزواج طريقا للاتحاد» وهو بذلك لا يستحي في مثل هذه المناسبات أن يتلاعب بالألفاظ.

انبهر المشرعون بتأثير المرأة في الحضارة فرغبوا، على غرار الأخلاقيين، في الاستفادة منها عبر تحسين وضعها المدني.

إنّ هذا الدور الإصلاحي يعود في جانبه القانوني إلى الإمبراطور قسطنطين الذي حاول الجمع بين القانون الروماني وتعاليم الإنجيل.

لقد حرم المسيح الطلاق أما قسطنطين فإنه، وإن لم يحرّمه، فقد حاول أن يقلل إلى أبعد

حدّ من موجباته[1]. وبنفس الأسلوب تصدى لظاهرة التسري فبدأ بالاعتراف بأطفال التسري شريطة أن يتزوج الوالدان[2]. ومنع الوالدين من توريث الأبناء غير الشرعيين لا بالوصيّة ولا بالهبة، كما منع كلّ رجال القصر من اتخاذ سريّات حتّى يكونوا قدوة لغيرهم.

كما أنه كان متحمسا كذلك لتحرير النساء. وفعلا ففي سنة 321 الغى قانون الوصاية الذي كان يثقل كاهل النساء ويقعدهن عن إنجاز أية معاملة قانونية، واعترف بأنهن راشدات مساويات للرجال في إبرام كل أنواع العقود[3] كما أعطى للأمهات الحق في تركة الأبناء ثم إنّ جوستانيوس طور ذلك القانون الإصلاحي فحذف منه كل ما يذكّر المرأة بخضوعها ودونيتها.

لم تتأخر نتائج تلك الولادة الجديدة للمرأة عن التأثير سياسيا، فقد كانت مقاليد الدولة تعهد أحيانا إلى النساء. وعندما يتعذر عليهن أن يرتقين إلى رتبة إمبراطورة فإنهن يستعضن عن ذلك بتصرفهن كملكات حقيقيات وذلك إمّا باستعمال المكائد وإمّا باستعمال العلاقات الغرامية.

كنا قد روينا قصة جوليا دومنّا السورية، زوجة سبتيموس سيفوروس، وقد ظهرت بعدها الطامحات **مويزا** *Moesa* و**سونيا** *Soenia*، الأولى جدة وأمّا الثانية فأمّ هيليقابل Heliogabale. ثم ظهرت كل من **مانيا** *Manée* أمّ الكسندر سيفيروس. **وفاوستا** *Fausta* زوجة قسطنطين، والإمبراطورة **زنوبيا** *Zenobie* **وجوستين** *Justine* أمّ فالنتينوس Valentinien. وكن كلهن

(1) لم يعد مسموحا للمرأة بان تقطع أقدس المواثيق بسبب انغماس زوجها في شرب الخمر واللهو ومعاشرة النساء. وليكفّ الزوج عن الاعتداد بحقّه في تطليق زوجته لأي سبب. لم تعد هناك سوى ثلاثة أسباب معقولة للطلاق: يطلّق الزوج إذا قتل نفسا بشرية أو إذا كان ساحرا أو نابش قبور. وتطلق الزوجة إذا زنت أو إذا استعملت الرّقى أو إذا اشتغلت قوادة.

(Troplong ; *De l'influence du christianisme* p.222)

(2) إنّ جعل أطفال التسري أطفالا شرعيين يعني أن يضفي الإمبراطور شرعية على نفسه لأن والدته هيلان Helene لم ترتبط بأبيه قسطنطين إلا عبر ذلك النوع من الزواج من الدرجة الثانية.

(3) *In omnibus contractibus jus tale habeant quale viros*

يحكمن الإمبراطورية أو يتمرّدن عليها بفضل كفاءتهن وعبقريتهن[1].

(1) توصّلت مويزا إلى أن تنصّب حفيديها هيليوقابل وألكسندر سيفيروس إمبراطورين وقد أوحت لسونيا والدة هليوقابل بعمل جسور مماثل، فدخلت بكلّ زهو مجلس الشيوخ وجلست بجانب القناصل.

(Gibbon t I ,p. 335-3 46)

أمّا ماري أمّ سيفيروس فنسجت على منوالها فكانت تختار وزراء ابنها. وعينت له مشرّعا الشهير أولبيانوس Ulpien.
أمّا فاوستا ابنة مالكسيمانيوس فقد جمعت في شخصها وقار السيدات الرومانيات وهوى الشرق الجامح الذي تنحدر منه،من جهة أمّها. فأحبت قسطنطين بجنون طول حياتها، ولكنها بالغت في ذلك على طريقة الشرقيين بأن جمعت إلى حبه طموحا لا يرعوي أمام الجريمة. وقد دفعتها غيرتها من أبناء زوجة قسطنطين الأولى إلى أن اتهمت أحدهم هو كريسبوس بأنه سعى إلى غوايتها.ممّا حدا بقسطنطين، وكان سخطه أكبر من سخط تيزاي، إلى أن يقسو عليه ويحكم عليه بالإعدام. وهو نفس المصير الذي لقيه ابن أخيه ليسينياسوس وكان عمره اثنتي عشرة سنة. لقد كانت فاوستا الطموحة مستبدة بعقل زوجها. وعندما عادت هيلان من رحلتها في سوريا حيث كانت تبحث عن خشب الصليب الحقيقي وعن حجر القديس سبيلكريوس Saint Sépulcre تملكها حنق شديد تجاه مرتكب هذه الجرائم وأعلنت الحرب على فاوستا. وما لبثت أن اتهمت زوجة الأب بإقامة علاقات مشبوهة مع مروّض الخيول فأمرت بخنقها في الحمّام.

(Gibbon, t. IV, p. 180à 182)

كانت جوستينيا أمّ فالنتنيوس ووصيته تحكم قبضتها على مصائر تلك الإمبراطورية الرومانية المهتزّة أيّما اهتزاز بطبعها.
كانت من أتباع الأريوسية وقد اضطهدت قس ميلانو Milan الشهير القديس أمبريسيوس، ومع ذلك فهي من أعلام العصر الكبرى، وواحدة من أقوى العقول وأفضلها.. أمّا في الشرق فقد سعت زنوبيا إلى أن تنهض بإمبراطورية سيميراميس ونجحت في ذلك بعض الوقت: ثم هي اشتهرت بجمالها، كانت تتقن اللغة الإغريقية واللاتينية والمصرية والسورية وكانت تدرس على لونجين Longin. وصنفت مختصرا لتاريخ الشرق. وإنّ مساهمة الحب في تطوير صفات الملك لديها لم تكن قليلة. فقد كانت شغوفة بزوجها أودينات Odenat فكانت تصحبه في الصيد والحرب وتقاسمه المخاطر والأتعاب وتروّض الخيول وتقوم بجولات طويلة راجلة. ثم إنّها ساهمت مساهمة فعالة في حملاته ضد القوط. لقد جمعت إلى هذه الروح الحربية عفّة الأمازونيات (الفارسات المحاربات) فقد كانت تتمالك نفسها بشدة حتى تجاه الزوج الذي تحبه. وعندما حرمت من حمايته بعد مقتله لم يزدها ذلك سوى حرص على الانتقام له وعلى استئناف غزواته. ثم إن أوريالوس Aurélier تمكن في النهاية من الاستيلاء على تدمر Palmyre وحملت زنوبيا إلى روما حيث ماتت في هدوء بعد أن حظيت بحماية غازيها الذي ما انفك يحترم في ذاتها أحد أكبر أمراء عصره (.Cibb T. II, p 35 à 744)

أما بولخيريا *Pulchérie* إمبراطورة الشرق فقد حازت أجلّ ملكات المُلْك إلى جانب فضائل الزوجة المسيحية (من 414 إلى 458). وأما أودكسي *Eudoxie* ابنة بيتون Beauton وزوجة أركاديوس Arcadius فقد كادت تعادل الأولى مجدا لو لم تضطهد القديس يوحنا فم الذهب Jean Chrysostome (من 380 إلى 404). أما أتنايس أودوكسوس *Athénais* – *Eudoxie* ابنة تيودوسوس Theodose الشاب فقد جمعت بين عبقرية الملك وموهبة الشعر والفنون وكذا محبة الحواريين. ولمّا أثقلتها الهموم أظهرت عظمة وهي تنهار لم تظهرها في زمن رخائها (من 421 إلى 444). وأخيرا =

لذلك لم تفلح كل اتهامات خصوم المسيحيين لهم بأنهم كانوا يعتمدون على نساء ساذجات وأنهم كانوا يحيطون أنفسهم بنساء عديمات التجربة (*mulier crédula,* *muliercula imperitas*). وحتى العالم الروماني ورغم قصور إرادته فقد جرفه التيار فحّرر المرأة من معوقات القانون المدني القديم وأباح لها حكم الأباطرة وقيادة الإمبراطورية.

لقد أوجب ذلك التأثير المتعاظم للمرأة في السياسة على المسيحيين أكثر من أيّ وقت مضى أن يجعلوها في خدمة الدين والأخلاق. لم يكن إذن من الحكمة دفعها نحو صمت الأديرة أو أحلام العذرية العقيمة بل الحكمة في دفعها نحو حياة الزواج الفعّالة والحركية. إلاّ أنّ الوثنيين لم يكفوا عن المقاومة فتكثفت الجهود لمقاومتهم.

ومصداقا لذلك تراجع الأباطرة عن إصلاحات قسطنطين فألغوا تدريجيا الأحكام التي حرّمت الطلاق والزواج غير القانوني[1].

يصعب علينا، في مثل ذلك الوضع العصيب الذي عاشته الأخلاق الانجيلية، فهم ولع بعض آباء القرنين الثالث والرابع بحياة الترهب التي كانت تهدد بحرمان المسيحية من مساهمة النساء الأكثر إخلاصا وفضلا.

= فلم تكن ابنتها ليسينا أودوكسيا *Licinia-Eudoxia*، وكانت إمبراطورة مثلها، أقّل من الأمّ وابنتها الأولى شأنا لو لم تستنجد بالوندال عندما حاصرتها المشاكل والمخاطر، فدمروا روما وأخذوها سبيّة إلى إفريقية (من 422 إلى 463).

(1) أباح هونوريوس Honorius تطليق المرأة لمخالفات أبسط بكثير من تلك التي أقرها قسطنطين، إذ يكتفي الزوج بأن يعيد لها جهازها مع احتفاظه بهبته ثم هو حرّ في أن يتزوج ثانية بعد عامين.

ثم توالت التسهيلات الممنوحة للمطلقين فالزوجة المطلقة بإمكانها التزوج ثانية بعد عام واحد من طلاقها. أمّا الزوج الذي هجرته زوجته فله كل الحرية بأن يتزوج ثانية فوراً. وهكذا توالت التنازلات حتى فقد القانون المدني كل التحفظات التي اشترطها قسطنطين. ومع تيودوسوس وجوستانيوس أعيد العمل بالطلاق بالاتفاق (Troplong. P213-224). أمّا في ما يتعلق بالزواج الحرّ فقد أعاد فلانتينوس سنة 371 إلى الأطفال غير الشرعيين وأمّهم الحق في أن يحوزوا أموالا وصية من الأب. وقد أيّد الفيلسوف الوثني ليبانوس libanus وأحد نصحاء فلانسيانوس Valens هذا القانون. وقد قرر فلانتيوس الثالث و بلاسيديوس Placide إعادة العمل بتشريع قسطنطين ولكن تيدوسوس الشاب رفض ذلك وأعاد جوستنيوس للزواج الحرّ كل امتيازات القانون القديم. وإذا كان ليون الحكيم قد منعه في الشرق بفضل رجحان الأفكار المسيحية فإن بدعة جديدة في إمبراطورية الغرب قد أعادت العمل به وظل ساري المفعول قرونا عديدة (Troplong, p243 à 246)

ولكن من حسن الحظ أن مواعظهم لم تُصِبْ نجاحا تاما فالنساء الفاضلات حقّا جمعن في الزواج بين حيوية الإيمان وحيوية الحب.

إنّ تاريخ الامبراطوري المتأخر قد تمحّض بالكامل للنساء. وفي فترات الانحدار السياسي والأخلاقي الذي عرفه ذلك الزمان البائس بدا وكأن الرجال قد عَدِمُوا كل فضل. أمّا النساء فلم يفقدن فضائلهن، ولذلك من الطبيعي أن نجدهّن في قمة دواليب الدولة. وكن يؤخرن سقوط تلك الإمبراطورية الشاسعة التي كان الجرمانيون يهاجمونها من كل حدب وصوب تارة.بمؤهلاتهن الفاتنة وأحيانا أخرى يفضل عبقريتهن وفضائلهن. ربما يكون ذلك مادة لكتاب مهم يكتب عن تلك المرحلة، سيكون أكثر درامية وأكثر واقعية من تلك السير التي صنّفت عن الأباطرة الذين عاصروهن. ففي مثل تلك المصنفات يجبر المؤرخ على أن لا تتجاوز أخباره خيانات القواد والخطباء وعجزهم، في حين ستنصبّ سير الملكات على الجوانب المضيئة والعظيمة لتلك النهاية السعيدة لمأساة العصور القديمة، وربما قد تصالح الإنسانية مع فترة تمتد ثلاثة قرون قدمت لنا على أنّها أتعس فترات التاريخ.

القسم الثاني

الحب في ظل غزو البرابرة

1

الغالبون المغلوبون

في الوقت الذي بدت فيه المرأة وكأنّها قد تحكمت في مصائر العالم، وفي الوقت الذي غدت فيه قويّة وذات نفوذ غير مسبوق، جاءت المنغّصات من الشمال: غزو البرابرة. سينهار كلّ شيء كما سيقول المؤرخون الذين نقلوا لنا أخبار فظاعات القرن الخامس وأخبار ممالكه وشعوبه وكذا حضارته ومعالمه.

ومن المؤكد أن المرأة ذات الأيدي الناعمة والقوام الرشيق والجسم النحيف ستسحق تحت حوافر الخيل بعد أن تكون قد تعرّضت للاغتصاب، هذا ما أخبرت به نبوءات خراب أورشليم.[1]

ولكن شيئا من ذلك لم يحصل! فهل نحن في زمن المعجزات ؟ فمن أغرب ما حدث في التاريخ أن سقط سلطان روما وظلّ سلطان النساء قائما فقد خلع القوط Goths والإفرنج Francs والوندال Vandales والهونز Huns الأباطرة الرومان، ودمّروا المقاطعات وقتلوا في أحايين كثيرة الكهنة وخرّبوا الكنائس. ولم يصدّهم ويلطّف من عنفهم سوى المرأة. ذلك أنّهم لم يصغوا سوى لصوت واحد هو صوتها... لقد صوّرتهم الأخبار حيوانات متوحشة ولكن عند المعاينة تبيّن أنهم يقدّرون المرأة جيّدا عندما يعجبون بها. ويبدون خضوعا كبيرا عندما يتوجب عليهم طاعتها، وبسهولة يتركون وثنيتهم ويعتنقون المسيحيّة طمعا في حبّها ورغبة في تزوّجها.

هذا التناقض بين الرعب الذي يسببه البرابرة خبرا وبين الرقة التي يتمتعون بها، نسبيا، عيانا، قد لخصته بطريقة بسيطة واقعة من وقائع غزوة أتيلا[2] Attila.

(1) أنظر نموذجا من هذه النبوءات في: «**العهد القديم**»، **سفر إرميا**، الإصحاح 40. (المترجم)

(2) هو أشهر ملوك الهونز أجداد الأتراك عاش ما بين 395 453 م. أسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة عاصمتها ما يعرف اليوم بهنغاريا. قضى عليه الرومان والقوط الغربيون. لمزيد التفاصيل راجع:

Nouveau Larousse Encyclopédique.ed.Larousse-Bordas.Paris 1998.T.I.p.126(المترجم)

فقد ذكر م. تياري M. Thierry نقلا عن اثنين من كتّاب السّير هما كاليماش Callimach وأولاهوس Olahus «أنّ أتيلا شاهد بالقرب من المدينة أرملة بائسة هاربة عبر الحقول ومعها عشر بنات. ولمّا كانت كبرياتهنّ بالغات فقد كنّ يهرولن إلى جانبها، وأمّا صغرياتهنّ فكنّ يمتطين حمارا، وكانت معها أيضا رضيعة علّقتها في رقبتها بواسطة قطعة قماط. ترى إلى أين يتجه ذلك القطيع الفزع ؟ لا شكّ أنه سيلقي بنفسه في النهر هربا من فظاعات الهونز. أمر أتيلا أن يحضرن إليه في الحال.. كانت الأرملة المسكينة ملقاة على الأرض ووجهها معفّر بالتراب لا تقدر أن تنبس ببنت شفة. سألها عن البنات هل هنّ بناتها وهل هنّ بنات شرعيات أم لا ؟ أجابت وكاد الرعب يقتلها، نعم. إنهنّ عشر وسيتيتّمن بعدي. عندها أخذ بيدها وهدّأ من روعها وأعطاها ما يكفيها من القطع الذهبية حتى تعيش مكرّمة وتزوّج تلك العيال[1]».

مشهد البرابرة وهم يبدون شفقة على السيّدات النبيلات وعلى الصبايا هو مشهد نادر الحدوث، ومع ذلك فلم يكن غريبا كل الغرابة بل هو ممكن الحدوث لقوم يتفكّرون.

ورغم تعدّد أسماء غزاة الإمبراطورية فإنّهم ينحدرون كلّهم، عدا الهونز، من العرق الجرماني الذي وقفنا على تشدد قوانينه بخصوص صفاء الأخلاق. ومن هنا فإنهم لم يجلبوا البربرية إلى العالم الروماني بل الأنوار. لم يجلبوا الرذيلة بل الفضيلة... فلم تكن المرأة في نظرهم مجرّد أداة تسلية ولكن كائنا علويا يحظى بعناية الآلهة وبتقدير الناس العميق. إن غاباتهم لم تنجب عاهرات بل أنجبت الكثير من أمثال فاليدا ومن أمثال إيبونين ومن أمثال بوديسي[2] Baudicée. لقد كانت العلاقات بين الجنسين لديهم عفيفة وصادقة على خلاف ما هو الأمر لدى الرومان الذين كانوا يحتقرون البرابرة أيّما احتقار بسبب صدقهم في الحبّ وتشددهم في الزواج. ولم ينس رجال الدين في ذلك الوقت وقد كانوا مبرّزين في ميدانهم، أن يظهروا للعلن هذه المفارقة. فقد كانوا يدعون رومان القرن الخامس إلى

---

(1) *Histoire d'Attila*, t, II, p, 264

(2) أشهر ملكة كلتية تلقب بالملكة المحاربة وترمز سيرتها لدى البريطانيين إلى الحرية.(المترجم)

الاعتبار بأخلاق القوط والوندال تماما مثلما كان تاسيتوس قد دعا رومان زمانه إلى الاعتبار بأخلاق أسلافهم الجرمانيين(1).

إن التمعّن في قوانين البرابرة يوفر لنا أدلّة مقنعة على مدى عنايتهم بحفظ عفّة العذارى وبحرمة النساء وطمأنينة الأزواج؛ فقانون البورقونديين(2) Bourgondes يختاط من زنى المرأة وخيانة الرجل بنفس الكيفيّة(3).

كان القوط الغربيون Wisigoths يضعون الأخلاق تحت طائلة القوانين المتّسقة تماما مع تعاليم المسيحيّة. لقد كان ذلك الشعب العملي بامتياز على درجة من النباهة بحيث أنه لا يعطي الأطباء أجورهم إلا إذا شفي مرضاهم. وإذا ما عجزوا عن ذلك يعزّرون(4). وقد بلغ به الحذر أن حرّم عليهم فصد النساء في غياب أزواجهنّ أوجيرانهنّ الثقاة. لقد كان يرى أنه من السهل التعوّد، في حالات مماثلة، على ارتكاب موبقات بحق الأشخاص الذين ينهارون بفعل النزيف(5).

(1) كتب سلفيان المرسيلي Salvien de Marseille «نحن فجّار بين البرابرة الأخيار، بل أقول، بين البرابرة الذين حيّرهم انحلالنا. إنّه لا يحق لقوطي أن يكون فاسقا. وحدهم الرومان يمكن أن يجاهروا سفاهة بفسقهم. لقد أضحت الدعارة في بلادنا عنوان فخر، في حين أنها لدى القوط جريمة وخطر داهم.

(*De Gubern Dei* ; VII, ch, VI)

(2) شعب جرماني ظهر على الأرجح في النرويج في النصف الأول من القرن الأول الميلادي. اشتهر بقوانينه المعروفة باسم قوانين البورقونيين التي صدرت سنة 516 م. (المترجم).

(3) لايحق، حسب هذا القانون، للزوج أن يطلّق زوجته إلا في ثلاث حالات: إذا زنت وإذا استعملت الرّقى المؤذية وإذا نبشت القبور. وإذا ما عنّ للزوج أن يطلق زوجته خارج إطار هذه الحالات الثلاث توجّب عليه أن يهاجر وأن يترك لها المنزل وما يملك. و إذا ما عاد إليها لاحقا توجّب عليه أن يعطيها **هدية الصباح**.*Le morgan-gabé* لقد كانت المرأة هي الضحية التي تدفع أغلى الأثمان لمثل هذه النزوات. ووفقا للتقاليد الجرمانية القديمة يمكن للمرأة أن تطمر في الطين إذا ما هجرت زوجها.(*Lex burgund*, XXIV, t, 1er, I, 4).

(4) نستعمل هذا الفعل ترجمة للعبارة الفرنسية mettre à l'amende والتعزير هو، كما ورد في لسان العرب، اللوم والضرب دون الحدّ والردع والتأديب وهي المعاني المقصودة في النص الفرنسي.(المترجم)

(5) لقد كان القوط الغربيون الذين تلطخت سمعتهم برذائل أخلاقية منكرة يعاقبون بالقتل. فكان عقاب مختطف المحصنة أو العزباء يتمثل في مصادرة نصف ممتلكاته لفائدة ضحيّته إذا ما لم يعتد عليها. أما إذا ما هتك عرضها فيجلد مائتي جلدة ويصبح عبدا للمرأة المهتوك عرضها، دون المساس بممتلكاته التي نالتها المعنية بالأمر تعويضا عمّا أصابها. وحتى لا تتأثر المرأة بما قد يبديه خاطفها من ندم أو بتهديداته فإن القانون القوطي، الأكثر تشددا من قانون اليهود، منعها=

ورغم أنّ اللومبارديين Lombards كانوا أقلّ حذرا تجاه الأطباء، فقد كانوا محتاطين من الظرفاء الجسورين بنفس الكيفية التي أقرها القانون القوطي الغربي. لقد بالغوا في التلطف بالنساء إلى حدّ تغريم الرّجل الذي يعامل المرأة بفظاظة أربعة عشر ريالا فرنسيا قديما écus إذا ما أهان امرأة أو لمجرّد أنه لم يبجّلها(1).

و لا يقل القانون السالي Salique عناية بالمرأة، فقد فصّل مختلف درجات الإهانة أو الوقاحة التي يمكن أن تعامل بها المرأة مع عناية متطوّرة بحسن معاملتها(2).

لقد عامل هذا القانون التعدّيات الخطيرة بحق المرأة معاملة جريمة القتل. فإذا اختطف رجل إفرنجي امرأة من زوجها أو افتك خطيبة في طريقها إلى زوجها واغتصبها يغرّم بمائتي ريال ذهبي، من غير المساس بحق المرأة في قتل غاصبها دفاعا عن شرفها (Grégoire de Tours).

وفي حالة القتل كانت ديّة المرأة الإفرنجية ترتبط بمدى قدرتها على منح زوجها ذرية كثيرة، فإذا كانت حاملا يغرّم قاتلها بسبع مائة ريال، و إذا كانت أمّا أوعلى وشك الولادة يغرّم بستمائة ريال. وأمّا إذا ما قتلت قبل سنّ البلوغ أو بعد سن اليأس فإنّ حياتها لا

=من أن تتزوجه وإلا عوقب الاثنان بالموت. كما أنه بإمكان أيّ شخص أن يعتقله ويقتله حالما يختطفها ليتزوّجها. ثمّ إنّ أخ المرأة الذي يكون قد سهّل ارتكاب الجريمة يعاقب هو أيضا بمثل عقاب الخاطف نفسه. لقد اعتبر الاغتصاب بمثابة خطف بالقوّة. أمّا في حالة الزنى فإنّ من حقّ الخطيب أو الزوج أن يقتل المذنبين الاثنين. وبإمكان الأب أو الأخ أو عمّ المرأة أن يسترقّ شريكها في الجريمة إذا ما ضبطه في بيته.(*Codex.Wis.Lib*. III , titre IV ,c II ,I , 4)

(1) حافظت اللومبارديات على الامتيازات القانونية التي كانت للجرمانيات القديمات فقد كنّ يشهدن القتال الفردي أو الثنائي (*Longobard*, I, I, t, XII, c. 6, *pars*. XVII, c.8). وفي المجال المتعلّق باحترام الجنسين كان القانون يعليهن على الرجال. وهكذا فخصي رجل لا يعاقب فاعله سوى بغرامة قدرها خمسة وأربعون ريالا فرنسيا قديما في حين أنّ عدم التغافل أمام امرأة عارية يغرّم صاحبه بثمانين ريالاً.

(Leg. Longobard. I, 1er t. XIV)

(2) يقضي هذا القانون بطرد كل من لا يحترم النساء من التجمعات العامة. وإذا ما تجرأ رجل على مصافحة امرأة أوحتى مسك إصبعها يغرّم بخمس عشرة قطعة ذهبية، وبثلاثين إذا ما لامس ذراعها أومرفقها، وبخمس وثلاثين إذا ما طوّقها بذراعيّه. وأما إذا لامس صدرها فيغرّم بخمس وأربعين قطعة ذهبيّة.

تساوي أكثر من مائتي ريال[1].

و إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل هذه الشهادات حول تميّز المرأة وما حازته من حماية فإننا لن نفاجأ بمكاتبة الملك الإفرنجي كلوفيس Clovis للكهنة، بعد عودته من حملته ضدّ الملك القوطي ألاريك Alaric، يعلمهم أنه قد أوصى جنوده بعدم إيذاء الكهنة والأطفال والنساء.

كان للقانون الألماني نفس المبادئ فكرست عديد فصوله بشكل واضح تفوّق المرأة على الرجل أخلاقيا وذلك طبقا لتعاليم إنجيل القديس متّى[2].

إن الزواج الرسمي بين كائن يحظى بكل الإعجاب وسيّد متمسك، بقوّة، بحقوقه وبمكانته شأن الرجل الجرماني لم يكن أمرا هيّنا ولم يحصل دون تفكير ولم يتم دون ضمانات.

لم تكن البربريات يتزوجن إلا بعد إقامة حفلة العرس، وبعد إذن أوليائهن الذين كانوا يفاوضون الخطيب حول شروط الزواج. ولكن الكلمة الأخيرة تعود إلى الفتيات إلى درجة أنه بإمكانهن أن يزوّجن أنفسهن بأنفسهن في حال اعتراض الولي دون موجب شرعي. وفي الحالات الطبيعيّة كان الخطيب يسلم الولي عربونا زيادة عن **هدية الصباح** التي يقدّمها

(1) كان للمرأة كذلك بما هي شيء ثمين يملكه الرجل ويشكّل جزءا معتبرا من ثروته، قيمة أصليّة. وكان على الرجل الذي يرغب في الزواج من أرملة أن يشتريها من ورثة زوجها بثمن لا يقل عن ثلاثة ريالات وفلس إنّه ثمن اعتباري ما في ذلك شك. و لكنه ليس أقل تكريسا لحق التملك الزوجي الذي لم تبطله حتى وفاة الزوج.

(2) اعتبر الاسترقاق وصمة عار تشين المرأة أكثر مما تشين الرجل. فقد تمّ الاتفاق على بيع الفتاة الحرّة بصفتها أمة أي بمبلغ أربعة وعشرين ريالا، في حين حدّد ثمن الرّجل الذي يكون في نفس الوضعيّة باثني عشر ريالا فقط. نفس هذا الاختلاف في الثمن طبّق على جريمة نبش القبور: فقد حدّدت غرامة نبش قبر المرأة بثمانين ريالا في حين حدّدت بأربعين فقط للذي ينبش قبر رجل.

و يغرّم من يعيّر امرأة بأنها **بغيّ مشهورة** *meretrix* بخمسة وأربعين ريالا ذهبيا في حين لا تتعدى غرامة الرجل الذي يفرّ من وجه العدو بأربعة ريالات.

و إذا ما اعترض رجل جارية وكشف رأسها بعنف أو شمّر ثيابها حدّ الركبتين فإنه يغرّم بستة ريالات. وأما حين يكشف عورتها فيغرّم باثني عشر ريالا.

(*Lex. Alamanorum*, t. XLIX ; part II, tit, XL VIII et Lex.Bavar ; t, VII, part V)

إلى زوجته صبيحة دخلتها مهرا لعذريتها.

لقد اعتنى كلّ البرابرة ذوو الأصل الجرماني أيّما عناية بالحفاظ على نقاء الأصل. ولأجل ذلك حرّموا زواج الأحرار من العبيد. وقد دفعهم اعتزازهم بأصلهم إلى أن سلبوا الرومان شرف مصاهرتهم(1).

لقد كانوا، مثل المسيحيين، حذرين بخصوص طهارة الأسرة لذلك حرّموا زواج الأقارب على طريقة بني إسرائيل والحواريين، أي تحريم زواج الفتاة بعمّها وابن الأخت بخالته وحتى زواج الرجل بامرأة أخيه حُرّم، وكذلك زواج الابن بامرأة أبيه(2).

لقد كان هناك ما يشبه العناية الإلهية تدفع العالم كله نحو انبعاث المرأة وتحرّرها. لقد ولّى زمن الخضوع البطريكي وعبوديّة الحريم كما لو كان خطيئة تجاوزها الزمن. وكفت المرأة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، عن أن تكون بضاعة وشيئا وارتقت إلى مصاف الأقوياء. وصارت ركيزة اجتماعية. وفي خضم مغامرة هذا الانبعاث العظيم عوّلت المرأة على نفسها. ورغم أنّ الرجل كان يضع أمامها العراقيل عوض أن يساعدها فقد تخطت كل

(1) لا يتزوج العبيد إلا من بعضهم البعض وبموافقة أسيادهم. ولدى الإفرنج يصبح الحرّ الذي يتزوج أمة عبدا.

(*Lex. salica*, tit, XXVIII, part. III)

ويمكن للمباردي أن يعتق أمته ثمّ يتزوجها ولكنّ المرأة الحرّة التي تتزوج عبدا يدنّس شرفها ويمكن لأهلها قتلها أو بيعها خارج المقاطعة. (*Lex, Longob*, I, II, LXXXXII)

2 (*Lex. Salica*, I, XIV, Ch.16)

لم يعرف القانون الروماني قبل تيودوسوس هذا المنع ،فقد أصدر هذا الإمبراطور ذلك القانون في القرن الخامس ويتمّ بموجبه مصادرة أملاك المذنبين وقتلهم حرقا (Lex, IX, tit,1er, let. XV) .

إلا أنّ القديس أوغسطينيوس لم يكن مقتنعا بحرمة هذا النوع من الزيجات ،ورأى أنها لا تخالف أية شريعة دينية، زد على ذلك فقد كان المبدأ محلّ جدل لمدّة طويلة ،بيد أن أركاديوس وهونوريوس ابني تيودوسوس أقرّا هذا القانون فانتشرهذا النوع من الزيجات لدى القوط الذين كانوا يتبعون القانون الروماني بعناية فائقة .ذكر ذلك كاسيودورو Cassiodore.ولكن ملوك القوط آنذاك كان من حقهم إعفاء البعض من هذا القانون .ولقد منع داقوبارت Dagobert الذي عمّم هذا المبدأ ،مثل هذه الزيجات بين الإفرنج.ونحو سنة 744 نصح البابا غريغوريوس الثاني Grégoire II بتجنبها دون أن يعتبر صراحة فاعليها مذنبين .وشيئا فشيئا تحوّل هذا النصح البسيط في أعمال المجامع الكنسية وأوامر الملوك إلى تحريم مطلق.

(2)

العقبات. وإننا نجد من بين النساء كثيرا من المتحرّرات الشهيرات، بعضهنّ كنّ ملكات، والبعض الآخر زعيمات متمرّدات وأخريات شرّفن الآداب والفنون الجميلة.

لقد كان على الفاتحين الجرمان أن ينظموا العلاقات بين الجنسين، وأن يوطّدوا هذا الوضع في أوروبا الجديدة، وأن يقنّنوا عادات ظلت إلى ذلك الحين مجرّد أعراف. لقد أصبح للحب في بداية حكم البرابرة سلطانا غير منتظر على زعماء تلك العصابات، وقدرة على المصالحة بين الحضارة والبربرية، وعلى حماية المغلوبين وذلك بأن شدّ وثاق الغالبين برباط الحب القوي[1].

من ذلك أنّ بلاسيد Placide أخت هونوريوس Honorius سبيت من قبل القوط أثناء حصار روما وأخذت رهينة إلى قصر ألاريك. وكانت من نصيب خلفه أتولف Ataulphe الذي سرعان ما اصطحب معه هذه الغنيمة الغالية لمّا توجه لمهاجمة منطقتي ناربون Narbonne وتولوز Toulouse.

لقد كانت مشاريعه السياسيّة في بدايتها جسورة وضخمة إذ لم يُخفِ، وهو الذي تربّى على القسوة الرومانية، عن صديقه الغالي الروماني كانديديان Candidien تصميمه على «تدمير الإمبراطورية الرومانيّة وإقامة إمبراطورية قوطيا مكانها» ولكنه أخذ على حين غرّة بنظرات بلاسيد، ابنة تيودوس، وعزة نفسها الرفيعة الورعة. لم يعيّرها بكونها سبية بل أعجب بها إعجابا سرعان ما تحوّل إلى حبّ صادق وعميق لا يقهر. ومنذ ذلك الحين انحصر طموحه في تنصيبها ملكة... وهكذا وجد أتولف نفسه متزوجا بإحدى أخوات ألاريك، ولكن هذا القوطي ذا المظاهر البربرية كان متحضرا جدا فلم يطلقها عندما كان ذلك في مصلحته.

لقد جُعلت القوانين للشعوب. وأما الملوك فلم تكن تطالهم إذ لم تعدمهم الوسائل

---

(1) استعمل المؤلف عبارة le lien du lion amoureux (رباط الأسد العاشق) وهو يشير بذلك، على الأرجح، إلى إحدى القصص المثلية للافونتان la Fontaine. وترمز القصة إلى قوة الحب وقدرته العجيبة على ترويض أقسى القلوب. (المترجم)

لإصدار قوانين خاصة تخدم مصالحهم. وسنصادف الشيء الكثير من ذلك لاحقا. تزوج أتولف بابنة تيودوس التي لم تفقد شيئا من تقواها ورباطة جأشها. رفضت في البداية باحتقار عرض ذلك البرابري الذي غزا روما واضطهد أخاها. ولكنه لم ييأس. وبفضل الحب الذي بدّله تخلص من عادات آبائه ولم يحتفظ سوى بطموح واحد هو مواصلة سياسة الأباطرة وحكمهم، باختصار أن يكون رومانيا. إنه يريد أن يكون جديرا بالتي يحبّها وأن يهديها وطنا وسلطانا، وأن يكون ضيفا لا حاكما في المقاطعات التي حكمها أجدادها.

لقد كان من الصعب على بلاسيد مقاومة كل ذلك الكمّ من علامات الحب والتحضّر. لذا وافقت على أن تتزوج ذاك الذي خلصها من العبودية وأعاد إليها ملكها. ومن ثمّ أقيمت حفلات الزواج وكانت رائعة وقد تمت على الطريقة الرومانية: تزيّن أتولف وأشراف القوط الغربيين بزيّ المغلوبين وكانوا يتكئون على الأرائك مثلما يفعل أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. وفي الأثناء قدّم خمسون شابا يلبسون الحرير صناديق مملوءة جواهر وحليا وقطعا ذهبيّة إلى العروسة. وأنشد الجميع قصائد الأعراس وغنّوا أناشيد قومية. ولقد أنشد الامبراطور أتال Atale، وكلّ من فوباد Phoebade ورستك Rustique وهما شريفان قحّان أناشيد رومانية وقوطية غربية، فزادوا الحفل بهجة. لقد كان الحفل رمز الاتحاد بين روما وجرمانيا[1].

ومن ذلك أيضا أنّ هونوريا Honoria ابنة بلاسيد، رغبت، مدفوعة بنجاح أمّها، بتجديد ذلك النصر الذي أحرزته النساء الرومانيات على البرابرة. ولكن مجونها كان سببا في نفيها إلى القسطنطينيّة حيث عزلت في دير (سنة 434)، وبذلك تضاءلت فرصتها في أن يهديها الملوك الغالبون ممالك. ولكن الوضع الذي آلت إليه حتّم عليها أن تكون هي التي تهديهم ممالك، لأجل ذلك أهدت خاتمها إلى أشهر الغزاة، أتيلا، راجية منه خطبتها على أن يكون مهرها نصف مملكة الغرب. ولكن أتيلا لم يكن فظا كما كانوا يعتقدون في

(1) Orose, I.VII. ch,42- Olympiodore

القسطنطينيّة. فرفض خطبة امرأة أخلاقها تجعلها غير مأمونة الجانب.

غير أن ذلك الملك الهونزي لم يكن جرمانيا بل كلموكيا[1] Kalmouk، مرزبانا، جاء من ضفاف البحر الأسود. جمع إلى جموحه بصفته رجلا صنديدا غيرة من يملك حريما. كانت له زوجات عديدات ومن بينهنّ كيربيا Kerbia أعزّهنّ لديه. ولقد كان يتسلّى بكل من يصادفهنّ من الحسناوات. وبهذه الطريقة أنجب ذريّة كثيرة. ولم يكن ليغرب عن خاطره أن يتزوج من الفتيات الثريات في المقاطعات التي كان يجوبها. والمثال على ذلك زواجه من الحسناء إسكام Escam،المنحدرة من عائلة ذات نفوذ على ضفاف نهر الدانوب[2].

لقد كان للنساء لدى الهونز دور كبير يلعبنه ليس باعتبارهنّ ذوات سلطان، فوضعهنّ كان يشبه كثيرا وضع الإماء، بل لأنهنّ كنّ زينة للحفلات ووسيلة للتسلية. فقد كنّ يقمن حفلا لاستقبال الملك لدى وصول موكبه إلى العاصمة، فتصطفّ السيدات في صفين على طول الطريق من الجانبين ممسكات بملاءات بيضاء يرفعنها فوق رؤوسهنّ من جانب الطريق إلى جانبه الآخر. وكانت العذارى يمررن تحت هذه الكُنّة *Velarium* في مجموعات من سبع وهنّ ينشدن أشعارا تمجّد الملك. ولكن هذا الكلموكي الماجن[3] Sardananapale. كان يتجنّب مخالطة النساء ولا تنطلي عليه مكائد الحب فهو لم يكن فاسقا بل هو أقرب إلى الباحث عن اللذّة، ولم يكن جاهلا بل هو أقرب إلى الفظاظة[4].

ومع ذلك كان للنساء دور مهمّ في ما كان يدور حوله من أحداث. فعندما هاجم بلاد الغال كلّف الكهنة المسيحيون الراعية جونوفياف Geneviève بصدّ هجوم ذاك الذي

(1) الكلموك هم شعب آسيوي ينحدر من منغوليا ويدين بالبوذية. هاجر من منغوليا واستقر في أوروبا وتحديدا في المناطق الفاصلة بين روسيا وأوروبا.(المترجم)

(2) *Histoire d'Attila*, I, 1er,p.89

(3) *Sardananapale* هي التسمية الفرنسية لـ آشوربانيبال آخر ملوك الامبراطورية الآشورية الحديثة وقد توفي سنة627 ق.م. ولكنها تعني في هذا السياق الرجل الماجن وزير النساء. راجع المعجم الفرنسي Littré.(المترجم)

(4) Ibid, t, 1er,p.89 à 97

كانوا يشبهونه بـ **القارعة** *Flagellum Dei*.. نجحت الشابة في مهمتها نجاحا باهرا ولكن انتصارها لم يكن عليه هو شخصيا فهما لم يلتقيا أبدا ولكنها نجحت في إيقاف مخططاته السياسيّة. ولقد نجحت بفضل عون الأساقفة، الذين كانوا يقدّرون فيها ميلها إلى التبتّل والزهد، في إبعاد ملك الهونز عن باريس، وذلك بفضل روح الشجاعة التي بثتها في سكان المدينة؛ ففي الوقت الذي كان فيه الرجال قد استعدوا للهروب إذ جهّزوا القوارب وحملوا عليها الأثاث وكلّ ما غلا ثمنه، جمعت جونوفياف النساء في كاتدرائية القديس إيتيان Saint.Etienne الصغيرة في المدينة وحرّضتهم ضد أعمال أزواجهن المخزية، تماما مثلما حرّضت رومة Roma في ما مضى رفيقاتها ضدّ الطروادين الذين كانوا على أهبة مغادرة ضفاف نهر التيبر. وهكذا أجبرت النساء الباريسيات أزواجهنّ على المرابطة قرب نهر السين Seine وذلك عندما أبدين عزمهنّ على عدم الرحيل. بهذه الطريقة أنقذت جونوفياف باريس مثلما كانت رومة *Roma* قد أسست مدينة روما Rome[1].

إنّ ملحمة جونوفياف حقيقية في أساسها وإن صيغت بأسلوب أسطوري إلى حدّ ما، وهي تلخص، مع الأشعار الخاصة بتلك العصور الغابرة التأثير الذي مارسته النساء المسيحيات بصورة عامة طيلة ذلك العصر المليء بالاضطرابات والرعب. ولكنّهن لم يتبعن نفس الأسلوب لتخليص المجتمع الروماني من غزوات أتيلا الطموح؛ فأثناء حملاته على شمال فرنسا وبرقنديا Burgondie أسر فتاة شريفة الأصل بعد أن قتل العديد من أفراد أسرتها. كانت الفتاة تدعى إلدوقوند Ildogonde ولفرط جمالها اتخذها للفراش. ولمّا كانت تتجهّز في خيمة أحد ملوك الهونز لوضعها الجديد بصفتها زوجة اقترح عليها ولتر Walter أحد الأكيتانيين Aquitain، وكان أسيرا مثلها، أن يخلّصها من هذا الزواج المهين فوافقته وهربا معا حاملة معها حليّها وأشياءها الثمينة.

ثمة أسيرة حرب أخرى هي غودرونا Gudruna الاسكندينافية ابنة كرمهيلد Crimhilde

---

(1) Vita Sanctoe Genovefoe apud Bolland

أنظر الجزء الأول من كتابنا ص 269.

وأرملة سيقورد Sigurd، قد رفضت، وبنفس الهمّة، حبّ ذلك الملك الكلموكي. ولكن كريمبيلد سقى ابنته شراب النسيان، فلم تعد تتذكر مقتل زوجها على يد اثنين من إخوتها. وانطلقت مزهوّة نحو قصر أتيلا الذي صمّم على الزواج منها. لقد كان عرسا غريبا خيّمت عليه فظاعات الشعر الشمالي. وبالفعل هجر أتيلا فراش الزوجيّة بعد أن أقضّت مضجعه صور الدم والقتل ولم تعد اللذة الجنسية نفسها سوى كوابيس مزعجة. إنّ أحاسيسه لم تخدعه فسرعان ما انتهى مفعول شراب **النسيان** وتذكرت غودرونا زوجها المصروع ولم يعد لها من هدف سوى الانتقام له. فقابلت تيودوريك Théodoric وطلبت عونه. ولكنّ أتيلا بلّغ بأمر علاقتها عن طريق إحدى محظياته وهي كركيا Kerkia التي اتهمت غودرونا بالزنى، ولكنّ ثبتت براءة غودرونا من هذه التهمة بعد أن اجتازت بسلام اختبار الماء الساخن في حين أصيبت، في نفس ذلك الاختبار الإلهي، الحاقدة كركيا بجروح بليغة وألقي بها حيّة في مستنقع عفن. وما لبث أن اندلعت حرب ضروس بين أتيلا وأخوي غودرونا فقتلا فيها الأخوين ممّا قوّى رغبتها أكثر من أي وقت مضى في أن يدفع قاتلهما ثمنا باهضا... لأجل ذلك أعدت مأدبة تأبين لأخويها. ووعد أتيلا بالحضور فأعدت له طبقا بنفسها وأطعمته قلبي ابنيه اللذين أنجبتهما له. لقد أصاب أتيلاّ العمى من فرط جمال غودرونا وحسنها فلم يقدرعلى فراقها حتى بعد مذبحة طفليه. أمّا هي فقد كانت لها على الأقل الشجاعة لتكرهه وتحنق عليه حنقا بلا حدود؛ ففي يوم من الأيام أسكرته حتى نام على ركبتها ومن ثمّ غرزت سيفا في صدره.

وسواء مات أتيلاّ بطعنة غودرونا أو بفعل إفراطه في جماع إلدوقوند بعد أن قبض عليها وأعيدت إلى القصر (بعض الكتاب يسميّها إلديكو Ildico) فإنّ زيجاته الدمويّة الأخيرة تمثل تمهيدا مشجعا لأهواء الملوك الميروفنجيين الذين سنهتم بهم لاحقا... ولكن لنكمل قصّة تأثير النساء المسيحيات في البرابرة، على اختلاف نحلهم، وسنبين كيف روّضن أكثرهم خشونة وذلك بأن دفعنهم إلى أن يحبّوا باحترام وباحتشام، وهو ما لم يعد الرومان يفقهونه.

أعطت كلوتيلد Clotilde ابنة شلبرك Chilpéric الألق الأكبر لهذا التدخل الإلهي، تدخل الحب والجمال في المصائر السياسية. ذلك أنّها تزوجت، وهي اللاجئة في قصر بورقونيا Bourgogne، كلوفيس Clovis السكمبري[1] Le Cicambre. ومع أنّه لم يكن مسيحيا فقد وهبته نفسها لأنها تحفظ كلمات القدّيس بولس: «المرأة المؤمنة تطهّر الرجل غير المؤمن». لقد قررت القضاء على الكفر بالنظرة المتوقدة والابتسامة العذبة والعبارة الرقيقة، وبكل ما تقدر المرأة على استعماله من وسائل حتى تكون مطاعة... لقد هيأها الكهنة الكاثوليك لتقوم بهذا الدور التبشيري. لقد هزأت أمام كلوفيس من ثورة جوبيتير Jupiter الذي أطرد أباه ساتورن Saturne من السماء، ومن فضائح ربّ الأرباب الغرامية مع الآلهة ومع أخته جانون Janon ومع غانيماد Ganimède ذاته. ثم دعّمت موعظتها بأشعار أشهر شعراء اللاتين[2]. وبذلك اكتمل نجاحها، فالإفرنج الذين كانوا أكثر شكوكية من الجرمان عندما احتلوا بلاد الغال، أصبحوا بعد أن عُمِّد الملك كلوفيس أكثر الناس وفاء لدينهم (عام 596).

لقد حمل نجاح المسيحيات ذوات الأصل البرابري إلى رجال الدين غبطة مزدوجة تمثلت في انتشار المسيحية وصفاء الأخلاق. فأضحت النساء الجرمانيات الأكثر فحشا، عفيفات أكثر بكثير من السيّدات الرومانيات أو العذارى الإفريقيات اللواتي وصفهنّ لنا القدّيس قبريانوس.

كانت المرأة تربّى في العائلة الجرمانية بشيء من البساطة الحازمة، إذ كانت تقاسم الرجال أعمالهم ثمّ تتفرّغ بعد ذلك لشؤون المنزل ولتربية أطفالها الأشداء الكثر. إنها لا تعرف الخيانة إلا نادرا، ويبدو أنها تجسّد نموذج المرأة القديمة في الإنجيل التي لا توجد في سواه. لذلك وطّد الأساقفة العزم مدفوعين بنجاح كلوتيلد على أن تتبوّأ المرأة صدارة الحضارة الجديدة وأن يبعثوا مثيلات كلوتيلد إلى كل الشعوب الوثنية.

---

(1) السيكمبريون هم شعب جرماني استقر على الضفة اليمنى لنهر الران منذ القرن الأول ق.م (المترجم)

(2) Fauriel, *Hist*, t. II

عندما توجه كاهن الاعتراف أوغسطينيوس Augustin إلى بريطانيا العظمى لهداية أهلها كان الحظّ السعيد إلى جانبه فقد شاءت الأقدار الإلهية أن تسبقه إلى هناك أميرة مسيحية متزوجة حديثا بأتهلبر Ethelbert ملك الكانت[1] Kent وأعظم الأمراء الأنغلوسكسونيين. كانت حذرة فاحترست من أن تحدث الملك منذ البداية عن التنصير وعن التعميد فاكتفت بأن أمّنت للمبشرين سلامتهم الشخصية والوسائل الكفيلة بأن ينصّروا الذين قدروا على إقناعهم بالمسيحية. وبعد إنجاز هذه الخطوة طلبت منه شيئا آخر إذ رجته أن يتفضّل بسماع الكاهن لمجرّد الفضول لا غير! ولمّا فعل ذلك أردفت رجاءها بأن يجاملها بمجاملة بسيطة: التعميد ولا شيء بعده! وهكذا أحبها إلى حدّ العبادة كما لم تحبّ زوجة قطّ. لقد هدى الإله أتهلبر وانتشرت المسيحية في مملكة جديدة[2].

وبعد عدّة سنوات كان القدر أيضا كريما فتزوجت شابة مسيحية تدعى أتهلبارغ Ethelberghe، وكانت جاءت لتوّها من بلاد الكانت، ملكا وثنيا من شمال بريطانيا العظمى هو الملك أدوين Edwin. وكانت مصحوبة بالكاهن بولن Paulin. لقد كان البابا غريغيريوس Gregoire يعوّل كثيرا على محاسن أتهلبارغ ولطفها لتنصّر زعيم البرابرة وشعبه. لذلك منح الكاهن بولن مسبقا رتبة مطران يورك[3] York. تردّد الملك وطلب مهلة، ولكن النظرات الرقيقة والكلمات العذبة أدت دورها. وسارت الأمور على نفس المنوال الذي سارت عليه مع كلوفيس ومع أتهلبارغ. في البدء سمح إدوين للمسيحيين بإقامة شعائرهم ثمّ قبل في ما بعد أن يعمّد هو فقط وانتهى به الأمر بتعميم التعميد على كل الشعب (عام 628)[4].

نشر الحب معجزاته إلى داخل بلاد المجر المتوحشة. فقد كان لقائد المجر الأعلى قيزا

---

(1) اسم للشعوب الجرمانية التي كانت مستقرة على ساحل بحر الشمال بين هولندا والنرويج ثم هاجرت إلى بريطانيا في القرنين الخامس والسادس للميلاد. (المترجم)

(2) Thierry, *Histoire de la conquête*, t, I, p.82à 85

(3) مدينة في شمال إنجلترا.(المترجم)

(4) Ibid. t I, p. 101 à 104

Guiza الذي عيّن ملكا سنة 972 زوجة أو سريّة (وضعها القانوني غير متحقق) هي ساورلت Sarolt الجموحة *Beleghnegine* (العشيقة الجميلة). كانت بطلة برابرية شريفة النسب تركب الخيل غير المروّضة وغير المسرجة، وتشرب الخمر مثل جندي، وتقتل، بشجاعة، المجموعة من الرجال في المعركة. لقد كانت هذه الغطرسة معضودة بقوام رشيق ملائم وجمال مشهود، كل ذلك جعل لها سلطانا على الملك ورعيّته أكبر من سلطان غريمتها أديلاييد Adelaïde شقيقة فنساسلاس Winceslas ملك بولونيا، ومن سلطان زوجات قيزا الأخريات. قد يقال إنّ طبعها الخشن والمتوحش نوعا ما لا يؤهلها لمهمة التبشير ولكن ألم يغيّر الإيمان كل شيء في سبيل نصرة المسيح؟ ألم تتوسل أستير Esther بكل رقّة الحريم لأجل خلاص الشعب اليهودي؟ أمّا سارولت فقد طفقت تبني الكنائس وتؤسس الأديرة مدفوعة في تنصّرها بدوافع مجهولة، ربّما بكرهها لغريمتها أديلاييد. وقد تمكنت من تعميد الملك قيزا وخمسة آلاف من الرجال والنساء[1].

لا تناقض إذن بين مصالح الحب ومصالح المسيحية في بداية غزو البرابرة عدا بعض الاستثناءات، التي تشي بها جملة واردة في تاريخ تاسيتوس، وقد اتخذت هذه الاستثناءات أبعادا مقلقة بعد استقرارهم في بلاد الغال.

روى تاسيتوس مؤلف كتاب «**أخلاق الجرمانيين**» أن بعض الملوك وبعض النبلاء قد حادوا عن التقليد القومي القاضي بالاكتفاء بزوجة واحدة، فأطلقوا العنان لأنفسهم بالتزوج بأكثر من واحدة وذلك مجاملة للعائلات المتنفذّة التي كانت تسعى إلى التحالف معهم. ها نحن بإزاء أطروحة مناقضة. وهو أمر غالبا ما يحدث في التاريخ. لقد كشف الحبّ لدى الجرمانيين عن سلوكين متمايزين أشدّ التمايز: بقدر ما كان الحب لدى عامة الناس شريفا ورصينا بدا لدى الخاصة صاخبا وماجنا. هذا ما يؤكد الملاحظة التي أبديناها سابقا وهي أن الطبقات الراقية في الأمم الأكثر تشددا غالبا ما تسمح لنفسها بحياة متهتكة لا تسمح بها لعامة الناس، وأن الفساد يبدأ في نخر المجتمعات من قمتها.

---

(1) Thiery, *Histoire d'Attil*, t1, p354

2

الحب الإسكندنافي الصّاخب

لم يدم خضوع الممالك الفتية في أوروبا الحديثة للتأثير الرقيق للمرأة المسيحية طويلا فقد أصابها الوهن من فرط حجب المرأة لدور الرجل، حتى باتت تفكر جديا في إرجاعه إلى الصدارة. فكيف تصرّفت للإطاحة بسلطان الحبّ؟ لقد سارت على خطى الشعوب الشرقية فواجهته بتشريع تعدّد الزوجات. ولقد كان للملوك الميروفنجيين[1] أكثر من قدوة يقتدون بها في هذا المجال: تقليد الإسكندنافيين وتقليد جيرانهم وإخوانهم في الدين. لقد بات من الضروري إذن أن ندرس الحب لدى قراصنة الشمال حتى نفهمه لدى الجيل الأول من الأمراء.

كان للنبلاء الإسكندنافيين مبادئ تنظم هذه العاطفة، ولا يمكن الزعم بأنها مبادىء مبتذلة. لقد كانت المرأة عندهم شيئا عظيما وقدرها رفيع فاستنكفوا من تملكها وفق شروط الزواج الجرماني المتّبعة، فعوض خطبتها من أبيها أو من وليّها وعوض دفع **هديّة الصباح**، كان الرأي الصواب عندهم خطفها بعد قتال ضار وبعد هرج ومرج. لقد كانت الغارات والمعارك الحربية مقدمات ضروريّة للأعراس الأرستقراطيّة.

لا ينجز العاشق مآثره الحربية لأجل استرقاق زوجته ولكن لتخليصها من أبيها وإخوتها الذين يقفون بالمرصاد لحبّها. وهكذا يصبح خطفها سببا لحرّيتها. وفي المقابل تغدق العذراء ذات الدرع المزهوة بنفسها *Scoldmoée* على خاطفها أعذب المكافآت إعجابا ووفاء بطوليا. فقد كانت تصاحبه في كل حملاته الحربية وتشاركه كل مخاطره.

تقدّم لنا الملاحم العاطفية الإسكندنافية الكبرى ثلاثة مواضيع رئيسية:

- إمّا أن يرفض الأب الاعتراف بما وعدت به ابنته خاطفها.
- وإمّا أن ترفض البنت وعود أبيها للخاطف.

---

(1) أسرة إفرنجية حكمت قسما كبيرا من أوروبا من القرن الخامس إلى القرن الثامن للميلاد(المترجم)

- وإمّا أن يرفض الاثنان قبول طلب الخاطف الذي يضحي في هذه الحالة وحيدا في مواجهة الجميع، وأحيانا ينظمّ خاطف آخر لا يتوانى عن حرمانه من ثمرة غزوته.

إنّ سرد بعض المغامرات سيجعلنا نفهم أحسن كيف تعاملت الأخلاق الاسكندنافية مع مختلف هذه المسائل وكيف حلّت اشكالياتها:

سمع القرصان السويدي جونار Gunnar عن جمال موالد Moalde ابنة ملك النرويج رقنالد Regnald، فعزم على غزو مملكته حتى يشاهد الأميرة، ابنته، عن قرب. ولئن لم تخبرنا كتب التاريخ هل كانت موالد راضية عن هذه الطريقة لزيارتها أم لا فإن ما آلت إليه الأحداث يشي بأنها لم تبدي صدّا كبيرا للذي كانت مهمته أن يستنقذها من صفّ العذارى ذوات الدروع. كان والدها الملك رقنالد حذرا فاحتاط قبل المعركة بأن خبّأ ابنته ومجوهراتها في سرداب وحرث التراب من فوقه حتى يخفيها نهائيا عن الأعين. ثمّ توجه لملاقاة الخطيب...و لمّا لم يكن من عادة الإله أودين[1] Odin أن يحمي سلطان الآباء من مغامرات العشاق فقد هزم الملك وهلك في المعركة. وتوصّل جونّار إلى اكتشاف السرداب النفيس ولم يتأخر عن خطف موالد وغنم مجوهراتها. وفي هذه الحالة لم يُرو عن العذراء ذات الدرع أنها غضبت لانتهاك حرمة ذلك المنزل[2].

كان سكيت Skate وهيال Hial أخوين اشتهرا بمعاركهما البحرية وبخطفهما لشهيرات العذارى وللفتيات العاديات على حدّ سواء، فلا شيء يغذي المطامع مثل النجاح. ولذا فإن الاسكندنافيين سرعان ما ينسون الحب الأول كلـّما توفرت فرصة تجديد بطولات خطف النساء، فعندما لا يجدون أميرات لخطفهن يتسلطون على الفلاحات البسيطات... كانت لدى الأخوين سكيت وهيال رغبة جامحة لتملك الحسناء آزا Asa ابنة أولاف Olaf ملك فرمولاند Vermeland ومع ذلك خالفا عادة القراصنة وتكرّما عليها بخطبتها من

(1) هو أهمّ إله في الميثيولوجيا الشمالية (شمال أوروبا). هو إله الحكمة والحرب والشجاعة والموت والسحر.... (المترجم)

(2) Depping, , *Histoire des Normands*, t, 1e

أبيها... إلاّ أنّ طلبهما قوبل بالرفض. عندها توجّب عليهما خطفها بالقوة. فزع الملك من ذلك ووعد البطل الذي يخلص ابنته من أيدي هذين الخاطفين أن يزوجه إياها. فقبل أمير نرويجي يدعى آل Ale التحدّي. ولكنه ارتكب حماقة إذ تسلل إلى القصر متنكرا في عباءة فلاح. ولّما كانت النساء لا يتساهلن أبدا في موضوع اللباس فقد أغمي على آزا لدى رؤيتها الرجل ذا الأسمال يتجرأ على خطبتها. فماذا كان مصيرها ومآل كل طموحاتها لو لم ينزع الأمير رداءه ويكشف لها عن ثيابه الأميرية الموشاة بالذهب والفضة والمقدودة بالفراء الثمينة؟ فتنت آزا برفعة منزلته وبكسوته الفاخرة. وقبلت أخيرا الزواج بمخلّصها الشهم. وبعد أن قتل القرصانين تزوجها[1].

انطوت الملاحم العاطفية الاسكندنافية على أمزجة وأهواء مخصوصة. ولّما كانت لها تأثيرات كبيرة في الحب في القرون الأولى لأوروبا الميروفنجية والإقطاعية فلا ضير علينا من أن نسوق أمثلة أخرى[2].

واجه حبّ الآباء وبرّ الأبناء امتحانا قاسيا في خضم تلك الصراعات العاطفيّة العنيفة. لقد كان المحارب يخجل إذا ما تسلـّم دون نصب من يدي الوالدين تلك التي أحبّها. ثمّ إن العذراء ذات الدرع لا يهنأ لها حبّ إلا للذي يحوزها بالسيف. فكلّما كثر عدد القتلى زاد حبّها لذلك العاشق الذي يقلب الحب جنونا. كما أنّه لا يمكننا أن نغفل حضور نزعة التفاخر في الموضوع، إذ تحاط الفتيات المقبلات على الزواج بسلسلة من قصص الخطف والقتال ما قد يؤلف إلياذة. كان سفافيرلاني Svarfulami ملك قاردينغ[3] Garding يحب

---

(1) Ibid., p 50-51

(2) أُكْرِمَ هيدن Hedin، أمير النرويج أثناء رحلاته أيّما إكرام من قبل الملك الدنمركي هوق Hogue، وجمعت بينهما صداقة متينة جدّا لم يتوانيا عن البرهنة عليها ردها من الزمن. ولكنهما افترقا في آخر المطاف. كان هوق مثل هيدن مغامرا، فانطلق في حملة، فما كان من هيدن الذي كان مشدودا إلى قصر صديقه بنداء قوي إلا أن سارع بالعودة إليه في غياب صاحبه وكافأ إكرامه له بخطف ابنته. غضب هوق وأقسم أن ينتقم منه لما ألحقه به من إساءة. وبدأ بمطاردته فهاجمه في مناسبة أولى دون نجاح. وتجددت المعركة بينهما بعد عدّة سنوات فتناحرا في مبارزة لا تقل ضراوة عن تناحر ابني أوديب إيتيوكل Etéocle وبولينيس Polynice المشهور (Depping، p58).

(3) مدينة جرمانية (المترجم)

ابنة جوتوم تيازي Jotum–Thiasé وتفضّل بخطبتها... ولكن والدها رفض تزويجه إياها فما كان منه إلا أن قتل هذا الأب المعاند في الحين. وسرعان ما تأست **العذراء ذات الدرع** عن موت أبيها بأن تزوجت الرجل الذي قدّرت فيه جيّدا عدم تردّده في قتل كل من يعترض سبيله. أنجب سفافيرلاني بدوره بنتا وأصبحت بدورها موضوع خطبة شبيهة بخطبة ابنة جوتوم تيازي. فقد دخل القرصان أندقرين Andgren يوما مملكته الصغيرة وقتله دون عناء وتزوج ابنته الحسناء ريفور Ryvor.

ما كان من هذه الأخيرة إلا أن كافأت حبّه بأن أنجبت له اثني عشر طفلا صاروا في ما بعد محاربين وقراصنة مثل أبيهم وجدّهم. عنّ لأحدهم خطبة الأميرة السويدية إنقربورج Ingerburge من أبيها ملك أبسال Upsal، وكان عاشقا لها، غير أن سفارته لم تكن توحي بمقصده السلمي، فقد خرج على رأس إخوته الأحد عشر. ولمّا وصلوا إلى أبسال وجدوا قرصانين آخرين هما الصديقان هيالمار Hialmar وألفارود Elvarodd قد سبقوهما إلى هنالك وكانا على وشك الظفر بالأميرة. وبذلك تعقدت المسألة وشارف العشاق من الجانبين على التقاتل لو لم ينكفئ العشاق اللاحقون فجأة لأَمْر عنّ لهم. كان الإخوة قد رفضوا قانون الخطف rapt الذي كان يؤسس لكل حب رقيق. لأجل ذلك كوّنوا جماعة فرسان شرعتها منع خطف النساء دون رضائهنّ. على أنّ الحكاية لم تضف: «دون رضا آبائهنّ». ومع ذلك فإنّ هذا الاستثناء كان خطوة إلى الأمام.

انزعج الملك كثيرا من هذا العدد الكبير من الراغبين في خطبة ابنته. ولإرضاء الجميع لم يجد أجدى من أن يترك الأمر لابنته تختار بنفسها من يفوز بها وتردّ الباقين. وقد حاز هيالمار حبّها. ولكنّ أمراء أبسال الاثني عشر لم يرضوا بهذا الاختيار النهائي، فسارع ستة منهم إلى الاختباء في الغابة التي سيمرّ منها هيالمار بصحبة صديقه ألفارود. ولمّا وصل هاجموه، فعمد صديقه إلى جذع شجرة وألقاهم بها أرضا وهشم رؤوسهم. ولكنّهم لم يهلكوا إلا بعد أن أوقعوا بهيالمار جراحات قاتلة(1). وقبل أن يسلم الروح حمّل صديقه

---

(1) عرف عاشقان آخران مشهوران هما هاقبارت Hagbart وسيقن Sighne نهاية تدمي القلوب الرقيقة. كان هقبارت=

خاتمه ليوصله إلى أنقروبورج التي ماتت غمّا لمّا تسلمته.

إن دواعي جليلة هي التي تدفع الناس نحو القتل ونحو الانتحار في تلك الربوع حيث المشاعر ملتهبة على الدوام. إن المرء الاسكندنافي هو في غاية الروحانية وإن بدا برابري المظهر. إنه لا يرى في الموت سوى تغيير للمكان؛ فالمحاربون على ثقة بأنهم سيجدّدون بالقرب من الإله أودين حامي الشجعان المبارزات والمعارك التي صنعت أمجادهم في الدنيا. وكذلك المحب فهو واثق من أنه سيلتقي لدى الفالكيريس[1] Valkiris والساحرتين أسّاس Asses وسدفاليناس Sdvralines الفتاة التي كان أحبّها في الدنيا وستغرقه بلا حساب مباهج حقيقية كانت له في الدنيا ظنونا وخيالات.... ورغم أن الاسكندنافي كان أقل براعة وأقل فطنة من الإغريقي أو الرجل الشرقي فقد عرف كيف يصنع لنفسه ميثيولوجيا شبقية. ويتخذ لنفسه حياة أخرى قَصَرَها على إشباع غرائزه. فإذا ما هلك محبّ وهو يحاول اختطاف حبيبته فإنه سيعوّض عن ذلك في العالم الآخر فتحتضنه هناك تلك التي عجّلت بموته. إنّ القبر بالنسبة إليه ليس سوى فراش الزوجية.

=الزويجي قد نزل صحبة إخوته الثلاثة ضيوفا بقصر الملك الزيلندي سيقار Sigar. وكان لهقبارت حظوة لدى النساء فما لبث أن أحبته سيقن ابنة مضيّفه وعندها وجب عليه خطفها. كان لسيقن ثلاثة إخوة وكانوا ينوون منعه من ذلك فصرعهم بطعنات سيفه الشديدة وطرحهم أرضا.

بعد هذا النصر المبين كان من الصعب عليه أن يظل في القصر الدامي فأفلت من غضب سيقار. ولكنّ الحب أكل من حشاشة قلبه فعاد إلى القصر متخفيا في هيئة عجوز ودخل غرفة سيقن حيث كانت متحسرة على غيابه أكثر مما هي متحسرة على موت إخوتها. استقبلته بفورة من الفرح وأقسمت أن تلازمه حيّا وميّتا. ولم يتأخر والدها على أن يمنح لها الفرصة للوفاء بقسمها. فما أن علم بوجود هاقبارت في القصر حتى أمر نبّالته بمهاجمته. دافع هاقبارت عن نفسه ببسالة وقتل الكثير من مهاجميه. ولكنه أسر في النهاية وقدّم لمجلس القضاة وحكم عليه بالموت. ولمّا حمل إلى ساحة الإعدام رغب في أن يلقي نظرة أخيرة على القصر وأن يودّع حبيبته فإذا بالنار تشتعل في غرفتها واللهب يتطاير من النوافذ. لقد أشعلت الوفية سيقن النار بنفسها ثمّ شنقت نفسها ووصيفاتها حتى لا تعيش بدون حبيبها. ولما رأى جثّتها تتدلى في الحبل لم يعد يخشى الموت بل بالعكس أصبح يسعى إليه، فهو نعمة ستجمعه بالتي سبقته إلى جنّة المحاربين *Valhalla*.

(Depping, *Ibid.*, p 56-59)

(1) حسب الميثيولوجيا الشمالية هنّ عذراوات محاربات في خدمة الإله أودين. وتتمثل مهمتهن الأساسية في الإشراف على المعارك وتوزيع الموت على المتحاربين وإدخال أرواح الأبطال بعد موتهم إلى جنة المحاربين.(المترجم).

إن البطلات المحاربات يسعدن كثيرا بما يثار حولهنّ من حكايات. فمقتل الإخوة والآباء والمحبين الذين يستبسلون في خطف حبيباتهم أو في منع ذلك لهو ممّا يرضي كبرياءهن. ومع ذلك لا نعدم وجود بعض البطلات ذوات مطالب صارمة فيشترطن أن يحاصرن بالفعل في قصورهنّ وأن يقاتلن بأنفسهنّ المحبّ الذي يطمع في الزواج منهنّ. إنهنّ يحترقن في صمت لأجل إسعاد المحبين، ولكنّهنّ يشترطن مهرا غاليا فلا يرضخن إلا بعد أن يهزمن في المعركة.

إننا إزاء نوع من الحب غير معروف، إنه حب في لبوس ضغينة، يتبادله المحبّان بأسنّة الرماح...!

كانت ابنة الملك سيقور Sigur تدعى ألفيلد Alphilde وكانت على قدر من الشجاعة والعفة. وكانت تظهر دائما للعامة متّشحة بحجاب. وقد عهدت بحمايتها الشخصية إلى محاربين اثنين يتمّ اختيارهما من بين أشد محاربي المملكة. ثمّ إنّ والدها الملك أشاع في من حوله أنّ على البطل الذي يروم خطبة ابنته أن يصرع أولا حارسيها الاثنين. لم يقبل هذا التحدي سوى القرصان الشاب آلف Alf. وكان النجاح حليفه. وبعد إنجاز المهمة لم يبق له -في ما زعم- سوى أن يحضر إلى القصر لينال أرقّ المكافآت... ولكن العذراء ذات الدرع اشترطت اختبارات إضافية فجمعت وصيفاتها وأعطتهنّ لباسا حربيا واتخذت لنفسها مثلهن وجهزت مراكب واندفعت نحو خليج فلندا على عادة القراصنة... لحق بها آلف وأدركها واندلعت بينهما معركة حربية فتصادمت مراكبهما وتشابكت. صعد آلف على سطح سفينتها فحاولت صدّه وتقاتلا وجها لوجه. فعاجلها أحد أصحابه بفأس على رأسها فطارت خوذتها ووقعت على قفاها... ولدى رؤيته لوجهها الذي كان ممتقعا، ومع ذلك لم تفارقها أنفتها، توقف عن مقاتلتها حبّا وإعجابا. وأخيرا رضيت أن تكون زوجة أشدّ المحبين مثابرة[1].

(1) كانت توبورج Thoborge ابنة أحد الملوك السويديين تشبه كثيرا ألفيلد Alphilde في طبعها المتشدّد. كانت تحمل السلاح باستمرار استعدادا لاستقبال الراغبين في خطبتها. وقد أصابت عددا كبيرا منهم بجروح وقتلت البعض الآخر، إلى أن رغب أحد الملوك يدعى رولف Rolf في أن يجرّب حظّه في معارك الحب هذه. توجه على رأس نخبة=

إنّ الأمر ليغرينا بأن نظن أن الحب الذي توطّد بعد صراعات عنيفة هو حب خالد. ولكنّ قلب الإنسان قليل التعود على الوفاء، لذلك لم يكن لتلك الزيجات التي تمت تحت أسنّة الرماح أن تطمع في الاستمرار أبد الدهر. إن المعارك التي خاضها المنتصرون في غابات اسكندنافيا مغرية فلا يقدرون على مقاومة الرغبة في الاستزادة منها. فكلّ عملية خطف تغري بأخرى كما يغري الاستيلاء على مدينة فاتحها بالاستيلاء على مقاطعة. إن نشوة ذلك الحب الملحمي قد أفضت بهم إلى تعدد الزوجات.

ينبغي ألا ننسى أنّ الحب الاسكندنافي هو في الآن نفسه حبّ عفيف وشاعري، مغامر وبطولي. وعندما نجمع بعض أوهام الساحرتين أسّاس وسدفاليناس مع ذكريات المثيولوجيا الدموية للإله أودين، فإن هذه العناصر ستختلط ببعضها البعض أثناء الغزو الميروفنجيني والكارلوفنجيني[1]. ولكننا نجدها متمايزة في العصر الوسيط.. وستمتزج بشهوانية العرب الشرقية وبالظرف الغزلي التروبادوري، وستؤثر تأثيرا جميلا في الفروسية الأوروبية.

= جنوده إلى قصر العذراء ذات الدرع الرهيب. تسلحت توبورج وجنودها وصدّت الملك من الجولة الأولى. فعاود الكرّة وحاصر البطلة في قصرها فتحملت الحصار بشجاعة. وفي الآخر فتحت أبواب قصرها له فقد هزمها بقوة سلاحه أوربّما سلّمت له بالأمر متأثرة بهذه العلامات الدالة على حبّ عنيد. وهكذا تحابّا حبّا أكثر اضطراما مما كانا عليه لمّا تعارفا وأعجبا ببعضهما البعض تحت وقع صليل السيوف.(Depping, t.1, p 50 à 52)

(1) سلالة إفرنجية حكمت أوروبا من منتصف القرن الثامن إلى القرن العاشر.(المترجم)

3

تناغم الحبّ الروماني و الحب الجرماني

إنّ الحبّ الصادق الذي برهن عليه كلّ من أتولف وكلوفيس وأتهلبارت قد انتهى أمره بانتقاله إلى البلاط الميروفنجيني ليحلّ محلّه الخطف و تناحر القراصنة الاسكندنافيين... إنه أمر غريب حقا. لقد استيقظت بداخل غزاة الإمبراطورية هذه النزعة البربرية نتيجة احتكاكهم بالفاحشة الغالية- الرومانية، فمنذ وصولهم ما انفكوا يبدون الاحتقار لهذا الإفراط في الترف والإباحية. ولقد حفظ لنا أساقفة القرن الخامس بعض الأخبار عن ذلك الصراع. ولكن الجرمانيين سرعان ما تأثروا بالحضارة القديمة. ومع أنهم هزموا جيوش الإمبراطورية فقد وجدوا أنفسهم في إسار أخلاقها[1].

هذان الوضعان الاجتماعيان المتقابلان سيلتقي حدّاهما قبل الأوان وسيكونان سببا

(1) بيّنا كيف أن سلفيان Salvien قد وضع الفجور الروماني بموازاة العفة الجرمانية، وهو نفسه، عالم الأخلاق، قد صوّر الأكتانيين Aquitains الذين تَرَوْمَنَ ثلاثة أرباعهم على أنهم أكثر الغاليين شهوانية وتفسخا: قال، «إن الأكتانيين، سواء كانوا نبلاء أو دون ذلك هم متشابهون: بطونهم هاوية وحياتهم داعرة، أوهي أشنع من ذلك. أجل إن ما يحدث في المواخير يبدو لي أقلّ إثما. إن البغايا اللواتي يقمن في هذه الأماكن لا يتزوجن أبدا. إنهنّ لا يدنسن موضعا لا يعرفنه. إنهن يأتين أفعالا فاضحة ولكنهنّ لسن زانيات. ومصداقا لذلك فإن الأحياء التي يقمن فيها قليلة العدد والمخلوقات التي قضي عليها أن تقضي فيها حياتها التعيسة عددها قليل كذلك. ولكن هل توجد لدى الأكتانيين مدينة لم يكن في أثرى أحيائها موضع للبغاء؟ وهل يوجد بينهم رجل واحد قدير لم يغرق في الفحش؟ من منهم ظلّ وفيا لزوجته؟ و لم يبخسها حقها فساوى بينها وبين جواريه إذ اتخذها مثلهنّ أداة خسيسة للفجور؟ من منهم لم يدنس قداسة الزواج إلى الحدّ الذي أذلّ فيه زوجته وهي بعد في منزل الزوجية، في حين أن صفتها تلك تجعل منها سيّدة المنزل؟ لقد كانت فلسفة العصر تشجع هذه الفاحشة، ففي رأي كلوديان مامارت Claudien Mamert «ترى هذه الفلسفة أن الروح تابعة للأمعاء وهي رهن مقدرة الجسد.(*De statu animae* 8)

وحتى المسرح فقد كان يدار وفق هذه المبادئ فهو لم يعد يعرض سوى خليط من **خطاب تمثيلي وقصص البغايا**. لقد كانت هذه القصص فاحشة وإجرامية بلغت حدّا دفع سالفيان إلى التصريح باستحالة تفسيرها للجمهور.

(De grb, dei, VI.3)

ولم تكن الأغاني المصاحبة للموسيقى في الأعراس والحفلات أقلّ إباحيّة فقد نعتها القديس سيزار Césaire.Saint أسقف آرل Arles بـ: «أغاني الحب الشيطانيّة وبالأغاني الفاحشة» ثمّ إن مجمع آغد Agde الكنسي المنعقد سنة 506 منع المسيحيات من حضور الحفلات التي تغنّى فيها أغاني الحب البذيئة وتؤتى فيها الرقصات الماجنة.

لبروز ظاهرة أخلاقية جديرة بالملاحظة.

إن حدّة طبع رجال الشمال ذوي البنية الجسدية القوية، وكذا اهتياج حواسّهم، قد اصطدما ببعض الموانع القانونية والأخلاقية في جرمانيا. وكنا قد درسنا تلك العادات وتلك القوانين بداية لدى الجمهور ثمّ لدى الطبقة الأرستقراطية في ما بعد.

إن تابع الملك الإفرنجي يحب، مثل القرصان الاسكندنافي، خطف النساء. ولكن الدافع إلى ذلك هوى حقيقي وليس عملا خسيسا، حبّ صادق وليس نزوة ماجنة. إن عقوق الوالدين يمتزج بالأعمال البطولية، وبالسعي نحو المهالك، هذا ما يقلّل من حدّة الشعور بالذنب. إن من شأن هذه الأهداف النبيلة أن تشكل بعض العزاء عن انعدام الأمن الجماعي وتدهور الأخلاق. وليس الأمر بالنسبة إلى الزعماء الاسكندنافيين القدامى مجرّد التعرّف على المرأة والإعجاب بها ومن ثمّ غوايتها في لحظة مجون، بل إن للشهوة والخطف بعض القواعد كما سيكون للظرف قواعده في عصر الفروسيّة.

لقد كان الإفرنج يتبعون هذه القواعد عندما أرسوا على ضفاف نهر السّان. وعندما هاجموا أكيتا Aquitaine وبورقونيا Bourgounie، وعندما نقلوا عن الغاليين- الرومانيين[1] فنون الإباحية، عندها أرخوا العنان لكل نزواتهم الماجنة... فكلّما رأوا امرأة جميلة طمعوا فيها. ثمّ إنهم لا يبذلون أي جهد لخطفها بصريح القوة. لقد تعلموا من الشعوب المنحطة أنّ غواية المرأة أنفع من خوض المعارك لخطفها. لقد نأوا بأهوائهم عن المخاطر التي كانت تضفي عليها شيئا من الجلال. ولم يحتفظوا منها سوى بمبدأ الاغتصاب المشين... لقد أضحى الإفرنجي رجلا غاليا- رومانيا قلبا وقالبا. لقد بدأ يعتاد مجون الحريم، ويأتي الأفعال الشائنة التي كان الأساقفة يحرمونها... وهنا تبرز بوضوح ظاهرة محاكاة

---

(1) تمثّل أول درس في المجون وحبّ التملك العنيف تعلموه من الغاليين- الرومانيين في مقتل ابنة دانتيرية Denterie وكانت تلك الأمّ الحكيمة وسديدة الرأي قد تزوجت أو بالأحرى عشقت الملك تيودوبارت Théodebert. ولدى سفره إلى بيزيارز Beziers غارت من ابنتها التي أصبحت يافعة وجميلة وحتى لا تفتك مكانها وتصبح موضوع حبّ الملك أركبتها عربة مشدودة إلى ثيران هائجة فانقلبت العربة من على جسر نهر فردون Verdun و سقطت في الماء.
(Grégoire, I, III, ch. XXII-XXVI)

الغالبين لأخلاق المغلوبين، وإنّنا لنجد في بلاطات ملوك الإفرنج نسخا طبق الأصل من عائلة السيّد في أكيتانيا، على ما رواه لنا سلفيان. كانت الجارية الميروفنجية تجمع بين القيام بالأعمال المنزلية ودور المحظية، فكانت تغسل الثياب وتعتني بفناء الدواجن وتعدّ الخبز وفي نفس الوقت كانت تسلي الملك عندما يصيبه الضجر وتلبي نزواته الفجّة.

انطلاقا مما سبق تبرز نتائج جديرة بالملاحظة تتمثل الأولى في القطع النهائي مع حبّ المحاربين الاسكندنافيين الشغوف والعنيف، فبعد حصار **العذراء ذات الدرع** الأنوفة انتهت ظاهرة خطف النساء بالقوة.

لقد كانت تلك الجهالات مقبولة على ضفاف خليج فلندا ولكنّهم الآن اجتازوا نهرالرّان فهم في داخل الإمبراطورية. لذا ينبغي أن يتصرّفوا تصرّف المتحضرين. وهذه الأنواع الثلاثة من الزيجات التي كانت سائدة لديهم:

الزواج السياسي على طريقة أتولف وكلوفيس، وقد مارسه بعض الأمراء بصفة استثنائية لأنه كان يوفّر لهم تحالفات ضرورية وإيرادات مالية وفيرة.

الحب الإباحي الذي لا يتورّع عن فعل أيّ شيء وقد كان يقتدي بالحب الغالي- الروماني، وبفضله انتشر الزواج الحر حتى أضحى تسرّياً.

نفس هذا الحب اصطدم في النهاية بمصاعب الكِبْرِ والغيرة والعنف الوحشي فاهتاج في أتون الصراعات وأصبح هوى صاخبا ملوّثا بالسموم والدماء.

كان القوط على رأس النوع الأول من الحبّ الزوجي فقد نشرت الأميرات الإسبانيات التقاليد القديمة التي كانت في بلاط أتولف في كلّ مكان حللْن به.

رغب سيقوبارت Sigebert، الابن الرابع لكلوتار Clotaire وأكثرهم فضلا في أن يشرّف عرشه بامرأة يتزوجها شرعيا، وتكون ابنة ملك، فخطب برونوهيلد Brunehilde، أميرة طليطلة، فلم يعترض على طلبه أحد. أرسلها له أبوها أتاناجيلد Athanagilde إلى مدينة ماتز Metz. وقد ازدادت حفلات العرس بهجة بحضور الأمراء الإفرنج مصحوبين

بالرسل القوطيين الغربيين. وإذا كانت حفلات عرس بلاسيد في ناربورن حفلات رومانية بامتياز فإن حفلات عرس برونوهيلد على ضفاف نهر الران كانت حفلات إفرنجية قوطية بالتساوي. كان سيقوبارت وأتباعه مزهوين بملابسهم الجلدية وبفرائهم ويتفاخرون بأنهم يقدّمون إلى الضيوف الجعّة وخمر التفاح في أوانٍ كبيرة وبكرم كبير. أما القوط فقد تكرّموا على ضيوفهم بالأواني الذهبية والفضية يقدمون لهم فيها الطعام والخمر اللذيذة. كانوا يطلقون صيحات الفرح ويتفاخرون ويظهرون، على طريقة أهل الشمال، أنّهم في صحّة جيّدة. وهناك أنشدوا قصائد الأعراس والأشعار اللاتينية على طريقة منشدي الجنوب، فأنشد الشاعر الرحالة فينانتيوس فورتوناتوس Venantius Fortunatus قصائد ظريفة قدّم فيها، تحت تصفيق السيكمبريين Sicambres الذين كانوا يعظمون في الآن نفسه الإله أودين والمسيح، وصفا رائعا لفينوس Venus ونطاقها وكيبيدون Cupidon وجعبته وفلور Flore وأكاليله الزهرية(1).

لقد قدّر سيقوبارت جيّدا جائزة الحسن الأولى تلك التي نالتها الأميرة القوطية الغربية. لقد أحبّها لا فقط على الطريقة الرومانية، فذاك حبّ تحوم حوله بعض الشكوك، وإنما على الطريقة المسيحية، أي أنه ظلّ يحبّها بشرف وصدق حتّى الموت، ولم يتخذ له معها حشدا من السريّات.

أمّا بخصوص الحبّ من النوع الثاني فقد أعطتنا عنه صراحة المؤرخ غريغوريوس التوراني Gregoire de Tours الفجّة التي شرحهاأوغسطين تياري Thierry .Augustin بتمعّن، وصفا دقيقا.

لم يكلّف الملك كلوتار Clotaire نفسه عناء البحث مطوّلا عن أميرة يجعلها ملكة إذ لقط أوّل جارية وقعت في ملكه هي إنقوند Ingonde وتوّجها. ثمّ إن الحظوة التي كانت

(1) Grégoire de Tours,I,IV,ch, XXVII

أنشد قائلا: «أيّتها العذراء برونوهيلد، التي أراها فاتنة ويراك زوجك عذبة، أنت تفوقين نور السماوات إشراقا، ويفوق ألق وجهك الحجارة الكريمة لمعانا. وإنّ اللازورد والبلّور والزمرّد كلّهم يسلموك مقاليد الحسن. وإن اسبانيا شرفت بأنها كانت مصدر هذه الماسة عديمة المثال». (*Venantus Fortunatus*,I,,VI, p 558)

لها لديه لم تغيّر في شيء عاداته في اتخاذ سريات. فقصره لم يكن سوى حريم من أفظع ما يكون.

لم يكن يساور إنقوند الجميلة الرقيقة الفخورة بنفسها، لكونها أصبحت ملكة، سوى حسرتها على كون أختها أرقوند Aregonde لم تصبح ملكة مثلها. لأجل ذلك ألحّت على الملك حتى يجد لأختها زوجا مقداما وثريا، فلا تخجل بعد ذلك من الوضع الحقير الذي تعيشه أقرب الناس إليها. تعجّل الملك رؤية الفتاة التي قيل الكثير عن جمالها فسارع إلى لقائها فاستلطفها وأخذها دون عناء إلى غرفته الملكية وتزوّجها.

كانت إنقوند مطيعة لزوجها في كلّ الحالات ولم تكن دهشتها من هذه الخيانة أكبر من دهشة أستير لانضمام جارية جديدة إلى حريم احشويرش. فأظهرت تفهمها لنزوات ملكها وسيّدها حتى لا توصف بكونها جاحدة لفضائله عليها[1].

كان أبناء ذلك الملك المتفسخ الأربعة على شاكلة أبيهم فقد كانوا يتخذون الزوجات والسريات من كلّ فئات المجتمع، كانوا يتّخذون ما لذّ وطاب لهم من الزوجات والسريّات، يتزوّجوهنّ ويطلّقوهنّ كما اتفق. ولكنّهم كانوا يجدون ضالتهم بالخصوص لدى الفلاحات التعيسات اللواتي كنّ يعتبرّن أبسط رغبات سيّدهن بمثابة أوامر لا يجرؤن على مخالفتها.

كان قونترام Gountram أكثرهم فسقا. وكانت ابنة أحد جامعي الضرائب الغاليين من ضمن محظياته. أمّا هربارت Haribert فكان يعيش مع ابنتي حلاج وهما شقيقتان جمعتا بين الجمال والتفسخ الأخلاقي وكانتا تتقاسمان عن طيب خاطر أعباء هذه المهنة المرغوب فيها كثيرا. وما جعل فجورهما أكثر فحشا أنهما كانتا في خدمة الملكة الشرعية وأن إحداهما كانت تلبس لباس الراهبات.

لم تكن الملكة إنقوبارج مستكينة مثل الرقيقة إنقوند، ففي يوم سمحت لنفسها بالاستهزاء من والد السريّيين الحلاج. عندها كان لزاما على هربارت أن يرفع من رتبة ذلك الرجل

(1) Grégoire de Tours, Hist, I, IV, Ch III

فمنحه لقب «حمو الملك». ومن ثمّ طلق الملكة وتزوّج ابنته ميروفليد Meroflede، ولمّا لم تكن حائزة على كلّ الصفات التي يحبذها اتخذ لنفسه ملكة أخرى شرعية اسمها تيوديهيلد Théodehilde، وهي ابنة راع فقير. وما لبثت ميروفيلد أن ماتت. ومن المؤكد أنها لم تمت حزنا أو غيرة فالنساء في ذلك العصر تعوّدن على مثل تلك المنغّصات فلا تزعجهنّ... وعندها سارع هربارت إلى ملء هذا الفراغ فتزوج أختها الراهبة[1].

كان ذلك الملك المزواج محبوبا من قبل زوجاته وذلك لفضائله عليهن، فقد كنّ لا يرين له فضلا سوى أنه كان يغدق عليهنّ الملابس الفاخرة والحلي والعربات المفضضة. وكنّ يعشن في كنفه في سعة من العيش فما إن توفي (وقد حصل ذلك فجأة في سنّ مبكّرة، فكثرة السريّات ليست، على أية حال، ضمانة لعمر مديد) حتى انشغلن عنه باقتسام تركته. استولت الملكة تيودوهيلد على حصة الأسد من التركة وأرسلت إلى سِلْفِها تقترح عليه تزوجها ومقاسمتها هذه الثروة.

طالما ارتضت الزوجة والسرّية، دون تفكير، نزوات الاستبداد فإنّ الفجور الملكي يواصل حصد الانتصارات دون وجل. ولكن النساء ذوات الأصل البرابري يتجرّأن أحيانا على الصمود أمام هذه الإهانات أو على الطموح إلى ما هو أجدى لهنّ. فكنّ يحبكن مؤامرات، ويعددّن أنفسهنّ للانتقام. وهكذا لم يعد الأمير الميروفنجيني يواجه جواري مسالمات خاضعات. لذا وجب عليه الاحتياط. وبذلك نصل بداهة إلى النوع الثالث من الزيجات أي زيجات الأمراء الجامحة الدموية. لقد أصبح الملك الشاك في كل ما تأتيه نسوته الغيورات والطامعات، رغما عنه شريكا في جرائم القتل التي تأتينها. فقد كان مجبرا على خنقهنّ احتياطا من مخططاتهنّ الوقحة.

نعرف جيّدا الثمن الذي دفعته الملكة أودوفار Audovére عندما لم تحذر فتاة جميلة اسمها فريديقوند Frédégonde فضمتها إلى حاشيتها. وكان الملك هيلبيريك Hilperic قد استلطفها فاتخذها سريّة. وما إن أصبحت سريّته حتى توصلت بمعونة داهية ذي خبرة

---

(1) Grégoire de Tours, 1, IV, ch XXVI

إلى إبعاد الملكة عن غرفة الملك بدعوى أنها من محارمه. ولمّا لم يكن الملك متعودا على النوم وحيدا فقد استعاض عن الملكة بها... ورغم أنها أُرْسلت إلى الدير فإن ذلك لم يقض على وساوس فريديقوند فبعثت من قتلها بعد بضع سنوات.

كان ذلك الملك محظوظا بكيفيّة غريبة إذ مارس الأنواع الثلاثة من الزيجات التي كنّا بصدد تصنيفها فلمّا شهد ذات يوم زواج أخيه سيقوبارت ببرونوهيلد فتنته بهجة تلك الزيجة الملكية فأضحى ميّالا بشكل واضح إلى الأميرات والأعراس الفاخرة. ثمّ ما لبث أن بعث الرسل إلى طليطلة لخطبة إحدى أخوات برونوهيلد. ولكن الملك القوطي وزوجته أبديا نفورا من تزويج ابنتهما قاليسوانت Galeswinthe لهذا الملك الإفرنجي الذي اشتهر بوثنيّته، فقد كان يتخذ السريات، ويضطهد الأساقفة ويتزوج الراهبات. حقا إن المسيحية الحق لا توجد إلاّ في طليطلة! ومع ذلك فقد رجحت كفة هذه العيوب لاعتبارات سياسية مهمة. ومن ثمّ وافق على طلبه ولكن شرط أن يتخلّص من كلّ سرياته وأن يظلّ وفيا للملكة الجديدة **بقية حياتها**. وهكذا انتقلت قاليسوانت إلى ضفاف نهر السان.

احتاطت الملكة الشابة لخيانة زوجها ولكن فريديقوند الرهيبة احتاطت أكثر لاستعادة عشيقها، فانضمت إلى جواري القصر. وما إن مضى الربع الأول من شهر العسل حتى اعترضت الملك **صدفة**، فحرّكت فيه نظرتها الشهوانيّة وابتسامتها المثيرة عادته الحسيّة. ولكنه كان وعد الملكة بأن يظل لها وفيا **ما دامت على قيد الحياة**. فكيف يتفق الأمران؟. ولكن فريديقوند لم تتأخر عن إسعافه بالحلّ المناسب فخنقت الملكة وهي نائمة.

تظاهر هلبيريك بالبكاء كما يحصل في الجنائز السياسيّة. وليعزّي نفسه عن فقدان الملكة تزوّج فريديقوند. فهل هناك عيب فيما أتاه ؟ إنّه لم يتعهّد بالوفاء لقاليسوانت إلا إذا **كانت على قيد الحياة!!**

لنلعن هلبيريك ولكن لا ينبغي أن ننسى بأن نشفق عليه كذلك... كان هناك قدر غشوم ينغّص عليه حياته. تعلقت به فريديقوند وسط ضراوة تلك الحيّات العاشقات اللواتي كنّ يخنقن بعضهنّ البعض وهنّ يتعانقن. فما كان الحب هو الذي يشدّها إليه ولكن رغبة

عنيفة لا تشبع لأجل الاستفادة من ثروته وسلطته. كانت تلك إحدى رغباتها العنيفة المغلفة بلبوس الحب. وهي كفيلة بجعل المحبين أعداء يخشون بعضهم البعض، فيقبّلون بعضهم البعض وهم يتوجسون العضّ... ولا يجلسون إلى نفس المائدة إلا وهم حذرون من أن يسمّم أحدهم الآخر. ولا ينامون على نفس الوسادة إلا وقد امسك كلّ منهم سلاحه. لقد كان **حبا لدودا** *Amour complicité* كانت روما القديمة قد عرفته، وهو الآن في أوج عنفه.

أشعل موت البائسة ڤاليسوانت نار الغيرة بين فريديفوند وبرونوهيلد فشاعت الفتنة والقتل في بلاد الغال. كانت فريديڤوند تمثل الشهوانيّة البرابريّة في أوج عنفها في حين كانت برونوهيلد تمثل حضارة أكثر رقيا ولكنّها حضارة امرأة مسيحيّة مهووسة بحب الانتقام، غير حليمة ولا تتورع عن استعمال أية وسيلة للقضاء على خصيمتها. انبرت برونوهيلد في تلك الطريق فتنكرت للمحبة، وفي الآن نفسه، لأبسط قواعد الشريف l'honnête والعادل Le juste. فقد رضيت أن يتفسخ ابنها الصغير تيودوريك Théodoric في سنّ مبكرة حتى تفسد عقله، فوفرت له كل أصناف الجواري والسريات حتى لا يجد الوقت للتفكير في الزواج الذي قد يفسد عليها وصايتها على العرش.

لا نعلم هل تابت عن هذه الذنوب أم لا. ولكننا نعلم أن أوستروهيلد Austrehilde زوجة ڤونترام الثانية قد كانت لها طريقة فريدة في التكفير عن ذنوبها. أصيبت سنة 580 بمرض عضال فتوسلت إلى الملك أن يحقق لها رجاء أخيرا فوعدها بذلك. تمثّل ذلك الرجاء في أن لا يتركها تموت لوحدها وأن يقطع يوم جنازتها رأسي طبيبيها. ولما كان ڤونترام من الذين يفون بوعودهم ضرب عنقي الطبيبين[1].

هذه الشهوانيّة الممزوجة بالشراسة ليست حكرا على الملوك فقد أبدى أتباعهم استعدادا ليكونوا نظراءهم في الأمر بل تفوّقوا فيه عليهم أحيانا:

- في يوم انقسم الناس فريقين بشأن امرأة باريسيّة اتهمت بالزنى. و توجه الجميع

(1) Grégoire,I,V, ch XXXVI

نحو ضريح القديس دينيس Saint Denis حيث سيحلف والد المتهمة على براءتها. ولكنّ السيوف سلت من أغمادها و نشبت معركة و تناحر القوم. وقبل أن يفتى ببراءة المرأة الباريسيّة لجأ الفريقان إلى العنف وإراقة الدماء. ثمّ هدأت النفوس قليلا مثل الهذيان الذي يكون بعد نزيف حادّ(1).

- كان الدوق روشينغ Rauchingue أقوى أسياد أوسترازيا Austrasie يتلهى بحرق أفخاذ جواريه المسكينات بواسطة شمعة يشعلها ويطفوءها بين أفخاذهنّ العارية. وكلما كنّ يلتوين من ألم الحروق البليغة كان يطرب لذلك. وبالإضافة إلى ذلك كان لدى هذا السيّد الإقطاعي الكثير من الفطنة ليمارس اللعب بالكلمات فلمّا تجرأ شاب وشابة يعملان في مزرعته على أن يتزوجا دون إذنه، استشاط غضبا. ومع أنهّ قدّم لأحد الكهنة ضمانا بأن لا يفرّق بينهما فقد زوجّهما على طريقته الخاصّة إذ دفنهما حيّين في نفس القبر(2).

قد يقال بأنّ الحبّ بريء من هذه الأعمال الفظيعة... ولكن الأمر ليس كما نظنه. إنّ الطريقة التي يعذّب بها إنسان إخوته في الإنسانية ويقتلهم هي وحدها الكفيلة بالحكم على نوع العاطفة التي يكنّها لهم بداخله. إن الذي يتسلّى بإراقة الدماء وينتشي بآلام الآخرين هو بالتأكيد يفتقد العناصر الإنسانية الضروريّة للحب. إن حواسه ميّتة ولا ينظر إلى الطبيعة بعيون سليمة. إن نظره لم يعد يفقه جمال الألوان أو الأشكال، وفكره لم يعد يدرك أن للأفعال بعدا أخلاقيا، وسمعه لم يعد قادرا على استساغة تناغم الأصوات مثلما أن روحه غير قادرة على إدراك العظمة الحقيقية للمشاعر. إنه يفضل سماع صرخات العذاب والرعب على سماع أغاني الفرح وسماع صليل الحديد على استنشاق عطر الزهور. إنه يفضل رؤية الدم في الليل على رؤية الابتسامات في وضح النهار... إن الحب توق و خلق وتوازن في حين الفظاعة نفور وتهديم و ظلمات فأنّى للشرير أن يفقه معنى الحبّ وهو

---

(1) Grégoire , I, V, ch XXXII

(2) Grégoire de Tours, Hist. I, V, ch III

المشدود إلى الفظاعة؟

وعلى أية حال ليس كلّ الناس قتلة. وحتّى إن صادفنا في زمن برونوهيلد وفريديقوند أتباع ملوك سلم الناس من شرّهم فذلك لا يعني عدم وجود نزعة شهوانية سائدة، فكثير من رجال الدين ينتمون إلى مدرسة اللذة الماديّة التي كانت مخادع الأديرة ومآدبها مسرحا لها.

كان برتراند Bertrand أسقف بوردو Bordeau برابريا تحضّر لأنه كان ينظم أشعارا لا تخلو من مجون وسخف. وهو بذلك يمثل نموذجا غربيا للقديس بول السميساطي. كان يسعى إلى اللذة السهلة على طريقة أبناء عمّه الملوك، ويتبختر أمام الجميع في عربة تجرّها أربعة أحصنة ومحاطا برجال دين يتخذهم غلمانا وقيّمين على إسطبلات خيوله. إنه لا يتورّع عن اتخاذ سريّات من ضمن جواريه وعشيقات من بين صفوف النساء المتزوّجات رفيعات المقام [1].

الجميع يعرف حياة البذخ التي كان يحياها الأسقف سافاراك Saffarac، أسقف باريس في القرن السادس. ثمّ ما لبث أن عزل سنة 551. ولم يكن مصيره ذاك أقلّ من مصير ساجيتار Sagitaire أسقف قاب Gap، وسالون Salone أسقف أمبرا Embrun فقد دنسا الكنيسة بإباحيتهما المعهودة لدى الأمراء والبارونات وشاركا في المعارك مدججين بالسلاح وقتلا الأعداء بالمئات كما لو كانا محاربين حقيقيين[2].

حدّثنا غريغوريوس التوري أيضا عن القس بريسكوس Priscus وزوجته ببداهة تشي بتعوّد الناس على مثل هذه الانحرافات الأسقفيّة. لقد كانت زوجته سوزان Suzane تتسلّى بتعذيب خصوم زوجها وبقتلهم. ولم تكتف بالإقامة في مقرّ الأسقفية صحبة جواريها متحدية القوانين التي تحرّم على النساء الإقامة قرب الأساقفة، بل كانت تدخل على رجال الدين في معازلهم وربما لم تكن تتوانَ عن دخول معازل بعض نواب

(1) Grégoire, hist, I,ch VIII

(2) Grégoire , I, V, ch XXI

الكهنة الذين عزلوا بعد أن زنوا.

ونتعرّف أخيرا على فضيحة أسقف مدينة مان Mans الذي كان يعلّم عددا من أطفال العائلات الشريفة وقد عجز الأسقف أتيروس Aetherius عن انتزاعه من براثن الفجور الأكثر شناعة(1).

لقد تفشت تلك الفضائح بين رجال الكنيسة إلى درجة أن الملوك والمجامع الكنسية لم يجدوا لها حلاّ. فهل كان من الواجب أن يغضوا عنها الطرف؟ أم أن يقدروا عواقبها الوخيمة؟.. لم تكن السبيل واضحة أمامهم فطبقوا الطريقتين بالتناوب. ففي حين أبدى مجمع طليطلة تسامحا كبيرا إزاء ظاهرة التسرّي، تشدّد مجمع ليون Lyon في الموضوع من جديد فأقرّ بفجورأولئك الأساقفة وعدم جدارتهم بوضع تاج الأسقفيّة. وفي سنة 590 م أصبحت النساء المتهمات بإقامة علاقات مشبوهة مع رجال الدين تحت طائلة قوانين المحاكم المدنية(2).

عندما يرخي الأمراء و الملوك العنان لكل أهوائهم، ويرمون جانبا التقاليد الجرمانيّة فإنهم يطوّعون القوانين لتكون في خدمة تفسخهم.إن القانون الذي حُوّر دون غيره من القوانين في التشريع الجديد هو قانون منع زواج المحارم. لقد عقدّت المجامع الكنسية التي انعقدت من القرن السابع إلى القرن العاشر بصفة خاصة القوانين المعلقة بهذا الموضوع،

---

(1) Grégoire , I, IV et I, VI, Ch XXXVI

(2) *Histoire ecclésiastique*, sixième siècle.

تعود هذه البلبلة الطارئة على القوانين الأخلاقيّة إلى أكثر من قرن مضى. فعندما كان الزواج الحرّ يسترجع في الشرق امتيازاته القديمة في ظل التشريع الليونيني Léonine كان القانون الروماني لا يقيم فرقا بين الأطفال الشرعيين والأطفال غير الشرعيين إلى درجة أنه ساوى بينهما قانونيا. ووفقا لذلك يمكن للأب أن يورّث الأبناء غير الشرعيين في حال عدم وجود أبناء شرعيين.(Troplong, *influence du christ*. P 245– 246). لم يكن المشرّعون يجهلون أن الإفراط في الشيء هو المحرّض الأكبر على الأهواء الجامحة. وقد قطع أحد القوانين الشارلمانية مع عادة كانت منتشرة في ألمانيا وتمثلت في إلزام الضيوف بأن يشربوا أكثر من طاقتهم، وفي الحكم على كلّ جندي يثبت عليه أنه حثّ جنديا آخر على السكر بشرب كميّة معيّنة من الماء. وورد في أمر ملكي آخر أن الجندي الذي يسكر أثناء الحرب يفصل من الجندية.(Corneille de la Pierre, *Comment sur l'Ecriture Sainte*).

وذلك رغبة منها في توفير ضمانات أكبر لاستقرار الأسرة. فأضحت موانع الزواج متعددة[1]. إنّ التسوية التامّة بين الكافل والكافلة والأب والأم قد اصطنعت نسلا مكوّنا من إخوة وأخوات وأبناء عمّ وخالة وهو أمر لا يطاله التشريع القديم. لقد أصبحت عقوبات خرق القانون أكثر تشدّدا. وأدّت كلّها إلى وضع نهاية للزواج، حتى إن البحث المتأنّي عن الزوج الطاهر أدّى تدريجيا إلى نتائج أدت بدورها إلى انتعاش ظاهرة الطلاق... وهكذا لم يجد الأزواج، بمن فيهم قليلو النفوذ، الراغبون في تطليق زوجاتهم والتزوّج ثانية صعوبة في فبركة حجج عن قرابة مانعة للزواج لم يُتَفطن لها لحظة عقد القران. وبالنتيجة يبطل اتحادهم الذي شرّعه الدين. وفي بعض الأحيان يكتشف الغيرُ المعنيُّ بقطع علاقة الزوجين القرابة المانعة للزواج ويفرض بذلك على الزوجين المتحابين الفراق[2].

---

(1) قنّن المجمع الكنسي المنعقد بكمباني Compiègne سنة 757 برئاسة الملك بابان Pépin بتفصيل كبير حقوق الزواج وواجباته. لقد منع ذلك القانون المرأة التي تقع في غرام أخ زوجها من أن تتزوج ثانية. وسلّط نفس العقوبة على شريكها. ولكن بإمكان الزوج المخدوع أن يتزوج امرأة أخرى. وإذا ما تزوّجت فتاة دون رضاها فبإمكانها أن تهجر زوجها، وتتزوج آخر بعد إذن والديها.(*Labbe, collectio Cornelio*, an 757).وقد سمح المجمع كمباني بإمكانية الزواج من الدرجة الرابعة في بعض الحالات. ولكن إذا مات أحد الزوجين من الدرجة الثالثة لا يمكن للحيّ منهما أن يتزوج ثانية. وحسب نفس المجمع فإن الرجل الذي كان على صلة جنسيّة بشقيقتين أو بأمّ وابنتها مجبر على تطليق زوجته التي بإمكانها أن تتزوج ثانية. ووفق تفسير متحذلق Subtil مناسب لروح العصر، بإمكان شريكتيه أن تتزوجا إذا كانتا تجهلان أنهما كانتا عشيقتيه في نفس الآن، ولكن بمجرّد علمهما بالأمر وجب عليهما التوبة بقيّة حياتهما، والسماح لزوجهما باختيار زوجتين أخريين.

ثمّة في العائلات الكبيرة طموحات تفرض خطبة الأطفال وهم مازالوا في المهد مما يعني فقدان شرط الموافقة. ووجود سبب وجيه للطلاق لاحقا. فقد ذكر مونتسكيو Montesquieu «أنه في إنجلترا يمكن لفتاة في سنّ السابعة اختيار زوجها»

(2) الكلّ يتذكر هموم الملك روبار Robert الذي تزوّج بقريبته برتا Berthe التي كانت حلاً له بحكم أن قرابته لها من الدرجة الرابعة. فقد هدّد بالعزل لأنه رفض مفارقتها. ولكن بعد صمود بطولي كان عليه أن يضحّي بحبّه الكبير لبرتا في سبيل الحفاظ على مصالحه السياسية وهكذا فقد زوجته حتى لا يفقد عرشه.

وقد بلغ هوس التفريق بين الأزواج أوجه مع قسّ مدينة بوردو الذي زعم أن برتافلاد Bertheflede قريبته كان يحقّ لها أن تهجر زوجها بعد ثلاثين سنة من الزواج بحجة أنها لم تكن مختارة ولا صادقة في قبولها الزواج به.

(Grégoire, I, IX,chXXXIII)

4

التفسّخ الأخلاقي يطال الطبقات الدنيا

لم يكن لهذا الخلل الكبير الذي أصاب علاقات الجنسين في الطبقات العليا إلا أن يفعل فعله في الطبقات الدنيا. إن التفسّخ الأخلاقي الذي ينشأ أرستقراطيا يتزيّن بالديباج والحرير لا يتوانى أبدا عن أن يصبح من العامة يتدثّر بالأسمال.

لقد بدت الشعوب الجرمانيّة في مستهل غزوها للإمبراطورية وجلة فلا أثر يذكر في تاريخها للسلب والنهب أو للفظاعات. لقد بدا الأمر وكأنها متوجسة من إثارة السكان ودفعهم نحو ردّ فعل يائس.

و لكن ما إن تحصنت هذه الشعوب في القصور وعاينت عن كثب خضوع المغلوبين التام تجرأت عليهم وأضحت فظاعتها بلا رادع. لقد تصرّفت في منازل أصحابها كما لو كانت المالكة لها، وتمتعت بكل ما فيها كما يحلو لها. فقد جاء في كتب تاريخ بريطانيا العظمى «أن الرجل الدنمركي يستقرّ في منزل الإنقليزي بعد هزمه فيستعمل كل ما فيه، دون مقابل: الموقد والطاولة والسرير. ولا يمكن لمالك المنزل أن يشرب إلا بإذنه ولا أن يجلس في حضرته. ثمّ إن هذا الغريب كان ينتهك حرمة ابنته أوجاريته إشباعا لهـــواه.
(*et sic defloraverunt uxores nostras et filias et aucillas*)

وإذا ما تجاسر الرجل على صدّه عنهما يطارد مطاردة الحيوان المفترس فلا يجد منأى يلجأ إليه. **ويهدر دمه**. بل يكافئ من يقتله. وفي ظل هذا الاستبداد المتفشي فإن النساء اللواتي لا يتخذن **زوجات** يتخذن **للمتعة الجنسية** فيصبحن لعبا يتسلّى بها مرتزقة الجيش وأرذل الأرذال. لقد كان أولئك الغزاة يفعلون بأشرف الفتيات ما يحلو لهم، فلا يبقى لأولئك المسكينات سوى أن يندبن حظّهن ويتمنين الموت[1]..

لقد ولّى ذلك الزمن الذي أعتق فيه أتيلا أمّا وبناتها العشر بعد أن حمّلهنّ ذهبا، كما ولّى

(1) Thierry, *Conquête*, t,I, p 245, t,II p 27

ذلك الزمن الذي أوصى فيه كلوفيس جنوده باحترام النساء والكنائس.

لقد عظم الداء حتّى أضحت مُغامرات من صنف فريديقوند وسريّات من حثالة المجتمع يصاحبن الغزاة ويحرضنهم على ارتكاب المصادرات وعلى الفجور[1]. وفي أحايين كثيرة كان على الملكات أنفسهن أن يتقاتلن بضراوة مع أولئك الغريمات اللواتي لا يقللن عنهن طموحا وعنادا.[2]

كان قاندولف Gandolf أميرا بورقنديا Burgonde عاش في القرن الثامن وكان تقيا إلى أبعد الحدود فكرّمه الله بمعجزة، ولكن تلك الهدية السماويّة لم تكن مجزية له لأنها لم تمنعه من أن يكون نصيبه من الغنيمة امرأة ذات شرّ منفر ومتفسخة تدعى قانيا Ganéa.

ليست الطهارة هي الخلة التي تبحث عنها مثل أولئك النسوة لدى الزوج. لذلك سرعان ما اتخذت قانيا لها عشيقا هو رجل دين من أعوان زوجها. ولمّا اكتشف زناهما أخضع زوجته لاختبار الماء الساخن. وصورة الأمر أن يطلب من المتهمة استخراج حصاة من قاع قدر مملوء ماء ساخنا. أدّى الماء مهمّته على أحسن وجه، ورغم أن حرارته كانت فاترة فقد احترقت يدها وذراعها.

ورغم وضوح الحكم الإلهي فقد دعاها إلى نسيان الماضي شرط أن تتوب. ولكنها لم تكن متحمسة كثيرا لتغيير طريقة حياتها. فرأت أن الأفضل لها قتل هذا الزوج المزعج. بل ذهبت أبعد من ذلك فعندما دفن لم تتوان على أن تتهكم من الخوارق التي ظهرت على قبره معتبرة إياها تفاهات مصدرها طبيعتنا الإنسانية الضعيفة.*miracula non secus ut ventris creptum existimavit*. وبالطبع لم تسامح السماء تلك الوقاحة فأصيبت في الحين

---

(1) حصلت بهلوانية أو مشعوذة تدعى أدلين Adeline على إقطاع في مقاطعة الهانتز Hants هو نصيبها من الغنيمة فرضه لها عشيقها الكونت النورماندي، روجاي Roger.

(2) أثناء تقسيم الأراضي استولت ماتيلد Mathilde زوجة غليوم Guillaume وابنة بودوين Baudouin كونت فلاندر Flander على ممتلكات الثريّ ساكسن بريهتيك Saxon Brihtik رسول الملك إدوارس Edwars السابق إلى فلوراند. فما ذنبه؟ لقد رفض أثناء سفارته في فلورندا تزوجها فانتقمت منه بأن جرّدته من كلّ ثروته وحبسته بنفسها في قلعة منيعة.(Thierry، tII، p 74)

بأبشع أنواع العاهات التي لازمتها إلى حين وفاتها *venter semnper crepitabat*[1]

هناك أمر لا ينبغي أن نخفيه وهوأنه إذا كانت العقيدة المسيحيّة ما فتئت تفشو بين صفوف غزاة أوروبا فإنّ الأمر ليس كذلك في ما يتعلق بالأخلاق الإنجيلية. إن الفظاظة البرابريّة ما تفتأ تتعاظم عنفا يوما بعد يوم. وإننا لنجد صعوبة في أن نفهم تلك السذاجة التي كانت تمهّد لارتكاب أبشع صور النزعة الكلبية.

ومصداقا لذلك كان الرجال البروتون يجتمعون ثمانية أو عشرة يتداولون على جماع زوجات بعضهم البعض[2]. وفي القرن الحادي عشر، وما أدراك، التقى روبار النورماندي Robert de Normandie قرب فالاز Falaise فلاحة آية في الجمال كانت تغسل الثياب فرغب في اتخاذها عشيقة. ولمّا كان أكثر شهامة من غيره من الرجال الذين كانوا يسارعون في مثل هذه الحالة إلى خطف المرأة، أرسل أحد فرسانه يشتريها من أبيها. أبدى الأب تمنعا. ولا شكّ أنه فعل ذلك حتى يرفّع في ثمن البضاعة. ثمّ استشار أخاه وكان ناسكا ذائع الصيت فأشار عليه بالاستجابة لرغبة الأمير. فسارع الأب إلى العمل بهذه النصيحة فاتفق مع روبارت على ثمن البضاعة وعلى موعد تسليمها له... ومن ذاك اليوم أصبح روبار سعيدا فقد أحب الفلاحة الشابة كثيرا وأنجبت له طفلا هو الذي سيعرف في ما بعد باسم روبار الرهيب Robert Le diable[3].

لماذا تنعدم ذمّة عامة الناس فيبيعون بناتهم؟ والأمراء ماذا يفعلون بأهاليهم غير المتاجرة بهم في سوق المصالح السياسيّة، فيزوجونهم كما اتفق، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء استشارتهم. يزوجونهم حليفا حفاظا على ودّه وخصما للإطلاع على أسراره ومن ثمّ القضاء عليه. فهل كان على البارون روبار أن يحترم تلك المرأة التي حازها في مثل تلك الظروف؟

---

(1) Théâtre de Hroswita, pref, p. XXVI

(2) Littleton, History of England, t, II

(3) Thierry. *Conquête*, t, Ier, p 267

وفي إنجلترا تشفعت كونتيسة كوفنتري Coventry لدى زوجها لمصلحة الرعايا الذين انتفضوا في المقاطعات. فأبدى السيّد استعدادا للعفو عنهم ولكن بشرط لم يكن في حسبانها. فلما كانت عقوبة الزنى تتمثل آنذاك في الطواف بالزاني عاريا أمام الجميع، ولمّا كان السيد يعتبر اهتمام زوجته برعاياه بمثابة الزنى، أمر بأن تركب مطية ذلولا بيضاء بعد أن تجرّد من كلّ ملابسها ويطاف بها طرقات المدينة.

وافقت الكونتسة على تحمّل ذلك الخزي فداء لفلاّحي مقاطعتها. ولكنها تمكنت من التخفيف من وطأته عليها بأن هددت بالقتل كلّ من يطلّ من بابه أو شباكه يوم جولتها العجيبة.

كيف يمكن لنا بعد مثل هذه الوقائع، وشبيهاتُها تعدّ بالآلاف، أن نشكك في وجود **حقّ التفخيذ** *droit du seigneur* الذي يراد اليوم إنكار وجوده؟[1] هذا الحق لم يكتب في أي سفر وربما سيظل، مثل أغلب فصول القانون حاضرا على الدوام في أذهان الشعوب الخائفة ولكن الرهبة التي يفرضها استبداد منفلت من كل عقال هي بحدّ ذاتها قانون لا يمكننا إنكار فاعليّته... فعندما يدفن السيّد الإقطاعي عشيقين حيّين ذنبهما أنهما تزوجا دون إذنه، ولا يعاقب على فعلته، وعندما يسلط عقوبة الزنى على زوجته التي طلبت منه أن يعفو على رعاياه المنتفضين، فما الذي يمنعه من أن ينتزع ابنة من أبيها ويفتكها من خطيبها، ويطبق عليها قانون الحرب الذي تستأثر به الشعوب الحديثة، دون حقّ، في المدن التي أخذت عنوة... إن تابع الملك يعتبر نفسه في أوروبا كما لو كان في بلد مغزو، فرعايا البلد هم المغلوبون فيتفضل عليهم بأن يتركهم على قيد الحياة... هؤلاء المغلوبون يصبحون أقنانا وقد كانوا في الغالب عبيدا رومانيين، وكان لسيّدهم القديم، الذي عوّضه تابع الملك، الحق المطلق على أجسادهم ذكورا وإناثا... فلماذا، والحال تلك، لا يتمتع

---

(1) يتمثل ذلك في حق السيد مجامعة عروس مقطعه أو قنّه في الليلة الأولى من الزواج. ولكن الباحثين في تاريخ الإقطاع في أوروبا غير متفقين حول الأمر إذ هناك من يشكك في وجوده ويرى أن هناك خلطا بين هذا الحق المزعوم وحق آخر يلزم القن الذي يريد تزويج ابنته من شاب خارج مقاطعة سيّده أن يدفع له ثلاثة دراهم كثمن رمزي لموافقته. (المترجم)

السيّد الميروفنجيني، الذي أُشْرِب التفسّخ الروماني، بامتيازات سلفه الروماني.

وطوال تلك القرون المظلمة التي ساد فيها العنف والاستبداد على كلّ الأصعدة بدا الرجل الجرماني غير قادر على التغني بالحب ولا بالمشاعر الجيّاشة ولا حتى بالإباحيّة التي تدنت إلى مستوى الشهوة الأكثر فحشا. لقد كان الجميع، شعراء شعبيون، وأتباع ملوك،في حالة حرب، فالنتف القليلة من الشعر الجرماني والإفرنجي التي وصلتنا كانت تتلذّذ بوصف المعارك الضارية أو الوجد المحموم. فهل سيجد الحب والمرأة مكانهما في هذا المشهد الدموي؟ إن الشاعر لا يشكّ في ذلك إذ توجد أهواء أخرى ورغبات أخرى غير تلك التي لأولئك الذين ألفوا الهذر والفزع[1].

سعى كاهن إلى إعلان عقيدة جديدة أثناء المجمع الكنسي المنعقد في ماكون Mâcon عمادها أن المرأة ليست **كائنا بشريا**... ومن حسن الحظ أن كلّ نظرائه يجاهرون بآراء متسامحة تجاه المرأة فواجهوا جهل هذا البُغَضَة[2] بالاستناد إلى النصوص المقدسة فما كان منه إلا أن تكرّم بالاعتراف بأن المرأة شيء أرفع من الحيوان!![3]

ومن حسن الحظ أنّ مثل هذه الأخلاق والمعتقدات الفظة لم تكن منتشرة لدى كلّ الناس في بلاد الغال، فكان هناك لقسم من السكّان شرف الاحتجاج على هذه العادات المشبوهة والمهلكة. وهكذا نشأت مدرسة روحانيّة وضعت نصب عينيها العودة إلى العفة المسيحية في تمام صورتها، وتخليص الإنسانية من غضب المسيح خشية أن يدمّر الأرض كما دمّر أبوه سدوم Sodome وعمورة Gomorrhe[4].

أنشأت هذه المدرسة نساء انقسمن منذ البداية قسمين: بعضهنّ زهدن في الدنيا

(1) انظر جزءا من ملحمة إفرنجيّة عثر عليها جاكوب غريم Jacob Grimm وانظر أيضا كتاب «**الجرمان قبل ظهور المسيحية**» لأوزانام Ozanam

(2) نستعمل هذه العبارة التي تدل صيغتها (فُعَلة) على المبالغة في الشيء ترجمة للعبارة الفرنسية Misanthrope وتعني الشخص الكاره للجنس البشري.(المترجم)

(3) Grégoire, I, VIII, ch, XX

(4) حسب «**العهد القديم**» ومفسري **القرآن الكريم** هي مجموعة من القرى دمّرها الله بسبب فساد أهلها وإتيانهم الفاحشة. ويعتقد كثير من الباحثين أن هذه القرى وجدت في منطقة البحر الميت وغور الأردن.(المترجم)

واعتبرنها هاوية من الملذات الحيوانية، وكنّ يملن إلى الحب الروحي، ويقلن بالتبتل الذي شجّع عليه آباء الكنيسة، وفضّلن العزلة في الأديرة. أما البعض الآخر فقد رضين بالحياة في المجتمع لإيجاد حلّ، عن طريق الزواج، لمعضلات العفة والمحبة والتقوى.

5

الدير والحب

وإحقاقا للحق، لا شيء أكثر معقولية من انعزال تلك الصفوة من النفوس الحساسة في الصوامع. ولقد كان على المرأة أن يكون لها قدر كبير من الشجاعة أو من الخضوع حتى تواجه مخاطر الزواج، وحتى تواجه العيش في القصورالموحشة الكئيبة، إلى جانب رجال فجّار أجلاف أمثال هلبيريك أو روشينغ. لقد حافظت الأسرة الإفرنجية على نفس الوضع الذي كانت عليه زمن فريديقوند... كان هناك في منتصف القرن العاشر في دير في قاندرسباين Gandersbein رئيسة دير تدعى جاربارغ Gerberge انعزلت هناك عقب ظروف تلخّص روح العصر. فقد تزوجت تلك الراهبة الكونت برنار Bernard وقاست الأمرّين من فظاظة ذلك السكسوني. عندها لجأت إلى الدير. لحق بها زوجها وطالبها بالعودة ولكنّ طلبه رفض. عندها أقسم أنه سيختطفها بعد أن يهاجمها على رأس جيشه حالما ينتهي من غزوة لا يمكنه تأجيلها. ومن حسن حظها أن هذا الزوج قتل أثناء تلك الغزوة. وهكذا ترملت وأضحت حرّة في أن تبقى في الدير.

حصلت أحداث مشابهة في أنحاء أوروبا إذ كانت نساء الطبقة العليا ينشدن في التبتّل حرية وأمنا لم يجدنهما في الزواج. لم يكنّ يعانين من فتور في عواطفهنّ ولا من جدب في خيالهنّ. ولكنهن كنّ على العكس من ذلك نفوسا متقدة وصافية لا غاية لها سوى التفرّغ لحياة قوامها الوفاء والحب للكائن الجدير بحبهنّ. ولكنهنّ لمّا حال الاستبداد الإقطاعي بينهنّ وبين الحب الحقيقي، ولمّا كنّ مهددات بالارتباط برجال سمجين وغلاظ، أصابهنّ الذعر، وشدّدن على أنفسهنّ في العقيدة وخلصن إلى اعتبار الحبّ الجسدي بمثابة تحقير للحب القلبي. فرفضنه وطلبن حرية المشاعر خلف قضبان تحمي أجسادهنّ وتمسكهنّ، في الآن نفسه، سجينات.

هكذا بدا المجتمع، لتلك المخلوقات الفخورة والرقيقة، أقلّ جدارة بالمقام فيه مما كان

عليه لدى نساء الإغريق الطليقات.لقد تحرّرت المسيحيات من نير الزواج مثلما تحررت منه **مومسات الطبقات الراقية الإغريقيات مع** فارق بسيط هو أن الإنجيل فرّق بشكل واضح بين متمردات اليوم ومتمرّدات الأمس. لقد رفضت الإغريقيات الزواج ولكنهنّ لم يرفضن الحب. أمّا المسيحيات فلم يكن بإمكانهنّ التخلص من الأعباء العائلية الثقيلة إلا بتطليق شهوة الحواس طلاقا بائنا.

لقد بدا الدير، حتى من وجهة نظر دنيوية، الملجأ الوحيد الذي تجد فيه العزوبية بعض الأمن. كانت النساء في أوروبا معرضات للخطر أكثر مما كنّ عليه في بلاد الإغريق أو في روما. فقد كان الإقطاع يعيش حالة حرب دائمة. وكانت المدن والقلاع معرّضة على الدوام للحصار والأخذ عنوة... وهناك، كان ما لا يحصى عددا من المستبدين عديمي الضمير يقضون أوقاتهم في اختطاف العذارى والمحصنات، أضف إلى ذلك أن الفروسية لم تقنّن بعد... لكل ذلك كان على المرأة أن تبحث بنفسها عن الحماية فوجدتها خلف أسوار الصوامع. كان ذلك قدر الملكات والبارونات وبنات العامّة على حدّ السواء.

أسرت راديقوند Radegonde ابنة أحد ملوك Thuringe، من قبل الملوك الإفرنج فكانت من نصيب شلوتار Chlotaire... كانت على تلك السبية اليافعة علامات تشي بأنها ستكون على غاية من الجمال. ثمّ ما لبثت أن ألحقها شلوتار بقصره وربّاها تربية متينة، فجمعت بداخلها، بين معرفة حياة القديسين وحياة العظماء وبين الاطلاع على تاريخ آباء الكنيسة وتواريخ الغزاة الرومان، وبين حفظ لاهوت القديس أوغسطينوس وأشعار فرجيليوس.

نما فكرها بمعرفة أولئك الرجال وتلك الأشياء، فانفتحت نفسها على رقة أحلام الحب الروحي والشاعري. وعندما بلغها أن الملك طلبها لتكون من ضمن ملكاته أو من ضمن سريّاته، فمن الصعب تبيّن الفرق بين هذين الصنفين المعرّضين لكل نزوات سيّدهما، ذعرت لمجرّد التفكير في مضاجعة ملك متعدد الزوجات فهربت على عجل ولكن قبض عليها وحملت إلى سواسّون Soissons، وهناك تزوجها الملك بطريقة شبيهة بطريقة أبناء

Mérové الفرسان[1].

كانت راديقوند تعتقد جازمة أنّ زواجها من ذلك المسيحي اسما والوثني فعلا زواج غير مكتمل الشروط. ولذلك هجرته ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. ولم تكنّ له أدنى مشاعر الحب. ففي كلّ ليلة كانت تتسلل من الفراش حالما يستغرق في النوم. واستطاعت بذلك أن تمنع عنه جسدها أحيانا وأما روحها فكلّ الوقت. وما إن تتخلص منه حتى تسرع لتنام على حصير أو على ألواح. ثمّ تأوي إلى فراش الزوجيّة وقد تجمدت مفاصلها بردا. وفي النهاية تحقق الملك «من أنه تزوج راهبة وليس امرأة عادية».

إن ما قاله هو عين الحقيقة... لقد أضحى الدير الطموح الوحيد لتلك النفس المحبّة الحساسة ذات الرقة التي لا يمكن لملك متوحش أن يقدّرها. وهكذا انتهى بها الأمر إلى أن هربت من القصر، وبعد اختفاء محفوف بالمخاطر وصلت إلى مدينة بواتيي Poitiers وهناك شيّدت صومعة شهيرة تحمل اسمها[2].

عاشت راديقوند شبابها دون حب فقد قتل فيها ذلك الزواج المقيت الرغبة في الحب وفي أن تحقق أحلامها التي كانت تختلج بين جوانحها. لقد خيّل إليها بعد استقرارها

(1) يعني على طريقة الميروفنجيين. (المترجم)

(2) قال المؤرخ أوغسطين تياري Augustin Thierry في أحد أبرز فصول كتابه «إن صومعة القديسة راديقوند كانت تمثل، وفقا للشعائر، نوعا من المصالحة بين صرامة الزهد الصوفي وميوعة عادات المجتمع المتحضر. و تأتي دراسة الأدب في صدارة الاهتمامات المفروضة على كل المقيمات فيه. وقد خصصت لها ساعتان يوميا. وما تبقى من الوقت يخصص للأنشطة الدينيّة والمطالعة وقراءة الكتب المقدسة والمؤلفات النسائيّة. وكانت إحدى الراهبات تتكفل بالقراءة بصوت عال أثناء النشاط الجماعي. وأمّا الفطنات منهنّ فكنّ لا يغزلن ولا يخطن ولا يطرزن بل ينشغلن، في غرفة أخرى، بنسخ الكتب حتى يضاعفن من عددها. ورغم أن القانون كان متشددا بخصوص بعض النقاط مثل منع أكل اللحوم و شرب الخمر فقد كان يسمح ببعض حالات التبسّط وأحيانا ببعض طيّبات الحياة الدنيا مثل الاستحمام في أحواض واسعة مملوءة ماء ساخنا ومثل اللهو بمختلف أشكاله، ومنه لعب النرد. كانت مُؤَسّسة الدير وأعيانه لا يستقبلون فقط الكهنة وأعضاء الإكليروس بل أيضا غير المتدينين من علية المجتمع. وكانت هناك، في الغالب، مائدة مخصّصة للزائرين والأصدقاء فتقدم لهم وجبات طعام خفيفة لذيذة، وأحيانا تقام مآدب حقيقية تحضرها الملكة تلطفا منها دون أن تشارك الحضور الأكل. هذه الحاجة إلى الاجتماع جلبت إلى الدير حضورا من نوع آخر ففي بعض الأوقات كانت تمثّل فيه مشاهد مسرحية تظهر فيها شابات من خارج الدير يرتدين خلعا مزهرة، وقد تظهر فيها راهبات مبتدئات».

(Voir Grégoire de Tours I, X, ch.XV et XVI)

في ديربواتيي المحتفي كثيرا بالآداب والميّال إلى حد ما إلى الحياة الاجتماعية، أنها قد حازت تكوينا ثقافيا ووجدت الملجأ العاطفي الذي تطلعت إليه، فبدت وكأنها بلغت حدّ الامتلاء.

فما الذي كان ينقصها بالفعل؟ كانت تطالع دواوين الشعراء، وتستقبل الأدباء والكهنة والأثرياء الغاليين–الرومانيين والرحالة وتستمع إلى محادثاتهم، وكانت على علم بقضايا العصرالسياسية والعلمية. ولقد أسعفتها هذه المسليات فأدركت سنّ الرشد دون أن تتعرض لاهتياج الحواس إلا عن طريق ما يوحي به الخيال.

وفي يوم مرّ شاعر مشهور ببواتيي فأفسد عليها توازنها الروحي. ذلك الشاعر هو فيناتوس فورتوناتوس[1] Venantius Fortunatus ظريف زمانه. كان ذلك الإيطالي المدلل الذي نال إعجاب بلاد الغال بكاملها ينظم قصائد رائعة غاية في اللطف والبساطة. كانت الظروف ملائمة ليستولي على قلب راديقوند المنفتح لروائع الأدب والأدباء.استقبلته بمشاعر لا تقدر أكثر النساء حصانة ضدّ الإغواء أن تمنع منها نفسها في حضرة رجل جدير بأن يحبّ.

مرّت الأشهر وهما في صداقة رقيقة عفيفة ولكن حبّ القلب لا يدوم كثيرا. وعندما أتى الشاعر على ذكر الرحيل لم تستطع راديقوند وصديقتها أنياس Agnes رئيسة الدير أن تتحملا فكرة الفراق فعارضتاه وسألتاه البقاء.

فهل سيقاوم هذا الإغراء وهو العارف بالنساء؟ إذ لا يمكنه أن يخطئ فهم معنى رجائهما.أليس هو الآن بصدد جني ثمار أحاديثه العذبة وأشعاره الغزلية والغرامية وفنّ الإغواء الذي يجيد ممارسته؟ كان في أحايين كثيرة يظفر سلالا من ورق الصفصاف بيديه ويهديها إلى الراهبتين بعد أن يملؤها بنفسجا وأزهارا ربيعية. لقد كان يحتفل بعشائه معهما بنظم أبيات شعرية لطيفة، فلا يُهْضَم الطعام إلا **بالأحاديث الرائقة**... إنّه عشاء شبيه

(1) هو شاعر إيطالي من أكبر شعراء المسيحية ولد سنة 530 وتوفي سنة 609م. اشتهر بتغزله بالراهبات. وانتهى به الأمر إلى أن عيّن أسقفا على بواتيي.(المترجم)

بعشاء كاتيلوس Catulle [1]، مع فارق بسيط وهو أنّ الراهبتين الطاهرتين قد اتخذتا مكان صويحبات كاتيلوس قليلات الفضل.. إلاّ أنّ غرفتهم كانت مفروشة بأكاليل الورد. والخمر فيها متاحة بلا حدود. ولا يهمّ إن لم يتوّج الشاعر بالورد.فقد كانت تلك الوردة المجازية تلعب دورها في المائدة إذ تكرر ذكر اسمها أربع مرّات في مقطع واحد من القصيدة. يا للشوق! يا للبهجة. إن راديقوند والرئيسة الشابة **هما حياته ونور عينيه ونعيم روحه**. إنه يحتفل بعيد ميلاد أنياس. ولقد بكى أول أيام الصوم الكبير. وعندما تركته راديقوند لتدخل معزلها كان يتغنى بعودتها يوم عيد الفصح ويتجاسر إلى حدّ ما على مقارنة ظهورها الجديد بعودة المسيح[2].

يمكننا أن نتخيل ما كان يتبادله الثلاثة الغارقون في أكثر المشاعر طهارة من مشاعر صافية ومن زفرات وخلجات وودّ صادق.

لم يستوعب مادّيّو العصر أبدا أن يكون الحبّ على ضربين. فلم يكن يجذبهم سوى المظهر المادّي والمرئي للحب دون سواه... لذلك اتهموا الملكة راديقوند، وبدرجة أقل الرئيسة أنياس التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها بأن ما حَبَتَا به الشاعر من تعاليم كان بعدها الروحي ضامرا... إلاّ أنّ الشاعر دفع بشدّة تلك الاتهامات واصفا تعلقه بهما بأنه ذو طابع أخوي وصوفي لا غير[3].

إننا لا نشك أبدا في مصداقية هذا الاعتراف فراديقوند قد بلغت الآن من الكبر عتيا. وقد رفعتها الكنيسة أخيرا إلى مصاف القدّيسين. وأمّا الراهبة أنياس فقدرها رفيع. وإن غاية ما نرجوه أن لا تحصل الفضيحة في صومعة بواتيي، ويكفينا أننا لاحظنا لدى الراهبتين

(1) هو شاعر روماني ولد سنة 87 ق.م وتوفي سنة 54. اشتهر بعلاقته بلزبيا Lesbia (بعض المصادر تسميها كلوديا Claudia) زوجة أحد القناصل الرومان وكانت متهتكة وعاهرة إذ يروى أنها جمعت في حياتها ثلاثمائة عشيق.(المترجم)

(2) «معك أنت هجرتني كل أفراحي، ومعك أنت عادت إليّ من جديد. وإنّ رؤيتك يوم عيد الفحص تجعلني أحتفل احتفالين.»

(3) «إنّ تقديسي لها يجعل منها أمّا، وحبّي لها يجعل منها أختا رقيقة وحنونة فأحوطها بإيمان تقي وصداقة أخوية وبرباط إلهي، و لا أحوطها أبدا بروابط الجسد الأثيمة. إنني لا أعشق فيها وجهها ولكن روحها. وأُشْهِدُ المسيح على ذلك» (Fortunatus, Lib XI).

التفجّر الذي كان لابد منه لتلك الرغبة في الحب التي تطارد المرأة حتى إلى الدير حيث تأمل تجنبها. إن رحابة قلبها، ومهما بلغت من صدق، لموقعةٌ شاعراً متمرساً بالحبّ في الغلط. لقد احتفى بها مقلدا أسلوب الغزلية لدى كلّ من تيبولوس Tibulle وهوراسيوس Horace[1].

سنسمح لأنفسنا مرّة أخرى بإفشاء بعض الأسرار حول موضوع راهبات بواتيي: لجأت إلى صومعتهن فتاة شابة تدعى ديتيولا Ditiola. وبعد مرض مزمن أسلمت الروح وهي تطلق ضحكة مدوية. ترى ما السر في هذا الاحتضار الغريب؟ فوفق رواية أحد المجاذيب في نواحي بواتيي انتصر المَلَك ميخائيل على الشيطان بعد معركة ضارية وصعد بروح الفتاة إلى السماء. وقد أسف المجذوب كثيرا لغلبة الملك.

نحن لا نشك في أن روح أنياس كانت في مثل طهارة ديتيولا كما لا نشك في حسن مآلها الأخروي فهو لا يختلف عن مآل روح دتيولا ولكننا نعتقد أن الحبّ الإنساني في هذين الروحين قد غنم بعض الشيء على حساب الحب المسيحي. إننا نعثر في بقية قصة غريغوريوس على شاهد جديد يؤكده في بقية القصة. لقد رأت راهبة في نفس الصومعة، بعد موت ديليوتا رؤيا أفزعتها كثيرا. لقد بدا لها كأنها كانت في سفر وأن **رجلا قد ظهر** لها، كان يمشي أمامها ويرشدها إلى طريق **منبع الماء الصافي الذي كانت تبحث عنه**. سار معا على تلك الحال بعض الوقت ووصلا في الأخير إلى «عين ماء كبيرة تلمع مياهها لمعان الذهب، وتحاكي أعشابها كلّ أنواع الحجارة الكريمة. فهي تلمع بكلّ أنوار الربيع. قال لها الرجل: هذه هي عين الماء الصافية التي كنت تبحثين عنها بكلّ جهد. ارتوي من مائها الجاري حتى تكون لك عينا جارية في الآخرة. ولمّا كانت تطفئ ظمأها من ذلك الماء رأت في الجانب الآخر رئيسة الدير قادمة، فخلعت عنها ملابسها وخلعت عليها بدلها حلّة ملكية مزينة بالذهب والحجارة الكريمة تأخذ بلبّ الناظرين. ثمّ قالت لها: «**إن خطيبك قد أرسل لك هذه الهدايا**».

---

(1) انظر رائعة أوغسطين تياري «**القصة الميروفنجية**».

تلك إحدى طرق العزاء التي كان يلجأ إليها خيال أكثر الراهبات طهرا فتتمكن من إطفاء النار التي تضطرم بداخلها. لقد كان قلبها ينتشي لسماع كلمة زوج، ذلك القرين اللامرئي الذي لا يمكنها جسّه باليد فتكتفي بأن تتأمله في حلمها. إنّها تتزيّن بحلّة الملكة التي أهداها لها بمناسبة زواجهما. لقد كانت **مخطوبة فتزوجت**. ولهاتين الكلمتين رقة لا توصف فهما عزاء تلهفها وهما اللتان تجعلان أرقها لذيذا. لقد كانت تلك الخواطر عن الزواج تعشش في ذهن راهبة بواتيي الشابة، وهي حريصة على أن لا تفارقها لحظة واحدة. لذلك توسّلت إلى رئيسة الدير بأن تبني لها بيتا ضيّقا تحفظها فيه كما لو كان قبرا. وذلك القبر، بالنسبة إليها ليس سوى فراش الزوجية... وكان ذلك رأي كل أهل الدير. سير بها إليه في موكب على أنغام التراتيل الدينية وعلى ضوء المشاعل، مثلما كان الإغريق والرومان يشيّعون المتزوجين إلى عش الزوجيّة. وهكذا وحال وصول الراهبة مستقرّها قبلت كلّ العذارى قبلة الوداع ثمّ ولجت البيت وسدّت فتحته. وكانت ما تزال حيّة على زمن غريغوريوس تعيش بمفردها مع العريس الصوفي الذي تفرّغت كليا لعبادته(1).

لم تكن كل عذارى بواتيي مقتنعات بمثل ذلك النوع من الزواج الرمزي. ولمّا كان الشيطان يحشر نفسه علنا في مشاغل العباد فقد وسوس لبعضهن بشهوات أكثر جرأة. من ذلك أنّ شورديالد Chordielde ابنة هاربارت Hariberd هجرت الدير صحبة إحدى بنات عمّها وراهبات أخريات كثيرات. تزوّجت أغلبهنّ وأصبحن أمهات. وانتهى بهنّ المطاف إلى تجنيد جيش صغير من اللصوص والقتلة والزناة لمواجهة أولئك الذين كانوا يريدون أن يفرضوا عليهن الترهّب والتبتّل. لقد كانت شورديالد تلك نسخة أخرى حقيقية من فريديقوند مترهبة. وذات يوم هاجم القتلة، الذين استأجرتهم، الصومعة واختطفوا رئيسة الدير وجرّوها من شعرها. وكانوا يرومون قتلها. وقد قتل الكثير من خدمها دفاعا عنها. ثمّ احرقوا المبنى بواسطة برميل من القار. ولمّا مثلت شورديالد أمام محكمة الرهبان اتهمت رئيسة الدير بأنها كانت تخفي في ديرها رجلا بملابس امرأة. ثم دلّت عليه وسط

---

(1) Grégoire I,VI, ch.29

الحضور. وعلى الفور، استدعي طبيب إلى المحكمة فأعلن أن الرجل المعني كان مخصيا. عندها صاحت شورديالد حانقة: «أيّة طهارة سنجدها في رئيسة دير تخصي الرجال وتجبرهم على الإقامة بجوارها على طريقة القسطنطينية»؟ ثمّ واصلت سيل اتهاماتها فزعمت أن رئيسة الدير كانت تضع حمّامات الراهبات على ذمة خدم الصومعة، وأنها كانت تلعب النرد وتُلْبِس ابنة أختها غطاء المذبح وأنها أقامت حفل خطوبتها داخل الدير، وأنها كانت تزني مع أشخاص سمّتهم ولكن المحمكة وجدت كل تلك الاتهامات باطلة. وهكذا كان غضب شورديالد وتمرّدها بلا نتيجة[1].

لا! لقد أخطأنا الاستنتاج فقد كان لغضبها وتمردها نتيجة إذ بهما اكتملت الصورة المأساوية والأخلاقية لصومعة بواتيي، وبفضلهما حصلنا على خلاصة دقيقة عن المجتمع الغالي في تلك الفترة. لقد مثلت شورديالد وشركاؤها العنصر الإفرنجي الفظ والعنيف. في حين مثلت أنياس ورادينقوند الروح المسيحية المتسامحة والمتبتلة والطاهرة. لقد بثّ فيها الشاعر فورتوناتوس ذلك النفس الأخير من الروح الرومانية الغَزِلة واللطيفة في الآن نفسه، تخللت، بهدوء، العصر الميروفنجيني باتجاه العصر الوسيط... لقد وضع ذلك التصوّف العاشق لدى الشاعر ولدى الراهبتين أسس المدرسة التي ستسود من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر. سنرى طبعا الشعراء الجوالين يرفعون المرأة مقاما عاليا لم تحزه في العصور القديمة، مقاما انفردت بلاد الغال وجرمانيا بتشييده لها... لقد جعلوا منها موضوع عبادة

(1) Grégoire , I, IX , ch ,XI, I, ch , XV et XIX

لقد تنبأ الأساقفة المؤسسون لدير القديسة راديقوند بمثل ذلك التمرّد. لقد كانوا يعرفون أن عقيدة العذرية ستواجه حتما عراقيل جدّية إذا ما طبّقت على فتيات، ذوات حيوية ونشاط، من أصل جرماني. ثمّ إنهم أطلقوا مسبقا لعنات رهيبة على العصاة. كتبوا في رسالتهم الكهنوتية «انه إذا ما أرادت راهبة تلطيخ ترهّبها ومجدها وتاجها بالعار استجابة لنصيحة أحد البغضة، وذلك لأجل التمرّغ في وحل فجور الدهماء فإنها تطرد من جماعة المؤمنين وترسل عليها لعنة شنيعة. وإذا ما هجرت الآبقة المسيح وخضعت لنفوذ الشيطان وأرادت الزواج فليست وحدها التي ينظر إليها على أنها زانية سافلة بل زوجها أيضا إذ يعدّ زوجا دنسا أكثر مما يعد مذنبا. وكلّ من ساعدها على فعلتها سيصيبه بفعل العدالة الإلهية وببركتهم انتقام شبيه بالذي أصابها، إلى أن تنفصل عمّن ارتبطت به وتعود إلى المكان الذي تركته وحتى تبدي ندمها على خطيئتها المقيتة وعندها تقبل مجدّدا في الدير وتكون في عداد الراهبات.»

جديّة وظريفة في الآن نفسه. وإن كلّ أعمالهم تصنّف ضمن إطار فنّ الحب الصادق جدّا. لقد كان الأمر بمثابة عقيدة، فقد دوّنوا تعاليم المسيحية في صفحة وكتاب صلوات المحبّين في الصفحة الموالية... ولئن أعلن الحواريون والآباء بشكل واضح القطيعة بين الإنجيل والغزل فإنّ الشعراء الجوالين سعوا إلى المصالحة بينهما. وقد فاق نجاحهم كلّ التوقعات. فجسّدوا سيادة الحب الورع واللذة الصوفيّة... وحتى نكون عادلين في حكمنا هذا، فقد كنّا بصدد القول إن رهبان وراهبات القرن الحادي عشر قد مهّدوا لهم الطريق.

6
الحبّ في المجتمع من وجهة نظر أهل الدير

إذا كانت المرأة الملتجئة إلى الدير تكتفي بالعناية بالحب القلبي فإنّ تطلعات لا تقاوم تدفعها نحو العالم الذي هجرته. إنها تروم استذكار كثير من الأهواء والأسرار الخطيرة ولولأجل لعنها.

إنّ المرأة تنعزل في الدير للضرورة أكثر مما تنعزل بفعل ورع ديني لذلك تدخله في الغالب ومعها حسراتها على الماضي. لقد تمكّنت من الإفلات من الزواج كما لو أنها أفلتت من جلاد. إنها لا تستطيع منع نفسها من استراق النظر إلى المجتمع الذي كانت تواجهه. إنها تعيش حياتها مناصفة بين الرهبانية والمجتمع. وعندها تصبح ردهة الدير بمثابة غرفة استقبال يجتمع فيها الأشخاص من الجنسين لا لذمّ الدنيا ولكن لأجل أن ينظروا إليها كما هي بحلوها ومرّها. ولأجل أن تستخلصوا من تقلباتها العبر الكفيلة بجعلها أفضل.

إن الراهبة المحرومة من الحب لا تظلّ رازحة تحت عبء هذا الهمّ الذي يرهقها مثل مرض مزمن. بل هي تجد متنفسا في ما تلاحظه في حياة الآخرين، وهي غير منزعجة من أن تعرض على مرآها مشاهد من تقلبات الدنيا وفوضاها العارمة. إن المرأة تحبّ بقلبها أكثر مما تحب بحواسها فالخيال يلبّي في الغالب رغبتها في الحبّ إلى درجة أنها تنسى الحرمان المفروض على الجسد. إنّ الفتن التي تسببها المرأة في المجتمع هي نتيجة إثارات المجتمع أكثر مما هي من مقتضيات طبعها. لقد مرّت عصور كانت فيها المرأة متغزلة ومتفسخة استجابة **لآداب العصر** مثلما كانت تلبس الفراء أوالجواهر وأردية فضفاضة أو ثوبا قصيرا استجابة لنفس الآداب. وعندما كانت ظروف العصر وآدابه تفرض العزوبية أوالعذرية كانت المرأة تجد القوة لتظل عذراء بطريقة سهلة ومدهشة. لقد كان التبتل هو السلوك السائد من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، لذا اتبعته المرأة كشيء متميّز. ولقد وجدت في الأحاديث نصف الشبقيّة نصف العفيفة المسموح بها في ردهات الدير

عزاء مجزيا.

كانت المرأة، تلك البائسة، المبعدة عن المجتمع والتي تطاردها حسرات لا تردّ، تبحث بالتأكيد، وربّما دون وعي منها عن التشبث بصور ومشاعر ذاوية. إنها تخدع عفتها الضامئة عبر تغذيتها بأوهام خيالها أو ببعض أخبار الفجور التي تأتيها من خارج الدير.

تلك الحياة في الدير الطاهرة بطبعها، ولكن المتلهفة جدّا لمعرفة ما يدور في الخارج من حكايات وأحداث، وذاك الامتحان لعالم فاسد ثاو في أعماق المنعزلين، قد شخّصا بفعالية في مؤلفات هروزفيتا[1] Hroswita الراهبة المشهورة في إحدى صوامع الساكس Saxe.

كانت هروزفيتا مثل كلّ امرأة حساسة، شاعرة بالفطرة. وقد قهر الدير بكلّ قوّة ما بداخلها من أهواء ولكنه لم يخمدها نهائيا. كانت تتسلّى بدراسة الأهواء التي لا تعرفها إلا حدسا أو سماعا وعبر مقابلة صورة ملذات الروح الصافية بصورة الشهوات الحسيّة الحادّة. لقد صوّرت كلّ ذلك بصرامة الفرشاة القادرة على أن ترجّ أعماق كلّ مستمع غير محصّن ضدّ الإغراء.

وحتى تُسْتَوعَب دروسها اختارت لها شكلا دراميا، فأعدّت مسرحيات لعب أدوارها رهبان شبّان وراهبات شابّات. لقد كان لها شرف أن تكون وريثة تيرانتيوس Terence في منتصف القرن العاشر وأن تكون مؤسسة المسرح المسيحي.

وإحقاقا للحق أثبتت تلك المسرحيات أن الحبّ الذي كتب عنه ميناندر Ménandre وبلوت Plaute قد حُفِظَ لدى رومان عصرها بأمانة كبيرة. لقد لعبت فيه كلّ من العشيقة والبغيّ دورهما المعتاد بجرأة فاحشة فاقت جرأة مباهج رواية **«مائة قصة جديدة»** *cent Nouvelles nouvelles* أووقاحة **رابلي** *Rabelais*. حقا إنّ الكفّارة المسيحية لا تني أن تطهر في نهاية المسرحية آثام الأفعال التي بدأت بها. ولكن التطهر لا يتمّ إلا بعد أن يكون المجال قد فسح أمام الفجور الأكثر جراة يرتع في حرّية تامّة بحيث تبدو الموعظة

(1) هي راهبة ألمانية من القرن العاشر الميلادي. تاريخ ميلادها ووفاتها مجهول. اشتهرت بمسرحياتها الست التي ألّفتها وقد استوحتها من الشاعر اللاتيني القرطاجني ذي الأصل البربري تيرانتيوس Terence (المترجم).

الأخلاقية التي تختم بها المسرحية غير قادرة على تجاوز الفجور الذي بدأت به.

في مسرحية **أبراهام** *Abraham*، جذب الناسك الذي يحمل اسم المسرحية إليه في عزلته ماري Marie، إحدى بنات أخيه، وكانت صغيرة السنّ ويتيمة. وبقدر الحب الذي ألهمته إياه سببت له متاعب. لقد كان يخشى أن «يتلوّث جمالها الرائع يوما ما بإثم الخطيئة» لذلك كان يتحرّق شوقا لتزويجها بالمسيح لإخضاعها لتعاليمه». استجابت لرغباته بحماس محمود في البدء إذ قالت له: «من لا يقدّر هذا النعيم يعيش كالبهيمة»، أمّا أنا فقد طلقت متاع الدنيا وأنكرت ذاتي حتى أكون جديرة بالتمتع بمثل هذه السعادة العظيمة. وفي أوج فرحها «بنى لها أبراهام بقرب صومعته بيتا مدخله ضيّق جدًا، فكان أثناء زياراته المتكررة لها يعلّمها عبر النافذة المزامير والأجزاء الأخرى من الشريعة الإلهية».

ولكننا كنّ قد نبهنا مسبقا إلى أن هذه العناية المبالغ فيها بالعذرية معرضة لتقلبات كبيرة إذا ما فرضناها على الذين لم يخلقوا لأجلها. إننا معرّضون إلى أن نخلق عذارى جاهلات، مثل عذارى مدرسة قرطاج، إذا رغبنا في خلق زوجات للمسيح دون أن نأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات المعاكسة في بعض الأمزجة. لم تكن نافذة حجرة ماري ضيّقة على إبليس الماكر فيتمكّن من أن يمرّر إليها عبرها شيئا آخر غير الكتاب المقدس. وما لبث أبراهام أن أصابه حزن كبير. لقد أصبحت ماري ضحية «دجّال كان يؤدي لها باستمرار زيارات مخاتلة متنكرا في زيّ ناسك، فهربت من النافذة لترتكب الخطيئة... ولم يقف الأمر عند ذلك الحدّ. فبعد أن ندمت لبعض الوقت، تحجر قلبها، ويئست من رحمة المسيح فولجت الدنيا». ولكن من أيّ باب؟ لقد اختارت، وأسفاه! «ملجأ لها منزل رجل أغدق عليها ما تحتاجه ولكن ليس بلا مقابل فهو يقبض مبالغ ضخمة من عشاقها الكثيرين.» يا للخراب! «إن تلك التي ربّاها الناسك لتكون عروسا للمسيح تهب جسدها لعشاق غرباء!..»

عندما بلغت أبراهام تلك الأخبار الحزينة طلب حصانا ذلولا ولباسا حربيا ثمّ سعى ليقدم نفسه إلى ماري على أنّه عاشق ظريف. ولم ينس أن «يأخذ معه القطعة الذهبية الوحيدة التي يملكها ليقدمها أجرة لصاحب الخان. إنّ الوضع محرج وسيزداد إحراجا...

حضر أبراهام إلى المنزل المشبوه وسأل إن كان يوجد مكان لمسافر يريد أن يقضي ليلته فيه. أيّ سؤال هذا؟ فهل كان على صاحب الخان أن يمنع منزله المتواضع على أحد؟ ألحّ عليه أبراهام أن يقبل منه القطعة الذهبية وأن يحتال على الفتاة الجميلة التي تقيم عنده حتّى تجلس إلى جانبه على خوانه.لقد كانت فرحته كبيرة بمعرفتها فقد سمع الكثير عن جمالها فتحرّق حبّا لها.

أصاب هذا الاعتراف، على لسان الرجل العجوز، صاحب الخان بدهشة كبيرة. فتجرّأ على أن يعطيه درسا في الأخلاق: «هل يجوز لك، وأنت العجوز الفاني أن تطمع في حبّ فتاة شابة؟» ولكن أبراهام تصنّع شجاعة وأعلن أنه: «لم يأت إلا لرؤيتها». عندها ذهب صاحب الخان ليحضرها. «ثمّ طلب منها أن تتبرّج لهذا الزائر الجديد. لقد طبقت شهرتها الآفاق فلم يعد الشبّان فقط يجدونها جميلة بل الشيوخ أيضا فيسارعون أفواجا ليظهروا لها ولعهم».

أجابت ماري وكانت وديعة وعلى غاية من الأدب «بأنها تبادل الذين يحبونها حبا مماثلا». طلب منها أبراهام أن تمنحه قبلة فلم تكتف بتحقيق طلبه بل زادت عليه «بأن لاطفته وأحاطت بذراعيها كتفيه اللتين أحنتهما السنون». تجاوب معها الناسك وحدّث نفسه قائلا: «الآن يجب عليّ التصنّع وأن أطلق العنان للمرح مثل شاب طائش حتى لا يفضحني وقاري، وحتى لا تخجل ماري فتنعزل أكثر ممّا كانت عليه في الدير». وفجأة اشتمت ماري رائحة عطر عجيبة ذات نكهة خاصة ذكّرتها بزهدها القديم. فصاحت به: «توسّل إلى الإله حتى تخترمني المنيّة! فقبل ثلاث سنوات لم أكن أبدا لأنحدر إلى مثل هذه الحياة الخاطئة».

ولكن أبراهام لم يأت ليندب معها خطاياها، إنه يريد أن يقاسمها الحبّ لذا «أبعدت ماري عن خاطرها فكرة التوبة فهي خاطرة عابرة، فهي لا تفكّر الآن سوى في أن تتعشّى جيّدا وأن تنصرف إلى اللهو».

وبعد أن شبعا أكلا وثملا شربا، «رغب أبراهام في التمدّد على الفراش ليرتاح قليلا

ويستجمع قواه». فأخذته ماري إلى غرفة يستريحان فيها. أرته متكأ لم يعدّ من الحشايا البالية. ودعته للجلوس حتى تجنّبه مشقة نزع حذائه.

كان أبراهام حذرا جدّا فرجاها أن تحكم غلق الباب حتى لا يتمكن أحد من الدخول عليهما. استجابت لطلبه. فما راعها إلا وهو ينزع قبّعته الكبيرة معرّفا بنفسه بحركة مسرحيّة معدّة بإتقان... عندها انهارت ماري، وهي شبه مصعوقة، عند قدميه، فلم يرهقها تأنيبا بل بالعكس، كانت كلماته لها حليمة ومشجعة. فقال لها:

– «لماذا استهنتي بي؟ لماذا هجرتني؟ لماذا لم تخبريني بردّتك؟ لقد كان بإمكاني أن أطلب لك، بمساعدة صفيّ القديس أفرام Ephrem، توبة نصوحا».

أجابت:

– «بعد أن غرقت في الآثام وتدنست كما كنت سابقا، لم أجرأ على الاقتراب مجدّدا من قداستك.»

فردّ:

– «ولكن من منّا بلا ذنب عدا ابن العذراء مريم؟.. كلّ ابن آدم خطاء! وخير الخطّائين التّوابون. ينبغي ألا نؤنب الذي تزلّ به القدم بل ذاك الذي يرفض النهوض سريعا... إنّني أقرّ أنّ ذنوبك كبيرة ولكن رحمة الإله أوسع... اطردي عنك هذه الأحزان واستغلي ذلك القليل من الوقت المتاح لك للتوبة فكلّما كبر المقت والفاحشة كانت رحمة الإله أوسع».

كم كان لطيفا ومشجّعا ذلك الدرس الأخلاقي! إنّنا نحسّ وكأن مسيحيّي القرن العاشر قريبون من زمن الحواريين. إنهم يحسنون التعاطف مع البشر الضعفاء والسير بهم نحو الفضيلة. ليس بأسلوب الرعب ولكن بالرحمة... فلو كان ذلك الناسك سيعيش في القرون الموالية، في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، لكان سيتوعّد الخاطئة وسيصوّر لها الإله متسلّحا بالصواعق والنيران يرميها بها، وربّما كان سيربط إلى

جسدها المذنب حيات وعلاجم. ولكن ذلك المرشد له الآن من المحبة ما يجعله يقول لمريم المجدلية الجديدة وقد تابت: «لست أنت التي تترجّلين، بل أنا، أنت تركبين الحصان حتى لا تخدش نتوءات الطريق أكف قدميك الرقيقتين». لم تدر ماري كيف تعبّر له عن عرفانها بالجميل. وانتهى الأمر بها إلى بيتها القديم ترتدي المسوح، ثمّ بدأت بإماتة جسدها عن طريق قيام الليل والصوم المتواصل والالتزام بنظام غاية في الصرامة «وطوّعت جسدها الرقيق ليكون خاضعا لسلطان الروح»[1].

---

(1) وما إن انهت هروزفيتا قصّة أبراهام وماري حتى ولجت بنا عالم بغيّ تدعى تاييس Thaïs. وكانت هروزفيتا فزعة إلى حدّ ما من مجتمع البغايا. كشفت لنا، في مسرحيتها، عن «الرجال الطائشين الذين يبذّرون لأجلها ما تبقّى لهم من مال، والرجال الأثرياء الذين يدفعون أغلى ما يملكون لأجل إغنائها... إن أولئك التافهين الذين أعمتهم شهواتهم يتهارشون أمام مدخل بيتها، ويهتاجون عراكا. ثمّ يلجؤون إلى استعمال الأيدي فيشبعون وجوه بعضهم البعض ضربا ويدفع بعضهم البعض بالسلاح و يغرقون عتبة ذلك البيت النجس بالدماء». وقد حاول الناسك بافنيس Paphnuce، في مسعى حميد، أن ينتشلها من تلك الحياة الماجنة، فتوجّه إلى المدينة وسأل رهطا من الشبان وجدهم مجتمعين عن مسكنها فألفاهم كلّهم يعرفونها وقد تغنّوا في حضرته بجمالها: إنها النار التي تلهب الناس، إنها **أجمل وأشهى** (*Délicatissima*) نساء العالمين. لقد تحمّل الناسك المتحرّق للقائها، في سبيل إدراك هدفه، عناء سفر طويل. و أخيرا دخل منزلها ودار بينهما الحوار التالي:

* هل أنت تاييس التي أبحث عنها؟

* من الغريب الذي يحدّثني من خلف الباب؟

* رجل يحبّك.

* كلّ من يحبّني أبادله الحبّ.

* أي تاييس! كم هو طويل وشاق سفري لأجل أن أسعد بالتحدّث إليك وأن أتملّى حسنك.

* إني لا أمنعك من أن تنظر إليّ ولا أمتنع عن محادثتك.

* إن محادثة حميمة مثل التي أرومها تستدعي مكانا أكثر هدوء!

* هذه حجرة مؤثثة تسمح بإقامة مريحة.

* هل توجد خلوة أبعد يمكن أن نتحدث فيها على انفراد.

* نعم، يوجد في هذا المنزل مكان منزو وسرّي لا أحد يعرفه، بعد الإله، غيري.

كان الناسك متفاجئاً أكثر منه مغتاضا من حشر اسم الإله في هذا الموضوع. إنه يرى أن طيبة المسيح التي يقدّرها الكثيرون تقديرا خاصا قد تأخرت عن معاقبة أولئك الذين يعرفونها ومع ذلك يتجرّؤون على ارتكاب الذنوب. لقد كان أقل حلما من أبراهام لذلك أعلن أن الخاطئة ملعونة على قدر إساءتها المتعمدة لذات الإله. «أثرت هذه الكلمات في تاييس فارعوت إلى التوبة وقررت هجر عشاقها المتفسخين، والانعزال في صومعة تقيم فيها رفقة العذارى المنقطعات إلى الإله. ومن ثمّ دفنت نفسها حيّة في أضيق وأعفن حجرة. وبعد خمس سنوات من التكفير=

لأن الحوادث التي روتها لنا هروزفيتا بكل عناية أفضت بنا إلى الخلاصة التالية: في ظلّ شيوع البغاء وسهولة انحدار المرأة في ذلك العصر إلى الدرك الأسفل حيث تلك المهنة السافلة، لا يمكن أن نخلق قدّيسين وراهبات بمجرّد الدعوة إلى التبتّل.

لقد كان لدى الشعوب الفتية ولدى أجدادنا في القرن العاشر كل مزايا تلك السنّ فللطبع سلطان كبير لا يمكن تجاهله. إنّ الهوى جموح. وليس هناك سوى طريقة واحدة لانتشال هذه الطبائع الجامحة من الانحلال، تتمثل في أن لا نكتفي بأن نوفر لها فضائل الزواج ولكن فضائل الحبّ القلبي كذلك. إنّ الحبّ القلبي هو الوحيد القادر على ضبط حبّ الحواس. فلمّا تحرم المرأة من كلّ لذّة حسيّة وتترك على حالتها الجسديّة العاديّة، فإنها، وعلى العكس مما هو منتظر، تسقط حتما إمّا في البغاء وإمّا في ظرف قريب جدّا من هذا الوضع المنحطّ: إن ماري في مسرحية «أبراهام» ليست استثناء بل هي القاعدة.

وبعد أن صوّرت لنا هروزفيتا النساء وهنّ ينتصرن بصعوبة في صراعهن مع الفاحشة ها هي تظهرهن يصارعن العشاق الوثنيين أو الفجّار ويتفوّقن عليهم، فقد كنّ يقاومنهم دون أن يكللن لحظة واحدة:

كان غاليكانوس Gallicanus أحد قوّاد قسطنطين الخلصاء، ورغم أنه ظلّ على وثنيته فقد خطب كونستانس Constance... إلا أنها، وهي المسيحية المتحمسة ككلّ المسيحيين آنذاك، كانت تفضّل الموت على أن تتزوجه. لقد وافقها والدها على أن تتبتّل. «ولم يكن لأي تعذيب أن يمنعها من الوفاء بنذرها». ولذلك تعهّدت بإخماد شهوات غاليكانوس عن طريق تنصيره. أنجزت تلك المهمة بحكمة فدفعته وابنتيه الاثنتين إلى التعميد، بل إلى أكثر من ذلك فقد ترهّب هو بدوره. وبهذه الكيفيّة تخلصت كونستانس من ذلك العاشق الولهان واستمرت حرّة في أن تظل زوجة المسيح.

وأمّا الشابات الثلاث، أجاب Agape وشيوني Chionie وإيران Irene فقد زهدن هنّ أيضا في الزواج فظللّن محافظات على عذريتهنّ أكثر من ابنة قسطنطين، ولكن هيجان

= عن ذنبها ماتت وقد تاب عنها الإله».

حبّ الوالي دوليسينوس Dulcinius كان أكثر إزعاجا من حبّ غاليكانوس... فقد حبس الشابات الثلاث «وفعل ما بوسعه ليدفعهنّ إلى مشاطرته الحبّ» ولكن تلك المهمّة بدت صعبة «فإيمانهنّ كان راسخا» فقاومن تهديداته وإغراءاته. عندها استشاط غضبا وأمر بحبسهنّ في هُرْي المنزل. ولكنّ المأساة تحوّلت ملهاة فقد استغلّ العاشق جنح الظلام وتسلل إليهنّ «حتّى يتمتع بمعانقتهنّ التي طالما انتظرها». ولكنّه كان ضحيّة خطأ من جنس تلك الأخطاء الدونكيشوتية.اندفع عبرالمطبخ فخيّلت إليه كلّ قطعة فيه سبيّة حسناء. «فضمّ إلى صدره بحنان القدور وعانق المقالي (ج مقلاة) وقبّلها بكل حبّ». لم يحصل أبدا أن جعلت فورة الحب إنسانا ضحية لأغرب الأوهام. ويمكننا تصوّر نتيجة ذلك الجسّ في الظلام: «اسودّ وجهه ويداه وثيابه إلى درجة أن صار شبيها شبها تاما بحبشي[1]. فأنكره حرسه وزوجته كما لوكان شيطانا... أخذ منه الغضب مأخذه «فأمر بأن تعرض الشابات الثلاث النجسات عرايا أمام الجميع في ساحة عامة». بل إن القاتل المأجور ليسيونوس Licinus حاول اقتياد إيران Iréne إلى مبغى «حتى يدنّس جسدها تدنيسا نجسا مخزيا فلا يمكن بعد ذلك عدّها في زمرة الراهبات». ولكن المسيحيين يعرفون جيّدا الفرق بين طبيعة الجسد وطبيعة الروح فيمكن أن يكون الجسد عرضة لكل أنواع الإساءة فلا يعاقب وأمّا الروح فليس لأحد أن ينال منها عندما لا تكون على وفاق معه «وإذا كانت الشهوة الجسديّة العمدية توجب العقاب فإن الضرورة التي تفرضها تستدعي مكافأة الإله». كان الحضور في الساحة العامة تترصدهم نهاية مشهد وقحة ولكن الملائكة تدخلت ومنعت الجند من نزع ملابس أجاب وشيوني ومن أن تقاد إيران إلى ذلك المكان النجس الذي ذكرناه.

ومن جديد انتصر الحبّ القلبي مسنودا بالإيمان انتصارا باهرا على الحبّ الجسدي. ثمّ إنّ هروزفيتا ستعرّفنا بكاليماك Callimaque...سلف روميو Roméo. وإن تاريخه هو بالتأكيد رائعة ذلك العصر الشعرية.

---

(1) استعمل المؤلف عبارة Ethiopien (أثيوبي) وهو يعني حبشي. (المترجم)

كان كاليماك شابا أحبّ بولع شديد «شيئا جميلا مفعما لطافة» ذلك الشيء هو «درويزيانا Druisiana زوجة الأمير أندرونيك Andronique». ولكن أصحابه نبّهوه إلى أن ذلك الهوى هو من باب الجنون «لأن درويزيانا التي طهّرها التعميد تتبع مذهب الحواري يحيا Jean فقد وهبت نفسها للإله ولا شيء منذ سنوات طويلة قدر على أن يعيدها إلى فراش زوجها». لم يأبه كاليماك كثيرا لهذه الطهارة المعموديّة فإذا ما قدر على جعلها تحبّه يكون بذلك قد تغلّب على كلّ العوائق الدينيّة. ذهب لملاقاة المرأة الشابة وتوسّل إليها بأكثر العبارات عاطفيّة حتى تمنحه حبّها. استمعت إليه في البداية دون أن تفقه كلامه، ثمّ ما لبثت أن أغاضتها جرأته. فصدّت «هذا الغاوي القبيح وخجلت من أن تطيل الحديث مع رجل كثير الحيل الشيطانية». ثمّ صارحته قائلة «بأنها تكن كرها عميقا لرغباته الشهوانيّة وأنها تمقت كلّ المقت شخصه». لم يتخلّ عن مراده بل على العكس من ذلك ازداد جسارة «فأشهد الإله والعباد على أنه لن يرتاح و لن يهدأ له بال حتى يوقعها في أحابيله».

أصابها اليأس فقد وضعها أمام خيارين أحلاهما مرّ، فإذا ما أذاعت أمر الخطر الذي يتهددها فهي بذلك تشعل فتنة بينه وبين زوجها، وإذا ما لزمت الصمت فإنها ستسقط في حبائله. فلم تر عندها بدّا من أن تتضرع إلى المسيح حتى يتوفّاها فتتجنب كلّ هذه المخاطر. فاستجاب لها فخرّت في الحين ميتة.

أسرع إليها زوجها وكفّنها ودفنها. ولكن الموت أعجز من أن يطفئ شعلة حبّ عنيف عنف حبّ كاليماك لدرويريانا، لذلك أعلن إلى صديقه الحميم فورتوناتوس Fortunatus رائد اليوغيين Yoga وآل مستوفيليس[1] Mephistopheles بامتياز «أنه سيموت إذا لم تسعفه نباهته بإمكانية رؤية درويزيانا من جديد». قاده صديقه إلى قبرها وأزاح عنها اللحد «وأراه جسدها لم ينحلّ بعد فلم تذبله عذابات القبر الشديدة. فملامحها ليست

(1) إشارة ساخرة من المؤلف إلى خبث هذا الصديق ومكره وسخفه ذلك أن مستوفيليس يمثل الشيطان في المخيلة الغربية أما اليوغيون فهم ممارسو اليوغا تلك الرياضة الروحية التي تسعى إلى وحدة الجسد والروح. (المترجم)

ملامح امرأة ميتة، فلأعضائها نضارة تضاهي نضارة أعضاء الأحياء». إنها بكامل جسدها على ذمته «فليستمتع بها على هواه».

لقد تعقدت الأحداث. وليس من عادة هروزفيتا أن تضعف أمام المصاعب. اهتاج كاليماك لمرأى جسد المرأة التي يحبها، فتغنّى بحسنها بعبارات نشوانة، ورفع الجثّة. ترى ماذا سيحصل؟ أعلن كاليماك على الملأ «أنه بإمكانه أن يذهب في شططه المذهب الذي يعجبه». لا. لقد كان واهما، فقد هجم ثعبان رهيب على صديقه فورتيناتوس، مدبّر تلك الجريمة، فلدغه وأرداه ميّتا.

ثمّ إننا نرى في المشهد رجلا شابا ذا هيئة مريعة يظهر وقد غطت يده بكل إجلال جسد درويزيانا، وكانت على وجهه شرارات تتلألأ فأصابت إحداها وجه كاليماك. ثمّ سُمِع صوت يقول: كاليماك عليك أن تموت لتحيا، فسقط الرجل وقضى نحبه إلى جانب شريكه في الجريمة.

كان المتفرجون في القرن العاشر يؤمنون إيمانا عميقا برحمة السماء وحلمها فلا يصحّ أن يرضوا بنهاية بائسة. لذلك أنهت هروزفيتا مسرحيتها طبق تطلعاتهم فقد جعلت المحبّة تنتصرعلى كل الأصعدة. ومصداقا لذلك ظهر الإله فجأة قرب الجثث الثلاث مصحوبا بالحواري يحيا وبأندرونيك. فتضرّع الزوج المهان ليحيا حتى يحيي الموتى. فدفع يحيا الثعبان إلى أن ينساب بعيدا ثمّ تضرّع إلى الإله تضرعا مؤثرا فأعاد كاليماك إلى الحياة. إن «العاشق الذي جاء إلى ذلك المكان بنوايا إجراميّة، هوالآن رازح تحت عبء الندم ولا يحسّ سوى بالاشمئزاز من شهواته المهلكة». ثمّ توسّل أندرونيك إلى يحيا حتى يعيد درويزيانا إلى الحياة. فحبّه لها كزوجة لا يسعفه بالصبر على رغبته في رؤيتها من جديد. أحيا الحواري تلك المرأة المحبوبة جدّا «فحمده زوجها على أنّه أعاد إلى الحياة في جوّ من البهجة تلك التي انتهت معها أحزانه».

ثمّ إن درويزيانا أكملت تلك الفورة من الرحمة فرجت يحيا حتّى يعيد إلى الحياة ذلك المذنب المقيت الذي سلّم جسدها المسجّي إلى العاشق الذي كان يحبها حبّا خاطئا.

أراد كاليماك أن يعترض على ذلك الرجاء، ولكن الحواري يحيا أجابه أنه طبقا للشريعة الجديدة، على كل إنسان أن يغفر خطايا الآخرين إذا رغب في أن يغفر الإله خطاياه». وهكذا أعيد فورتيناتوس، وسيط الفحشاء، إلى الحياة. ولمّا رأى كاليماك ودرويزيانا على قيد الحياة تساءل «كيف يمكن للعاشق أن يحافظ على طبعه الفظ والوضيع في حضرة تلك التي يحبها ولا يرخي العنان لهواه»؟ أعلمه الحضور بأن العاشق «إن تاب عن عشقه لم يعد سوى تابع من أتباع المسيح». عندها رفض فورتيناتوس الحياة التي وهبت له مفضلا الموت على أن يرى على الدوام لدى الآخرين مثل تلك الوفرة من النعم والفضائل.

إن مسرح هروزفيتا يعدّ مسرحا جسورا بالنظر إلى كونه مسرح رهبان؛ فالصور الحيّة التي رسمها عن الفساد العلني والصريح، من شأنها أن ترعب المسيحيين وتدفعهم إلى أن يفزعوا من الفجور. وإننا لسنا مقتنعين بذلك كلّ الاقتناع فنحن نعلم أنه رغم توبة ماري وتاييس الصادقة فإنّ البغاء لم يُقضَ عليه في العصر الوسيط؛ فالمرأة ذاك **الإغراء الطبيعي والشرّ الذي لا بدّ منه والكارثة العائليّة، والخطر العذب**، كما كان يسمّيها القديس يوحنّا فم الذهب Saint Chrysostome، ما تنفك تزرع الفتنة حتى في صفوف رجال الدين والرهبان. لقد منع البابا غريغوريوس Grégoire الرهبان من الإقامة قرب أديرة الراهبات. ووضع المجمع الكنسي الرابع المنعقد بطليطلة عشيقات رجال الدين على ذمة الأسقف حتى يبيعهنّ في سوق العبيد. وصرخ إنوصنت الثاني Innocent II في وجه المجمع الكنسي الرابع المنعقد بلاترون Latron بنقد لاذع على طريقة نقائض الأدب في ذلك العصر، قائلا: «إنّ الجموح والشهرة يقودان المرأة، والأقذار تصحبها، والألم والتوبة يتبعانها».

ومصدقا لذلك فإن الوضع السياسي والأخلاقي في القرن العاشر يفسّر من زوايا نظر محددة جسارة مؤلفات هروزفيتا الأدبية. ولم تكن خليفة بلوت Plaute تعرض مشاهد الخطف والعنف أمام جمهور الراهبات فقط بل أمام سيّدات من المجتمع كنّ يقمن في الصومعة بعض الوقت وعلى أهبة مغادرته في أول فرصة تتاح لهنّ.

ذلك أنّه لم تكن كلّ النساء مدفوعات نحو الدير نفورا من زواج مقيت فغالبيتهن يلجأن

إليه بلا سبب واضح أو أنهن وضعن فيه من قبل عائلاتهن لتجنيبهن عنف الغزوات الحربية وغاراتها. إنّ الدير، في تلك الحالة، لم يكن مكانا للعبادة فحسب بل كان أيضا حصنا.

فلدى المرأة غريزة حياء تجعلها تفزع من بعض المخاطر أكثر ممّا تفزع من الموت نفسه. فإذا كانت مسيحيات الزمن الماضي واجهن بسكينة رعب حفلات السرك التي لم يكنّ يجنبن منها سوى عضّات الأنياب والمخالب، فإنّ مسيحيات العصر الوسيط لم يكن بإمكانهن تحمّل فكرة أن يكنّ ضحايا جند سكارى وبلا وازع، خاصة إذا كان لهنّ عشاق أو أزواج أقسمن أمامهم بأن يحافظن على طهارتهنّ.

ذكر غريغوريوس أنّ الفتيات اليتيمات اللواتي يخرج آباؤهن في حملات عسكرية يوضعن في الدير باعتباره مكانا آمنا. وهناك حكايات مؤثرة عن لجوء نساء عاديات إلى الأديرة زمن غزو النورمان لإنجلترا، فقد كنّ ينشدن فيه حماية من وحشية الغزاة، ولكنهنّ كنّ عازمات على مغادرته بعد انتهاء الغزو والعودة سالمات إلى أزواجهنّ أو إلى أولئك الذين سيصيرون كذلك. وما إن بدا أن استقرار النورمان في إنجلترا قد اكتمل ولم تعد هناك خشية من الفوضى والعنف حتى رغبت تلك المنعزلات في العودة إلى عائلاتهنّ. وفي ما بين الوقتين حصلت تغييرات كبيرة فقد عوّض أساقفة نورمانديون الأساقفة الأنجلوكسيين ورأوا من الأفضل لهم الإبقاء على الملتجئات إلى الأديرة من ذوات الأصل الشريف اللواتي بمقدورهنّ إفادة الدير إفادة معتبرة. وقد عقدوا مجمعا كنسيا حتى يقرروا هل من حق أولئك المنعزلات مغادرة الدير أم لا. ومن حسن الحظ أن المطران لانفرانك Lanfranc جاثليق إنجلترا وصديق غليوم Guillaume قد ترأس ذلك المجمع. وتكفّل بالدفاع عن النساء اللواتي اضطررن إلى الترهب، وهكذا قرر أن كلّ من لها ولي أمر هي حرّة في نزع حجابها[1].

(1) سنة 1074/ Thierry, *Conquête*, t. II, p 197. ومع ذلك وجدت إحدى المنعزلات بعض الصعوبة للتمتع بذلك الامتياز. تعلق الأمر بإيديث Edith ابنة ملك اسكتلندا وشقيقة إدغار Edgard آخر ملوك إنجلترا. لجأت منذ طفولتها إلى دير رومساي Rumsey صحبة خالتها كريستين Christine. ثمّ خطبها هنري الأول خليفة غيوم فزوّجته نفسها. وكان عليها، تبعا لذلك، مغادرة الدير. ولكن ما راعها إلا وأحد الأقارب يعترض على ذلك الزواج ذي الأهداف=

7

الحبّ في المجتمع

كنّا بصدد تفحص أمر النساء اللاجئات إلى الأديرة، وتفحص الصراعات الداخلية التي ما انفك حبّ مهين - ولكنه لم يخمد نهائيا - يطلقها بين طبيعتهنّ المزدوجة، الروحية والجسديّة. ومن المؤكد أن النساء الشريفات لم يجدن كلّهن في الصومعة ملجأ. فهناك أكثر من آبقة ألقي عليها القبض وهي في طريقها إليها. والمثال على ذلك راديقوند التي أعيدت إلى فراش الزوجية حيث احتجزها زوجها برباط مكين. ثمّ إن قسما كبيرا من الشابات رضين بالعبودية رغم قلة ميلهنّ إلى من اختاروهم لهنّ أزواجا، والبعض الآخر رضين بالزواج اعتبارا لما يجده طبعهنّ في أداء الواجبات الزوجيّة من عزاء. ومن هنا نشأت مجموعتان متمايزتان: مجموعة النساء **المتمرّدات** ومجموعة **الخانعات**.

وجدت **المتمردات** المشدودات إلى أزواجهنّ جسدا لا قلبا، في رفعة تربيتهن ورقة أذواقهن وصدق إيمانهنّ أسبابا وجيهة تبعدهنّ عن أزواج فظاظ غلاظ. إنّهن يعشن حياة الزهد حتى في غرف النوم ويصررن رغم الزواج على إماتة أجسادهنّ مثلما كانت تفعل راديقوند ودرويزيانا وهما على ذمة زوجيهما.

تحفل كتب التاريخ لذلك العصر بحكايات عن نساء تعفّفن حتى وهنّ بين أحضان الزوج غير المحبوب. هذا الهوس كان موضة العصر ونوعا من الظرف. وإننا ندرك جيّدا مدى التأثير الكبير لهذا الكلام على النساء. فالحياة في الدير **على غاية من التميز** تجعلنا نودّ

=السياسية فزعم أنه لا يمكنها صرم ارتباطها بالمسيح. تدخّل أنسالم Anselme جاثليق بريطانيا الجديد ليحلّ الإشكال فاستوضح الأمر من إيديث فأسرّت له بأنها كانت قد تحجّبت في بعض الأوقات عندما كانت يافعة تحت رعاية خالتها التي كانت تهدف بهذه الوسيلة تجنيبها دعارة النورمان، وبأنّ قطعة القماش السوداء التي وضعتها على رأسها كانت تزعجها على الدوام، فما إن تغيب خالتها حتى تنزعها عنها وتلقي بها أرضا وتدوسها برجليها بغضب طفولي. أمر الجاثليق بالتحقق من الأمر فصحّت روايتها، عندها قرّر المجمع الكنسي أنها حرّة في التصرّف في جسدها. وهكذا تمّ الزواج وأقيمت الحفلات. Thierry, *Conquête*, t.II, p 331.

لو تطبّق قوانينها الصارمة حتى داخل الأسرة: فهناك الصوم ولبس المسوح والمحافظة على الطهارة. كلّ ذلك يرفعنا درجة عن الحياة اليومية. فالشعوب كلّها، وعبر كلّ العصور فعلت المستحيل لتدرك هذه الغاية:

نفرت برتيفليد Bertheflède، ابنة الملك هاربارت Haribert زوجها بعد ثلاثين سنة من الزواج فهجرته لتنعزل في الصومعة التي بنتها أمها أنجلتريد Ingiltrude والتي كانت ترغب في جعلها رئيستها. ولكن برتيفيلد لم يكن لها ميل لحياة الأديرة فقد كانت تحب الأكل والنوم ولم تكن تهتم أبدا بأن تخدم الإله. ولكنها ضجرت من الزواج ورغبت في شيء من الحرية. لحق بها زوجها يطلبها فما كان منها إلا أن طلبت منه العودة إلى المنزل ليقوم بشؤون أطفاله ويسهر على ممتلكاتهما، مؤكدة له أنها لن تعود إلى القصر.«طالما أنّ الذي يتزوج لن يطمع أبدا في مملكة الإله». ومع ذلك دفعها خوفها من الطلاق، إلى العودة إلى منزل الزوجية. ولكن هوسها بالدير عاودها من جديد فهربت حاملة معها في سفينة كلّ متاعها بل أثاث زوجها كذلك(1).

أمّا إيديت Edith زوجة إدوارد ملك إنجلترا فقد كانت هي أيضا في عداد المتمردات ولكنها، خلافا لبرتفيلد، لم تسرق أثاث زوجها، الذي كان يكتفي بالقول بأنه تعامل مع الزواج بكثيرمن التدبير فهو وإن كان ينام إلى جانب زوجته فقد تجاهل تماما كونه رجلا (سنة 1042)(2). هذه الوضعية الغريبة لزوجين ممنوع جسد أحدهما عن الآخر منقطعين إلى الزهد، قد أضحت من مصادر التطويب الأساسية، فقد أبرز كتاب السّير فضائل جمع من القديسين وكذا حرصهم الشديد على التخلص من الزواج مصيرا محتوما.

أمّا **الخانعات** فإنهنّ لم يقاومن ما فرض عليهنّ بل قبلنه. لقد تزوجن رجالا فظاظا أجلافاً

---

(1) Grégoire de tours, I, IX, ch XXXIII.

(2) (Nuptam sibi rex hac ante tractabat, ut nec thoro amoverit, nec virili more cognosceret)
هذه الطقس المتطرف المتعلق بالعفة يعود إلى الكنيسة البدائية .فقد كان ساليفان المرسيلي الكاهن الشهير المتحمس قد أعطى المثل عن ذلك في القرن الخامس. فقد تزوّج بلاّدي Palladie وعاشا متعففين إذ جعل زواجهما شبيها بزواج ملكين نورانيين لا جسد لهما.

وبُغَضَة لكنهنّ وجدن في التقوى والخضوع مساعدا على القيام بواجباتهنّ الزوجيّة. إن إيمانهنّ الراسخ بأنهنّ يرضين الإله عن طريق التقرّب إليه بتحمل بلايا الدنيا كان من شأنه أن يخفّف قسوة تضحيتهنّ. فلمّا تعذّر عليهنّ حبّ الزوج الرجل كنّ في المقابل يحببن فيه الأب، وربّ العائلة وحاميها. وكآخر سبيل للتأسي كنّ يعالجن المساكين والمرضى. إنه عزاء لطيف لم تعرفه الزوجة الإغريقية التي كانت عبوديتها تضاهي عبوديتهنّ.

لقد عرف الحب في ذلك العصر تغييرا كليّا، فعندما حبس في سجن الزواج اتخذ شكل المحبّة. وعندما أباحه الإنجيل اتخذ شكل حنان أمومي لم يخل منه زمان.

إن النساء ذوات الطبع العنيف اللواتي خلقن لأجل أن يحببن بشرف، ولكن وضعياتهنّ الاجتماعية اختزلت هذا الحب إلى مجرّد مودة، كنّ موجودات بكثرة في القصور طيلة الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر. فبقدر ما كان الرجل المحارب يبدو جاهلا وشهوانيا كانت المرأة تبدو عفيفة ومتعلمة وشهمة. وقد أكّد ذلك الحواريون بقولهم: «إنها تفوق الرجل في كلّ ما يتعلّق بالإحساس والحبّ». إن الغالبية العظمى من الأميرات وربّات القصور ينتمين إلى تلك المدرسة الشاعرية الأخاذة.

ومع ذلك فقد توفّر القصور في بعض الأوقات صورة عن انسجام أخوي يذكّرنا **بالحب اللدود** في العهد الروماني فنحن نعلم أن زوجين على نفس القدر من العنف والانفعال والتوحش ولهما نفس الرغبة في العنف والاستبداد لا يمكن أن يتحابّا.

ومهما كانت شخصيّة المرأة فإن المساواة بين الجنسين المعلنة في الإنجيل لم تسلم هي أيضا من شوائب الارستقراطية الفظة في ذلك العصر. لقد انحدر الزوج شيئا فشيئا نحو الهيمنة البدائية التي عرفها عهد البطاركة أو الأبطال الإغريق، فكان يستعبد المرأة فيحبسها في قصر أضيق من الحريم الأثيني. ويتخذ الاحتياطات الأكثر حزما حتى لا يترك لها فرصة الهرب والخيانة. لقد كانت حياتها وموتها رهن يديه ليس بفعل قانون مكتوب بل بقانون هو أقوى القوانين: قانون القوة المعضود بالعادة. لذا كان يبعدها إلى أعلى دور في الحصن، ويضع ثلاث طبقات من الحواجز المشبكة على النوافذ ويغلق الأبواب العشرة أو الخمسة

عشر أو الثمانية عشر التي تـؤدي إلى الدور الأخير بثلاثة مغالق. ثمّ يقف بنفسه على عتبة الباب الأول متسلحا بفأس وسيف، معتقدا بذلك أنه يحمي شرفه من أي سوء يمكن أن يدنّسه[1].

بعض السمات الخاصة المتعلقة بقصص حبس ربات القصور جديرة بالاهتمام: فذاك بارون معه كل مفاتيح غرف نساء القصر، وآخر قد صنع في مخزن السلاح ما يشبه البرج المتحرك من الخشب مزوّد بمخادع تشبه بيوت خلية نحل كبيرة. كان البرج يدور حول نفسه مثل برج الصومعة. وأثناء دوران البرج تدخل كلّ امرأة المخدع المخصّص لها، وبدخول آخر امرأة يوقف الآلة ويغلق الباب الوحيد الذي يؤدي إليها وينام في الغرفة الوحيدة التي ظلت مفتوحة. وهكذا يؤدى دور الناطور يحرس كلّ العائلة (maynada) ولا أحد يمكنه الخروج من الصندوق قبل طلوع النهار.

البعض الآخر، وكانوا الأكثر عددا، كانوا يبنون في قلب القصر حصنا ذا دور كثيرة. فنجد في الدور الأرضي المطامير وغرف الحبس المظلمة والمغلقة حيث كانوا يرمون فيها أعداءهم عبر الفتحة الوحيدة المؤدية إليها. وفوق حجر الزاوية تلك التي تشكل الدور الأول توجد غرفة نوم السيّد. كان يصعد إليها بواسطة سلّم غير ثابت، يسحبه معه إذا ذهب للنوم. أمّا زوجاته وبناته وجواريه فكنّ يقمن في الدور العليا ولذلك كنّ مجبرات على المرور بغرفة نومه للوصول إلى مضاجعهنّ. لقد كان السيّد مقيما فوق سجنائه وتحت

---

(1) نقرأ في «الحكاية الشعرية» Lai التي تحمل عنوان «الفارس ذو الشرك» *le Chevalier à la trappe* قصة أحد الدوقة شديد البأس، حبس زوجته في قلعة بها ثمانية عشر بابا،، كلّ باب مزوّد بمرتاجين ضخمين وبصفائح حديدية متينة بحيث لا أحد غيره يمكنه فتحها أو إغلاقها. ولكن كلّ تلك الاحتياطات لم تجنبه الخطر الذي كان يخشاه. فقد علقت امرأته فارسا كان يمرّ تحت نافذتها وعبرت له عن حبّها غناء. دخل العاشق الظريف قصر الدوق خادما، وتمكن تبعا لذلك من الحصول على إذن ببناء دار قريبا من القلعة التي كانت الزوجة السجينة تنوح فيها. ترى ماذا سيفعل بهذه الدويرة؟ لقد توسّل بها لحفر ممرّ تحت الأرض يوصله إلى داخل القلعة حيث سيرتكب الموبقات التي حسب الدوق أنه حمى نفسه منها بكل اقتدار. فماذا بقي له ليفعله بتلك الأبواب الثمانية عشر التي يفتحها ويغلقها بكل عناية؟ إن صريرها ينبّه الفارس عندما يكون بين أحضان الزوجة فتسعفه بالوقت الكافي لينزل إلى ممرّه الأرضي قبل أن يكون الزوج قد فتح الأبواب الثمانية عشر وأغلقها تباعا.(Legrand Daussy, *Fabliaux*, t.III, p 157– 159)

نسائه يمسك بأرواح مختلف أولئك الأسرى. فلم يكن لهم أن يخرجوا من سجنهم دون المرور أمام فراشه. ولا يمكن لأحد الوصول إليهم دون إذنه[1].

وإذا ما أضفنا إلى احتياطات أولئك الأزواج الاقطاعيين الفزعين على الدوام الخوف الذي يشيعه تشريع داعم لذلك الاستبداد[2] يحقّ لنا أن نتساءل مثلما تساءلنا ونحن بصدد ذكر الحريم الأثيني هل سنظفر بالعاشق الجسور والمرأة المضناة حبّا اللذين بإمكانهما التجرّؤ

(1) في **الحكاية الشعرية** المعنونة بـ إيواناك *Iwenech* من نظم ماري الفرنسية Marie de France «كان سيّد كارفنت Caerwent عجوزا فاحش الثراء، قد اتخذ كلّ التدابير ليبقي زوجته الشابة إلى جانبه، فحبسها في قلعة وعهد بها إلى إحدى أخواته التي ترملت منذ زمن طويل، لتحرسها. فلم يكن بإمكان الزوجة الشابة المسكينة أن تنبس ببنت شفة دون موافقة حارستها العجوز. وهكذا مرّت سبع سنوات دون أن ترى أهلها أوأحبّتها». وفي **الحكاية الشعرية غيمار** *Guymer* لنفس الشاعرة حبس ملك طاعن في السنّ زوجته الشابة في قصر محاط ببستان ومسيّج بسور من المرمر الأخضر وبمحاذاة البحر. وكان الباب الوحيد الذي يؤدي إليه محروسا ليلا نهارا فضلا عن أنّه لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة قارب. وفي **الحكاية الشعرية بيار الأنصولي** *Pierre d'Ansol* قرّر فارس الزواج. ورغبة منه في النأي بنفسه عن كل مشاكل الحياة الزوجية استشار قاضياً فأشار عليه ببناء منزل ذي حيطان عالية ومتينة فيها نافذة وحيدة ضيّقة وباب وحيد يحتفظ هو بمفتاحه. وهكذا حبس زوجته في ذلك المكان الآمن وحرمها من كلّ تواصل مع الناس.

(Legrand Daussy, Fabliaux, t, III, p142-145)

(2) في زمن القديس لويس Saint Louis كانت الفتاة التي تعرّض نفسها للغواية تحرم من حقها في وراثة أبيها. أما في بلاد الغال وفي إنجلترا فوضعها أصعب إذ يمكن أن تباع وتؤخذ أمة إلى بلد غريب. لقد كان ذلك الهاجس يقلق كثيرا الفتاة المذكورة في **الحكاية الشعرية: ميلون** *Milon* (M. de France, t, I, p333) وفي منطقة نهر لومان Maine ومنطقة آنجو Anjon كان يمكن للفتيات اللواتي بلغن الخامسة والعشرين من العمر أن يتعرّضن لغواية الرجال دون عقاب فمسؤولية ذلك تقع على أهلهنّ الذين كان عليهم أن يلبوا حاجاتهنّ الجنسية عن طريق الزواج قبل تلك السنّ المتقدمة شيئا ما. وإذا ما عنّ لمقطع أن يغوي ابنة سيّده الإقطاعي يحكم عليه بحرمانه من إقطاعه. وأمّا إذا أغوى السيّد الإقطاعي زوجة مقطعه أو ابنته فإنّه يفقد سيادته الإقطاعية. وأمّا إذا ما استغلّ أحد النبلاء فتاة حدثة أو يتيمة في عهدته فهو يفقد إقطاعه إذا ما جارته البنت في غوايته. وأمّا إذا توصّل إلى ذلك بالقوّة و الترهيب فتضرب عنقه. وأما الزنى فنحن نعرف عقوبته التي كانت في الأزمان الداعرة. ولقد هذّب القديس لويس التشريع المتعلق به بأن أوصى بأن لا تكشف عورة الزانية. وكان يعاقب على بعض المنكرات الدنيئة بقطع الأعضاء التناسلية أول مرّة ثمّ بالحرق في العود لثالث مرّة. وأما النساء المتهمات بانتهاك الحرمات فتقطع شفاههنّ العليا في المرة الأولى وفي الثانية تقطع السفلى. ثمّ تحرق في العود الثالث. نحن نعرف مدى نقمة القديس لويس على النساء العاهرات. فهو لا يحكم عليهنّ بأقلّ من الحرق إذا ما كنّ يعاشرن قطاع الطرق والمجرمين حتى وإن كنّ لا يشاركنهم آثامهم.

يبدو، والحال تلك أن أطهر ملوك فرنسا قد أعاد الاعتبار لقوانين جرمانيا القديمة تلك التي كان الميروفنجيون والكارلوفنجيون قد تراخوا في الحفاظ عليها.

على كسر تلك الأقفال وصعود تلك السلالم بمحاذاة الأقبية المتربصة بضحاياها، تلك التي يموت فيها المرء بردا وجوعا فتغيّبه إلى الأبد.

إن حكاية كل قصر تخفي أحداثا مرعبة يحرص الأزواج كلّ الحرص على أن يسردوها على مسامع زوجاتهم وأبنائهم، فمن منا لا يذكر قصّة باربو- بلو Barbe–Bleue ؟ وألم تترجم قصة كلّ من السيّد ديكوسي De Coucy Sir والسيّد دي كابستانغ Seigneur de Cabestang إلى كلّ اللغات[1]؟

لقد أورث الرعب الحقد في بعض النفوس، وينبغي لنا أن نقرّ بأن ذلك الرعب كان في غالب الأحيان يؤدي إلى الخضوع. إن ربّة القصر لا تحبّ أبدا الزوج الذي يضطهدها ولكنّ التعوّد على الطاعة يفضي بها إلى مغالبة أنفتها إلى درجة تظلّ فيها بين أيدي زوجها أمة مسلوبة الإرادة وضحية قابلة لكل التضحيات قبولا أعمى.

تعطينا **الحكاية الشعرية** التي تحمل عنوان **كريزيديليس** *Griséllidis* المثال الأكثر إثارة عن تلك السلطة المطلقة للسيّد على الفتاة الشابة التي تكرّم عليها بضمها إلى حريمه.

كان ماركيز سالوساس Saluces في بيايمون Piémont قد أغرم بكريزيليديس Griséllidis ابنة الفلاح جانيكول Janicole التي كانت آية في الرقة والفضيلة. زارها يوما على رأس نبلائه في دويرتها وخطبها من أبيها وبعد أن تزوجها أخذها معه إلى قصره. ولكنه سرعان ما استهلك كل فضائلها فسعى إلى أن يستولد منها أخرى بإخضاعها إلى امتحان قاس.

أنجبت له بنتا، فزعم الماركيز أن باروناته يُرْجِفون حول مستقبل الماركيزية المهددة بأن يؤول أمرها إلى امرأة. وأخبر الأمّ المسكينة بأنه مجبرعلى إخفاء الرضيعة تهدئة لخواطرهم.

كانت الزوجة الحسناء تحترم زوجها وتجلّه مثلما كان النبي إبراهيم يجلّ ربه. ليس لديها ما تعقب به على قرار زوجها ولو بكلمة واحدة، لذلك لم تمنع الماركيز من أن يأخذ ابنتهما التي اعتقدت أنه سيقتلها. ثمّ أنجبت له في ما بعد ابنا فلم تعدمه الذرائع ليخبرها

(1) في كلتا الحكايتين، يقدّم الزوج لزوجته قلب عشيقها بعد أن يكون قد شواه.

بأنه مجبر على التخلص منه كما فعل مع أخته الرضيعة.

تمزق قلب كريزيليديس ولكنّها كتمت ألمها. «لقد أقسمت سابقا، بأن لا تعارض إرادة زوجها، وما زالت على العهد، فعندما نزعت عنها ملابسها الرثة لتدخل القصر نزعت عنها في الآن نفسه كل ذاتيتها، حتى لا تسمع سوى صوت سيّدها... فليأمرها بما يريد فكلّها آذان صاغية حتى لو أمر بقتلها. إنّ الشيء الوحيد الذي يؤلمها هو أن لا يكون راضياً عليها».

لم يكن ما حصل أقسى امتحان يختبرها به... لقد بلغ به الأمر أن أخبرها أن زواجه منها خطأ كبير ارتكبه في شبابه، وأنه يستحيل عليه أن يبقي فلاحة بسيطة في منصب دوقة إلى ما لا نهاية، فالأمر سيثير حفيظة رعاياه. ولذا فهو مجبر على مفارقتها ليتزوّج سيّدة ذات نسب شريف. لأجل ذلك كلّف حرسه الخاص بإعادتها إلى بيت أبيها. لم يفاجأ أبوها بالأمر ولم يحتجّ بل أقرّ بأنّ ذلك الزواج قد بدا له على الدوام زواجا طارئا، لذلك كان يتوقع في كلّ لحظة أن يتخلّى الماركيز عن ابنته ويعيدها إليه.

لم تودع كريزيلديس القصر وداعا نهائيا... فبعد وقت قليل أرسل الماركيز في طلبها راجيا منها أن ترتب المقرّ الذي ألفته حتى يكون لائقا بالخطيبة الجديدة. أجابته بأن عليها دينا له لفضله عليها السابق، وأنها ستعمل طوال حياتها على تلبية رغباته مهما كانت بسيطة... رأت من واجبها أن ترتب كل أثاث القصر بما في ذلك غرفة العروسين الجديدين. وعندما وصلت الماركيزة الشابة وجدتها أجمل نساء العالمين. وإذا ما استجاب الإله لدعائها فلا شيء سينغّص سعادة الزوجين، ثمّ إنّها رجت الماركيز أن يجنّب الزوجة الثانية الآلام التي كابدتها الزوجة الأولى، فالثانية أصغر، وتفوق الأولى تربية رقيقة، فربما لن يقوى قلبها على تحمّل مثل تلك الآلام وقد تأتي بأجلها.

لم يقو الماركيز أمام هذه الكلمات المؤثرة على أن يكتم الأمر أكثر فأجهش بالبكاء وأخذها بين ذراعيه وصرخ بأنها الوحيدة التي كانت جديرة بأن تكون زوجته، فلا أحد في الدنيا كان سيتحمل بكل ذلك الرضا الراسخ الاختبارات المريعة التي أخضعت لها

أمّا وزوجة... ثمّ أخبرها بأنها لم تفقد بنتها ولا ابنها نهائيا فقد عهد بهما إلى إحدى شقيقاته فاحتضنتهما، كما أنه لم يفكّر أبدا في الزواج ثانية فهو لم يعجب بغيرها ولم يحبّ سواها[1].

هذه «**القصة الشعرية**» *Fabliau* أو قل هذا «المثل» هي من أكثر إبداعات الفكر الإنساني تأثيرا، ولا شكّ أنها أثرت تأثيرا عميقا في أسلافنا فلم يكتفوا بتفعيل مبدأ الخضوع للزوج بل غالوا فيه هدفهم الأساسي تقوية نفوذ الزوج بشكل كبير ورفع خضوع الزوجة له إلى مرتبة العقيدة.

ومهما كانت زاوية نظرنا فإن الحبّ الحقيقي الذي يبقي هذين الجوهرين في توازن طبيعي قد أهين كثيرا في القصور وذلك منذ بداية العصر الوسيط. هل كان عليه أن يبحث عن ملجأ بين صفوف الفلاحين والرعاة، كما كان الأمر في اليونان القديمة؟ إنه لا يطمع سوى في أن ينأى بنفسه عن ضوضاء الإقطاعية المحاربة وشغبها، وأن يحتمي بالغابات والمراعي، ولكن الفقر في تلك الغابات والمراعي مدقع، وظلم البارون فيها لا يحتمل... فإذا كان بإمكان الحبّ أن يستغني عن الثروة فإنّ الفقر المدقع يذويه ويقتله. إنه يفضي إلى تلك المساومات الرخيصة التي رأيناها بين روبار النورماندي ووالد أرلات. لقد كان الفلاح تحت طائلة قانون الجباية الذي يفضي بصورة طبيعية إلى **حق التفخيذ**. وكانت بناته الجميلات يعشن في رعب دائم. أمّا اللواتي لم تنعم عليهنّ الطبيعة بالجمال فهنّ وحدهنّ الآمنات شيئا ما. ولكن هل يلتقي الحبّ والقبح؟ ألا نحرمه من الغذاء الذي يشدّ قوامه عندما نسلبه إمكانية التأمل؟

إن الحبّ فن أكثر منه فلسفة، بحثه قليل وتحليله محدود، إنه نظرة فإعجاب فهيام.

ومع ذلك ورغم أن الحبّ طرد ولوحق من جهات عدّة فهو لم يمت بل بالعكس عظمت قاعدته ونمت. إنه النار المقدّسة التي عليها أن تنير خطى الحضارة، وإننا لا نجد

(1) يعود نظم هذه «**الحكاية**» على أقل تقدير إلى القرن الثالث عشر وقد مُسرحت في القرن الرابع عشر تحت عنوان «**لغز كريزيليديس**». *Mystère de Griséllidis* أنظر: Legrand, Fabliaux, t, II, p 231 235

مصدقا لذلك أهمّ من العنفوان الذي أبداه في **مسرحية كاليماك** التي ألّفتها هروزفيتا. إنه يزخر بجملة من المواضيع الجادّة والحبيّة هي في النهاية من إنجاز الطبقة البرجوازية.

لقد تضافرت عديد الظروف كي يجد الحبّ مأمنه في كنف تلك الطبقة الوسطى. إن البرجوازي المتحصّن ضد إكراهات الإقطاعية، خلف أسوار قصره وفي حماية القانون الذي انتزعه من سيّده الإقطاعي، قد حمى نفسه من كل الضرائب المجحفة التي كانت تسمّى في بعض المناطق **سوء التصرّف**. احتمت الطبقة النبيلة، ذات الرغبات الجامحة بالقصور وكانت تتجنب الإقامة بالمدن التي كانت تراقبها وتغلق دونها الأبواب. إن ساكن تلك المدن كان متحررا من غواة النساء الخطرين، ومن كبار نخّاسي الفتيات أو خاطفيهنّ. إن المرأة البرجوازية التي كانت ترى نفسها مهيأة للغنج قد آل بها الأمر إلى أن تصغي إلى ظرفاء من طبقتها، وإنها لضمانة أخلاقية جدّية أن يغيب أولئك الغواة ذوو النسب الشريف الذين ازدادوا جسارة بفضل نفوذهم السياسي وبفضل ثروتهم. إن المرأة التي تكون ضحية غوايتهم تفجر فجورا لا تأمل بعده في زواج هو لها توبة؛ فعدم التكافؤ في النسب كان يعطل مثل تلك الزيجات غير المتكافئة.

لم تكن المدينة في العصر الوسيط تستقبل غرباء مشبوهين، ولم يكن بإمكان الغريب تجاوز أبوابها إلا بعد دفع إتاوات وضمانات. وذلك كان بمثابة الضمانة الثانية لأمن الأُسَرِ. فإذا كان من الحق كما كان يقول أبراهام في مسرحية هروزفيتا «أن الفواجر كنّ يحبذن، على الدوام، معاشرة الغرباء» فإنه من الحق كذلك أن أولئك الغرباء اعتادوا بدورهم ألاّ يخشوا كثيرا عواقب غوايتهم. لقد كانوا يغيبون عن الأنظار بسهولة في اللحظة التي تعتقد فيها النساء المسكينات المخدوعات أنهنّ أوثقن رباطهم برباط شرعي. ذلك ما كان يزيد من جرأتهم عليهنّ. وعندما يغيبون عن الأنظار لا يتركون وراءهم سوى ذكريات تبكي العيون وتجلب العار... لقد كان الجميع، والحال تلك، متوجّسا للهيعات. لقد كانت حياة البورجوازي في العصر الوسيط حياة ريبة وحذر لامحدود. إن مدينته كانت في الغالب صغيرة ولكنها على غاية من التنظيم. لقد كانت بمثابة تجمع عائلي ثروته وشرفه في حماية

عصبية الجماعة. ولذلك فإن أبسط إساءة تتعرّض لها المرأة تعتبر إهانة للجميع. وحالما يبلغ مسامع السكان خبر محاولة خطف أوعنف تجتمع العائلة ويشهر العسس أسلحتهم، وتفتش كل المفترقات سعيا وراء المجرم. وأمّا إذا أسعفه الوقت بالهرب فإنهم يسارعون لمطاردته في المدنية أوالقصر المجاورين. ويعيدون المحاولة مرّة ومرّتين إلى ما لا نهاية إذا لزم الأمر ولا يهنأ لهم بال حتى يعاقب المسيء ويصلح ما أفسده.

إن الفتاة البرجوازية أكثر حماية، وأقل عرضة للأخطار من الفلاحة الفقيرة، ولكنها من ناحية أخرى، تعاني مصاعب أقلّ من الفتاة النبيلة في التعبير عن مشاعرها، فالاعتبارات السياسيّة والتركيبة العائلية تمنعها من أن تحب من تشاء. ولّما كانت لا تصادف في طريقها سوى شبّان من نفس مدينتها هم ملاّك أو تجار أو قضاة مشهورون فبإمكانها أن تختار، دون وجل، واحدا من بينهم فتعدّ نفسها على الفور لتتزوجه. إن تعاليم الإنجيل لم تفقد نضارتها فلا أحد يتساهل مع ضرورة الزواج ومع الخوف من عذاب جهنّم. إن المدينة توفر لهنّ تعليما كافيا ليميّزن الشرّ من الخير والكاذب من الصادق. تلك المعرفة غير متوفرة بصورة دائمة في القربة. تشهد لذلك تعاليم الناسك روبار النورموندي والفلاحون البروتون متعددو الزوجات... ومن ناحية أخرى لسنا حكماء أو فلاسفة حتّى نشك في كل شيء ونهزأ بكل الخلق. إن المسرح لا يوجد إلا في الصوامع، وهو، بالتالي، لا يعرض على أنظار السكّان البرجوازيين تلك الصور العجيبة عن الفاحشة في العصور القديمة حيث كانت المرأة تتعلّم كيف تخون زوجها تعلما، والعاشق حبيبته، وحيث البغيّ عارية تماما تعلّم المرأة الفحش. وأمّا الحمّامات التي ترك لنا عنها القديس قبريانوس وصفا جريئا فلم تعد مستساغة. وإذا كانت الزانية في ما مضى تعاقب بأن يطاف بها في الساحات عارية، فإنّ هذا العقاب المخزي يؤخذ الآن مأخذ الجدّ فقد أضحى كفيلا بإرعاب الفجار عوض دفعهم إلى تحدّي مشاعر الجماعة. إن صراع المحاربين الرومان Gladiateurs للحيوانات المفترسة لم يعد مجالا يختلط فيه القتل والدماء بالفجور، فآخر لعبة من ذلك النوع، ذكرها التاريخ، حصلت في أرل Arles سنة 462.

وهكذا وجدت البورجوازية نفسها في الوضع المناسب جدّا لاحترام المبادئ الأخلاقية والمشاعر الطبيعية، وهي الشروط التي تقود حتما نحو الحبّ الصادق.

إن حريّة المشاعر التي كانت تتمتع بها المرأة في المدن قد دفعت ربات القصور إلى أن يتنفسن الصعداء، وأعطتهنّ طموحا في أن يحصلن بدورهنّ على امتيازات مماثلة. لقد كان الأمر أخطر مما تصوّرته: لقد ملّت الفتاة النبيلة العيش حبيسة القصر، والزواج دون روية من غرباء يعرضون عليها الزواج تباعا. لقد كانت تحدوها رغبة في كسر مغاليق القصر والتجوّل وسط الناس، ورؤية فرسان يتجمعون حولها فترى عن قرب محاسنهم ومساوئهم، حتى تتمكن من اختيار زوج عن دراية. ثارت المرأة على فكرة أن تكون تحت رحمة سيّد قويّ بإمكانه اضطهادها وهتك سترها وسجنها في مطمورة فلا تصل صرخاتها إلى الناس، ولا تتمكن من أن تكسب إلى صفّها قانونا أو قاضيا يحميانها. وشيئا فشيئا تجاسرت ربة القصر، فلم تعد الحراسة المضروبة عليها تفزعها. وأضحت القوانين والعادات والاستبداد الزوجي والأبواب ذات المغاليق الثلاثة عاجزة عن إيقاف ميول القلب وإخماد فورة الحب... وستشنّ حملة على الغيرة الإقطاعية، ولكن ليس بصفة فردية من قبل بعض النساء كما حصل زمن سافو[1] Sapho ولكن بتكاثف كبير بين الفنانين والشعراء والشريفات من النساء والفوارس.

لم يكن للصراع في الجنوب نفس الخاصيّة في الشمال. لقد كنّا بصدد الإلمام بذلك القسم الشمالي من أوروبا الذي ما زال ثلاثة أرباعه ميروفنجيين، لنلقي الآن نظرة على القسم الجنوبي أي البروفانص[2] Provence وإسبانيا وإيطاليا. تلك الربوع لم تخضع إلا قليلا للبرابرة وقد حافظ سكانها الأصليون على صفائهم، والحضارة فيها خليط من الفساد

(1) شاعرة إغريقية فشلت في حياتها الزوجية فنفرت من كل الرجال واتجهت نحو بنات جنسها تمارس معهن السحاق. تركت مجموعة من القصائد الشعرية تمجد فيها علاقاتها الجنسية مع عشيقتها المفضلة آتيس. (المترجم)

(2) هي مقاطعة تقع في جنوب شرق فرنسا. تمتد من الضفة الشرقية لنهر الرون Rhone إلى الضفة الجنوبية لنهر الفار Var. كانت في القرون الوسطى تشمل كذلك جبال الآلب الجنوبية. من الناحية الإدارية والسياسية شكلت في القرون الوسطى «مملكة مستقلة». (المترجم)

الروماني وعقيدة مسيحية سطحية جدّا، ومازال فيه للمرأة، أكثر مما كان لها في الشمال، نفس النفوذ الذي كان لها في الفترة الامبراطورية المتأخرة، فسلطتها ليست مؤسسة على ما تكنّه للرجل من إجلال كما كان الحال في جرمانيا القديمة، ولكن على إمكانياتها في فن الحبّ والإغواء والمخاتلة. فمنها يتضوّع آخر نفس من الإغريق وروما. وهكذا عندما نوازي بين المرأة في الشمال والمرأة في الجنوب فإننا نبرز بذلك طريقتين لتحرر المرأة: توسلت في الأولى بظرف شاعري ودنيوي وفي الثانية بظرف ديني عفيف لن يكون أكثر صرامة من الأوّل.

القسم الثالث

الحب في ظل الشعراء الجوّالين: التروبادور والتروفار

1
الأصل العربي والروماني للحب البروفانصالي

لقد أخطأ كل المؤرخين بداية من مابلي Mably وانتهاء بأوغسطين تياري A. Thierry عندما نسبوا انتشار الحريات المدنية والسياسية إلى الشعب وحده... فالعامل الحضاري الأول في العصر الوسيط هو الحب. لقد كان عليهم أن يولوا أهمية كبرى لدراسة هذه السلطة التي أهملوها دون موجب.

كنا بصدد بيان حالة العبودية التي كان الاستبداد الإقطاعي يحتجز فيها النساء كلّهن، إلى أن كان يوم رأت فيه تلك الزوجة وتلك البنت المحتجزتان في أعلى أدوار القلعة صعلوكا مسكينا يمر بقرب القصر معلّقا مندولينا[1] mandoline في رقبته ويدندن بأغنية حزينة. حدقتا به واستمعتا إليه بانتباه وعبرتا له عن شكرهما بإشارات وابتسامات. لقد منحهما لحظة سعادة نسيتا فيها ألم الأسر.

لنلحظ بدورنا أنّ هذا الشاعر المنشد، ناظم الشعر الجوال هو آخر من يمثل ذلك الشعر الراقي الذي نشأ مع هوميروس ولم يضمحل نهائيا مع فورتيناتيوس. إن هذا الرجل التافه الحقير الذي يكدي طعامه بنغمات كمنجته، هذا الأفاق من القرن الحادي عشر سيحيي المجتمع البرابري؛ فسلطان الموسيقى والشعر، ذاك الذي لا يمكن لأي أحد الفكاك منه، سيمكنّه من أن ينشد أمام الجميع ما لا يجرؤ أحد على قوله، ومن أن يذيع أشواق المرأة إلى الحرية في زمن كانت تعيش فيه سجينة، ومن أن يذيع حقوق الحب وحريته في وقت كان فيه الأب يتملّك ابنته دون أن يبالي برغباتها وأمانيها، ومن أن يشيد، في حضرة ربات القصور، ببطولات الفرسان، ومن أن يبدي شفقته، في حضرة الفرسان، لدموع ربات القصور وهمومهن. وهكذا سيتشكّل، منذ ذلك الوقت، تيار قوامه الجاذبية من جهة والتعاطف من الجهة المقابلة بين المضطهدات اللواتي يتألمن والرجال الشهوم الذين

(1) آلة موسيقية تقليدية إيطالية تشبه العود. وتستعمل في الموسيقى الكلاسيكية والشعبية. (المترجم).

يرومون خلاصهنّ.

في زمن لم يخترع فيه البريد بعد، والكتب فيه نادرة والجرائد معدومة، أصبح الشعراء الجوالون في الجنوب، التروبادور، وفي الشمال، التروفار، أدوات سحرية للتواصل بين الناس رغم أنّ دورهم في الأصل لم يكن يتعدى تسلية أهل التبطّل والفراغ. لقد خبر الشاعر الجوّال، بفضل مغامراته، الوجود وفهم آلام المرأة السجينة، فنظم **حكاية شعرية** في الغرض كلّها صنعة وزخرفة بديعة ثم انطلق بعد ذلك يجوب الدنيا منشدا شكايته في مآدب الفرسان، وفي حانات الشُّرَطِ وعلى أبواب الكنائس وموائد الأديرة. البعض كان يستمع إلى حكايته فضولا، والبعض الآخر بكلّ لا مبالاة. منهم من يستحسن **يقظة** الزوج، ولكن أغلبهم ينكرونها عليه، ولا يستسيغونها. ولكنّ الأهمّ أنه يوجد دوما بين القوم رجل شهم ونبيل يبدي سخطه على أسر المرأة. وفي الوقت الذي ينشغل فيه الآخرون بالتجادل في الأمر يكون هو قد فكّر وعزم على الفعل، فيتسلل خلسة ويركب حصانه ويتقلّد سلاحه، وبمفرده، يحاول تخليص تلك المضطهدة. فمن أين له هذا الإقدام؟ إنّه ينبع من عاطفتين صنوين في القوة: الحب في المقام الأوّل ثم المحبة المسيحية ثانيا. إنّ هذا الرجل الذي استجاب لدافعي الطبيعة والإيمان سيشغل كل العصر الوسيط. لقد كان لدينا الشاعر **الجوَال**، **التروبادور**، رجل الشعر والأخبار، ولدينا الآن **الفارس**، رجل الفعل، **بطل** المكارم الحقيقية.

وما إن ظهرت هاتان الطبقتان المجددتان المتكاملتان حتى بدأ عهد جديد بالنسبة إلى المرأة والحب والحضارة. إنّ مبدأ حرية الاختيار وحرية المرأة الذي اكتشف في اليونان ونما في روما وقدّسه الإنجيل قد عرف تطورا جديدا واكتسى خاصية غير مسبوقة. إنه لم يعد استثناء ولكن أمرا شائعا. لقد حظي بمباركة ناجعة، مباركة العرف والعادة.

مما لا شك فيه أنّ التروبادور كانوا أسبق زمنيا من التروفار، ذلك أنّ التحرّر الاجتماعي عن طريق الشعر والحب ظهر أوّل ما ظهر في البروفانص وكاتالونيا وأراغون فهناك

تطورت مؤسسات الشعر والفروسية في انسجام تام، ونشطتا بكل حيوية[1]. هذه النتيجة كانت حتمية فالحضارة الجنوبية المترعة أدبا وظرفا كانت نتاج مجتمعين متميزين إلى حدّ كبير لم تمارس عليهما شعوب الشمال إلا تأثيرا قليلا. إننا نعني بذلك المجتمع البروفانصالي الوريث المباشر للمجتمع الايطالي، والمجتمع العربي الوافد حديثا إلى إسبانيا.

لقد أمدت بلاد ألغال وايطاليا اليروفانص بشعر شبقي إباحي ينحدر من أوفيديوس وبروبارتوس وتبيلوس كما أمدّتها بجسارة المرأة المتعودة على أن تفرض نفسها كيدا ودلالا وطموحا.

أمّا إسبانيا العربية فقد منحتها رقة الأحاسيس وأحلاما وشهوانية مشوبة بالتعاليم الدينية ونزعة حسّية عفبفة رقيقة لا علاقة لها بالفجور الذي سينتشر لاحقا في بلاد المسلمين. لقد كانت الأسرة العربية في القرنين العاشر والحادي عشر على شاكلة العائلة الإسرائيلية في ظل حكم داوود وعلى شاكلة الحريم الإغريقي زمن سولون Solon وأرستيد Aristide.

لنقدّم أولا ملخّصا عن الظرف الغزلي الإيطالي والغالي الروماني الذي انتشر أول ما انتشر في منطقة الألب وجبال أوفارن Auvergnes والبيريني.

واصل الشعر الشبقي الإغريقي والروماني هيمنته على ضفاف البحر المتوسط منذ عهد الفوسيين إلى العصر الوسيط دون أن يعيقه غزو البرابرة.

لقد كان للشعوب القديمة أغانٍ لكل المناسبات الاجتماعية ولكل مصاعب الحياة. أغلب هذه الأغاني كانت تشكل على غرار جوقات الحفلات الدينية، مسرحيات قصيرة يتآلف فيها الشعر والموسيقى والنثر على شاكلة مغامرة ظريفة ومؤثرة. وكان العشاق قد تعوّدوا، عندما يكون الطقس صافيا والجو دافئا، أن يردّدوا أغاني عاطفية تحت نوافذ منازل خطيباتهم.

وعندما أفل نجم الكوميديا والتراجيديا الرومانية تمّ تعويضهما **بالمسرحية الايمائية** *mime* وهي مسرحية قصيرة يؤديها وينشدها ممثلان يتولّى أحدهما الإنشاد ويلبس في العادة لباس

(1) Voir Raynouard, *Histoire des Troibadours* ;--Fauriel,*Histoire de la poésie provençale*.

امرأة. وكانت مواضيع تلك المسرحيات تتمحور حول أحداث ماجنة وهزلية وحول قصص مومسات فتسلّي الحضور في الحفلات الخاصة والمآدب الضخمة[1]. هذه العادات الرائجة رواجا كبيرا في جنوب بلاد الغال لم تنتشر في الشمال. ولمّا كان الشمال ذا أدب مقلّ في ذلك العصر فقد استعاض عن ذلك بمفاخرات ومُنَاضَلات هي أكثر انسجاما مع طبع الغزاة الجرمان العنيف والفظ.

لم يكن العازفون **والمنشدون الجوالون** في الجنوب *joculatores* يكتفون بأداء أغاني فاحشة بل كانوا يصطحبون معهم عاهرات من أسوأ الأصناف هنّ خليفات الراقصات ونافخات الناي في العصور القديمة. لقد زادت نظراتهن وإشاراتهن الجسورة إلى غنائهن الإباحي فتنة أصابت الآداب العامة بضرر بالغ.ومما زاد الطين بلة أنّ السكان المحليين قد حافظوا على أغاني الطقوس الوثنية القديمة ورقصاتها يعزفونها ويؤدونها في الكنائس. وكان الحب هو الموضوع المألوف لتلك الأشعار الماجنة. وكانت النساء أكثر تحمّسا لأن يهدين بعفوية إلى مريم العذراء والشهداء المقاطع الغنائية التي كانت آلهة الأولمب تصغي إليها في غابر الأزمان.

هاجم الأساقفة في مجامع كنسية عديدة وخصوصا في مجمع روما سنة 826 بشدة هذا النزوع نحو إحياء الوثنية[2].

ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا حفلات الربيع[3] من أن تحظى بشعبية واسعة في روما إلى حدود العهد البابوي. فكانت المومسات يظهرن في هذه الحفلات عاريات تماما يناقشن الحرفاء أجورهن. ونفس المشهد كان يتكرر في آرلArles وفي بوكار Beaucaire حيث لم

(1) Fauriel t. 1 p. 106

(2) جاء في القانون الثلاثين «أن أشخاصا، وبالخصوص نساء، يترددون إلى الكنيسة في عيد ميلاد المسيح وفي حفلات دينية أخرى لا بدوافع نبيلة ولكن لأجل أن يرقصوا وأن يغنوا أغاني مخلة بالحياء، وأن يشكلوا جوقات غنائية ويديروها إلى درجة أنهم لو دخلوا الكنيسة بذنوب صغيرة فإنهم سيغادرونها بكبائر» Fauriel, t, I, p.168

(3) حفلات الربيع أو حفلات آلهة الزهورFlore هي حفلات كانت تقام في روما القديمة بمناسبة حلول الربيع واحتفاء بآلهة الزهور والربيع فلور. وكانت الاحتفالات تتم غناء ورقصا وتمثيلا وتدوم خمس ليال متوالية. (المترجم)

تتردّد «البلدية» في تنظيم هذه الحفلات الفاسقة التي كانت تقام في بداية شهر ماي. لقد ظلت العادات الشبقية القديمة مسيطرة على المجتمع ولكن بطابع رسمي[1].

في القرن الثاني عشر كانت البروفانص تنتج بحماس ضربا من القصائد القصيرة الممثلة مستمدة من العهدين القديم والجديد. وقد برزت فيها جسارات الحب جنبا إلى جنب مع حِكَم الأنبياء والبطارقة الجليلة. ووصل الأمر إلى أن أقحمت في الشعائر الدينية أغاني إباحية هي بالتأكيد تقليد **لنشيد الأناشيد** *Cantique des Cantiques*.[2]

وخلاصة الأمر كان للحبّ الغالّي الروماني الذي انتشر في الجنوب لذّة حسيّة سهلة المنال، لازمتها إثارة الموسيقى والرقص والشعر. كان العشاق وهم مريدون مخلصون للآلهة الوثنية وشعرائها شطارا ولكن قليلي التوفيق. فهم لم يهتمّوا قطّ بتنمية الشعور ولكنهم سعوا كثيرا وراء اللذة. ولم يسعوا إلى إخفاء فوزهم باللذة وراء حجب الأدب وعفة النفس بل كانوا يسعون إلى البروز والتباهي على طريقة قدماء الرومان. فقد كانت المرأة تسعى إلى أن تثير الإعجاب أكثر من سعيها إلى نيل الاحترام. وكان سعيها إلى الفتنة أكثر من سعيها إلى الحبّ. لقد غزا الحب بكل وقاحة حفلات الكنيسة لا لأجل أن يتطهر باحتكاكه بها بل ليفرض على الحفلات المسيحية إباحية الحفلات اللوباركيلية[3] Lupercales.

(1) لم تلغ هذه الحفلات إلاّ إثر موعظة الراهب كبوسين Capusin. وفي سنة 1551 كان مجمع ناربون Narbonne مجبرا على منع الرقص والألعاب وكل المظاهر الدنيوية في الكنائس.

(2) وهذا نموذج وجدناه في مخطوط من النصف الأول من القرن الحادي عشر:

العاشق: تعالي حبيبتي الرقيقة التي أحبها كفؤادي، تعالي إلى حجرتي المزخرفة بكل أنواع الزينة ففيها مقاعد وجدرانها مزينة بالسجاد وعلى أرضها تتناثر الزهور وقد مازجتها الأعشاب العطرة. وفيها نصبت طاولة محلاة بكل أنواع الأطعمة، عليها خمر معتقة وطعام وفير لذيذ جدا. وفيها تصدح أعذب نغمات الناي المتشاكلة. وفيها غلام وجارية يغنيان أعذب الأغاني.

المحبوبة: كنت وحيدة في الغابة فلقد أحببت الأماكن الخالية. لذلك هربت من الضجيج وتجنبت مجتمع الناس. لقد بدا الثلج والجليد يذوبان، والأعشاب والأوراق تخضر، والخطاف يزقزق في أعالي السماء والحب الصادق يحترق في المغاور. Fauriel, t.I, p.248.

(3) هي حفلات رومانية سنوية تتم احتفاء بإله القطعان فانوس لوباركوس Faunus Lupercus.. وكانت حفلات صاخبة تجمع بين الضحك ورياضة الجري ومطاردة النساء.(المترجم)

للحب لدى عرب إسبانيا صورة أخرى مغايرة تماما، فرِقّة الشعور والاحترام يتصدرانه وطيّ السرّ شرطه الأساسي. وأما الشهوة فهي ما تفضي إليه عاطفة رقيقة عذبة وليست نتيجة العنف أو النزعة الكلبية. إلاّ أن العرب قد عاشوا طويلا في البروفانص فقد استولوا على ناربون Narbonne وماغولون Maguelonne وقادوا الحملة تلو الأخرى في المنطقة. وكان **ابن نيساء**[1] Munuza أحد أمرائهم قد تزوج لمباجي Lampagie ابنة إيدون Eudon دوق أو ملك أكيتانيا Aquitaine. ولقد كان من الطبيعي أن يؤثروا تأثيرا كبيرا في حضارة البروفانصاليين المعاصرين لهم وفي أخلاقهم.

لا تبيح الديانة الإسلامية تبتل النساء؛ فالزواج في عرفها تقتضيه الطبيعة والعقل والشريعة وهو واجب على كل المؤمنين دون استثناء حتّى على **الصوفية**[2] الأكثر تزهدا. إن المسلم يعرف الزهد لا التبتّل. لقد كانت العزوبية تبدو له أكثر إهانة للمرأة منها للرجل فلا يمكن أن يقضى على المرأة بالعزوبية إلا إذا ابتلتها الطبيعة بعيوب أخلاقية وجسدية[3].

إن الأمومة لدى العرب نعمة وشرف. لذلك كان الأزواج يفتخرون بكثرة أطفالهم أمام الله كما أمام عباده[4].

كما أنّ رجال الدين العرب لم تصادفهم موانع دينية للزواج كتلك التي اصطدم بها عدد كبير من الآباء والأحبار في الكنيسة البدائية.

لم يكن للمرأة العربية أن تختار زوجها، فهي معتقلة في حريمها. ولا تشاركه غزواته ولا مخاطرها. ومن ثم تبرز نتائج منطقية قوامها أن الحب لم يبلغ عند العرب تلك الدرجة

(1) هو عثمان أبو منصور ابن نيساء، بربري من الذين عبروا مع طارق بن زياد إلى الأندلس. ولي إمارة كاتالونيا في شمال الأندلس. انتهى به الأمر إلى التحالف مع الإسبان ومقاتلة المسلمين. (المترجم).

(2) استعمل المؤلف عبارة دراويش derviches وهو يقصد الصوفية. (المترجم)

(3) لقد كان لهذا المبدأ تأثير كبير في مسيحيي إسبانيا فحتّى الكهنة أنفسهم بدوْا يعتادون على الزواج ليس فقط في الأندلس في ظل حكم العرب بل حتى في الممالك المسيحية نفسها. ولم ينجح البابا في تعميم عادة العزوبية على رجال الدين إلا بعد حملات فرديناند الأول.

(Viardot, Histoire des Arabes, t.II, p.23)

(4) التوبة 9/69، الكهف 18 /45.

من الكمال والبطولة التي ظهر عليها لدى الغاليين ولدى المسيحيين. فهذه العاطفة لم تبلغ كمالها إلا من خلال تعاضد الزوح: محن/ صراع. وفي المقابل فقد أظهر الحب لدى العرب شيئا غاية في البساطة والكونية والروعة. وهو بمثابة الشرط الأساسي الذي يحفظ الشعوب من آلام الفضيحة والنزعة الكلبية والمجاهرة بالفحش.

إن خضوع المرأة العربية لم يكن، إحقاقا للحق، من جنس تلك العبودية الهاتكة التي كابدتها المرأة في الحريم زمن انحطاط الأشوريين وبني إسرائيل. إن العربي لا يحبس زوجته كي يسلبها حرية اختيارها ولكن ليحميها من الخطف والعنف. إنّه يبالغ في التلطّف بها، فيحبسها حتى لا يفتن جمالها غريما، وحتى لا تدنس بشهوة رجل آخر غير زوجها. إن العربي يحتاط جدا لهذا الأمر حتى إنه يعلق على جبين زوجته الشابة نوعا من التمائم مكتوب عليها الاسم السحري **ما شاء الله** حتى يحميها من نظرات الحسد والوله الشديد[1]. إنه يؤمن، ولكن بمغالاة، بمبدأ آباء الكنيسة الذين يريدون من المرأة ألا ترى وألاّ تعرف سوى رجل واحد حتى لا تفكر في سواه. ولكن الديانة المحمدية لا تعامل الزوج بالمثل إذ بإمكانه أن يتزوج أربع نساء. وأخيرا فإذا كانت المسيحية تكتفي بحثّ المرأة على الوفاء فإنّ العربي يفرضها عليها بالقوة إذ يحبسها في المنزل. إنه بالضبط في نفس وضعية الزوج الإغريقي بعد العصر البطولي كما بينا ذلك سابقا (الصفحات 195 إلى 198 من الجزء الأول).

لقد تجاوزت الحيطة الحذرة الرامية إلى منع أي اتصال للمرأة المسلمة بالرجل كلّ ما مورس سابقا، في هذا المجال، في أرويا. فلم يكتف المرابطون، شأن القوط، بمنع الأطباء من فصد نسائهم بل لم يسمحوا لهم بالاقتراب منهن إلا في الحالات الخطرة. فقد كانوا يعولون على عجائز محنكات يكلفونهن بمداواتهن عند كل توعك يصيبهن وخصوصا أثناء الولادة.

إن الرجل العربي ومهما كان مستواه الثقافي يحذر كل الحذر عندما يسال عربيا آخر

(1) - Viardot. T, II, p. 144

عن أحوال عائلته، فلا يرتكب أبدا **حماقة** الحديث عن ابنته أو زوجته. وإذا ما تعلق الأمر بالزواج فإنّ أمّ الرجل الشاب تذهب لوحدها إلى منزل الفتاة المعنية وتخوض في الأمر مع أمها. وإذا ما قبلت أمّ الفتاة الطلب فإنها تعبر عن ذلك بإحضار صندوق وإحكام غلقه بقفل. وعندما يحين يوم الزفاف تفتحه أمام زوج المستقبل وتسلمه ابنتها العذراء التي يكون أوّل رجل تنزع أمامه حجابها. ومن جانبه يقدم لها هدية بمناسبة **رؤية وجهها**، مثلما كان الجرماني يقدم **هدية الصباح** إلى عروسه بعد الدخول بها ثمنا لعذريتها.

كانت حفلات الزفاف العربية في إسبانيا صاخبة جدا فقد كانت تقام حفلتان منفصلتان في منزلي العائلتين، تستمران لأيام عديدة. وكان الرقص والموسيقى أهم ما فيهما من مسليات. وكانت النساء ينشدن أغاني حب وكنّ يتعمّدن إطالة الوقف عقب كلّ بيت شعري حتى يزدن النفوس شجى. وفي بعض الأحيان كانت العروس تخرج في موكب مع صويحباتها يطفن طرقات المدينة. وعندما تؤخذ إلى **القصر** تتسلح صويحباتها بعصيّ من العاج يحرسن بها حجرة نوم العروسين. وفي المساء يصل الزوج في رُفْقَة يتقلّدون خناجر مذهّبة. فيهجم على الفتيات فما يلبثن أن يهربن فزعا وهكذا يغزو حجرة النوم.

ترمز هذه المقاومة إلى أهميّة الحياء. ولقد كانت أقلّ دموية مما كانت عليه لدى الاسكندينافيين ولكنها أكثر جدّية مما كانت عليه لدى الإغريق والرومان الذين يكتفون برفع العروس فوق عتبة المنزل حتى يوهموا الحاضرين بأنها خطفت. وطوال الليل كانت الحدائق مضاءة والحضور ينشدون أشعارا في مدح العروسين السعيدين. وكان الأب يجزل عطاءه للمغنين والشعراء.(1)

إن هذه الفتاة التي لا تتبرج أمام خطيبها إلا يوم الزفاف، والتي لم تر إلى حد ذلك الوقت سوى النساء، ورمزية القفل، وهذا الاستيلاء بالقوة على حجرة الزوجية، كل ذلك يكشف عن القيمة الكبيرة التي يوليها الرجل لطهارة زوجته وعن حرصه البالغ على الحفاظ عليها مستقبلا. إن المروءة وعزة النفس والحيوية لن تكون بالتأكيد الشغل اليومي

---

(1) هكذا كانت، على سبيل المثال، أعراس عبد الملك في قرطبة سنة 986 م (Conde, part, II. 90/99)

لامرأة محفوظة كمزهرية فاخرة، ومستبعدة عن كل مشاغل الحياة العامة. ولكن هذه المرأة ستكون على الأقل شيئا يحفظ بعناية ويحرس، فالحياء يظلّ على الدوام خصلة قيّمة، والوفاء فضيلة لا غنى عنها.

إن تحفظات الشريعة الإسلامية وأخلاقها هذه لم تذهب سدى، فلم يعرف العرب الزنى ولا مكائد النساء. وهناك أمر جدير بالانتباه: إن المومس المسلمة أسطورة لا وجود لها في التاريخ، فهي تحترم نفسها كثيرا فلا تفرّط في شرفها، وإن للحب لدى الرجل المسلم مكانة كبرى تمنعه من البحث عنه لدى العاهرات، ذلك أنّه بإمكانه أن يحوز المرأة من عند وليّها ولكن لأجل أن يحتفظ بها نهائيا مصمما على أن لا تنتقل إلى غيره.

للمرأة العربية التقدير والاحترام، ولكن الرجل هو السيد ونفوذه يجعله فوقها درجات، لذلك يمكنه أن يتزوج، دون عقاب، نساء مسيحيات أو يهوديات، فقد أعلن القرآن، شأنه شأن الإنجيل، أن **الرجل المؤمن يطهر المرأة الكافرة**، ولكنه لا يقر العكس. إن المرأة تعتبر بلا تأثير مباشر على قرينها... لذلك يحرّم على المرأة المسلمة التزوج بيهودي أو نصراني. وطالما أن للرجل كل السلطة على المرأة فلن تكون المرأة المسلمة هي التي ستطهر أولئك الكفرة بل هم الذين سيدنسونها.[1]

لقد وطد محمد مبدأ معاملة المرأة وحسَّن بشكل ملحوظ وضعها التشريعي. لقد حباها القران بنعم تضاهي تلك التي حباها بها التشريع العبراني في «**سفر الأعداد**» وحبتها بها قوانين سولون وبيريكليس.

لم يكن العرف العربي في الجاهلية يولي أهمية للمرأة فقد كان يبيح وأد البنات حين

---

(1) إنّ موانع الزواج الشرعية لدى العرب كانت مماثلة للتي نقلها العبرانيون إلى الإغريق وإلى الرومان: يحل الزواج بين ابن العم وابنة عمه ولكنه يحرم بين الخالة وابن أختها (و بين الخال وابنة أخته) ولا يمكن للمسلم ان يتزوج أخت إحدى زوجاته أو خالتها أو أخت مرضعته أو خالتها ولا يمكنه تزوّج أمته ولا الأمة غير المسلمة إذا كانت زوجته حرة. كما لا يمكنه التزوج بأكثر من أربع. وعليه انتظار ثلاثة أشهر ليتزوج مطلقة وأربعة أشهر وعشرة أيام ليتزوج أرملة. وآخر الموانع: التزوج بامرأة حامل). (Viardot، t، II، p. 404)

ولادتهن حتى تتجنّب الأسرة وضعا محرجا. لقد قطع محمد هذه العادة المتخلفة[1].

وإذا كان القران قد واصل التأكيد على أن «**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**[2]» وأنّ: «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** [3] وأنّ «**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ**» (النساء 34/3) فإنه قد خفف من إطلاقية هذه الحقوق بنصائح أكثر توافقا مع المبادئ المسيحية فأضاف: «**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا.**»[4]

وأخيرا فقد اهتمّ القرآن بمنح النساء حقهن في الإرث والمهر والصداق، وحقهنّ في الزواج ثانية. وأوصى الرجال بحسن معاملتهن، وبملاطفتهن، وإكرامهن، كما أنه لم يبح لهم التزوج بأكثر من واحدة إلا بشرط أن يوفروا لهن نفس الحظوة والرفاهية اللتين تعوّدن عليهما.[5]

وفي كلمة لم تعد المرأة العربية، بعد ظهور محمد، مجرد شيء، بقرة وحمار البطاركة الأوائل أوحمار قانون الألواح الاثني عشر، لقد أصبحت عنصرا من العائلة، وربما أكثرها احتراما. ولئن ظلت خاضعة فقد تمتعت بحقوق شخصية، وبثروة معتبرة. فالزوج ليس مطالبا فقط بإطعامها بل باحترامها والإحسان إليها.

ذلك يعني أن ما احتفظ به الإسلام من عدم المساواة السابقة بين الجنسين يبدو متعلقا ببنية جسدي الرجل والمرأة أكثر مما هو متعلق بطبيعة روحيهما. ومصداقا لذلك فالموت يساوي بين الزوجين مساواة تامة، فبعد الموت يتقاسمان نفس المصير.[6]

لم يتأخر تأثير رد الاعتبار هذا للجزء الخالد من المرأة على حالتها الفكرية: فما إن آمن

---

(1) «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» (الممتحنة 12/60).

(2) النساء 34/4

(3) البقرة 2/ 223

(4) النساء 4/ 34

(5) النساء 3/4، الطلاق 6/65

(6) «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى» (آل عمران 195/3)

العربي بأن المرأة تمتلك مثله قبسا من نور الألوهية حتّى دفعه ذلك إلى أن يقدر ويتأمل عظمة هذا النور الداخلي لمّا كان يشع بداخلها قبل الموت. ولذلك كان يسمح للعربيات بإسبانيا بأن يعتنين بالأدب والفنون وبالعلم، وبالعلوم الدينية، ولقد برعن فيها كلّها. وعندما تبرز إحداهن في إحدى هذه المعارف فإنّ الشهرة التي تحوزها والاحترام الذي يحوطها، يجعلها في غير حاجة كبيرة إلى زوج يحميها. وحتى عندما تكون عزباء فإنها تتمتع بحرية فريدة من نوعها فتفوّقها الذهني يذهل الرجال فيعجبون بفكرها لا بجسدها، كما يمكنها مغادرة منزلها والتجوال في المدينة وزيارة العائلات الغريبة عنها بحرية تامة.(1)

وها قد أفضى بنا الأمر إلى أن نسحب على عرب إسبانيا نفس الملاحظة التي أبديناها بخصوص النساء الشاعرات والفيلسوفات الإغريقيات فلكي ينال المحارب إعجاب نساء ذوات فكر على هذا القدر من التميز، وذوات ذكاء على هذا القدر من التوقد، لم يكن يكفيه أن يظل طول الوقت ممتطيا جواده شاهرا فأسه وسيفه، كما كان يفعل تابع الملك الجرماني بل عليه أن يتصف بصفات أخرى غير الشجاعة، وأن يكون آخر غير **الجريء**.

وحسب كوند Conde هناك عشر خلال ضرورية للمؤمن لكي يستحق لقب فارس، ست من بينها أي الشجاعة وركوب الخيل والمهارة في رمي الرمح واستعمال السيف والقوس كانت مشتركة بين مختلف أجناس المحاربين، ولكن الأربع المتبقية أي **الحكمة والمعروف والشاعرية وحسن الحديث** لم يعرفها أهل الشمال(2). وأمّا الإيمان فكان لا بدّ منه

(1) كان عبد الرحمان الثالث يستمتع بسماع معزوفات مزنة جاريته وكاتبة سره، ويستمتع كذلك بسماع معزوفات عائشة وهي فتاة شريفة من قرطبة وهي أكثر نساء العصر حكمة وجمالا وعلما. وكذلك أشعار صفية ابنة عبد الله الداعي... أمّا ولاّدة ابنة الخليفة محمد المنتصر بالله فقد سميت نحو سنة 860 م سافو Sapho قرطبة. وكانت النساء في ظل حكم الحكم الثاني يتميزن عموما بالنباهة وتنوع معارفهن. وكان لهذا الأمير في قصره شابة على غاية من الحسن اسمها لبنى متفقهة في النحو والشعر والحساب. وكان الخليفة يكلفها بإدارة الأعمال المهمة. وقد فاقت كل من في القصر بسرعة بديهتها وفصاحتها. وكان لفاطمة صفات مماثلة وكانت تنسخ الكتب للخليفة. وأمّا خديجة فكانت تنظم الشعر وتغنيه برقة متناهية. وأمّا مريم فكانت تدرس العلوم والأدب لشريفات إشبيلية حتّى إنّها علّمت الكثيرات منهن كيف يسلّين الأمراء وكبار القوم. وأخيرا فإن راضية، أو **النجمة السعيدة**، قد أصبحت مشهورة بقصّها وأشعارها. Conde, partie II, ch. 87 et 93

(2) Cande, Part.II,ur.LXII.

فالإنسان لا يمكنه العيش بدونه.

هذا الخليط من الرقة والشجاعة ومن الرصانة والظرف، وهذه المكانة للحب الهادئ الكتوم تتجسد في كل نواحي الحياة الاجتماعية، وفي كل مشاغل الحياة الخاصة. إن في الأدب العربي صدى أمينا لذلك، وخصوصا روايات الحب والمغامرات، نذكر منها: «**روضة المحبين**» و« **زفرات عاشق**» و«**أخبار مجنون ليلى**».

مما لا شك فيه أن قواعد الظرف والوفاء الفروسي كانت إلى حدود القرن الحادي عشر أكثر تطوّرا لدى العرب منها لدى الإسبان. إن العرق الإيبري القوطي قد بدا لنا في التاريخ على حالة من الفظاظة وبرودة المشاعر شبيهة بحالة شعوب الشمال. نكتفي دليلا على ذلك بالسلوك الشائن لصهري «السيد»[1] اللذين انتقما من هذا البطل بقتل ابنتيه وتعريتهما وتركهما وحيدتين في غابات تومس Tomes. إنه عمل وحشي نادر الوقوع في زمن الفروسية ولا يمكنه إلا أن يكون من فعل زمن عنيف شبيه بزمن ملوكنا الأوائل؛ ففي مسرحية «السيّد» الشعرية شواهد كثيرة عن قرن عُدَّ قرن تحوّل، فهذا البطل الأسطوري يمثل نهاية أزمنة البرابرة وبداية أزمنة الفروسية، وإن صفته هذه، منبئا بميلاد لمجتمع جديد ومدشنا له، هي التي صنعت شهرته الواسعة والمستحقة عن جدارة. لقد كان أول تلاميذ المدرسة العربية وأول فارس إسباني.

وعندما ظهر على الركح كان مقداما شديدا ومنذ القسم الأول من المسرحية المخصص له، نتخيله منافسا لفرسان الطاولة المستديرة la Table Ronde[2].

لقد كانت قوته في مثل شدة قوة رولان Roland وشارلماني charlemagne. ولكن لا شيء لديه يشي بمشاعر حب تتجاوز مجرّد شهوة تابعي الملوك الكارلوفنجيين. وحتى

---

(1) يحيل المؤلف على المسرحية الشعرية «السيّد» *le Cid* من تأليف المسرحي الفرنسي بيار كورناي *Pierre Corneille* (1606–1684).(المترجم)

(2) أسطورة فرسان «**الطاولة المستديرة**» تحكي قصة مجموعة من الفرسان كانوا في خدمة الملك أرتور Arthur وقد كلّفوا بالبحث عن الكأس المقدّسة Graal (كأس المسيح) وبحماية المملكة. وتعود تسميتهم بفرسان الطاولة المستديرة إلى الطاولة التي كانوا يتحلقون حولها رمزا لتآخيهم وتساويهم.(المترجم)

شيمان chimène نفسها، شيمان التاريخية وشيمان الشخصية المسرحية، ليست أبدا شيمان ابنة قيوم دي كاسترو Guillem de castro ولا شيمان بصفتها من شخوص كورناي Corneille. إنها مجرد ابنة سيد إقطاعي، تحترم ما يفرضه عليها أصلها الشريف، وتقاسم عائلتها آراءها ولا تبدي حبّا لا للسيد ولا لأيّ كان، ولا شغل لها سوى مطاردة قاتل أبيها في ما يشبه سعيا إلى **الأخذ بالثار**.

قالت للملك ألفونسو: «أيها الملك، إنني حزينة وأمي حزينة كذلك، ومع كل شمس تسطع أرى ذاك الذي قتل أبي، فارسا على فرس بيده باز وأحيانا صقر يأخذه معه للصيد، ونكاية بي، أرسله على برج حماماتي وبدمائها ضرّج فستاني. ولمّا استفسرته الأمر أرسل يهدّدني بأنه سيمزق ذيول فستاني في موضع مخل بالحياء، وأنه **سيغتصب** جارياتي المتزوجات والعازبات. ثمّ إنّه قتل غلاما صغيرا تحت ذيل فستاني. إن ملكا لا يعرف العدل لا يجوز له أن يحكم، ولا أن يركب الخيل، ولا أن يتخذ ركابا مذهّبا، ولا حتّى أن يأكل على خوان، ولا أن يتسلى مع الملكة ولا أن يحضر القداس في مكان مقدّس لأنه غير جدير به».

ألا يحملنا ذلك على الاعتقاد بأننا نقرأ فصلا من كتاب غريغوريوس التوراني Grégoire de Tours[1] ؟ إنّ رودريق هذا الذي يقتل الغلمان ويهدد باغتصاب العازبات والمتزوجات، أليس هو تابع ملك من القرن السادس وليس رجلا من زمن الفروسية؟

هل تعرفون ما هي العلة الوحيدة لزواجه بشيمان؟ إنها فكرة جيدة ابتكرها الفونسو. لقد وجد هذا الملك نفسه في حيرة فمن ناحية لا يستطيع معاقبة رودريق الرجل الشديد الذي يحتاج خدماته، ومن ناحية أخرى هو يدرك أنّ الحق مع شيمان وأمّها. ولتجاوز هذا المازق فكّر في تزويج هذين الخصمين من بعضهما البعض. لقد كانت الخطة منسجمة مع العادات الإقطاعية، فلا مجال لتصرف مغاير في معظم النزاعات... فعندما تدخل عائلتان في حرب وتتنازعان إرثا يكون الزواج الحلّ المناسب.

قال لها الفونسو: «سأسوّي الأمر معه تسوية لن تسوءك: سآخذ عليه عهدا بأن

(1) هو مؤرخ الإفرنج بامتياز. عاش في القرن السادس للميلاد. واشتهر بكتابه «تاريخ الإفرنج» (المترجم).

يتزوجك».

إن قبول الفتاة الشابة الحانقة الزواج بقاتل أبيها، يعني أنّ رودريق هو بعد رجل مشهور، وأنّه ما يفتأ يقوى ويغنى، لقد صارحتنا شيمان بذلك بجرأة، قائلة: «إنني اعتبر نفسي محظوظة، وإنّه لشرف كبير لي أن أتزوّجه لانني متأكدة بأن خيره سيزداد وسيصبح الأكثر اعتبارا في المملكة...وسأغفر له قتله لوالدي إذا ما وافق على ما ذكرت».

يخيل الينا اننا نستمع الى بينيلوب[1] Penelope وهي تحبك خطة للوفاق. قبل رودريق من ناحيته التزوج بشيمان إرضاء للملك، وحبا في تملك الأراضي الخصبة التي أهداها له بمناسبة زواجه.

قال الفونسو: «هذه هي شيمان قوماز تريدك زوجا وتغفر لك قتلك والدها. أرجوك تزوجها فذلك سيسعدني كثيرا. سأغدق عليك نعما كثيرة وسأهديك أراضياً كثيرة». أجاب رودريق: «سمعا وطاعة أيّها الملك والسيّد، فأنا دوما رهن إرادتك». ثم زوّجهما.

ولاحقا بدأ الحب ينمو بداخل الزوجين اللذين لم يتحابا قبل ذلك قط. ولكنه حب سببه الأمومة المرتقبة أكثر من كونه نتاج عاطفة عميقة. إنّ شيمان هي أندروماك[2] Andromaque حقيقية فهي تقوم بواجباتها الزوجية أحسن قيام، وبواجباتها كأمّ وكسيّدة للقصر. وكان يقلقها غياب الزوج المستمر. وكانت لديها رغبة في استبقائه إلى جانبها حتى تبدّد شكوكها المشروعة، فهي امرأة وحيدة وعلى عاتقها إدارة شؤون قصرها والدفاع عنه. لقد كانت تساورها الأحاسيس بأنّها محاطة بأعداء كثيرين.

إنّ فكرتي ملاطفة النساء والوفاء الفروسي تبدوان لنا فكرتين متطورتين لدى العرب أكثر من الإسبان وإنّ أوّل من أثّر في البروفانصاليين في هذا المجال هم المسلمون وليس المسيحيون.

---

(1) هي إحدى شخصيات ملحمة الأوديسا. وقد اشتهرت بجمالها وكثرة الراغبين فيها لذلك أخضعهم والدها إلى اختبارات عدة يكون الفائز فيها زوجا لها.(المترجم)

(2) يشير المؤلف إلى بطلة مسرحية راسين «أندروماك» Andromaque.(المترجم)

2

عن الظرف الشاعري في البروفانص

جلب العرب معهم إلى البروفانص الشيم الأخلاقية للفارس الكامل وعلى رأسها طيّ السر ورقة المشاعر. وبذلك فرضوا تحولات بارزة على الأخلاق الغالية الرومانية التي كانت ترتكز على عادات مناقضة لعاداتهم.

لم يكن للمرأة لدى البروفانصاليين إلى ذلك الحين من نفوذ تمارسه سوى عن طريق الكيد والتبرج. لقد كانت متلهفة لحضور الحفلات الصاخبة وسماع عبارات الاستحسان الماجنة. في حين أعاد الرجل المسلم للمرأة حياءها إذ أبعدها عن فضول الجمهور وصخب الحفلات. لقد أشاع روح الفروسية المؤسسة على احترام المرأة، وإجارة الضعيف[1] وعلى كتمان العاشق مشاعره وعدم البوح بحب حبيبته ولا باسمها. وهكذا برزت نتيجة أخرى غريبة وغير متوقعة وهي أنّ ظرف فروسية المسلمين قد مكّن الحب البروفانصالي من أن يتطهر. وهو أمر عجز التشدد المسيحي عن انتزاعه من لدن الغاليين الرومان المتمسكين كثيرا بالشبق القديم.

إنّ المروءة والظرف هما من خاصيات المحبة المسيحية، ولقد وجدا لهما مكانا لدى الطبقة النبيلة في البروفانص بفضل ما تحليا به من بريق شاعري... إنّ أولى الواجبات

---

(1) تجسد واقعة من حرب المورسكين (= العرب) ضد المسيحيين بوضوح رقة ومروءة المشاعر الفروسية لدى العرب: حاصر الونزو الثامن Olonzo VIII قلعة أوريجا Oreja سنة 1139 فجمع والي قرطبة بعض جنده حتى يفك الحصار عن القلعة. ولكن عوض أن يهاجم المسيحيين مباشرة، توجه نحو طليطلة حيث الملكة برنجير Berengere في قصرها وفي وضع لا يمكنها من الصمود أمامه. لقد كان يرمي بهذه المناورة إلى أن يجبر الونزو على مغادرة أوريجا سريعا لنجدة طليطلة. كانت الملكة تعرف صدق العرب فأرسلت إلى الأمير المرابطي رسولا يذكّره بأن أصول الشهامة تفرض عليه مهاجمة المسيحيين تحت أسوار أوريجا لا مهاجمة طليطلة حيث لن يواجه سوى امرأة عزلاء. خجل الوالي من حيلته الحربية واعتذر للملكة وطلب منها أن تشرفه بتحيتها احتراما لها قبل المغادرة. عندها ظهرت الملكة في أعلى السور محاطة بكل وصيفاتها فاصطف الفرسان العرب أمامها يحيّونها.

(Viardot , *Histoire des Arabes*. t.II. p. 200)

المسجلة في كتاب الفروسية هي مراعاة المرأة عندما يصيبها مكروه وحمايتها عندما تتعرض لخطر بقطع النظر عن الأسباب. وستسنح الفرصة لهذه المبادىء النبيلة كي تطبق. في الجنوب كان للمراة أهلية خلافة السيّد والتمتع بكلّ الحقوق التي يتمتّع بها وحتّى الحكم، ولذلك فإن عددا كبيرا من الوارثات المزهوات بثروتهن كن يبرمن عقود زواج منفعية طمعا وطموحا. إننا لا نرى فائدة من التذكير كم كانت مثل هذه الزيجات، مضرة بالحب وباحترام الزوجين لبعضهما البعض، فهي توقع بينهما شكوكا وفتنة وغيرة وخيانة. إنّ المراة التي تتزوج أو يتم تزويجها لغايات مبيتة، تجنبا لما قد يعكر حياتها، تحتاط مسبقا كل الاحتياط من زوج تعشق مهره أكثر مما تعشق شخصه. إنّ عقد الحب يصبح لدى الطرفين مجرد مشاركة القرين أملاك قرينه وأرباحه.(1)

إلا أنّ هذا النوع من الزيجات على الطريقة الرومانية كان نادرا لدى العرب، وكذلك لدى الافرنج، فهذان الشعبان قد بخسا المرأة صداقها واعتبراها قاصرة على أن تدير شؤونها بنفسها. إنّ المرأة لديهم تُختار زوجة لصفات خَلْقية وخُلُقية، ولا تختار أبدا لثروتها.

إن الفارس المرابطي لا يمكنه والحال هذه أن يستوعب الأهمية التي يعلقها الشريف البروفانصالي، في زواجه، على موضوع المال. إن تعاليم الإنجيل المتعلقة بالموضوع والمجهولة تماما على ضفاف المتوسط كانت متناغمة مع مبادىء هذا الفارس المرابطي. وهكذا لا يمكن للفارس البروفانصالي أن ينأى بنفسه من أن تتشوّش آراؤه بهذه الأفكار المتطابقة التي تأتيه من طرفي الحضارة المتعارضين.

ومصداقا لذلك فإنّ الارستقراطية من جهة كونها طبقة ناشئة ونبيلة ومتعطشة للتقدم والتجديد قد ثارت ضد الزيجات المبنية على الحسابات المادية البحتة. وأمّا من جهة كونها مقتّرة ومتخلفة فقد ظلت وفية لعادات الكسب، وهكذا تشكل في البروفانص طرفان

(1) عندما تزوجت ماتيلد البورقونية Mathilde. de Bourgogne غليوم السابع Guillaume VII سيد مونبلييي سنة 1156 شرطت عليه أنه لا يمكنه تطليقها إلاّ بعد أن يقدم لها تعويضات معتبرة ومحددة القيمة سلفا. ولأجل ذلك استخدمت الزوجة الحذرة ثمانية عشر من أهّم فرسان غليوم لحمايتها عند الاقتضاء وليؤّمنوا لها التعويضات المنصوص عليها. .Fauriel. t, I, p , 525

على غاية من التباين: فرسان المدرسة العربية من جهة، وفرسان المدرسة الرومانية من الجهة المقابلة.

دخل أنصار المرأة تُحَبُّ لذاتها، والحب الحر الشهم في صراع مع بخل الآباء ومضاربات الأزواج، صراع قوي هو في مستوى هذه القضية الاجتماعية النبيلة. إنّ الواقعة التالية تشهد لذلك:

في نهاية القرن الثاني عشر كان بيار دي مونزا Pierre de Moenza فارسا من أوفارن Auvergne استخدمه برنار دي تيارسي Bernard de Thiercy في قصره. تألم كثيرا لوضع زوجة سيّده فقرّر حمايتها ومن ثمّ خَطَفَها... فما هما فاعلان دون حماية ودون سند؟ كان وليّ عهد أوفارن أحد أظرف فرسان عصره، قد قرر حمايتهما فاستقبل العاشقين في أحد قصوره. ولمّا طالبه برنار برد زوجته رفض فأعلن عليه حربا شعواء. ولمّا كنا في زمن كانت السماء ترأف فيه بزفرات المحبين، فقد ظل المحبّان معا رغم مطالبات الزوج. إنّ مروءة ولي العهد الفرنسي ذاك هي التي كانت لها الغلبة في النهاية.[1]

ولكن المبادىء الجيّدة لا تسلم أبدا من المغالاة التي تفسدها.

لمّا رأت المرأة نفسها محمية كلّ هذه الحماية زادت جرأتها وطفقت تثور في كل آن

---

(1) Fauriel, t.I,p. 491

كان بوزون الأجيلي Boson d'Agillan مقطع وصديق بونيفاس Boniface ماركيز مونتفارات Montferrat يحب إيزالدينات .Isaldinat ولكنّ أهل الفتاة رفضوا تزويجه إياها ووضعوها تحت حراسة ألبارالمالسبيني de Albert Malespina الذي تعهد بمنع اختطافها. بعد فراق بوزون حبيبته مرض حتّى كاد يقتله الحب. لأجل ذلك سعى صديقه بونفاس إلى أن يقدم له الدواء الوحيد الكفيل ببرئه: جمع مقطعيه وحاصر قصرمالسبينا واقتحمه وخطف إيزالدينات وسلّمها لحبيبها الذي لم يكن ينتظر سوى ذلك ليشفى.

ولم ينته الامر عند هذا الحدّ فقد شجع هذا النجاح بونيفاس على أن يصلح ما أفسده عصره. فقد قال له الشاعر المنشد أيمونات Aymonet يوما أنّ جاكوبينا Jacobina ستغادر رغما عنها إلى سردنيا وستزوج رجلا لا تحبه. أرسل بونيفاس زفرة متذكّرا القُبلة التي وهبتها إياه لحظة وداعه متوسلة اليه أن يحميها من عمّها ثم استعان بخمسة فرسان وأسرع باتجاه بيزا Pise حيث ستحمل جاكوبينا فخطفها ولجأ بها الى سيّد بيكلان Puyclain هربا من أهل بيزا الذين كانوا يطاردونه. عهد بجاكوبينا لابن هذا السيّد وأجبر عمّها على أن يعيده كونتا على فنتميل .Ventemille (Fauriel, Poesies provencales,T,II.p.49)

في وجه كل من يناوئها. وأما الشعراء الجوّالون والفرسان المنتصرون في مهمّة **إصلاح المفاسد** فقد بالغوا كلّ المبالغة في أداء واجباتهم وفي نيل حقوقهم. فلم يكتفوا بحماية المرأة المضطهدة بل عدّوا الزواج شبهة، وسلطة الزوج والأب مقتا.. إنهم يزعمون أنهم خلّصوا المرأة بصفة عامة من تسلّط الآباء والأزواج وأمّنوا هواها من كل إباحية ولم يتساهلوا مع نزواتها. وهكذا فلن نعدم فتاة تعترضها عراقيل في حبها ترى في الفرسان أبطالا يسارعون إلى تخليصها من **النير الأبوي** ليضعوها بين أحضان حبيبها المفضّل. ولن نعدم وجود الكثير من النساء اللواتي يترصدهن أزواجهن فيطلبن النجدة فيجدن ظرفاء كثيرين مدججين بالسلاح يلبّون النداء.

كان البروفانصاليون ميّالين دوما الى المبالغة فيسارعون إلى الفعل دون تفكير كما ينغمسون في الفرح دون حدود. لقد علمهم العرب مبادىء حماية المحصنات، فما لبثوا أن فاقوهم في هذا المجال. لقد بلغ بهم الأمر أن حرّموا كل رقابة يفرضها الأزواج على زوجاتهم، وكل سعي الأزواج الذين يريدون الانفراد بتملك زوجاتهم، مما دفع الأزواج في قرطبة وغرناطة إلى تغيير كلّي لأفكارهم المبدئية عن الزواج[1].

سار الشعراء الجوّالون في هذه السبيل متابعين المآل المنطقي لتفكيرهم فانتهوا إلى نتائج هي في الطرف النقيض لمبادئ العرب... لقد قالوا إن المرأة لمّا تتخلّص من اضطهاد زوجها ينبغي لها ان تبحث عن معجب فمن البديهي أنّ أيّة امرأة لا يمكنها أن تعيش بدون فارس عاشق. وإنّنا لا نرى فائدة في التأكيد على أن ما سعوا إليه قد أدركوه وأن كل النساء بلغن مرغوباتهنّ. ولدفع العاشقين أكثر في هذا الاتجاه كان الشعراء الجوالون يعدّلون، على غرار أناكرايون[2] Anacréon، أوتار كمنجاتهم على موضوع الحب الخالد... فهذه العاطفة هي في رأيهم أساس كل فعل إنساني مثلما كانت الحرب أساس الفعل الانساني لدى الشعوب القديمة. إنّ الحب عبادة، وهو رأس كل فضيلة وكل شرف.

(1) كان غليوم البواتيي Guillaume de Poitier المتوفى سنة 1127 يدافع بصراحة عن هذه الفكرة. وكان يسخر كثيرا من الغرور الأهوج لأولئك الذين يزعمون أنهم أوفياء وفاء أبديا لزوجاتهم.

(2) هو شاعر الحب لدى الإغريق. عاش ما بين 550-664 ق.م. (المترجم)

كان الشعر العاطفي هو الجنس الأدبي الأول الذي اختاره الشعراء الجوالون للاحتفاء بالحب. وهكذا كان للبروفانصاليين، مثل الإغريق، من يماثل أورفيوس[1] Orphé قبل أن يكون لهم مثيل هوميروس، فعرفوا المنشدين قبل أن يعرفوا القُصّاص. لقد جذب الحب إليه أجناسا أدبية أخرى، بل استحوذ عليها كلها تقريبا... إنّ **القصيدة المغنّاة** ***La Ballade*** كانت بمثابة حكاية مغامرة عاطفية وظريفة ينظمها الشاعر لِتُغنّى رقصاً[2].

وأمّا **الألبا** *Alba* أو **الأصبوحة** *Aubade* فهي ضرب من الأغاني العاطفية تنشد صباحا لإيقاظ الفارس النائم بجانب سيّدته حتّى لا يكتشف أمره من قبل العذال. هذه الأغنية المنبهة كانت تأتي أحيانا على لسان حارس يعتسّ، وطورا على لسان أحد العاشقين يعبر بها عن لوعة الفراق، وعن تلهفه للميعاد المقبل[3].

وحتّى القصيدة الهجائية نفسها فقد كانت تهدف إلى استنكار عدم الالتزام بقواعد الظرف الغزلي[4].

وحالما احتفل الشعراء الجوالون بعظمة إلههم واحصوا انتصاراته سعوا إلى أن يرفعوا

(1) بطل من أبطال الميثولوجيا الإغريقية. تنسب إليه قدرات موسيقية خارقة مكنته من إنطاق الجماد.(المترجم)

(2) ولقد حافظت هذه القصيدة المغناة على هذه الخاصية في الأدوارية Rondeau الغسقونية.

(3) إن أجمل هذه الاغنيات مجهولة المؤلف. تقول الأغنية:

«في روضة وتحت أغصان الزعرور تجلس السيّدة حبيبها إلى جانبها وفي انتظار أن يصيح الرقيب، وأن تلوح بوادر الفجر: يا الهي! يا إلهي! ما أسرع بزوغ الفجر!».

«تضرع الى الله حتى لا يطلع النهار، وحتى لا يرى الرقيب فجرا ولا نهارا، وحتى لا يهجرني حبيبي. يا الهي!يا الهي!ما أسرع بزوغ الفجر!».

«حبيبي المليح الوديع لنقبّل بعضنا البعض في أسفل هذا المرج حيث الأعشاب مزهرة، لنتمتع نكاية في العاذل. يا الهي! يا الهي!ما أسرع بزوغ الفجر!».

«حبيبي المليح الوديع زدني حبّا في هذه الروضة التي تغرد فيها العصافير. هذا الرقيب يمجّد فجره. يا الهي!يا الهي!ما أسرع بزوغ الفجر!».

«لقد مضى حبيبي المليح فرحا جذلان. ومع النسيم العليل الذي يأتيني من هناك مازلت أرتوي من نَفَسِه قبسات لذيذة. يالهي! يا الهي!ما أسرع بزوغ الفجر!».

(4) لا نرى موجبا للاهتمام بالقصائد الحربية التي كانت قليلة العدد ولا كذلك بقصائد السخف والسخرية اللاذعة Sirvente أوأغاني الخدم ومروّضي الخيول التي تتضمّن كلّ المواضيع التي لا يشكّل الحبّ دافعها.

أدوارهم كرواة لشعر الظرف الغزلي الى مرتبة سلطة قضائية وكهنوتية. وهاهم يسبرون أغوار الحب ويدرسونه بمختلف الطرق: لقد فشا الحب في كل المجتمع حتى **لم يعد هذا المجتمع يتنفس إلاّ برئته**. يخيل الينا، والحال هذه، أن أوروبا الجنوبية قد استحالت روضة دافني وأن كل مدنها هي انطاكية.

لقد ولى الزمن الذي تُرِك فيه الحب تحت رحمة صروف الدهر مثل طفل ضال نتصدق عليه لمجرد العادة والتبطّل. لقد كان الحب سيدا عظيما يافعا دفرِّب على كيفية سيادة المجتمع فخصص له الجميع معلّمين وانتقوا له حاشية وكوّنوا له حكومة.

كان السيد أمانيو دي إسكاس Amanieu de Escas رجلا خبيرا في هذا الموضوع، وقد وضع، وهو يعلّم شابا من طبقة النبلاء، **دروسا في الحب**، على رأس واجبات الفارس الظريف، **الإكثار من الثناء على النساء وحفظ أسرارهن**، بحيث إنه بقدر ما تظهر إحداهن من اللطافة نمجّد فضائلها، وشدّة تمسّكها بعفة نفسها.[1]

وصفوة القول، في هذا الصدد، أن الشعراء الجوالين والفرسان ينهلون بلا ريب من المبادىء العربية، فطيّ السر والكتمان سيشكلاّن أساس الظرف الغزلي البروفانصالي وسيقضيان على ظاهرة هتك الأعراض الغالية الرومانية ويخلّصان البروفانص منها.

يشترط أحد معلمي الظرف الغزلي اللباس اللائق، والنظافة، خصوصا نظافة العيون والأيدي لأنها **أولى رسل الحب الظاهرة للعيان**. إنه يلحّ كثيرا أن يكون الفارس كريما وأن يمتلك جوادا أصيلا وأن يكون مقداما لأنّ المآثر الحربية هي أكثر ما يفتن المرأة فلا تطيق أمامها صبرا[2].

وعندما يستوعب الشاب هذا التكوين الأوّلي تفتح شهيته على دروس من مستوى أعلى، فينتقل من المدرسة إلى الجامعة، حيث يتردد على **مجالس الحب**. ويحضر مرافعات المحامين وقرارات القضاة الرسمية، فللحب إدارة وحكومة كاملة المهام. في **مجالس**

(1) Lacurne de Sainte – Palaye, t, II, p. I41

(2) Ibid, t, II, p. 154.

الأنس تناقش القوانين وتصدر... وإلى جانب هذه السلطة التشريعية والقضائية تشتغل سلطة الفروسية التنفيذية فتنفذ القوانين وتسهر على احترامها. هذه الرابطة البروفانصالية الجديدة الهادفة الى إشاعة حرية المشاعر، والمتوسلة بالسلوك المتأدّب والرامزة إلى ذلك بفن المحب يحبّ ويتزيّن للمحبوب، أزعجت **الإقطاعية الهرمة** التي كانت تريد إيقاف حركة الزمن. ولكن في العصر الوسيط كل واحد هو سيد في قصره، فكان كلّ من الفارس الشابّ، أو الأرملة، أوالوارثة، يضع قصره على ذمة متآمري الظرف الجديد. وتجتمع إليهم بعض النساء وقد تخلّصن من مراقبة أزواجهن... وما إن تتشكل محكمة الحب، وهي أكاديمية حقيقية للمشاعر الكبرى، حتى تطلق الشكاوى، ويجهر بالعقائد، فيسرع الفرسان بالمجيء ويتوافد الشعراء الجوالون، وتفتح الإشاعة فاها لتنشر أبعد ما يمكن هذه الأخبار العجيبة.

إنه يصعب كثيرا على البارون الاكثر تخلّفا أن يغلق بابه أمام الشاعر الجوال أو الفارس العائدين من مجالس فوركالكياي Forcalquier أوناربون Narbonne أو قاسكوني Gascogne أو بوردو Bordeau. إن سيّد القصر فضولي، ومعنيّ بسماع الحكاية التي يستأثر الفرسان بحسن رواياتها وظرف مقاصدها. وللشيوخ العجائز فيها نصيب... ومن المفروغ أنه نصيب عاطفي، فلا اهتمام بعد الاّ بالحسرات والأماني. وليطمئنّ البارون. فالفارس لا يطلب من المرأة شيئا سوى نظرات استحسان وابتسامات حانية، فالزوج يحتفظ من المرأة بما يهمه أكثر، جسدها وثروتها. فكيف له أن يغار من عاشق بائس لا يطلب فضلا غير أن ينشد مقاطع غنائية وأن يحلّ ولو نظريّا مشاكل عاطفية. زد على ذلك فمجالس الحب أصبحت موضة في **البروفانص الجديدة**. فمن يجرؤ على أن يكون في صفوف **البروفانص القديمة**، ويقاوم هذه القوة الجنوبية والغالية حتى النخاع : **العادة والأدب!**.. لقد قضي الأمر. سيحضر سيّد القصر مجلس الأنس المقبل وسيصطحب معه زوجته وابنته وكل أسرته.

وفي اليوم الموعود، ها هو بين الحضور، فينتشي الجميع بصخب المناقشات التي تشكل

الغذاء الشهيّ الذي يقدّم يوميا لضيوف مجالس الحب... يستمع الزوج الى **المساجلات الشعرية** أو **المناظرات** الأكثر جرأة فتوزع فيها الأدوار بانتظام، وتصنّف المواضيع كما هو الأمر في المحاضرات اللاهوتية في السوربون. يعرض أحد الحضور وجهة نظر أو فرضية، فيعارضه آخر بوجهة نظر أخرى، فيتقدم ثالث ويفصل في الأمر حسب وجهة نظره. إن قضايا الفقه القضائي الحبي هذه هي بمثل تجريدية ولطافة قضايا الفلسفة في العهد الامبراطوري المتأخر..ويمكننا تبين ذلك من خلال هذه النماذج :

- «أيهما أفضل أن نرى العشيقة تموت أم أن نراها تتزوج عاشقا آخر؟»
- «أيهما أتعس : الزوج الذي يكتشف خيانة زوجته أم العاشق الذي خانته عشيقته؟»
- «هل يفضّل العاشق الذي يذهب ليلا لميعاد ضربته له امرأة أن يرى عاشقا خارجا من منزلها حال وصوله أم أن يراه يدخله حال مغادرته له؟»
- «هل العاشق، الذي لا يحفظ السر ويذيع ما حبته به حبيبته، أكثر ذنباً أم أقل من ذاك الذي يفتخر كذبا بما لم ينله منها ؟»
- «غريغوريوس يحب امرأة لا تبادله الحب هل عليه أن يهجرها ويسعى إلى التي تحبه أم عليه أن يصرّ إصرارا على خدمة من تصده؟»
- «من هو الرجل الذي بإمكان المراة أن تجد لديه شرطي السعادة : حفظ السر ودوام العشرة، هل هو الفارس أم رجل الدين؟»[1]
- «أيهما أفضل أن نحب فتاة شابة وظريفة وغُفلا من أيّة تجربة، ولكنها بصدد اكتسابها أم أن نحب امرأة جميلة مكتملة التجربة؟»[2]
- «أيهما أفضل أن تحبنا امرأة وأن ننال منها أقصى ما نشتهيه ثم نموت بعد ذلك، أم

(1) آلت هذه المناظرة المثيرة التي دارت في مجلس حبّ بين فتاتين إلى تفضيل رجل الدين لأنه لا تستهويه روح المغامرة أبدا بعيدا عن زوجته، ثمّ إن وضعه يحتم عليه التحلي بأكبر قدر من الكتمان.

(2) Fauriel, t, II, p, 103.

أن نحبها سنوات طويلة دون أن نظفر منها بشيء؟»

- «رجلان تزوجا، أحدهما بامرأة محبوبة وجميلة، والآخر بامرأة قبيحة وفظة فإذا ما كان الاثنان غيورين فأيهما أكثر حمقا؟»
- «أي العاشقين، الرجل أم المرأة، يكون الحب الأفلاطوني أكثر كلفة له؟»(1)

وهكذا ولفرط النقاش حول الحب وحول الشروط الأكثر ملاءمة للعلاقة العاطفية انتهوا إلى ترتيب نوع من الزواج البدائي. لقد تغلب الحب العفوي، الحر على كل العقبات التي وضعتها أمامه الشريعة الدينية والقانون المدني، ووجد في ذلك بديلا عن صرامة الزواج الإقطاعي.

وما أن وجدت سيدات البروفانص، الرافضات الخضوع للزوج سندا في **مجالس الحب** حتى تجنبن اللجوء إلى الأديرة كما كانت تفعل سيدات الشمال، ومن ثمّ الخضوع إلى قانون التبتّل القاسي. لقد بقين في المجتمع واستعددن صحبة الشعراء الجوالين والفرسان للمقاومة. ومع ذلك ومهما كانت ثقتهن في تمردهن فقد كنّ لا يرغبن في إفزاع أحد. لقد اكتسبت عواطفهن الظريفة الصفات الأكثر صدقا والهيئات الأكثر جدارة بالاحترام. لقد تخلّص الحب دفعة واحدة من النزعة الحسية التي قد تزعج الأزواج، ومن الطمع الذي قد يثير سخط مدرسة الفروسية. إنّ أولى الخصال التي ينبغي طلبها لدى امرأة نريدها

---

(1) هذه أمثلة أخرى عن مدى لطافة هذه المساجلات حول الحب :

« أي العاشقين لامرأة واحدة، أتعس، هل هو الأول الذي يرى نفسه وقد استبدل بآخر رغم وفائه أم الثاني الذي تظل تطارده فكرة أنه لم ينل من «النعم» سوى تلك التي لفظها الأول؟»

وفي بعض الأحيان يوازى الحب بالواجبات الأكثر اقتضاء أو بالأهواء الأكثر عدوانية :

« كان عشرون فارسا يسيرون في برد قارس دون أن يجدوا ملجأ يحتمون به. فصادفوا بارونين في طريقهما إلى زوجتيهما. توقف أحدهما وعاد أدراجه إلى منزله ليستقبل فيه العشرين فارسا تاركا زوجته تنتظره عبثا، أما الآخر فقد تجاهل واجب الضيافة وواصل طريقه حتى لا يخيب آمال زوجته! أيهما كان أكثر صدقا في تصرّفه؟

« تساءل قيجو Guejo الشاعر الجوال البروفانصالي حوالي سنة 1240 : هل تفضل رداء زاهيا يجعل كل النساء يحببنك أم رمحا يكون فيه فضل صرع كل فارس يحاول النيل منه؟

صديقة *mie*[1]، لا تتعلق بجسدها بل هي خصال عقلية، منها النباهة والرقة والظرف والعطف، أما الحسن والجمال فيأتيان في الدرجة الثانية. إنّ المرأة الأكثر حظوة هي تلك التي سيحتفي الشعراء الجوالون والفرسان بتفوقها الروحي والعاطفي بأكثر حماسة.

---

(1) Mie هي تصغير لعبارة mon amie .بمعنى الصديقة وهي العبارة التي كان فرسان مدرسة الفروسية يطلقونها على حبيباتهم.(المترجم).

3
كيف تصرف الفرسان العاشقون لمحاربة الزواج ؟

اندلعت الحرب بين الحب والزواج. وحسب قواعد مجالس الأنس، للحب أربع درجات : إذ يمرّ الفارس في سعيه نحو الظفر بحب **سيّدة** *Senora* من مرتبة **الحائر المتردد** *Feignayre* الى مرتبة **المتضرّع** *Pregayre* الى مرتبة **الشغوف** *Entendeire* فمرتبة **الصديق** *Druts* وهي المرتبة التي يسعد فيها بأن يصير فارسا خادما لسيدته.

إن هذه الدرجة الأخيرة من السعادة تستلزم طقوسا وحفلات رسمية هي للحب الظريف مثل التبريك والأعراس في الزواج العادي، فيرتبط العشيقان بعهد شبيه بذاك الذي يربط المقطع بسيّده، فيتعاهدان على الوفاء والرعاية والإخلاص، وينطق الفارس بصيغة العهد جاثيا عند قدمي سيّدته واضعا يديه في يديها. وبدورها تهديه خاتما وقبلة. وهكذا تصبح **سيّدته**[1].

لقد ألف الكهان البروفانصاليون هذه العادات، فكانوا في الغالب يوافقون على مباركة هذه الزيجات غير المتكافئة حسبا ونسبا، حجتهم في ذلك أنّ النزعة الحسية، وكنّا أشرنا الى ذلك سابقا، ليست بالضرورة نتيجة مثل هذه العلاقات العاطفية فهؤلاء العشاق لا يبوحون سوى بالمشاعر الأكثر رقة وروحانية. وعندما يغريهم الشيطان باتباع طريق أخرى كانوا يحرصون على أن يستتروا حرصا على عدم خرقهم مبدأ الروحانية الذي يتباهون به.

---

(1) قال أرنو دي مارفي Arnaud de Merveil مخاطبا أدلايد Adélaide «أنت يا أجمل ما جاد به الوجود.إنّ الأمل الذي بعثته فيّ أمتعني ولاطفني حتى أنني لم أفكّر في غيرك. ولكن الوقت حان حتى أناديك «سيدتي» وحتى تتضرع يداي لك تواضعا فتتفضلي بقبولي خادمك بنفس الطريقة التي يتفضل بها سيّد لاستقبال مقطعه.
كانت كونتيسة مونبليي Montpelier، ابنة الامبراطور التي نظم فيها فولكس المارسيلي Foulques de Marseille لوقت طويل أبياتا شعرية.بموافقتها، تلقّب **برأس كل الفضائل وملهمتها، ورأس كل الآداب والأخلاق** (Vaissette, I, XXI, ch.XXI)

ظلت علاقة الحب مرتبطة، بفضل قانون الفروسية، بمبادىء الوفاء والتواضع والطهارة، تلك التي كان الإنجيل قد فرضها في الزواج، فاعتبرت الشهوانية غير متلائمة مع مثل هذا النوع من الزواج القلبي. لقد انقلبت الآية بشكل عجيب فأضحى العشاق هم الطاهرون والروحانيون، والفاضلون في حين أضحى الأزواج هم الأجلاف والشهوانيون والمذنبون.

هذه المبادىء التواضعية التي لا أساس لها سوى الشغف والحماسة لم تتأخر في صنع علاقات على قدر معتبر من المتانة. لقد كان بإمكانها أن تكون مطابقة لمبادىء العرب لو لم تُفضِ الى ازدراء الزواج الشرعي.

دافع الزواج عن حماه لدى الارستقراطية الهرمة ولكنه فقد مكانته في **البروفانص الجديدة** التي اعتبرته مشوبا باستبداد الأخلاق الميروفنجية وفظاظتها. ثم إنّ **مجالس الأنس** اعتبرته غير ملائم للحب على الإطلاق؛ فالحبّ يموت لحظة يحوّل العاشقان اللذان ارتبطا وديا، اتحادهما الفروسي الأوّلي إلى زواج.

هؤلاء البروفانصاليون الذين يزعمون أنهم مسيحيون لا يولون كثير الاعتبار للتبريك الديني. إن الحرية وعفوية المشاعر، المطلوبتان على الدوام، يصبحان ضرورة للحب الصادق الذي يغيب لحظة تجبر المرأة على أن تمنح القرين كلّ فضلها لا ودّا أو جزاء لمأثرة وإنما التزاما بعقد الزواج لا غير.[1]

وفي ظل هيمنة هذا التشريع تجاسر الحب على المطالبة بمثل هذه الامتيازات إلى درجة أن أضحى فوق كل القوانين المدنية والدينية والأخلاقية. فعندما يجعل الروائيون المرأة تخبر

---

(1) دفع حكم أصدرته إليونور البواتيية Eléonore de Poitiers هذا المبدأ الى أقصى نتائجه :

كان فارس يحب سيّدة ولكن هذه لا يمكنها مبادلته الحبّ لأنها تحب فارسا آخر، ومع ذلك فقد وعدته بأن تقبله صديقا إذا ما **فقدت الآخر**، مما يعني، في عرفنا اليوم، اذا ما مات أو هجرها. ولكن فقه قضاء الحب في ذلك العصر فهم ذالك الوعد فهما مختلفا. تزوجت المرأة بفارسها المفضل... وهذا الزواج يعني أنها قطعت روابط حبها الأول، وهكذا تحول العشيق الثاني من مرتبة **المتضرع** الى مرتبة **الشغوف**، وبالتالي، طلب من السيّدة تنفيذ وعدها بأن تتخذه صديقا إذا ما **فقدت الأوّل**. فاعتبرت إيلونور طلبه شرعيا وأعلنت أن الصديق الأول قد أصبح في عداد موتى الحبّ بما أنه تزوج. وحكمت على السيّدة بأن ترفع الثاني من مرتبة **الشغوف** الى مرتبة **الصديق**.

زوجها بأنها تحب رجلا آخر، لم يكن للزوج سوى أن يصمت، وأن ينسحب حتى يترك نصفه الشاعري حرا في أن يرتبط **بحبه الطاهر**[1].

لقد انتقمت السيّدة انتقاما من خضوعها القانوني السابق وذلك بفضل المشاعر الفروسية. ومعنويا أضحت **الصديقة** أو **السيّدة** تفوق الرجل بكثير. لذلك لا يجوز أبدا أن تقبل بالفارس عاشقا لها اذا كان يفوقها مكانة فيضرّ نفوذه السياسي أو ثروته الكبيرة بمكانتها، ويعطل دورها القيادي.. إنّ صديقها مطالب بأن يلّبي دون تردد طلباتها الأكثر دلالا، وأن ينجز الأعمال الأكثر خطورة دون مقابل، ودون أن ينتظر جزاء اللهمّ إلاّ سعادته بطاعة صديقته وفق قواعد **الأدب والشرف**[2].

إنّ قوة النساء في الجنوب تتجاوز سلطة الأسياد الإقطاعيين أنفسهم: فهؤلاء لا يمكنهم إسناد لقب فارس إلاّ إلى شجعان يضاهي نبلهم شجاعتهم، في حين أن النساء البروفانصاليات يستأثرن بميزة **توسيم** الشعراء الجَوّالين، وصغار البرجوازيين، والشعراء أو رجال الفكر، الذين كان لهم شرف إعجابهنّ بهم.

لقد أضحى الأدب والظرف الغزلي البروفانصاليان لدى الطبقات الدنيا، وسيلتي تحرّر جدّيتين على شاكلة ما كانا عليه لدى الاغريق، فمهّدا بذلك لتأسيس المساواة بين الطبقة البنبيلة وعامة الشعب. حضيت ممارسة الموسيقى والشعر بمكانة عالية حتى أنه لا يكفي فارس الجنوب أن يبرز للعيان قيمة الفارس الإفرنجي، وأدب العربي ومروءته، حتى يستحق شرف اللقب المرغوب فيه كثيرا: **لا عيب فيه**، بل عليه أن يكون كذلك موسيقيا وشاعرا حتى لا يترك لأحد فرصة الاحتفاء بفضائل المرأة التي يحبها وبجمالها. وتبًا للنبيل

---

(1) في الرواية البروفانصالية **فيلومانا** *Philomena* سخرت أورياند Oriunde زوجة السيّد الإقطاعي مايران Mairan دون وجل، من هزيمة هذا السيّد أمام الإفرنج قائلة له بفظاظة أنها تحب رولان Roland ابن أخ شارلماني وأنها طربت للقتال الذي كان مشؤوما على زوجها وفي مصلحة عشيقها.

(2) – إنّ السيّدة لا تطلب من فارسها جزاء ولا شكورا، فما تتفضل به عليه من نعم هي من فضل مروءتها فحسب. إنها تظل دوما **سيدته** (*domnei ou domna*). وعلى الفارس أن يعبدها على الدوام وأن يخدمها وفق طقوس الفروسية وبالتالي يستحق لقب **فارس عاشق**. *domneiaire*. (Fauriel, t, I, p.514).

البروفانصالي الذي لا يعزز شجاعته بهذه الخصال الأدبية : فشاعر جَوّال أوبرجوازي بسيط يمكنه أن يسبقه إلى نيل إعجاب المرأة إذا ما تفوّق عليه في هذا المجال. وتبعا لذلك تفتخر البرجوازية كلها بنجاح أحد أفرادها.

أمّا في الشمال لم يكن لعامة الناس أبدا هذه الوسيلة للاقتراب من النساء، ولمقارعة الطبقة النبيلة. ولذلك كان تحررهم أبطأ من تحرّر البروفانصاليين والإيطاليين والإسبان.. لقد كان النبيل الافرنجي يزدري الفنون الجميلة، وقد أوكل ممارستها إلى شعراء الشمال الجَوّالين، التروفار، المحترفين وإلى خدم مأجورين فلم يجنوا منها سلطانا ولا مجدا.

إن عادة قول الشعر تثري بالخصوص حياة **الفارس الأفاق** المسمى أيضا **الفارس المتوحش** (أي البرّي)... وإنه ضمن هذه الطائفة من المحبين المندفعين تبحث النساء المتعطشات للشهرة عن **متضرع** وعن **صديق**، وغالبا ما يبالغن في استغلال نشوة هؤلاء التعساء حتى يحصلن منهم على علامات حب فوق طاقة البشر. إنهن يجدن في ذلك شهرة ظلت تشتهيها كل امرأة ذات دلال على مدى الزمان. وربّما لم تكن ذكرى شراسة النساء الرومانيات اللواتي ألفن النّحر في السرك وتضرع العبيد غائبة عن هذه الرغبات الغريبة. هذه إحدى السيّدات لا ترضى أن تبادل **متضرُعها** الحب إلاّ بشرط أن يقلع ظفره ويقدمه لها ملفوفا في مقطوعة شعرية رائعة، وهذه أخرى تجبره على أن يقاتل، عاري الصدر، خصوما مدّرعين بالحديد.

وعموما لم تكن النساء ليجدن أيّ عناء في الحصول من لدن فرسانهم على أفعال غريبة زادتها العادة تكريسا، فكان الفرسان ينفذون رغباتهن مدفوعين بمنافسة حامية الوطيس، فيتفنّنون في إتيان أعاجيب من كل لون. فنرى أحدهم يلبس جلد ذئب ويعيش في الغاب ويقسم أنه لن ينزع إهاب هذا الحيوان المفترس والمتوحش إلاّ بعد أن ينال رضى صديقته، وآخرون ينزلون بأنفسهم أقسى العقوبات،[1] ويقسمون بأنّهم لن يشربوا سوى الماء ولن يأكلوا سوى الطماطم حتى تبدي حبيباتهم تأثرهنّ ببراهين الحبّ هذه.

(1) هكذا كان حال بيار فيدال Pierre Vidal الذي عشق امرأة عاهرة من بينوتي Penautie فلجأ الى الغابات متنكرا في هيئة ذئب وكادت أن تفترسه الكلاب لأنّها ظنته واحدا من تلك الحيوانات المفترسة.

4
كيف تصرف الأزواج لمحاربة حب الفرسان؟

رغم أن مجالس الحب ومنتدياته قد توصلت الى إقرار حق المرأة المتزوجة في أن يكون لها معجب على الأقل بدرجة **حائر** *hésitant* أو **متضرّع** *priant* فإنّ عددا معتبرا من الأزواج رفض هذا القانون الفروسي وتمسّك بقانون الامتلاك الزوجي المطلق القديم. ولتحقيق هذا الهدف استعان الأزواج بخدمات كلّ من الروائيين والسجانين. أمّا الروائيون فقد نشروا عددا قليلا من الروايات مجّدوا فيها الحب الزوجي وعظموا من قدر الزوجة الوفية والمطيعة، وأمّا السجانون فكانوا يجبرون المرأة بالقوة على أداء واجباتها عندما تعجز مطالعة الروايات عن دفعها إلى ذلك بالإقناع.

تعدّ بارت Berthe بطلة رواية **جيرار دي روسييون** *Gerard de Roussillon* الشهيرة أحد نماذج الزوجة المسيحية والإقطاعية. تزوجت الكونت جيرار ولم تتخلّ عنه أبدا في محنته عندما هزمه شارل الأقرع Charles le Chauve وانتزع منه قصره وأملاكه. هام على وجهه، وحيدا ومعرضا لكل الإهانات، فكانت بارت تسهر على راحته باستمرار، وتحرص على أن تشجّعه وتدفعه نحو الأمل وتبعده عن الجريمة واليأس... لقد ورثت عن أندروماك وإيبونين صفة الوفاء وزادت عليها خصال الزوجة المسيحية التي تؤمن أنّ الإله هو مصدر كل فضيلة وكل سعادة، ومثل المرأة المسلمة فقد كانت تتحمل كل المصائب دون شكوى مرددة: **((هذه مشيئة الله))**.

وفي رواية برسفال Perceval، نجد سيني Signe وهي نموذج آخر للحب والإخلاص أكثر مأساوية، اذ لم تفارق جثة زوجها التي حنّطتها، ونذرت كل حياتها لتبكيه حتى اللحظة التي استجاب فيها الإله لدعائها فتوفاها لتدفن الجثتان في نفس القبر.

هذه العبر كانت مؤثرة... ولكن قليلات هن النساء اللواتي سعين إلى الاعتبار بها، فأغلب روايات الفروسية قد أسبغت على العشيقات كل الفضائل وكل التضحيات، ولم

تمنح الأزواج سوى الغيرة والسعي إلى الفتنة والهرج. فما الذي يمكن أن تفضي اليه هذه الدروس الخطرة؟ لا شيء غير الخيانة...وإنّ الأزواج الذين يستشعرونها وشيكة يلجؤون الى أساليب الترهيب والانتقام. بعضهم يحبس زوجته في سجن ضيق والبعض الآخر ينفي عاشقها وفي بعض الحالات يقتله ليمنعه من إدراك الدرجتين الأخيرتين، درجتي **شغوف وصديق**. لقد كانت الغيرة تعكر أمزجتهم حتى أنهم لم يتوانوا عن استخدام أقصى سلطتهم وأقسى انتقامهم... كان غليوم دي كابستنغ Guillaume de Cabestang فارسا شهما وشاعرا جوّالا أنيقا يحب زوجة سيّده، ريمون دي روسيون Raymond de Roussillon. ولّما كان هذا لا يعترف بحقوق الحب على طريقة المدرسة الجديدة قتل كابستان وشقّ صدره عن قلبه وقدّمه وجبة لزوجته سيرموند Sirmonde. ولّما علمت بأمر تلك المأدبة الكريهة التي دعيت إليها بادرت إلى نافذة قلعتها وانتحرت. لم تُفزع هذه الكارثة المحبين بل زادت من حماسهم. وطوال قرون عديدة «كان كل فارس متأدب وكل امرأة شريفة من كاتالونيا Cataogne ومن رويسيليون Roussillon ومن سردانيا Cerdagne يأتون كلّ عام إلى كنيسة القديس يحيا الباربانيني Saint Jean de Perpignan، حيث رفات ذينك العاشقين المسكينين، يقيمون احتفالات جنائزية لأجل راحة روحيهما[1].

لم تكن النساء أقل وحشية تجاه غريماتهنّ، فلم يكن باستطاعة ضحايا الحب التعيسات حتى مجرد الشكوى من العنف المسلط عليهن طلبا للرحمة.

تظهر لنا القصيدة العاطفية الاسبانية **«دونا ايزابيل»** *Dona Isabelle* قصة تلك الفتاة التي خطفها الملك بالقوة وحبسها في قصره لسنوات عديدة لا يدخل عليها سواه، فهو مولاها وسيدها. فلم يكن مستبعدا والحال تلك، أن تنجب أطفالا، وأن يكون الملك متاكدا من أنه والدهم. إنّ ملابسات هذه الحبس لم تكن لتهدّئ من غيرة الملكة فأرسلت ذات يوم ابن أخيها رودريق دي شيفالا Rodrigue de Chevala ليقابل إيزابلا ويبلغها بأنها يجب أن تموت. دافعت عن نفسها بكلام غاية في التأثير، واجتهدت في اثبات

---

(1) Fauriel, t. I, p. 45.

براءتها فهي لم تدّخر جهدا في مقاومة إغراءات الملك الى أن جاء اليوم الذي خطفها فيه وحبسها في هذا القصر. ولكن رودريق كان قاسي القلب، فقال لها «انظري هذا دوق بافيا Bavia وهذا ماركيز فيلا ريال de Villa – Real قد حضرا، وهذا أسقف أوبورتو Oporto جاء ليحملك على الاعتراف بذنوبك، وهذا الجلاّد الذي سيقطع رأسك وكذلك الغلام الصغير الذي سيحمله».

بعد مراسم الاعتراف والتوبة تقدمت نحو ساحة الاعدام ومعها «أطفالها الثلاثة يمشون أمامها، أحدهم كان عمره عامين والثاني لم يبلغهما بعد، أما الثالث فكان رضيعا، كانت ترضعه وهي متشحة بالسواد تثير شفقة من يراها، ثمّ صاحت: الوداع، الوداع يا أبنائي، فمنذ اليوم ستتيتّمون.... أيها الفرسان النبلاء، اعتنوا بأطفالي فهم في الحقيقة أبناء ملك رغم أن أمهم من أصل وضيع». «ثمّ مددت على حصير ليقطع رأسها، وهكذا قضت تلك المرأة البريئة.[1]

ليست هذه القصص الرهيبة هي الوحيدة التي نقلها لنا الإخباريون والقصائد العاطفية، فما من قصر إلاّ ضم فصولا دامية أثرت تلك القصائد الشعبية الحزينة.

لقد مثل الحذر والاقتداء بالعرب مبدأ لدى الفرسان الجوالين يمنعهم من عدم البوح بحبهم. فأضحت لهم بذلك سنن جديدة قوامها تمجيد الأصل الشريف لحبيباتهم وتميّزهنّ

---

(1) (Romance d'Isabelle , traduite par Damas Hinard) لم تكن القصيدة العاطفية «الكونت ألاركوس» *Alarcos* *Comte* تقلّ عنها إثارة للشفقة.... أحبت سوليزا Soliza الابنة الثانية الكونت ألاركوس، فوجب عليه تزوجها، ولكنه هجرها، وهاهو قد تزوج امرأة أخرى. استشاطت الابنة الثانية غيرة، وقد لاحظ أبوها الملك، حزنها واستفسرها عن السبب فأسرّت له بحبّها العاثر للكونت وبالحقد الذي تكنه لغريمتها التي فضّلها عليها. حقد الملك لحقدها وحنق لكبريائه المهانة فاستدعى الكونت وأمره بأن يقتل زوجته حتى يشفي غليل الابنة الثانية المشروع. حاول ألاركوس ٗالممانعة ولكن الملك ظل مصرا على أمره، ورغم يأس الكونت فقد أعطى المثل في الطاعة، هوفي الآن نفسه مثل بطولي وهمجي. وعد بقتل زوجته، أمّ أطفاله، التي يحبها. ولإتمام المهمة زارها في القصر، وبعد مقاومة مريرة... خنقها بيديه حتى يبدو موتها حادثا طبيعيا فلا يقع الذنب لا على الملك ولا عليه..*Romance d'Alarcos*) Trad. Damas Hirad)

وفضائلهنّ النادرة، ولكن مع إخفاء أسمائهن والتكنية عنهن بأسماء مستعارة[1].

لقد عمدوا إلى كلّ ما جادت به قرائحهم، وكانت كريمة جوادة، للتكنية عن **سيداتهم** وعن أنفسهم بالزهرة، وطائر البلبل أو الببغاء أو الزرزور أو الخطاف وذلك حتى ينشروا بكل أريحية ظرفهم الغزلي.

إنّهم لا يخشون فقط حقد الزوج بل يخشون أحيانا غضب السيّدة وبرودة عواطفها. وسعيا منهم إلى تجنب صدّ عنيف يكون وِبالاً عليهم فإنهم ينسبون ما يكتبونه من **أصبوحات وقصائد مغناة** إلى شاعر جوال آخر[2]

كان أرنود دي مارفي Arnaud de Merveil عاشقا لأدلاييد دي بيزاي Adelaide de Béziers فأرسل إليها في البداية أبياتا شعرية نسبها إلى شاعر آخر... ولكنه ما لبث أن دفعه حسن قبول تلك الأبيات إلى أن يعلن عن نفسه معجبا بها وأنه لن يتوب عن ذلك.

---

(1) قال الشاعر الجوّال برنار دي فونتادور Bernard de Ventadour في بدايات القرن الثاني عشر: «إنني أعجب من نفسي كيف أمنع نفسي من أن أبوح لحبيبتي بأشواقي. عندما أنظر اليها وإلى عينيها الجميلتين لا شيء كان يمنعني من الاندفاع نحوها سوى الخوف..

«لو كانت لي القدرة على سحر الناس فسأحوّل أعدائي إلى أطفال حتى لا يفكر أحد منهم في ايذاء حبيبتي أو إيذائي فأتأمل، على مهل، جمالها وسحنتها الوردية وعينيها الجميلتين، وسأقبل كل جزء من أجزاء ثغرها حتى يبقى أثر قبلتي عالقا به شهرا كاملا.

وقال أرنود دي مارفي Arnaud de Merveil مخاطبا أديلاييد دي بيزاي: Adélaide de Béziers

«نعم حبيبتي، أحبك في سري، لا أحد يعرف ذلك سواي والحب، أنت نفسك تجهلين ذلك، ولمّا أنا عاجز عن الإسرار لك بذلك فسأكلمك غناء» (Fauriel, t, II, p. 48)

(2) قال كاتب بروفانصالي قديم: أضحى الشاعر الجوّال رايانت Raimbant عاشقا للسيدة بياتريكس Beatrix إذ أحبها كثيرا وتاق إليها توقا شديدا وحرص جيدا على أن لا يعلم أمره حتى عظم ذلك من شأنها وأكسبها كثيرا من الأصدقاء والصديقات. فاستقبلته استقبالا مشرفا، أمّا هو فكان يتحرق شوقا وخشية، فلم يجرؤ على أن **يظهر شغفه بها** ولا على أن يظهر لها أن فؤاده تعلّق بها. وفي الأخير لمّا **غلبه الحب** قال لها يوما: إنني أحب امرأة ذات فضل كبير ورغم أنّني من رفقتها فلا أقدر أن أبوح لها بحبي ولا أن ألتمس حبها فأنا أخشى غضبها. فأنصحيني هل عليّ أن أبوح لها بحبّي وأعبّر لها عن شوقي أم عليّ أن أموت دون أن أفعل ذلك. فهمت بياتريكس أنها هي المعنية، ولمّا كانت لا تريد نهاية حزينة للقصة دفعته إلى أن يبوح بمشاعره للحسناء المجهولة.عندها جثا عند ركبتيها، فلم تغضب بل دعته الى أن يعتبر نفسه مقبولا لديها وما عليه إلاّ ان يجتهد فعلا وقولا فستتخذه فارسها وخادمها.(Fauriel، t، II، p50)

أصغت أدلاييد لتضرّعات هذا الشاعر التعيس وأعطته كسوة وجيادا ودعته إلى أن يواصل الغناء لأجلها[1].

هؤلاء إذن سيّدات القرن الثاني عشر اللواتي تحرّرن في سلوكهنّ، فاستقبلن معجبيهن، في منازلهن، وإن ذلك ليس مدعاة كي ينشر الفرسان كل ما كان يدور بينهم من أحاديث، فقد كانت السيّدات يعاقبنهم أحيانا على عدم حفظهم السر بأن ينكرن كلّ ما حبونهم به من مكرمات.[2]

وعندما تكون خيبة أمل الشاعر الجوال في غاية المرارة، وعندما ترفض سيدة جديدة أن تعزّيه عن قسوة الأولى، وهو أمر يحدث دوما، وعندما تغطّي التجاعيد وجهه ويشتعل رأسه شيبا، فإنّه يحسّ، وقد تقدّمت به السنّ، بنفور من النساء اللواتي يجدن نظراته أقل جاذبية وأشعاره مفوّتة فلا يحرّكهنّ الحبّ. وعندها يصبح منبوذا فيهجر دنيا الناس ويلبس المسوح ويعتزل في دير يلعن فيه، على مهله، جحود الناس وملذّات الدنيا الفانية.

(1) Fauriel, t, II, p.48.

(2) وقال أرنود دي مارفي لأديلاييد أيضا: «أيتها الحسناء لقد قتلتني يوم مكّنتني من قبلة تركت في قلبي لوعة لا تمحوها الأيام. ولكنني كنت مجنونا عندما تباهيت بهذه القبلة فأنا أستحق أن تسحبني أربعة خيول... أيتها التحفة الجميلة، رحمة بالجاني، أعيدي إليّ الفرحة والأمل لأنني لن أساوي شيئا بين الناس إلى أن يحين اليوم الذي يمكنني فيه أن أخدمك مجددا» Fauriel, t, II, p. 53.

5

الوسيلة الكفيلة للملاءمة بين النظري والتطبيقي

كنا بصدد عرض الحب الفروسي بطابعه العاطفي الصافي كما هو بالفعل نظريا، وكما خبرته المرأة باستمرار عمليا، ولكن قبل أن يكون المرء شاعرا جوّالا أو فارسا فهو ككلّ إنسان مجبول على التقلب، ولديه استعداد للخيانة، وغير قادر من جهة طبيعته الجسمية على أن ينسجم انسجاما دائما مع مبدأ العفة. وهكذا تسرّب الى الحب العاطفي الحق ظرف غزلي إباحي.

كان الفارس التروبادور قد اضطرته حبيبته الى أقصى درجات العفّة فطفق يبحث عن ضربين من العزاء: الأول أوهام محضة تنتاب خياله، والثاني أكثر واقعية بحيث يتجاوز طبيعته الإنسانية.

ولكي يطال الضرب الأول من العزاء كان يطمع في أبسط مكرمات حبيبته، فقد كان يرى في ما تتكرم به عليه من وشاح أو ضمة أو مصافحة أو قبلة.(1) أمرا جليلا. ولعلّ أعظم المكرمات التي كانت تسيل لعابه أن يكون بجانب صديقته وهي تهمّ بالنوم فيخلع عنها حذاءها مقلدا في ذلك المقطعين الذين يجدون في مساعدة أسيادهم على نزع ملابسهم والاضطجاع على السرير شرفا كبيرا(2). إنّ العاشق، وقد اقتصر همّه على الحلم، يغتذي،

---

(1) في رواية برسفال Perceval كانت أمّ هذا البطل تعطيه دروسا في الحب لحظة كان يستعد لرحلة طويلة فطلبت منه أن يحبّ النساء الطيبات والجميلات ولكن حبا عفيفا يقتصرعلى تبادل الخواتم والقبلات والعناق ولا شيء فوق ذلك. معتبرة أن «الطمع في ما هو أكثر عيب كبير مخالف لكل واجبات الفروسية».

(2) قال برنار دي فنتدور: «لحبيبتي حيل ونباهة جعلتني أعتقد دائما أنها ستحبني. انها تغالطني بلطف ويخدعني مظهرها الحسن. أيّتها الحبيبة أقلعي عن المغالطة والخداع! فكلما عانى عاشقك من الألم فعليك وزره «ستأتي حبيبتي أمرا سوءا إذا لم تحضرني إلىّ حيث تنزع ثيابها، وإذا لم تسمح لي بالجثو عند سريرها، ولم تتفضل بأن تمدّ قدميها حتى أفك حذاءها الجميل.» (Fauriel, t, II, p, 31)

إنّ الذي يروم امتلاك حبيبته امتلاكا كاملا لا يفقه من **طقوس الفروسية**، أي من الحب، شيئا. ولن يكتب لهذا الحب أن يرى النور. وإنّ القلب لا يوهب ولا يهب شيئا بالفرض. انه يكفي الصديق أن ينال من حبيبته خاتما أو وشاحا حتى=

وهما، بنشوة الشهوة فيحلم بالساحرات والملائكة وكل جحافل آلهة العالم الآخر فيشرب من عيون من عسل، ويطير باجنحة الآلهة سلفيد Sylphides، وهو غارق حتى رقبته في بحور الهوى.

أما في الضرب الثاني من العزاء فإنه يسعى إلى أشياء أقلّ عذرية، يبحث عنها عبر الحقول والمراعي، ولكنها ليست سوى مغامرات بسيطة تحصل مصادفة وهفوات بلا تأثير. فالفلاحات البائسات لا يعددن من جنس النساء وإنّ قبلة يختلسها من هذا الشيء الذي يسمّيه راعية لا يمكن أن يشكل خيانة لحبيبة القلب النبيلة التي لها كل حبه العذري.

أمّا الظرف الغزلي لدى الفلاحين فنتخيله، دون عناء، ذا صورة أكثر بساطة وسذاجة مما هو عليه لدى الطبقة الارستقراطية، فهو ظرف مرهق بالشروط والتحفظات والمشاعر غير الصادقة. فالحب مورس في الحقول في العصر الوسيط كما مورس في كل العصور، إنّ الفلاحين لا شأن لهم بالموضة إطلاقا، ولمّا كان شعراء ذلك الزمان يترصدونها في كل شيء، فإن ذلك الضرب من الحب لا يبدو لهم على غاية من التميز حتى يتفضلوا بالالتفات اليه. لقد كانوا منشغلين بالقصور والسيدات الشهيرات فأنّى لهم أن يتخيلوا وجود مشاعر ومباهج لدى مزارعين رثيثي الثياب وفلاحات منتعلات القباقب. إنّ للفلاحات أجسادا ولكن هل لهن أرواح؟ ولذلك فإنّ أي شاعر جوّال لم يتكرم على الحصّادين والرعاة والقطعان والحقول والكروم وسنابل القمح بأن ذكرهم في شعره. إنّ الطبيعة الريفية لا وجود لها في عرفهم. ويخيّل إلينا عندما نقرأ أشعارهم أنّهم لم يشاهدوا أبدا جداول أو غابات أو قرى أو جبالا. فالكون لا يسع سوى سيدات عليهن خِلع جميلة، ولهن عيون في زرقة السماء وشعور في سواد الليل وقلوب في براءة الملائكة. وإذا ما أشرقت الشمس فخصّيصا لكي تزيد جمالهن إشراقا، واذا ما طلع القمر فلكي يهتدي به العشاق المتواعدون.

=يخال نفسه سميّا لملك قشتالة. واذا ما نال منها بعض الدعابات وبعض القبل نهزة فهذا كثير بل هو إفراط لا يقرّه الحب الحقيقي. إنّ أبسط شيء فوق ذلك هو محض شفقة (Fauriel, t, I, p, 512)

ومع ذلك فقد يتكرم هؤلاء الشعراء، من حين إلى آخر، على راعية بسيطة بذكر اسمها ولكن بمناسبة ذكر فارس قضت عليه حبيبته العفيفة، بأن يتعفف في حبّه تعففا صارما فانتابته بسبب ذلك شهوة جامحة لمرأى الثمرة المحرمة، فترجل وردد على مسامع راعية البقر المسكينة بعض الكلمات الخلابة، فينجح سريعا في **إظهار شغفه بها**، ويتمكن في الأخير وحسب العبارة الشائعة، من **بهجة مضاجعتها في الحقول**. وغالبا ما يفشل العاشق النبيل في مسعاه، إذ تصرفه الشابة بلطف، وفاء منها لبلادة الرعاة.

وفي أحيان كثيرة لا يكفي عدم تمنع الراعيات لشفاء غليل الفرسان فيشهرون أمام سيّداتهم شهواتهم الحسّية ويطمعون في شيء آخر غير الأوشحة والتنهدات.(1)

لقد غدت البروفانص مسرحا لصراع حام جدا بين الحب السهل المنال الموروث عن العهد الامبراطوري المتأخر، والحب الحالم الرقيق الغيور الذي جاء به العرب وقد انتشر في كلّ إسبانيا المسيحية.

وإحقاقا للحق فإن الحب العذري الصرف الذي شكّل الأساس الرسمي للفروسية قد كابد على الدوام تعديات قاسية من قبل الحبّ الإباحي. إن المشاعر العذرية قد لعبت دورا شاعريا كبيرا في النظرية ولكنها كانت دوما تذعن للواقع عند التطبيق. لقد عرف المجتمع البروفانصالي نصيبا من الفساد والإباحية لا يمكننا تجاهله، ولقد تمثّل الأثر الأخلاقي الأكثر إيجابية للحبّ الفروسي في تعليم العشاق أن يُحِلّوا حفظ السر والكتمان محل التفاخر والنزعة الكلبية الموروثين عن العصر الغالي الروماني، وعلى أن يسبغوا حجاب اللياقة والحياء على الأهواء المنفلتة. هذا الأثر سطحي ومع ذلك فهو معتبر إذ هو الذي شكّل في

(1) قال هوقز دي رودس Hugues de Rhodes: «لتذكرني حبيبتي في قلبها. أمّا ما زاد على ذلك فأنتظره، شريطة أن تتعانق النظرات والتنهدات حتى لا تخمد شهوة الحب». لقد أدركت الزمن الذي يكلّف فيه خيط حرير وخاتم وقفاز العاشق إشارات واعترافات وعتاب، ومقاطع وأبيات شعرية غزلية ينظمها على مدى حول كامل. وأمّا اليوم فتنصرم العلاقة إذا لم نظفر في الحال بما نشتهيه.

ففي ذلك الزمن الجميل الذي ولّى كنا نسعد بتمني الخير الأسمى أكثر مما نسعد بإدراكه. لماذا؟ لأنّ العاشق الذي يبلغ مناه يمكن أن يفقد نكهة الرغبة. لماذا؟ لأنّ الحب الصادق الذي يكون في أوانه أفضل بكثير من الحب الآخر.

(Hugues Brunt, *Lacurne*, t, II, p, 71)

الغالب تفوق عصور **الأخلاق النبيلة** على عصور **التفسخ**.

ولكن هذا الإيثار السطحي للحياء فقد شيئا فشيئا حظوته فلقد فترت الفروسية قولا وفعلا. وانتهى الأمر بالعشاق الى أن يمزقوا حجاب السر. ووجدت مجالس الحب متعتها في أن تتناول، بشيء من الفجاجة، قضايا شديدة الواقعية. إننا لن نهتمّ، عن حقّ، بنقاشاتهم تلك حول طبيعة السعادة المادية، وبتلك المباحث **العميقة** الظاهرة للعيان التي تجرأت الآنسات المؤدبات على تناولها بعبارات غاية في الإبانة.

وفي الوقت الذي كانت فيه الفلسفة الشبقية تأتي عجبا في مساجلات **مجالس الأنس**، وفي الوقت الذي تمكن فيه الشعر من الأشكال، التي لا تقل لطافتها عن انسجامها، للتعبير عن المشاعر والمباهج، ماذا كان مصير الحب نفسه؟، الحب البسيط الصادق كما خلقه الإله؟ إنّ المحاكم الرسمية وبعد أن بدّلت حال الحبّ وبلبلته، قرّرت أنّه غير ملائم للزواج الإقطاعي، وأنّنا مدعوون إلى أن نشاركها تأبينه...هل سيكون أفضل حالا في مناخ من الظرف الرقيق ذاك الذي مر عبر مصفاة التأدب والتلاعب بالألفاظ والأهواء المتغيّرة؟ لا. لم يغنم من ذلك شيئا، فالحب المسكين الصادر عن القلب لا عن الدماغ، والذي ينمو وحيدا كما ينمو العشب في الحقول وليس كمستحضر كيميائي يعدّ في المخابر، هذا الحب، يبدو أنه هجر المجتمع ولم يعد له وجود في القرن الثالث عشر لو لم يؤوه كاهن مغّالون Maguelonne الطيب في روايته الصغيرة **أوكاسيون ونيكولات** *Aucassion et Nicolette* لقد ظهر هذا الكنسي الرشيد في القرن الثالث عشر ليقبر الحب المصطنع لدى الفروسية البروفانصالية مثلما ظهر سرفناس Cerventes في القرن السادس عشر ليقبر الفروسية برمتها. كانت روايته جوهرة أدبية أينع فيها شعور صادق وحبّ عفوي، كفّت مشاتل مجالس الحبّ الدافئة عن أن تنبته.

لم تكن لدى أوكاسيون ابن كونت بوكار Beaucaire سوى فكرة واحدة تجول بخاطره وهوى واحد بقلبه: حبّه لنيكولات البسيطة، وهي أمَة عربية اشتراها نائب الكونت وسهر على تعميدها بنفسه.

لم يتأخّر سيّد بوكار عن تهديد وريثه بكل الطرق وعن أن يقسو عليه كلّ القساوة حتّى يستفيق من ضلاله الذي يهدد كل مشاريعه الطموحة، فحبس نيكولات وهددها بأن يبيدها حرقا بتهمة السحر، وحبس ابنه وهدده بحرمانه من الإرث... ولكن لا شيء من ذلك فتّ في وفاء نيكولات ولا أضعف حماس أوكاسيون، ولا حتى الخوف من الجحيم. لقد كان أوكاسيون يفضل النزول إلى الجحيم ألف مرة في اليوم شرط أن يلتقي فيها نيكولات على أن يدخل الجنّة اذا لم تكن بها.

ومع ذلك فإنّ زواجهما الحبّي لا أثر فيه لطقوس الفروسية، بل كان على العكس من ذلك مناقضا لكل مبادىء الظرفاء...

تحابّ أوكاسيون، ابن السيد المشهور، ونيكولات، الأمة البسيطة، حبا جما دون أن يتعاهدا على ذلك رسميا، كما أنّ أوكاسيون لم ينجز أي عمل بطولي بأمر من حبيبته، فلا هو شطر جبارا نصفين ولا قطع عربيا إربا إربا. لقد تمّ كلّ شيء بينهما بطريقة عادية جدّا ودون سابق إعداد، ودون البحث مسبقا عن ثمرة هذه العلاقة. زد على ذلك أن هذا الحب صاف وصادق وعفوي. فقد قال لها أوكاسيون يوما: «حبيبتي الجميلة الرقيقة، إنك لاتحبينني مثلما أحبك، فالمرأة لا تقدر على أن تحبّ الرجل بالقدر الذي يحبه بها. إن حبّ المرأة في عينيها وفي حلمة ثديها وفي إصبع رجلها، أما حب الرجل فمكنون في قلبه لا يفارقه». لذلك لا يريد أن يسمح لها بالسفر إلى بلاد غريبة لأنّ أوّل رجل سيراها يمكنه أن يتخذها للفراش. وعندها لن يتوانى عن أخذ خنجر يقتل به نفسه وقد يهشم رأسه على جدار.

وعندما كان كاهن مغّالون يعلّم معاصريه كيف يتخلصون من الظرف المتصنع ويتصالحون مع المشاعر المتسقة أكثر مع الطبيعة الأصيلة كان القرن الثالث عشر قد حلّ والبروفانصِ تئنّ تحت وطأة حرب الكتار التي سنتحدّث عنها لاحقا.

هذه الدراسة المفصلة إلى حدّ ما عن الحب في البروفانص تغنينا عن التعمق في دراسته في إسبانا وإيطاليا. لقد سبق أن بيّنا أن أمّة واحدة، وعرقا واحدا، بدوا وكأنهما يسيطران

على ضفاف البحر المتوسط من غرناطة إلى بالرمو Palerm. و نفس اللغة يُلْهَج بها على ضفاف نهر الأرنو Arno ونهر الرون Rhone ونهر التيبر Tibre ونهر الإيبر Ebre. لقد كان الشعراء الجوالون سادة هذه الضفاف بطموحاتهم لدراسة النفس الإنسانية وقوانين الحب، وبميتافيزيقاهم العاطفية. إنّ مركز هذه الأمة الشعرية التروبادورية الماجنة قد نقل تباعا إلى فلورنس Florence ومرسيليا، وتولوز وبرشلونة، ونابل Naples فمونبيلي Montpellier. في القرن الحادي عشر شكّلت القصيدة الإسبانية «ألكسندر» *Alexandre* التي نظمها خوان لورنسو Juan Lorenco ميدانا رحبا لنزاع الحب ومرافعاته، فاستشرفت ودرست وناقشت كلّ الحالات الممكنة وكلّ الشروط الملازمة للمغامرة العاطفية مثلما تدرس وتناقش القضايا الفلسفية أو الأقوال المأثورة في علم الطب. يطرح متحاوران أسئلة فيتدخل بينهما حكم فيغرق قليلا في المفارقات بحجة توضيح الأسئلة ثم يحسم الأمر المتنازع فيه كيف ما اتفق. إنّنا بازاء مجلس أنس باجتماعاته (*preguntas et respuestas*) ومرافعاته (*pleytas*)، وإخافاقاته (*escaques*). وبكل أشكال البحوث المتعلقة بالحب[1].

لم يتأخر فن الإحساس بمقتضى الطبيعة بديلا عن فن الإحساس بمقتضى الموضة عن الانتشار في ايطاليا، ومع ذلك فقد أحدث تغييرا. لقد اتخذ حبّ البروفانص الظريف واللطيف وغير الممتنع نسبيا في هذا البلد صبغة صوفية خالصة وانتهى إلى أن بدّل الشعور الإنساني إلى تأمل ديني. إنّه من السهل علينا أن نفهم أسباب هذا الاختلاف، فقد كنّا في فلورنسا بمنأى عن التأثير العربي وقريبين أكثر من تأثير روما، فالتعاليم المسيحية ورغم مناهضة بقايا الأخلاق الوثنية لها مناهضة كبيرة قد فرضت على كل الأهواء شيئا على توافق كبير مع الأفكار التوراتية. لقد ظن العشاق أنهم يُعلُون من شأن سيّداتهم عندما يجلّونهن عبر رؤى نبوية. فاتخذت أغانيهم العاطفية صبغة رؤيوية واضحة.

---

(1) سادت في إسبانيا وفي البروفانص لطائف أدبية ملائمة لروحانية المشاعر فلم يكن أنريك فيلينا Enrique Villéna حاكم بارناس Parnasse الإسباني يتكلم سنة 1430 في «علمه الماجن» *Gaya ciencia* أو فن الغناء ، *arte de Trobar* بأكثر ذكاء مما تكلم به غليوم موليني Guillaume Molinier التولوزي حول نفس الموضوع سنة 1356.

(De puybasque, *Histoire de la littérature espagnole*. P, 41 -49)

ومن 1190 الى 1265 عمل آلاف الشعراء بحماس على إثراء اللغة، فكل الأشكال الشعرية التي أخرجوها فيها، مثل القصائد المغنّاة، والسونيت Sonnet (الأغاني الصغيرة) والأناشيد قد أوقفوها لتصوير ما يحويه قلب الإنسان من عواطف. كان الامبراطور فريدريك الثاني من أوائل الذين غنوا الحبّ باللغة الايطالية (سنة 1190). ولم يتوان عن فعل ذلك بكل الكتمان الصادق الذي كان للشعراء الجوّالين البروفانصالين شرف إشهاره.[1] سار كل معاصريه على خطاه وكنّوا عن حبيباتهم بزهرة أو بنجمة. بل إنهم انتهوا بهذه الطريقة إلى التعمية عن أسماء حبيباتهم تعمية كلّية وذلك من فرط استعمال الصور المجازية الغامضة إلى درجة أن ضاع الإحساس وأعتم مع ضياع اسم الصديقة واستعتامه.

يعدّ جيدو كافالكانتي Guido Gavalcanti رأس هؤلاء الميتافيزيقيين العشاق. إنه لا يستند إلى ما تظهره الطبيعة الإنسانية البسيطة ليدرس عاطفة يمكن لأيّ كان أن يفهمها جيدا إذا ما نأى بنفسه عن المنطق الذي يجعلها عصية على الفهم. «إنه يبحث عن عارف ذكي لأنه لا يرى أنّ امرءا قلبه خلو من العواطف السامية بإمكانه أن يرتفع بذكائه إلى مثل هذا **الشعاع من النور الطبيعي**». إنّه يتساءل «ما إذا كان الإنسان قادرا على إظهار هذا **الشعاع بلغة العيون**» وانتهى إلى الاعتراف بأنّ الحب يتشكل في تلك المنطقة حيث توجد الذاكرة مكتملة، ويتخذ شكل نور العتمة الشفّاف، نور يأتي من المريخ حيث يقيم عادة. إنه مخلوق. وله اسم مكتظ بالمعاني. إنه يتلبّس بعادات الروح وبإرادة الفؤاد. وهو ينتج عن نظر بعيد على معنى أنه يقيم في **العقل الكوني المنفعل** ويقيم فيه كما لو أقام في ذات ما وهو لا يركن قطّ للراحة في ذلك الجزء لأنه ليس مشتقاً من الكيف. وفيه يشع على الدوام أثر دائم ولا يعرف اللذة غير أنه يؤخذ مأخذ الكائن الذي لا يشع التشابه ولا يهبه.

لقد بيّنا بالحدّ المطلوب الانفعالات غير المفهومة التي أصابت أسلاف دانتي، والتي

(1) قال: «إذا كنت أخضع حبّا فيك، فليس ذلك من دون سبب، لأنني آمل وأحيا على أمل أن تصبح شجاعتي وصبري أكثر نشاطا وحيوية. عندما أحبك فأنا ملك لك ورهن إشارتك. وعندما أرى محاسنك، أنت الكوكب المنير، أنتظر أن تتملكني الفرحة. وأنا واثق من أنك ستجازيني على خدمتي لك، أنت زهرة **الزهرات**، وأفضل من كلّ السيّدات الأخريات.

لم ينج منها هو بذاته بصورة نهائية. لقد كان منشد **الكوميديا الإلهية** في احترامه للحب دائم الوفاء تقريبا لهذه الصوفية التقليدية، فقد أضحت بياتريكس Beatrix تشخيصا لحب روحي لا أثر فيه تقريبا للبعد الإنساني. ولكن لنكن منصفين فإنّ الحب الذي له مكانة كبيرة في مؤلفات دانتي، يرد فيها بمظهرين مختلفين جدا. فمن وجهة النظر الشخصية للشاعر أي من منطلق نظريته التأملية هو حب غارق في استعارات ولطائف تجعل إدراك كنهه مستحيلا. إنّ بياتريكس فيلسوفة لاهوتية تعالج موضوع الإرادة **المركّبة والمطلقة،** وتستعيد في الغالب انفعالات جيدو كافاكانتي إنّ دانتي يخلط بين حبّه لبياتريكس والدّين إلى درجة أنّه يتذكر دوما أنّه التقى هذه المرأة ذات **خميس مقدس،** وأنه يعتبر تلك المناسبة بمثابة نذير سماوي. وبأنّه تحت تأثير هذه الفكرة أصدر «**حياته الجديدة**»[1]، وهو عبارة عن تحليل لاهوتي مطوّل للعاطفة الصافية التي ينطوي عليها قلب شاعر صوفي. إنّ الحب هو موضوع أبحاثه الأكثر عمقا؛ بل إنّه تناوله في تفسيره لـ«**مزامير التوبة والإيمان**». وخلاصة الأمر أن دانتي قد بدا واحدا من **أوفياء الحب** الأكثر حماسة، إنّه على رأس هذه النحلة من الحالمين **بالحب** ومن الميتافيزقيين الذين شغلوا الناس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

إنّه لمن العجب أن نرى أولئك الشعراء الجوالين يخوضون في **الظرف الغزلي العفيف** بطريقة السؤال والجواب، كما كانت مجالس الحب في البروفانص تخوض في أمر حب أكثر واقعية وارتباطا بطبيعة الانسان. افتتح دانتي النقاش بأن طلب من «كل روح عاشقة، ومن كلّ قلب نبيل تصله هذاه السونيت (القصيدة) بأن يعبر له عن رأيه فيها باسم إلهه الذي هو الحب»... وما لبث كافلكانتي وجينودي بوستويا Gino de Postia، ودانتي دي مايانو Dante de Maiano أن أجابوه بمائة سونيت حول الموضوع فعقّدوه كما شاؤوا وأحبّوا. شارك في النقاش أيضا مائة من سفسطائيي الحب، فسألوا بعضهم البعض وتجاوبوا مناوبة، وتناولوا بالبحث مطولا موضوع الولد الشقيّ الذي لم يقدر أبدا على

---

(1) الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية يتكون من مجموعة من القصائد والفصول النثرية. ألّفه دانتي ما بين سنتي 1292 و 1296. وقد وصف فيه لوعته وحزنه لموت بياتريكس. (المترجم)

أن يثبت نفسه بصفته **عقلا كونيا مزعجا**. ولمّا كان دانتي نفسه قد جنّ جنونه من فرط سعيه إلى التعمق، عن طريق الفعل الديالكتيكي واللاهوتي فقط،، في دراسة عاطفة تروم كذلك أن تدرس من وجهة نظر فيزيائية ومادية، فإنّه في المقابل، وجد كل قوة عبقريته عندما نظر إليها في الطبيعة وفي التاريخ، وعندما انفكّ عن النظرية ليهجم مباشرة على الواقع. عندها صوّر الحب بقوة تذكّر بالفصاحة القديمة، وتجاوز منذ الوهلة الأولى فصاحة صافو وتيوقريطوس Theocrite، وأوفيديوس وفرجيليوس.

لم يكن ذلك الشاب النبيل وفرشسكا دي ريميني Francesca de Rimini يدّعيان أنّهما من **أوفياء الحب** على الاطلاق بل هما نموذجان من أوكاسيون الرقيق ونيكولات الساذجة العاشقة. لقد تحابا دون أن يتساءلا كيف سيتصرفان وأي الأشكال الملائمة التي عليهما اتخاذها للتعبير عن حبهما. لقد أحدث هذا الفصل من **الكوميديا الإلهية** ثورة في لغة العشق. ففي الوقت الذي بدا فيه الشعراء الجوالون المتكتمون كثيرا عن أسماء الأشخاص مهذارين إلى أبعد حدّ في تحليلهم للعواطف ووقوفهم على الجزئيات أعاد دانتي من خلال هذا المقطع إلى العبقرية الكلاسيكية الحقيقية حقيقتها المرتكزة على البساطة والإيجاز. إننا نحسّ مع كل كلمة تقال أن العاشقين مولعان ببعضهما البعض دون أن يبدو على الشاعر أنّه مهتم بهما؛ وعندما يتلفظ في الأخير بالبيت الشهير: *quel giorno non piu leggemmo avanti*

ولم نقرأ فيه ذلك اليوم مزيدا[1]

فإنّ ما يخفيه البيت بين السطور يعبق بألف نشوة وشهوة لا يوفّرها كلّ ما كان يمكن للشاعر أن يبرزه من تساؤلات وفضول حول الموضوع. هذه الرقة وهذا الاقتصاد

---

(1) السياق الذي ورد فيه البيت هو التالي: كنا ذات يوم نقرأ للمتعة، عن لانتشلوتو Lancelot وكيف تيّمه الحب: وكنا وحيدين، لا يخامرنا شكّ وجعلت تلك القراءة عيوننا تتلاقى عدّة مرات، وأشحبت لون وجهينا، ولأنّ أمرا واحدا كان ذاك الذي غلبنا حينما قرأنا أنّ البسمة المرتقبة، قد قبّلها مثل ذلك العاشق، طبع هذا، الذي لن ينفصل عنّي أبدا طبع على ثغري قبلة، وهو يرتجف كلّه. كان الكتاب وكاتبه هما جاليتّو Galehaut: **ولم نقرأ فيه ذلك اليوم مزيدا**. (الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، ط3، دار المعارف، مصر د.ت، النشيد الخامس ص 122) (المترجم).

في اللغة ليس من شأنهما أن يزيدا فقط من متعة الرواية بل من قوة العاطفة كذلك. إنّ الشاعر يكتفي بوضع القارىء على أول الطريق ويفوّض له أمر التماهي مع حيرة هذه القلوب الماثلة أمام ناظريه ومع جنونها. إن تطلعه إلى اكتشاف ماذا حصل بعد «**لم نقرأ مزيدا**» (*non piu leggemmo avanti*) يفضي به إلى اكتشاف ما لا يعدّ ولا يحصى من الخفايا، وتجعله يحسّ بانفعالات تفوق بكثير ما كان يمكن أن تكشفه له كلّ تطوّرات الأحداث المكشوفة. لماذا؟ لأن فعل البحث يقوم به القارىء عوضا عن أن يكون كلّه من عمل الشاعر، فهذا القارىء مجبر على أن يتقمص شخصية العاشقين، فيحيا حياتهما، ويخفق قلبه لانفعالاتهما. يوجد إذن في داخل دانتي أليغيري رجلان متباينان كل التباين، واحد ميتافيزيقي العواطف وواقعي الحب، والثاني جلي في صورته المحتشمة بقدرما الأول غامض الفكر ومبهم العبارة. وهكذا تصادم في حياته الخاصة وفي كتاباته كذلك العنصران اللذان يمدّان الإنسان بالحياة. إنّ عاشق بياتريكس العفيف هو في الآن نفسه زوج قاما Gemma المنضبط، تلك التي أنجبت له ما لا يقل عن سبعة أطفال. إننا لا نقدمه، شأن بعض كتاب سيرته (ربما بعض أعدائه الشخصيين) على أنه يستأهل مكانا ضمن **مجلس فجار** جحيمه. ومع ذلك فلا يمكننا أن نتوانى عن ملاحظة أن هذه السمات المعلومة لدى الجميع تشي برغبة شهوانية معلنة. ربما يعطينا هذا الحدث تفسيرا لغموض كتاباته حول الحب العاطفي. إنه يكشف لنا عن البلبلة التي سببها له صراع عقل مسيحي صادق في محاولة منه لقهر اغراءات طبع حادّ.

ولكن ألا يمكن لهذه الملاحظة أن تنطبق أيضا على **أوفياء الحب** أولئك الذين كانوا يجاهرون في مقالاتهم بروحانية مثيرة ولا يمتنعون في حياتهم الفعلية على أن يمارسوا حياة لذائذ هم حذرون في المجاهرة بها.

وهكذا تفشّى مبدأ الشعراء الجوالين ومدرسة الفروسية حتى طال كبار الشعراء،، وقد قسم هذا المبدأ حياة الإنسان قسمين متميزين: حياة الروح وحياة الجسد، للأولى الظرف الغزلي العفيف العاطفي المعلن والمحتفى به، وللثانية الحب الحسي الذي يضمن تواصل

النوع البشري، هو الحب ذاته الذي كان دانتي يكنّه لجاما Gemma ولكن عتّم عليه.

إنّ هذه العاطفة ذات القسمين نجدها بالتأكيد لدى الفرسان الأكثر روحانية في ذلك العصر. وعندما نتعمق قليلا في حياتهم الخاصة فسنجد من ناحية صفّاً مكوّناً من **حبيبات القلب والأزهار**، و**النجوم والمعبودات والسيّدات** اللواتي يحتفون بمفاتنهن وفضائلهن وتفوقهن الذي لايضاهى، وفي كلمة يعتبروهن **ملكات الجمال**. ومن الناحية الأخرى، نجد، **نساء الجسد**، ربّات الأسر الفاضلات، والوصيفات والجواري والراعيات، كلهن مطمورات في الزوايا المظلمة للحياة الخاصة، وفي أقبية المنازل. وأحيانا في الغابات أو الأهراء.

6
ظهور الشعراء الجوالين في بلاد التروفار

إننا نتابع باهتمام كبير، سير الحضارة البروفانصالية في أوروبا، وقد تابعناها في رحلتها من مقاطعة بريطانيا إلى باريس وإلى النورماندي، مقتفية أثر نساء الجنوب الشهيرات، المتزوجات بأسياد اللغة الأخرى[1]. فحوالي سنة 1000 تزوجت كونستانس Constance التولوزية روبار الفرنسي Robert de France. وفي سنة 1043 تزوجت أنياس البواتيية Agnes de Poitiers هنري الثالث الألماني Henri III d' Allemagne. وفي سنة 1152 تزوجت إلينور دي قيان Eleonore de Guienne طليقة لويس السابع هنري الثاني دوق نورمنديا وجلبت إلى مجلسه عددا من الشعراء منهم برنار دي فونتادورBernard de Ventadour. وفي سنة 1229 تزوج ألفونس Alphonse أخو القديس لويس جان التولوزية Jeanne de Toulouse.

لقد أثار الترف الباذخ للبروفانصاليين وأخلاقهم المتحررة والماجنة استنكار أهل الشمال.[2] ذلك أنّ المجتمع الجرماني كان خليطا من الخشونة الحربية والورع المثير، فدفع بشدّة هذا الظرف الغزلي المتحررالمائع، ذي الأصل الغالي المسلم. أمّا الافرنج الحقيقون كما صوّرتهم لنا الروايات المعاصرة، فقد كان لمقاومتهم نتائج فعالة فقد تمّ إلحاق كلّ «مناقب» الفرسان بمفاهيم الشرف الإقطاعي والشهامة وحماسة الإيمان الديني.

عندما تسرب الحب عبر هذه الأهواء التي لا غنى للإنسان عنها لم يتسرّب أبدا في شكل

---

(1) إشارة من المؤلف إلى ذلك التصنيف الذي ميز أهل الشمال عن أهل الجنوب استنادا إلى اللغة: اللغة القسطانية Langue d'oc في الجنوب واللغة الغالية الرومانية في الشمال. Langue d'oil.(المترجم)

(2) – قال ريغورد Rigord مؤرخ العصر «هؤلاء هم الرجال الذين أغوى أمثالهم أمة البورقانديين وأمة الافرنج أيّما إغواء، وقد كانت الأمة الأخيرة، إلى ذلك الحين، أكثر الأمم انضباطا، فغوت إلى درجة أن أصبحت تضاهيهم مضاهاة تامّة انحرافا ودناءة. ولمّا سعت بعض النفوس النقية إلى مواجهة الفساق الذين يعطون مثل ذلك المثل فإنها اتهمت بالحمق. ص 30 ».

غزل لائق عُجْب وروحي بل في شكل فظ عنيف يذكر بالتسري الفاحش لدى ملوك الجيل الأول. لم يكن الحب عاطفة وإنما كان شهوة. ففي «الرواية الكارلوفنجية» وسواء كانت البطلة إفرنجية أم عربية، قد كانت تبدي لهفة جنسية تذكّر بشهوة ووقاحة الجواري من صنف فريدوقوند، فقد كانت هذه البطلة تحبّ أول من يصادفها ولاتتردد أبدا في هجر عائلتها لتعيش معه. وفي ترك وليّ أمرها أو زوجها، وحتى في تغيير ديانتها، جريا وراء ذلك الذي عرف كيف يفتنها لتعيش معه مغامرات عاطفية.(1)

إنّ التاريخ يصدّق الأدب فقد بيّن أن أفحش الفاحشة قد انتشرت بين كل صفوف المجتمع منذ عهد الميروفنجيين إلى حدود القرن الثاني عشر. لقد كانت الجيوش تصحب معها جموعا من العاهرات والبهلوانيات المتعطشات إلى البذخ والنهب. والجميع يعلم مقدار الفوضى التي أحدثتها تلك الجموع في الحملات الصليبية الأولى. ولقد أحصى الناسك فيجوا Vigeois خمسة عشر ألفا منهن كنّ بأثر جيش واحد سنة 1180. وقد كلّفت ثيابهن الفاخرة وحليهن مبالغ تعدّ ضخمة في ذلك العصر. ومصداقا لذلك فقد روي أنّ إحدى ملكات فرنسا ذهبت إلى الكنيسة للاحتفال بيوم **قبلة السلام** فوجدت إلى جانبها إحداهن فانخدعت برداءها الفخم فحسبتها سيّدة من النبلاء وقبلتها بكل أخوية. انزعج الملك من هذا الغلط ومنع على أمثالهنّ لبس الأردية الفخمة المخصّصة لزوجات النبلاء.

لقد كان فجور النساء والمتاجرة بأجسادهنّ منتشرا على مرأى من الجميع كما كتب

---

(1) في إحدى حكايات الرواية، رأت لويزيانا Luziane وأمّها الكونتيسة إيزابو Isabeau البائس أيّول Aiol يمرّ في الطريق رثّ الثياب فتحققنا من أنّ زيّه المضحك يخفي تحته رجلا جسورا وسيما تامّ القوام، ومن ثمّ دعتاه إلى أن تؤوياه في القصر. تكفلت لوزيانا بنفسها بإعداد فراش هذا المسافر ثم قادته إليه قائلة: **«أيها السيّد الشريف، تعال لتنام» ثمّ أخذته من يده إلى سريره ونزعت عنه حذاءه وكلّ ثيابه. وعندما استلقى على السرير دثرته.** ونحن لانجرؤ على إعادة العبارات التي رجته بها كي يهمّ بها ويقبّلها. وقد أسرّت له **بأنّها لم تعرف حبيبا على الإطلاق في أي مكان وأنه هو الذي سيكون حبيبها** اذا ما تشرّف بأن تكون خادمته.

لقد كان حياء أيّول يمنعه من قبول عرض مصوغ بأسلوب امرأة عاهرة. وأما لوزيان التي كانت مضطرة للعودة إلى جناح النساء فصاحت غاضبة **«لم أر رجلا في مثل سنك لا يأبه لامرأة تعرض نفسها عليه، وإذا كنت ترغب في أن تكون ناسكا فماذا تنتظر لتلبس لباس النسك؟»**.

شعراء ذلك العصر حتى أنه لم يكد يخلو بحقّ منزل من تلك الوصمة.[1]

لقد كان القديس لويس أول من تعهد بوضع حدّ لهذا الفجور عن طريق تعليمات الشُّرَط الأكثر تشددا. ولكنه لم يكن أبدا راضيا عن مجهوداته.

إنّ مواجهة هذه النزعة الكلبية التي عمّت المجتمع، والقطع مع الفضيحة قد أتيا من جهة أخرى. إنّها الظرف البروفانصالي المؤسّس على طيّ السرّ وأدب المجاملة. وقد حقّقت بعض النجاح.

لقد كان فرسان الشمال دائما على صهوات خيولهم مدّرعين بالحديد، لا يأبهون كثيرا بالملابس، المتكلفة والأقمشة المخملية والحريرية، ولا بلغة نبلاء إيطاليا والبروفانص الباهتة والمائعة. لقد نجح تأثير السلوك الظريف وأدب الطرب منذ القرن الحادي عشر في أن يليّن طباع الجرمانيين الخشنة. وإنّ بعض روايات المرحلة الكارلوفانجية قد تأثرت به فكانت تجعل أبطالها يحبون على الطريقة البروفانصالية أي الإيمان بالجمال دافعا والروحانية المرهفة هدفا. وإمعانا في هذا التأثر فقد كانوا يعترفون أنّ هذا الحب المشبع إعجابا وإخلاصا يستحيل أن يوفّره الزواج وبالتالي لا يمكنه أن يحيا إلاّ في ظلّ تحرّر عاطفي تام. ولكن هذه الروايات كانت نادرة وربما لم تكن سوى ترجمات لمؤلفات بروفانصالية.

إنّ الفروسية الجنوبية قد أثّرت بصفة مباشرة في الروايات البروتونية شأن رواية **أرتور** *Arthur* أو رواية **الطاولة المستديرة**، وقد امتزج فيها، في الغالب، التأدب الجنوبي بفظاظة الشماليين العدوانية. ويدور الحدث الرئيسي في هذه الروايات حول الحبّ الفروسي وفيه دعوة إلى العواطف الأكثر نبلا والمشاعر الأكثر شهامة. إنّ رواية **تريستان** *Tristan* المؤلفة حوالي 1150 هي حكاية حب جامح يُذكِر بقصة حبّ بارت وسيني، ففيها صمد الحبّ أمام امتحان الشيخوخة، وأمام كلّ مصائب الحياة وحتى الموت نفسه لا يملك القوة

---

(1) يروى، والعهدة على المؤرخ ملماسبوري Malmesbury أن غليوم البواتيي الذي كان يشكل حالة وسطى بين البروفانصاليين وأهل الشمال قد أتى فعلا دنسا عندما أنشأ بيوت دعارة على شاكلة صوامع تضمّ مثلها **رئيسات وخادمات**.... الخ.

الكافية لزعزعته.

ومع ذلك فإلى جانب هذا الصنف من الروايات التي ظهرت فيها الفروسية البروتونية مكرسة بالكامل للحب، وجدت روايات أخرى جمعت تحت اسم «**روايات الكأس المقدّسة**» (*Graal*)[1] حيث كان الحماس الديني العامل الوحيد الملهم لروح الفروسية، وهو شعور غريب عن الشخصية البروفانصالية. لقد كانت هذه الروايات، كما يقول فوريال Fauriel تسعى إلى تأسيس الفروسية لمصلحة رجال الدين والدين لا غير، في حين قصر الشعر البروفانصالي الفروسية على الدفاع عن النساء والسموّ بهن، وعلى تنفيذ أوامر الحبّ. لقد كانت طقوس روايات «الكأس المقدّسة» تشترط عذرية المرأة، في حين لم تأبه مجالس الحب لهذا الأمر أبدا، فأنتجت هذه الطقوس في النهاية طبقة من **الفرسان الرهبان** *Templistes* الذين يسيرون على هدى طبقة رجال الدين، في حين أنّ البروفانص لم تعرف سوى **الفرسان الأفّاقين أو المتوحشين** الخاضعين فقط لأوامر السيّدات اللواتي كنّ يستخدمنهم ليأتوا باسمهن مآثر جليلة.[2]

وفي المحصّلة يمثّل الشعر البروتوني، في مجمله، مرحلة وسطى بين الفروسية وخصوصا الظريفة منها في الجنوب، والفروسية الحربية والورعة في الشمال. إنّ اكتساب الشعوب الجرمانية للأخلاق البروفانصالية قلّل من انتشار المجون ولكنّه أثار بنفس القدر معارضة الإقطاعية وغضبها. فقد آخذت الظّرف على أنه شجع تحرر المرأة، وجعلها في نفس مستوى الرجل وربما جعلها تفوقه. لقد أدركت الأرستقراطية الشمالية المتعودة على ممارسة استبداد مطلق في العائلة أن هذه الحضارة المتألقة الظريفة تحوي بداخلها بذرة ثورة رهيبة. لذلك سعت إلى أن تمنع البذرة من أن تنمو. فتصدت في البداية لفكرة استجلاب **مجالس الحب** ونجحت في ذلك نجاحا معتبرا، إضافة إلى ذلك فإنّ فتيات الشبق العتيق في الجنوب لم يستطعن المحافظة على بيوتهن، فقد سعى أهل الشمال في هدمها، وسلكوا إلى

(1) **الكأس المقدّسة** (*Graal*) هو إناء عشاء يسوع المسيح. وقد وصل بطريقة عجيبة إلى أوروبا وكانت حيازته والدفاع عنه تثيران الفرسان وتلهماهم صنوفا من الجسارة والبطولة.

(2) Fauriel, t, II, p, 330 à 342.

ذلك مسلكا عنيفا جدا.

وبحجة دينية تمثلت في محاربة بدعة الكثار[1] les Albigeois أعلنوها حملة صليبية أغرقت جنوب فرنسا في الدماء، بطريقة لم يفعلها القوط الغربيون ولا الوندال ولا العرب.

إننا لاننازع أبدا في دور القضايا الروحية والمسألة السياسية في مآسي ذلك العصر التعيس، فقد أراد أحفاد الجرمانيين مواصلة فتح أوروبا الجنوبية وذلك بالقضاء على هرطقة كبرى وبالاستيلاء على ممتلكات الأسياد الأثرياء ذوي الأصل الروماني، ولكننا نشدد على أنّ المسألة الأخلاقية قد اختلطت بالمسألتين الأخريين، بنسب معتبرة. لقد أرادت الاقطاعية الكارلوفانجية المؤسسة على سلطة السيد المطلقة والخضوع الكامل للمرأة أن تحل رابطة الشعراء الجوالين والفرسان الذين كانوا يدعون إلى حرية المراة وتفوقها، ويظهرون إعجابهم الشديد بها، ويجعلون الوفاء الزوجي والسلطة العائلية تحت رحمة نزوات الظرف الغزلي. ويكفي، أن نقرأ شكاوى القساوسة والرهبان الدومينيكيين[2] من التفسخ البروفانصالي[3] حتىّ نقتنع بأنّ الاعتبارات الأخلاقية كانت المحرّض الأساسي على الحرب التي قادها سيمون دي مونفورت [4] Montfort de Simon

اندلعت الحرب الصليبية وانتصر الشمال وحلّت مجالس الحبّ وقضى أعضاؤها مقتولين. ومثلما وجد الرومان قاهري اليونان والشرق أنفسهم مولعين بأخلاق المغلوبين، فإنّ الفرنسيين والألمان قد وجدوا أنفسهم كذلك وقد استولى عليهم شيئا فشيئا الظرف

(1) قادت هذا الحملة الصليبية الكنيسة الكاثوليكية. وكانت موجهة ضد الكثار وهي فرقة تقول بوجود مبدأين علويين هما الخير (الله) والشر (الشيطان) وأن هذا العالم الذي نعيشه هو من خلق الشيطان ولذا دعوا إلى الزهد في الدنيا انتظارا لمباهج العالم الآخر، عالم الإله، العالم الحقيقي. دامت هذه الحملة من1208 إلى 1249. (المترجم).

(2) هم أتباع القس الإسباني دومينكو دي كوزمان(ت1221) (المترجم).

(3) لقد كانوا يؤاخذون البروفانصاليين على أنهم أعطوا النساء سلطة كبيرة إلى درجة أنهم اعترفوا بقدرتهن على الوعظ الديني تماما مثل الكهنة، وعلى أنّهن أحدثن تسلية **هرطقية تمثلت في التقبيل من الفم مرتين**، كما أنهم آخذوهم أيضا على اتباعهم الأعمى لكلّ دقائق مجالس الحبّ. (Don vaissete, I, XXI, c. 8 et 11)

(4) كان في طليعة الذين قادوا الحرب على الكثار (المترجم).

الغزلي الفروسي لأولئك الذين حسبوا أنّهم اقتلعوهم من الوجود. لقد قتلوا الفرسان ولكن الشعراء الجوالين ظلّوا على قيد الحياة وواصلوا، رغم ويلات الحرب، التغني بالحبّ الخالد الذي لا يقهر.

من الناحية الأخلاقية لم تؤد الحرب ضدّ الكثار إلاّ الى أن يواجه التروفار التروبادور وأن يتعلّموا منهم، وأن ينشروا سريعا في الشمال العادات والشعر الظريف اللذين حوربا في الجنوب.

هؤلاء الشعراء الجوالون الشماليون الذين لم يتغنوا إلى ذلك الحين سوى بالحرب والورع قد تعلّموا كيف يمجدون بأسلوب أكثر أناقة ورقة **موسيقى الدم** هذه كما يقول الإسبان، التي يسمعها الناس من كل الأجناس بفرح كبير. لقد ترجموا المساجلات الشعرية و**القصائد المغناة** الجنوبية ونسخوا روايات الجنوب المفعمة حبّا [1].

ثم إنّ أهل الشمال قد مكّنوا البروفانصاليين من مجالس الحب عندما أعطوها شكل **منازلة**. فعوض أن تكون الحلبة محكمة أصبحت ميدان حرب، وعوض أن تلبس الشخصيات أثواب القضاة وأزرار الشارة فإنها تحمل على ظهورها حصتها من السلاح والدروع، وفي هذه الحلبة لا تتلى الأحكام ولكن تستعرض **المشيات العسكرية**... لقد كانت المرأة البروفانصالية تبدي إعجابا بالخطباء الفصحاء وبعلماء منطق الحب البارعين، في حين كانت المرأة في باريس تهيم بالأبطال الشجعان الذين يصعب طرحهم أرضا والبارعين في الضرب بالسيف والرمح والفخورين بالإقدام على الموت حبّا في **الجمال**.

هذان الصنفان من الصراع المختلفان كانا يستندان إلى نفس المبدا ألا وهو السموّ بالمرأة وتعظيمها.

---

(1) يجسّد أشهر مؤلفين في ذلك العصر وهما **أغنية أنطاكية** *La chanson d'Antioche* (1180)، و**رواية الوردة** *Roman de la Rose*. (1260) اللذين يحتوي كل واحد منهما على أكثر من أربعة آلاف بيت، أيما تجسيد هذه الثورة، فلا نعثر في القصيدة الأولى على أدنى كلمة حبّ أمّا المؤلف الثاني فلا نعثر فيه على بيت أو جملة لم تخصص لهذه المحبوبة المرموز اليها على الدوام بالوردة التي لا يمكننا قطافها إلاّ بعد عناء وألم شديدين.

عن تحرير السيّدات بفضل الحب المبارز

في ظل الجيلين الأولين كانت المبارزة والمعارك الصورية مجرد ألاعيب حربية لا شأن لها بفكرة الظرف الغزلي إلى درجة أنّ النساء لم يسمح لهنّ بالمشاركة فيها أكثر مما لم يسمح للنساء المشاركة في ألعاب بلاد الاغريق.

كان جفروا البرولي Geoffroi de. Preuilly. فارسا من مدينة تور قد سنّ قواعد المنازلات في نهاية القرن الحادي عشر فلم يهتم أثناء ذلك سوى بلباس الأبطال الواقي وبزّتهم وبمشيتهم وبطريقة استعمالهم للسلاح، وباختصار لم يكن يهتم سوى بالمسائل العسكرية البحتة. عندما ذاعت شهرة مجالس الحبّ الجنوبية في الشمال، كان لفرسان هذه المقاطعة شرف إدخال إشعاع وظرف هذه الجامعات المتخصصة في المشاعر النبيلة والسلوك الجميل إلى **مبارزات المنازلات وحفلاتها**. ولعبت فيها المرأة تدريجيا الدور الذي أدته في النقاشات الشبقية أثناء **المساجلات** البروفانصالية. ومن القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر نشر التروفار خلفاء التروبادور شيئا فشيئا قواعد الظرف الغزلي عبر قوانين جفروا الصارمة، فشاركت النساء في المسابقات لا فقط ضمن المتفرجين ولكن كمنظمات وقاضيات يفصلن في المنازلات. لنفحص الآن الطرق التي استعملتها النساء ليستعدن في الشمال النفوذ الذي مارسنه في الجنوب.

إنّ أوّل قاعدة يتعلمها الشاب وهو يدرس الظرف على أحد الأسياد هي **حب الإله وحب السيّدات**. وقد روى جهان دي سنتري Jehan de Saintré أن النساء كلّفن بهذا الجانب الأساسي من تعليم الشبان، فكنّ يعلمنهم في الآن نفسه فنّ الحب والتعاليم المسيحية. ولكي يخطو الشاب النبيل damoisel خطوات ثانية في تعليمه كان عليه أن يكون في عهدة سيّدة متضلّعة في الظرف الغزلي ولها فضل كبير، فيسازرها بانفعالاته النفسية والجسدية. وبالمقابل تعطيه نصائح قيمة وتوجيهات صائبة.

وإلى جانب الشبّان تتلقّى الشابات النبيلات دروسا مماثلة فيتعلمن تمجيد شجاعة الفرسان وتضميد جراحهم وكيفية نزع عدّتهم الحربية لدى عودتهم وكيفية الترويح عليهم.

وبفضل استعداداتهم الطبيعية فقد استوعبوا سريعا هذه الدروس.

ويوم يتقلد **الفارس** الشاب منصبه يتسلّم عدّته من أيدي السيدات والشابات، **فيقسم** بأن لا يذم النساء ولا أن يسمح بذلك وأن يلتزم بنجدتهن عند الخطر وأن يخلّصهن من الاضطهاد.

وعشية المسابقات كان لزاما على الأبطال أن يعرضوا أسلحتهم في سقيفة إحدى الكنائس حتى إذا ما اشتكت بعض السيّدات من سلوك أحدهم عرفن اسمه فيرفعنه إلى القضاة باعتباره غير جدير بالمشاركة في نزال الشهامة والظّرف.

وأثناء المنازلة تجلس السيدات على **مصاطب** خاصة، وهن يرين **المتبارين** يلاعبون أمام أعينهن جيادهم، فيستعرضون أمامهنّ السلاح ويطلبون **تذكارات**[1]. ويرفعون **شعارات** ويطلقون **صيحات حربية**. وفي بعض الأحيان يساق هؤلاء العشاق الشجعان مقيدين بالسلاسل إلى وسط الحلبة تقودهم صديقاتهم رمزا لخضوعهم التامّ ثمّ تفككن سلاسلهم حتى يتمكنوا من المنازلة واذا ما أضاعوا تلك **التذكارات** أثناء النزال يرسلن إليهم تذكارات أخرى حتى يحيين عزمهم. وإذا ما خبا اندفاع المتنازلين تتعالى أصوات الجميع مطالبة بلعبة **رمح السيدات**. وإن هذه الدعوة للتظرف تدفع **خدام الحب** إلى إتيان بطولات جديدة. وفي المسائل الغامضة فإنّ قضاة المشية الحربية يكلفون **سيدات المسابقة** بإصدار الحكم النهائي. وفي كل الحالات فهن اللواتي يتكفلن بتتويج المنتصر مع تمكينه من أحقيته دون غيره **بالقبلة**. ومن ناحيته فهو الذي يعيّن **ملكة الجمال** ويجبر منافساتها على الاعتراف لها بهذه الصفة.

---

(1) تتمثل هذه الهبات، المسماة أيضا نبالة noblesse أو شعارا، في وشاح أو قبّعة أو كمّ أو قرط أو أي شيء للزينة كانت السيدة تهديه لفارسها تشجيعا له. وكان يعلقه في خوذته.

وهكذا تتدخل النساء بصفة رسمية في كل مراحل المنازلة. إنّ الأبطال ملك لهن يقدنهم بالنظرات، ويجازينهم ويعاقبنهم، فهن غاية كل ما يأتونه من أعمال. ما من شك أن انتصار المتباري على الخصم أمر عظيم، ولكن نيل إعجاب سيدته، وإنجاز بطولات باسمها هو أسمى طموحه.

لقد كانت المسابقات، من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، منازلات ظريفة مثلما كان الحال في مجالس الحب من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر. لقد غنم الروح الحربي الكثير من جراء هذا التغير، فلم يفقد فيه الحب شيئا، بل بالعكس فبانتقاله من الجنوب إلى الشمال ازداد متانة ونبلا. لقد تخلّص من خموده وطبيعته الوعظية والظريفة واتخذ سمات رجولية وحربية أكثر ملاءمة للمزاج العام لذلك الوقت وأكثر ارتباطا بمصير أوروبا.

لقد تجاوزت حماية المرأة للفرسان وتشجيعها لهم إطار المنازلات؛ فسواء شاركوا في حملات دينية أو في حصار مدن أو في معارك حربية فقد كانوا مدفوعين إلى هذه المشاركة بفعل وعود **صديقاتهم**، يحملون صورهن وراياتهنّ بكلّ اعتزاز ويتخذون لأنفسهم لقب **الباحث عن الحب**. وأثناء أخطر الحملات العسكرية كانت تغيب عن أذهانهم باستمرار القضية السياسية التي يحاربون لأجلها فيدعون خصومهم إلى المبارزة حتى يجبروهم على الاعتراف بتفوّق **معبوداتهم** على كلّ المخلوقات. هكذا كانت تلك الشروط الغريبة محترمة إلى درجة أنّ جيوشا بكاملها توقف القتال لتمكن فارسين من أن يفصلا في الأمر الجليل، وليعرف الجمع أيهما أكثر جنونا في عشقه (فرواسّار) (Froissart).

وليهدأ بال البرفانصاليين فليس لدى فرسان الشمال ما يعيبونه على هوسهم فهم مثلهم يفتخرون بظرفهم، وهم مثلهم مجانين في طرق تعبيرهم عن الحب.

لقد أضحت عاطفة الحب هذه نبيلة وسامية، حتى في نظر أرباب العائلات حتّى إنّ الواحد لا يتوانى عن أية معاناة يتقرب بها إليها وعن الافتخار بمجابهة أي خطر في سبيلها.

ففي **الحكاية الشعرية «العاشقان»** صوّرت لنا ماري الفرنسية Marie de France أباً قرّر أن لا يزوّج ابنته إلاّ بفارس أو فتى شرط أن يأخذها بين ذراعيه وينطلق بها دون توقف نحو قمة الجبل. سعت جماعة من الشبان إلى تنفيذ هذا الشرط فالصبية مليحة وجديرة بأن تدفعهم إلى إتيان أعظم البطولات. ولكن الجميع توقفوا تقريبا في منتصف الطريق، وأجبروا على الاعتراف بفشلهم. وكان أسعدهم شاب من وادي بسترز Pistres في النورماندي. والحقيقة أن الفتاة قد ساعدته في محاولته بكلّ اندفاع، فقد أنقصت من وزنها بصيام غاية في الصرامة، ثمّ إنّها «لم تلبس يوم الاختبار سوى قميص»، عندئذ نجح الفتى في حمل **صديقته** إلى قمة الجبل تحت تصفيق الجموع التي سارعت إلى مسرح الحدث، ولكن قواه خارت بمجرد أن أدرك هدفه ومات من فرط الإعياء وربما من فرط السعادة، سعادته بحيازة الفتاة الجميلة التي كان جسدها الرخو يرتعش بين ذراعيه[1].

لقد أضحى الحب في القضايا القومية كما في المسائل الشخصية أكبر عماد للبطولة والإخلاص... فإذا أردت من الفارس أن يأتي عملا مقداما وتضحية لا يقدر عليها الناس، لا تطمعه بمقاطعات يحكمها ولا بألقاب شرفية ينالها فالأوسمة كانت آنذاك مجهولة، فوسام القديس لويس وكذلك نظام الفروسية المسمّى «الروح القدس» وكذا التماثيل

(1) إنّ سموّ همّة الحب تبدو أكثر وضوحا في **الحكاية الشعرية «الفارس ذو القميص»** *le chevalier à la chemise*، فقد هام ثلاثة فرسان متنافسين بنفس المرأة. وكان هيامهم كبيرا إلى درجة أن كل واحد منهم أقسم بأن يأتي، حبا فيها، أعمالا بطولية لم تحظ بها امرأة قط قبل اليوم. قبلت السيّدة الأمر. ثم أخضعت المترشحين الى شطحة جريئة غريبة، كدليل على كبريائها العظيمة أكثر مما هي دليل على رقتها، فقد فرضت عليهم أن يقاتلوا في المسابقة المقبلة مجرّدين عن كل عدّتهم سوى القمصان التي ألبستها إيّاهم. رفض اثنان من المتبارين هذا الاختيار الذي يعني الحكم عليهما بالموت. أمّا الثالث فقد قبله بفرح جنوني. لقد كان يرى أن الحب الحقيقي لايضع نصب عينيه سوى الشيء المحبوب ولا يضع أبدا العراقيل التي عليه تجاوزها للوصول إليه. انطلق **الفارس ذو القميص** نحو الحلبة فتلقّى جسده طعنات وسقط محتضرا على الرمل. وعندما حمل إلى السرير رفض أن ينزع قميصه لتضمد الجراح وأعلن أنه «يفضل الموت على أن يفارق عهد الحب هذا. ومع ذلك نجحت المرأة في أن تسرّع شفاءه عندما أبلغته أنها ستلتقيه يوم أن يبلّ، وعندها تمنحه حبها وتبرهن له عن ذلك بقبلتين تمنحهما له». وفت بوعدها وارتقت بهواها فوق التقاليد وفوق حقوق زوجها. فظهرت في مجلس عام ملتحفة بقميص عاشقها المدماة، مجاهرة في نفس الآن بعواطفها وبالجزاء الذي وعدت به أصدق عاشق **شغوف**. إنّ ما بدا لنا على أنه عمل وقح، اعتبر موجبا للعبرة. إنّ جسارة المرأة تمنح الحكاية مصداقية وتزيد من قيمتها وترغم الزوج على غضّ الطرف على مغامرات زوجته.

والنصب التذكارية قد كسد سوقها، فمحرّك كلّ المشاعر هي المرأة.

في العصر الوسيط لم تكن حدود الدول ثابتة بل متغيرة، وكانت الأعراق مختلطة وفكرة الوطنية غير معروفة؛ فلا وطن غير السماء. تشهد لذلك ضراوة الصراعات الدينية. فلا شيء في الدنيا أهمّ من الاستيلاء على أمر من نحب والحفاظ على حبه حالما نحوزه. إنّ الصديقة هي الوطن الدنيوي الحقيقي، والملكة الوحيدة المعترف بها. لقد وضع الفارس في خدمتها وفي خدمة نزواتها الشجاعة نفسها التي وضعها ليونيداس Leonidas[1]. والهوراسيون les Horaces[2] في خدمة بلدانهم فالبطولة هي نفسها، ووحده الموضوع هو الذي تغير.

حدثنا فرواسار Froissard عن فارس بوروبوني Bourbonnais يدعى **بونولانص** *Bonnelance* علم أن فتاة كان **يحبها** قد رغبت في أن يهدى لها بعض المساجين الأنقليز، فانبرى ليأتي أعمالا بطولية طلبا لرضاها، وكان النجاح حليفه. إنّ هذا البطل لم يقدم خدمة لفرنسا ولكن لسيّدته.

في القصيدة الأنجلونو رماندية المسماة «**نذر مالك الحزين**» والتي تعود إلى سنة 1338 رجا ساليزيوري Salisbery فتاة أعياه حبّها أن تغمض عينه بإحدى أصابعها ثم أقسم أن لا يفتحها مجددا إلاّ إذا رقّت لحاله. إنه نذر غريب ولكنه وفّى به. ولقد شوهد يتفوق في كثير من المنازلات رغم أن عينه ظلت مغمضة كما لو كان أعور. وفي نفس القصيدة، أقسمت ابنة اللورد دربي Derby بأنها لن تدير سمعها إلى أيّ سيّد قبل أن يستعيد ملك إنجلترا أراضيها من فرنسا، وتعهّدت أنها بمجرد ما ينفّذ شرطها «ستهب نفسها لعشيقها دون شرط».

إنّ الحب هو تجسيد لكل الفضائل وبدونه يظل الشرف والمجد عقيمين، كما هما في أيامنا هذه بلا فضل. إنّه عماد الحياة الاجتماعية، وإنّ غيابه يشكل بدعة كان الشاعر

---

(1) هو ملك إسبرطة الذي دافع ببسالة عن وطنه ضدّ الفرس. (المترجم).

(2) الهوراسيون هم أبطال أسطوريون دافعوا ببسالة عن وطنهم روما (المترجم).

أوستاش ديكامب Eustache Deschamps قد اخترع، عقابا لها، مطهرا مخصوصا هو **مقياس الحب**.

روت ماري الفرنسية أن جينار Guyener أحد الفرسان المهمين في بلاط أرتيس Arthus الذي لم تقدر اللوران Loraine وبرقونيا Bourgogne والقاسكون Gascogne وأنجو Anjou على أن تنجب مثله «ومع ذلك كان له عيب إذ لم يفكر بعد في أن يحب رغم أنه لا توجد سيدة ولا شابّة لا يسعدها أن تكون صديقته، وكثيرات منهن مهّدن لمصادقته، ولكنه لم يأبه باستعداداتهن وتمسك بأن يظل بلا محبوبة. لقد كان الأمر غريبا إلى درجة أن أحدا لم يجد له تفسيرا. وخيف على الفارس اللاّمبالي من أن يصيبه مكروه. ولكنّ العناية الإلهية تدخّلت بمعجزة مخصوصة لتُنبّهه إلى أنه سلك مسلكا خاطئا. ففي يوم من الأيام وأثناء جولة صيد أصاب ظبية بجروح وأصاب نفسه كذلك، فنطقت الظبية متنبّئة: «ستحسّ بآلام بقدر تلك التي سببتها للنساء، ولن تشفى منها إلا إذا تحملت صديقة لأجلك آلاما مماثلة تثير دهشة عشاق كل العصور». إنهّ الخلاص المسيحي الدنيوي الأكثر براءة.

إنّ الحب هو حقا من سلالة نبيلة لا يمكننا إدراكها دون تفكر جدي. إنّه نعمى تتطلب الايمان بطقوسها وتتطلب مؤمنا طاهرا. إن الفارس قرايلت Graelent لم يَصْبُ بعد إلى الحب رغم أن كل السيدات معجبات به «لأن وعود الحب ليست ترهات إذ ينبغي أن يكون فاضلا ذاك الذي يطلب الحبّ شفيعا إلى النساء. فهناك أكثر من خمس مائة شخص يتحدثون عن هذه الرغبة الرقيقة ولكنهم يجهلون كلهم مغزاها. إنّ الكسل والإهمال والبهتان كلها تقضي عليها. فلا يمكنها أن تعيش وتنجح إلاّ مع مراعاة العفّة قولا وفعلا».[1]

وشيئا فشيئا انتقلت هذه المبادىء البروفانصالية برمتها إلى الشمال، فقبل هذا القانون بشغف، وانتشر بفعل عقلية التقليد، فقرر أتباعه «أن الحب الحقيقي هو هبة من السماء،

(1) Marie de France. *Lai Graelent*.

وينبغي أن يبقى بمنأى عن المجتمع، وان ينتقل طبيعيا من جسد الى آخر ومن قلب الى آخر وإلاّ أضحى بلا 264 قيمة..» وأخيرا، فإن الحب يفرض صدقا كبيرا وفضيلة كبيرة الى درجة أن الفارس قرايلت لم يجروْ أبدا على أن ينذر حياته لخدمته.

ولكي يعطي المثال، فقد صدّ اهتمام الملكة به. وسعى إلى ثنيها عن رغبتها بأن أخضعها إلى تحليل نفساني معمق لا يقل عمقا عن ذاك الذي خضع له **أوفياء الحب** في توسكان Toscane.

لقد درس قرايلت الاتحاد العفيف بين وجودين مرتبطين برباط الفضيلة، ويعيشان لأجل بعضهما البعض كما لو أنه لايوجد سواهما في العالم. فلهما روح واحدة ولاتصدر عنهما سوى إرادة واحدة... إنّ واجبات الحبّ هي بالنسبة اليه ذات أهمية كبرى بحيث إنّه لايريد أن يلتزم بها إلاّ بعد أن يمحصها طويلا ويستعد لها باختبارات صادقة. وفي كلمة إنّ حب الفارس قرايلت هو عبارة عن عهد واف من الكمال الأخلاقي ترك فيه الإنجيل بصمته العميقة، وبرهن عن ذلك بإعلانه أن «خدمة الملك الذي أقسم بأن يظل له وفيا، والذي التزم له بالدفاع عن شرفه لاتسمح له بمجاراة الملكة في مزاجها الظريف».

لقد برهن قرايلت على صدق فروسيته وذلك بالوفاء لسيّده، ولكنه لم يلتزم بتعاليم الحب لأنه ترك السنين تمر دون أن يرتبط بصديقة. لقد أذنب في هذا المجال فقد كان في وسعه أن يقوم بواجبه كاملا تجاه الحب دون أن يخرق التزاماته باعتباره مقطعا. لقد بدأت أخلاق الشمال تسهل انتشار عادة الظرف الغزلي كما كانت سهلته أخلاق البروفانص.

لا يمكن لأي فارس أن يكون كاملا إلا اذا كان في خدمة سيدة، ومن الطبيعي أن تلتزم كلّ سيّدة ظريفة محبوبة بمساعدته على الإيفاء بمتطلبات الظرف الغزلي. ولا يصدّها عن ذلك زواج أو ترمل أو تبتّل، فعلى كلّ سيّدة أن تقبل عروض **خادم عاشق** اذا كانت لا تريد إفساد صلتها بالفروسية.

وبمجرد أن تنال رتبة **صديقة** تصبح بمقتضى الحب، **زوجة** *Consors* ذاك الذي يحبّها. ومثلما هي ابنة الأب الذي أنجبها، فهي بمقتضى عقد الزواج، زوجة ذاك الذي يحوزها.

واذا ما صادف أن كان الزوج مسنّا وبالضرورة غيورا (وللمسكين ألف عذر ليكون كذلك) فلا ينبغي لها أن تتردد لحظة في قطع هذه العلاقة المستبدّة وأن تلقي بوشاحها إلى أحد الأبطال الشجعان... إنّها غلطة الشيخ المغفّل الذي يرتكب حماقة الزواج بشابة. إن القديرة ماري الفرنسية تعلن عن ذلك بكل وضوح: «ذلك هو حكم الطبيعة فكل الشيوخ هم شكاكون بطبعهم وعندما يتزوجون شابات فلا أحد يستغرب عندما يعلم بخيانتهن لهم»[1].

كان الوسيم أكيتان Equitan الذي عرف بصفته ملك نانت Nantes يؤمن بفكرة مماثلة تقول إنّه «لاتوجد امرأة جميلة، لا ترغب، وإن كانت شريرة، في أن يكون لها عشيق، وحتى إن لم تكن تهيم به حبا فهي تحب ظرفه... كما أنه لاتوجد قط امرأة على وجه البسيطة لاتضحي في سبيل حبّها».[2]

لم تعد العذرية التي طالما مجدت في القرون الأولى للمسيحية ونالت حظوة كبيرة في ظل الميروفنجيين أمرا مستساغا، فقد استعيض عنها بالحب العاطفي والرقة الشاعرية[3]. ولم يعد الفجور مقبولا مثلما كان في العصور السابقة، فلا أحد ما زال يفتخر بمغامرات الفحش القديمة، بل إنّ الناس أصبحوا يستترون إذا عصوا وبقدر ما يشهرون هيامهم العاطفي بكل عناية كانوا يخفون شهواتهم الإباحية. ومع ذلك كان لابدّ لكلّ فارس من صديقة ولكلّ سيّدة من فارس عاشق. إنّه لأمر واجب وجوب قانون إداري عمومي.

---

(1) *Lai de Guyener*,t, I, p. 65

في الحكاية الشعرية «إيوانك» *Ywenec* تذكرت السيدة سجينة الزوج الشكاك أنها سمعت أنه في الزمن الماضي، عاشت النساء المضطهدات في أحايين كثيرة مغامرات وضعت حدا لأحزانهن، وأن الفرسان كانوا يصادفون عشيقات جميلات، وأنه لاضير أبدا على السيدات في أن يخترن عشيقا شابا وسيما وشجاعا ومتفتحا.*(Lai d'Ywenec,p.281)*

(2) (*Lai d' Equitan*, p. 119)

(3) ان المرأة التي تعزم على أن تصبح صديقة فارس، تبرهن على ذلك أولا بأن تشاركه الأكل في نفس الآنية، مثلما هو واضح في الحكاية الشعرية: **البغلة الجامحة** *la mule sans frein*، وفي مرحلة ثانية تجلسه على السرير بجانبها. ولا ينبغي أن يذهب بنا الظن بعيدا طالما أن السرير يعني في القرون الوسطى **الأريكة ذات المقعدين** (*la causeuse*).

لقد انخرط المجتمع برمّته في تيّار الظرف الغزلي، فاذا توجب على كل امرأة ظريفة أن يكون لها محب، فمن المنطقي أن يدع الأزواج زوجاتهم يحببن من يشأن بكل حرية والا عدّوا من الشكاكين الذين «لا يجرؤ أحد على أن يشفق عليهم عندما تخونهم زوجاتهم». لقد كان على أهل الشمال أن ينالوا حصتهم الفلسفية من هذا التيار مثل أهل البروفانص. ويجوز لهم الآن أن يتساءلوا ماذا استفادوا من حربهم على الكتار ومن حلّ مجالس الحب.

شغف أكيتان ملك نانت بزوجة قهرمانه. ولكنه أمّن نفسه من غضبة هذا القائد في صورة توصله الى اكتشاف مغامرته العاطفية مع زوجته وذلك بالقول: «بأنه لاينبغي له أن يدّعي امتلاكه زوجته لوحده. «لقد كان هذا الملك النانتي الشاب منطقيّا جدّا في إيمانه بهذه القواعد. فهو يريد التمتع بامتيازات سلطاته الملكية. لذلك هو يؤكد أنه «لاتوجد أبدا امرأة شريفة يمكنها أن تمنع نفسها عن أمير»[1].

ولكن يوجد ما هو أفضل من هذا! يبدو أن الأزواج في فرنسا وإنجلترا قد تواطؤوا لمصلحة العشاق طالما أنّهم فخورون بمحاسن زوجاتهم ويسارعون إلى إشهارها[2] فكانوا

(1) Lai d' Equitan, p, 119 à 121

(2) لقد عرضت مجموعة من الحكايات الشعرية مغامرة الملك كاندول Candole. في الحكاية الشعرية: قرايلت Graelent كان ملك مقاطعة بريطانيا يفتخر بمحاسن زوجته فقد اعتاد، أيام الحفلات، أن يجلسها على دكة،، وأن ينزع معطفها حتى تتيح ملابسها الشفافة لأعضاء مجلسه وللغرباء أن يتأملوا جيدا رشاقة قوامها ثم يسألهم إن كانوا قد صادقوا في جولاتهم امرأة تضاهيها جمالا:

عندما حان موعد المأدبة
أجلس الملكة
على دكة بارزة ومزخرفة بعناية فائقة
ثم قال للحاضرين
ما رأيكم أيها السادة
هل رأيتم في الدنيا أجمل منها؟

(Marie de France , *Lai de Graelent*)

لم ننس أن نذكّر بأن مثل هذا النوع من العرض (exposition) كان يحظى بإعجاب الملك احشويورش ولكن الملكة وشتي Vastli لم تكن تستسيغه وكانت ترفض المشاركة فيه.

يعرضونهن أمام أعين الفرسان فيثيرون إعجابهم بهن.

حنق الملك أرتوس Arthus عندما بلغه أنّ الفارس لانفال Lanval كان يرى صديقته أجمل من الملكة جينافر Genevre، وجمع مجلسه حتى يثبت الجريمة على الفارس ويحكم عليه بالموت. كان الفارس سيخضع للمحاكمة الرهيبة، عندما جاءت صديقته، التي لم تكن سوى ساحرة، تبهر القضاة بنور محاسنها التي لم يعترف لها بها. ولقد اقنعتهم بأن الفارس لانفال لم يخطئ عندما رآها أجمل من الملكة(1).

إذا كان كلّ فارس يتخذ له عشيقة دون استشارتها، واذا كانت كل امرأة تتخذ فارسا دون أن تأبه كثيرا للزوج المخدوع، ها نحن، كما يقال، في عصر الانحلال الأخلاقي المفجع... فما الفرق بين هذا الفجور وذاك الذي عرفه الإغريق والرومان زمن انحدارهم؟ هناك فرق معتبر... إنّ الحب في العصر الوسيط لم يكن أساسا حبّا جسديا حتى في مرحلته الأخيرة، إنه عاطفي أكثر منه حباً جسدياً. فقد شكّل كلّ من الوفاء والإخلاص والمروءة ورفعة النفس وباختصار كلّ الفضائل سياجا حاميا له. وهي الفضائل التي لم يكن يُؤبَه بها أبدا في العصور الغابرة.

إن هذا الوفاء في الحب غير الشرعي أمر حديث جدا، وهو يعود في نفس الآن إلى المسيحية وإلى الفروسية. فقبل طبع الإنجيل لم يكن الحب خارج إطار الزواج بالنسبة الى الرجل والمرأة، سوى تسلية لا تلزمهما بغير المتعة، فلكل منهما الحرية الكاملة ليخون الآخر أو يهجره، يشهد لذلك كلّ الشعر الشبقي في بلاد الإغريق وفي روما. ولكن منذ أوائل المسيحيين ارتبط الحب بالزواج ولم يسمح به خارج اطار هذا الوضع القانوني. أمّا العصر الوسيط فقد سمح بالتشريعين واحترمهما. ذلك أنّه أخذ عن العصور القديمة الحبّ الحرّ العابر وزيّنه بالوفاء والاخلاص وبفضائل أخرى حبته بها المسيحية.

ومع أنّ فارس الشمال قد يسمح لنفسه بخيانة سيّدته المحبوبة عندما يرضي بعض نزواته الجنسية فإنّ ذلك ليس بالأمر الخطير ولا يشوّه صورة الحب المثالية، ففي نهاية

(1) Marie de France, t. 1-229 – (207)

المطاف لا أهمّية لهذه النزوات. إنّ ما يغنمه عرضا من لذة لدى الوصيفات يعتبر أمرا عاديا شأنه شأن اللذة التي يفوز بها الفارس البروفانصالي من راعيات الحقول. بل إننا نرى ربّات قصور يؤثرن أحيانا هذا النوع من المواعيد بسذاجة نسمّيها قلة احترام.

ولكن أخلاق العصر تغفر كل ذلك وإن هي غير متسامحة في المسائل الدينية فإنها متسامحة تسامحا كبيرا في الحب.

إنّ واجب الضيافة كان يفرض على النساء المحبوبات ان ينزعن عن الفارس الجوال حذاءه وثيابه عندما يدخل قصورهن ويوفّرن له سبل الراحة فيضعنه في حوض ماء دافئ ويعددن فراشه وينمنه فيه بكل لطافة ممكنة. ولكن من المؤكد انهن سيتجاوزن تلك الخدمات اللطيفة فنحن نقرأ في إحدى **الحكايات الشعرية**:

ثم جلست الكونتيسة
ونادت أجمل وصيفاتها وألطفهن
وأسرّت لها قائلة: عزيزتي الغالية
لا تهتمّي، وأسرعي لتنامي إلى جنب ذلك الفارس.

حقّا إنّ الأمر غريب فمن الصعب علينا النظر إلى هذا السلوك على أنّه سلوك شائع أو في حكم الشائع. اننا فعلا نريد أن نصدق أنه استثناء.

لنتجاوز هذه التفاصيل ولنركّز على العصر في شموليته.. لقد أفضت مجالس الحب ومنازلاته إلى نفس النتائج، فقد أشاعت الحب العاطفي الرقيق والشاعري والفروسي وقد استفادت من ذلك الفنون الجميلة وكذا ظاهرة الظرف. ورغم أنّ أخلاق آباء الكنيسة لم تستسغ هذه الردّة فإنّ مجالس الحبّ ومساجلاته ظلّت تحترم بعض التعاليم الدينية. كلّ ذلك أفضى إلى نشوء حضارة ذات خصوصية انتشرت من إنجلترا إلى إيطاليا ومن إسبانيا إلى سكسونيا. وبها تشكلت أوروبا المتميزة جدا، أوروبا هي في الآن نفسه ظريفة وأرستقراطية وشريفة ومسيحية. إنّه تزاوج عرقين عظيمين، العرق اللاتيني والعرق

الجرماني، فبعد أن تحاربا اختلطا واندمجا في تجانس شمل العادات والمظاهر الخارجية، والعقائد الدينية والسياسية. وقد أضاف إليه الحب والظرف وحدَّة الأدب والأخلاق.

وبفضل انتصار هذا العامل الحضاري غنمت المرأة في أوروبا حرية تامّة بكيفية لم تكن تحلم بها، فلم تحصل على الحرية فقط بل كذلك على السلطة العليا؟ إنّ الرجل الذي كان سيّدا مطلقا في العصر الكارلوفنجي قد جاء دوره ليكون عبدا، فلم يعد بإمكانه أن يتصور أيّ شيء ولا أن يخطّط له ولا أن ينجزه دون الموافقة الصريحة للمرأة، فلم يعد من الممكن أن ينجز أيّ عمل حيويّ إلى حدّ ما في أوروبا دون مرسوم يوقعه **الجمال**. إنّها ثورة عميقة وجذرية لا مثيل لها؛ ففي غضون قرنين انتقلت المرأة من أقصى درجات الاضطهاد إلى قمة القوة. وطالما أنّه من الصعب على المرء أن يحوز فضيلة **الاعتدال** الهوراسية ***l'in medio consistit virtus d'Horace*** فقد تحوّلت المرأة من النقيض إلى النقيض. ولقد عبرت بعض الأمثال الفلسفية بقوة عن هذا الانتقام النسوي، فصورت الحب باسطا سلطانه على أرباب العلوم في العصور القديمة، مثلما هو شأن أبيلارد Abeillard، فمجّدت في ما يشبه الشعر العاطفي مبلبل النفوس الكوني هذا:

لقد تجرأ أرسطو على إنكار حبّ الكسندر Alexandre، فأقسمت الحسناء الهندية التي استولت على قلبه آنذاك بأن تنتقم منه. نزلت إلى الحديقة في زي شفاف وخفيف كان المناخ الحار قد سوّغ لباسه. شاهدها أرسطو وهي تقطف الزهور وسمعها تنشد أغاني غاية في الإغراء.. فتن بها واختلجت جميع حواسه، فاهتاج ونزل إلى الحديقة يبحث وبنظر ثم أطلق زفرة. وبعد أن أنكر على ملكه **جنونه** حسده على نعيمه. اقتربت منه الهندية وسمعت **تنهّداته**، وما باح به،ولكنها لم توافق على الإصغاء إليه إلاّ بشرط أن ينحني على قوائمه الأربع وأن يوضع على ظهره سرج وحول رأسه لجام وأن يجعلها تركبه كما لو كان دابة ذلولا. لقد أضاع الفيلسوف فلسفته وانصاع. وهكذا سعدت الشابة بأن عرضت على الملك وأعوانه المشدودين إلى فرادة المشهد، الفيلسوف عدوّ الحب، ساعيا إلى اللذة الحسّية، وقد مسخ دابة تركب. وختم المثل الفلسفي بالقول:

حقّا إنّ الحب يولد سريعا وينتصر سريعا على مدى الوجود[1].

أرادت امرأة غالية نازلة بروما أن تنتقم من أبقراط Hippocrate فتباهت بأنها ستفقده وقاره، وبالفعل استطاعت أن تلهب مشاعره وتجعله يهتمّ بها. ثمّ زعمت أنّ بعض الرقباء منعوها من أن تنعم بلقائه فطلبت من هذا الطبيب العاشق أن يأتيها ليلا تحت شرفة شباكها، ووعدته بأن ترمي له حبلا وسلّة كبيرة ترفعه بهما إلى شرفتها. ابتلع الوقور ابقراط الطعم بسهولة وجاء إلى تحت نافذتها وأتى الاشارة المتفق عليها ثمّ تكوّر في السلّة وأحسّ بها ترتفع به... وفي منتصف مسافة هذا المعراج العاطفي توقفت السلّة عن الحركة وظل المسكين معلقا إلى هذا العمود الطائر حتى قبيل الصبح معرضا لنظرات الجموع الذاهبة إلى السوق والتي كانت تحييه هازئة وساخرة.[2].

لم يكن شعراء العصر الوسيط بالجهل الذي نتصوره. لقد اهتموا بدراسة العصور القديمة أكثر بكثير مما نتصور. فنهلوا دروسا في الظرف الهزلي من أفضل مصادر الأدب الكلاسيكي وكانوا مطلعين على كتابات أوفيديوس وأناكريون Anacréon مثلما كانوا أيضا مطّلعين على **الإلياذة والأوديسا**.

نقل لنا مثل فلسفي بأسلوب أنيق قصة نرجس Narcisse وقد تحول إلى زهرة ينبوع. لا شيء يعادل بساطة وانفعالية حب طرأ على فتاة شغفت دون أن تعرف لماذا، بحسن فتى بارد العواطف[3]. تستعيد **القصة الشعرية**: **«لانفال»** *Lanval* بدقّة كبيرة مغامرة أوليس مع

(1) Legrand, t. I, p. 218.

(2) Legrand, t. I, p. 252.

(3) «انزوت تتحسر حزينة ومهمومة. كل جسمها كان يرتجف. لقد أحست بحرقة وكان ألمها شديدا حتى إنّ وجهها ذبل في سويعات قليلة. وحتّى الليل لم يسكّن آلامها أبدا لأنها دائمة التفكير في نرجس. وعلى أمل أن يمحو النوم هذه الصورة نامت. ولكنّ الحب لا يدعها وشأنها. وعبثا بحثت عن وضع يهدئ من روعها. ولكن كل الأوضاع كانت بالنسبة إليها لا تحتمل، فقد ضاعفت من قلقها وزادت من خفقان قلبها فصاحت: من يعكّر مزاجي؟ من أين لي هذه الاختلاجات وهذا الخفقان اللاإرادي؟ إنّ نارا بداخلي تحرقني. إنّي أحسّ نفسي في ضياع. لماذا أنشغل على الدوام برجل يعذبني؟أه ما قيمة حسنه إذا كان بلا شهامة؟ وهكذا مرت ليلتها في البكاء والعويل إلى أن هبت نسائم الصباح فهدأت شيئا ما من غمّها. لقد أرهق الضنى والتعب الأميرة منكودة الحظ فاستسلمت للنوم. ولكن صورة نرجس كانت تطاردها حتى في نعاسها فأفاقت مذعورة أكثر من ذي قبل...» «افاقت لتلعن مكانتها الاجتماعية=

الساحرة كاليبسو، وتشهد لمؤلفها بمعرفة معمقة بالعجيب الذي وظّفه هوميروس.

تمدّد الفارس لانفال، أحد شجعان قصر أرتيس، في مرج أثناء إحدى جولاته وفجأة شاهد فتاتين جميلتين تقبلان نحوه وتقولان له بكلّ لطف أنّ سيّدتهما الجميلة واللطيفة ترجوه أن يزورها في قصرها. قبل الدعوة فاقتادتاه إلى جناح وصفت ماري الفرنسية بذخه الشرقي بكلّ التفاصيل الرائقة.. ولكن أجمل شيء في هذا القصر الساحر هو سيّدته. كان جمالها يفوق جمال زهرة الزنبق ووردة الصباح. كانت مستلقية على أريكة بديعة أغلى من أجمل القصور. وكان فستانها يكشف عن خصر رشيق. ورداؤها الفخم المبطّن بفرو القاقم والموشّى بالأرجوان الاسكندراني يغطّي كتفيها وقد دفعتها حرارة الطقس أن تنحّيه قليلا. وعبر هذه الفتحة التي جعلت شقّها مكشوفا ترى العين بشرة أنصع بياضا من وردة الشوك. ومن ذا الذي يجادل في كونها أجمل من في الدنيا؟ لقد كانت من فصيلة الساحرات. وفجأة اعترفت للفارس لانفال بحبّها له فأقسم بأن يطيعها طاعة عمياء. وللتمكين لهذا الوعد المتبادل تصرّفا كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض منذ مدّة طويلة فظلاّ مستلقيين على الأريكة إلى آخر النهار. وقد حرصت ماري الفرنسية على أن تضيف بأنّ «لانفال كان مرتاحا جدا لهذا الوضع ولولا أن صديقته دعته إلى القيام لظلّ على تلك الحال البهيجة طويلا.» ولاحقا تحلّقا حول مائدة الأكل «ورغم أنّ الطعام كان شهيّا تفوح منه رائحة اللحم، فقد كان للانفال وجبة يفضّلها على كلّ الوجبات الأخرى وهي تقبيل صديقته واحتضانها بين ذراعيه».

=ولتعلن يأسها. ثم صرخت: واسفاه! لقد قالوا لي بأن الحب على غاية من العذوبة. فما اتعس حالي. إنّني لم أعد قادرة على تحمله، إنني أريد أن أعلم هذا الفتى الطيبي (من طيبة) بالرغبة اللطيفة التي ألهمتني إيّاها رؤيته...» وأخيرا وافته الأميرة وباحت له بعواطفها المتأججة. ولكن نرجس ظل بارد العواطف، شغوفا بجماله هو فقط، فسلط عليه عقاب النرجسيين الذي اشتهر على يد أوفيديوس (Legrand, t, I, p.196).

8
الظرف والورع

لم تكن المغالاة التي أفضى إليها الحبّ الفروسي كافية بل أضيف إليها التعصّب الديني الذي أفضى بدوره إلى مغالاة أكثر مدعاة للأسف.. لقد جمع الحب الأول بين تحرير المرأة وتمجيد الشجاعة والمشاعر النبيلة. أمّا الثاني فقد أفسد هذه العوامل الحضارية وأحلّ محلّها المجون.

عندما نقل أهل الشمال إلى داخل مجتمعهم الظرف الغزلي الجنوبي وجدوا أنفسهم منقسمين إلى فريقين: أنصار الظرف الغزلي الفروسي الذي كنّا بصدد الحديث عنه وأنصار الظرف الغزلي الورع. الأول هو نتاج مجالس الحبّ المشوبة بالشجاعة المماحكة التي تضمّنتها الروايات الكارلوفنجية، أمّا الثاني فهو نتاج نفس تلك المجالس ولكن ممزوجا بروايات «**الكأس المقدّسة**» البروتونية، و**بمؤلفات الزهد** الإسبانية وبتصوّف **أوفياء الحب** في إيطاليا. لقد استهلّ الشعراء الجوالون هذا الجنس الأدبي بتقليدٍ وفيٍّ لمجالس الأنس التي تجرّؤوا على نقلها إلى الجنة. لقد كان المشهد ظاهر المجون. ولولا تاريخ المخطوط الذي يذكّرنا أنّ بساطة الإيمان في القرن الثالث عشر كانت تسير يدا بيد مع بساطة الحب وقد انحدرا في أحايين كثيرة إلى درجة الدنس لخيّل إلينا أنّ هذا المشهد هو عمل هجائي من تأليف أحد أسلاف فولتير Voltaire أو بارني Parny. لقد جعل الشعراء، بشيء من الصبيانية، العذارى والشهداء أبطالا لحكاياتهم الظريفة، والحواريين قضاة يفصلون في هذه النزالات الشبقية والمسيح وأمه يديران هذا الجدل[1].

---

(1) لقد اختار الربّ عيد جميع القدّيسين Toussaint ليدعو الأبرار من الجنسين «من غرفهم وكنسهم ليشهدوا **مجلسه العام**. وفي الساعة الموعودة حضر الملائكة ورؤساؤهم والمتبتلات والشهداء والنساك والراهبات إلى الغرفة حيث كانت مريم وابنها في انتظارهم. افتتح البطاركة الحفل فأنشدوا أغنية شعبية على غرار بقية الأغاني. تقول الأغنية: **إنّني أحيا بالحبّ وكلّي أمل**. ثمّ أتى دور الحواريين فرجوا **الصديقات** أن لا يتبن أبدا عن **الحب الصادق** لأنّ **اللذة في الحب الصادق**. وقد بدا للشهداء الذين عاشوا تجربة الألم القاسية. أنه يجب على ذاك الذي ابتلته الحياة الدنيا بالألم أن يأمل في سعادة أخروية».

وأمّا كهنة الاعتراف فإنهم لم يعيشوا أبدا بدون الحبّ وتعاهدوا على أن يحافظوا على هذه العادة الطيّبة. والقديسون=

هذا الخليط من الورع والحب الهازل لم يقتصر على الحكايات الشعرية العجيبة بل اكتسح كلّ الأغراض الأدبية مثلما اكتسح مجال الأخلاق. عندما تخلى شعر التروفار عن النهل من رواية «الطاولة المستديرة» ليجد له موضعا في فنّ الحكاية الشعرية، فقد

=الأطهار هم بدورهم – يعرفون رغم قلة خبرتهم – كيف يتنبؤون بأنّ هذه حال من يحيا بالحب ويحب الخير. وأمّا العذارى الشهيدات، كاترينا Catherine وسيسيل Cécile وأنياسAgnes ومارغريت Marguerite فقد مررن ينشدن تقودهن التائبة الكبيرة مريم المجدلية « واتجهن مسرورات إلى أصدقائهنّ».

إنّ الذين يعتقدون أنهم سيجدون في نشيد الأناشيد رمزا لتعلّق الكنيسة بالمسيح سيبحثون ربّما في هذا المجلس العام في الجنة عن رمز حب للملائكة والأبرار الصوفي لحبيبهم السماوي. ولكن بقيّة الحكاية الشعرية ستجعل تمسّكهم بهذا التفسير صعبا للغاية. إنّ الحفلة ستنحو منحى هازلا وستكون صورة لحفلات Prés–aux–clercs الصاخبة.

صاحت الأرملة المتشحة بحجاب أسود، بكلّ سذاجة:

أجل لقد أحببت بجنون.

ولكنني تبت عن ذلك وصرت رصينة.

ثمّ تقدّمت الزوجات اللواتي قضين بين أحضان أزواجهن «باعتبارهن سيّدات متجهات إلى أصدقائهن». ولمّا كان عدد المدعوين كبيراً أمر الربّ القديس بطرس بأن يغلق الأبواب، وأن يدعو كلّ العاشقين إلى الرقص، وأن يغلق الأبواب دون أولئك الذين تجرّؤوا على أن لا يتخذوا صديقات. وضعت مريم يدها في يد مريم المجدلية وطفقت تجوب الغرفة مرددة:

ليتقدّم إلى الرقص،

كلّ العاشقين ولا أحد سواهم.

وكان الإنجيليون الذين وضعوا على الأبواب يجيبون بأنهم موجودون هناك ليمنعوا أيّ أحد من أن يأخذ معه جوقة آلهة الورد إذا لم يكن عاشقا.

وقد دفع المسيح بالأمور قدما إلى حدّ أنه طلب من الضيوف:

قبّلوا بعضكم البعض حبّا،

قبّلوا بعضكم البعض.

ثمّ أضافت مريم المجدلية بأسلوب غاية في الإغراء:

من أنا يا ترى؟ انظروا إليّ

ألست جديرة بأن أحبّ؟

لم يكن يكفي أمّ المسيح معزية الحزانى أن تتفكر في فرحة الأبرار الطفولية هذه فقد كانت تسعى، إضافة إلى ذلك، إلى أن تغنم لحظات أنس لفائدة نزلاء البرزخ وأن يلتزم لها ابنها بتمكينهم من بضعة أيام من البهجة.

ولكن مؤلف هذه الحكاية الشعرية الملحمية الهازلة حرص على أن يضيف، برهنة منه على أرثوذوكسيته، أن هذا المعروف يظل حكرا على نزلاء البرزخ، فالمحكومون بالعذاب المؤبّد لا حق لهم أبدا في لحظة راحة.(Legrand ;Fabliaux. T
(V.p 87 à 104

تخلّى بذلك، لفائدة فنّ الرواية، عن أهوائه العنيفة ومغامراته الكبرى. ولم يحتفظ سوى بعاطفة الحب ممزوجة بحماسة روايات «**الكأس المقدّسة**» الدينية. إن حركتي القلب هاتين قد انطلقتا باتجاه الخالق وباتجاه مخلوقاته لتنشئ الحكاية الشعرية الصوفية والظريفة.

ينبغي لنا أن نؤكد على أنه لا ينبغي البحث عن صورة العصر الوسيط الأخلاقية في روايات الفروسية... بقدر ما ينبغي البحث عنها في **الأقاصيص والحكايات الشعرية** الفرنسية والبروتونية وفي الأغاني الإسبانية Cancioneros. إنّ الحكاية الشعرية ليست في الحقيقة وكما يقول القصاص أنفسهم في ديباجاتهم سوى حكاية حدث واقعي من حيث المضمون تمّ التصرّف فيه وتعديله قليلا. وعلى العكس من ذلك فإنّ الرواية باعتبارها جهازا ضخما ذا قدرات كبيرة على تصوير الأحداث هي مجال حقيقي لانفلات كلّ الخيالات الصبيانية، فيظهر فيها المؤلف ثملا بطعنات السيوف ورائحة غبار المعارك مفتونا بالرؤى والغيلان والجبابرة وينتشي بالفياضانات والحرائق والكوارث الطبيعية فيصوّرها في مشاهد عجيبة غريبة. إنّ فلتان خيال جامح يجاهد عبثا ليكون مدهشا وواسعا قد أتلف كلّ شيء وأفسده. وعلى العكس من ذلك ففي الحكاية الشعرية فإنّ حكاية بسيطة وساذجة ومؤثرة توشّي الحقيقة بكلّ ما في المشاعر من جمال فطري.

إنّ المدرسة الأدبية التي ستجمع بين الورع والحب لم تظهر بعد إلى الوجود.

لقد وقفنا على انبعاث المسرح في القرن العاشر الذي أبرز على الركح صراعات من نفس النوع؛ فقد أوقفت الراهبة هروزفيتا معارفها اللاهوتية على دراسة هذا التزاوج بين النزعة الحسّية والإيمان الديني. وأمّا اليوم فقد ذهب النساك، مؤلفو أغلب الحكايات الشعرية الصوفية، في الخلط بين الفاحشة والتقوى مذهبا بعيدا.

إن نظرتنا للحب من هذه الزاوية الجديدة ليست أبدا سعيا وراء الفضائح وإنما هي نظر في الأخلاق لا يمكن التغاضي عنه في هذا الموضوع الذي يشغلنا. إننا لا نود رؤية القس والراهب وقد دفعا عنهما ما يشدّهما إلى الدنيا حتى في لحظة ضلال، بل نود أن نراهما وقد دفعا عنهما الغواية التي ينسبونها بأنفسهم إلى الشيطان.

لنسلم بدءا بأن رجال الدين لا يتورعون عن استخدام كل الطرق لإخضاع الجبلّة الإنسانية للتعاليم الدينية. ولكنّهم يستجيبون لهذه الجبلّة عندما يتطلّب الأمر محاربة مكائد الشياطين التي تدفعهم إلى التمرّد على ما نذروا له أنفسهم من عفّة.

لم يكتف رجال الدين بأن ألزموا الرهبان بالصوم والزهد والتقشف بل عمدوا، لكبح شهواتهم الجنسية، إلى دواء فعال هو الفصد. فقد كان لكل دير في العصر الوسيط **أيامه المخصّصة للعلاج**.(**ses jours malades**)، **أيام الفصد**. ومنذ المجمع الكنسي المنعقد في إيكس لا شابال Ex – la – chapelle سنة 817 اتخذت هذه العادة أبعادا أضرّت بصحة الرهبان فمنعت ممارستها خارج إطار الحالات الضرورية ودون إذن الطبيب. ولكن الرهبان لم يعيروا أي اهتمام لهذا المنع فقد كان أتباع القديس نوربارت (les Chartreux) وأتباع القدّيس برونو (les Prémontres) يمارسون **الفصد** و**الكيّ** خمس مرات في السنة. وأمّا الكلونيون (les Clunistes والشمامسة (les Chanoines). فأربعا[1].

تجاوزت عادة الفصد السيّئة الصوامع لتنتقل للمجتمع فقد مارس بعض الأزواج الغيورين الفصد للحدّ من هياج زوجاتهم الجنسي المزعج. إحدى المتزوجات الشابات لم تكن راضية بالشيخ الذي تزوجته فأرادت إخضاعه لمشيئتها. وانتهى بها الأمر إلى أن اتخذت عشيقا دون أن يتجرّأ على الاعتراض. تحمّل العجوز بصبر فعلتها المستبدة الأولى ثم الثانية. ولكن لمّا ظنت المرأة أنها أخضعت الزوج لإرادتها ومن ثمّ سمحت لنفسها بثالثة دعا طبيبا وفصد تلك الزوجة المتمرّدة فصدا قويا فسقطت على إثره مغشيا عليها. ولمّا أفاقت ممتقعة اللون منهكة كما لو أنها كانت تحتضر حذّرها من مغبّة المواصلة في طريق العصيان ووضع في خلدها أنه سيلجأ إلى هذا المسكّن الذي استعمله للتوّ كلما عنّ لها أن تستبدّ به. فما كان من الزوجة التي شارفت على الهلاك منذ الفصدة الأولى إلا أن وعدته بأن لا تعرّض نفسها لفصدة ثانية وبأنها لن تتطلع أبدا إلى التلهي بفارس عاشق[2].

(1) Roquefort ; note de la traduction de M.F t I p. 129

(2) Legrand, t III , p. 177 et 188

عرف الفصد رواجا بين صفوف الفرسان كذلك. ولكنّهم لم يستعملوه للحدّ من الاهتياج الجنسي ولكن لحفظ =

لقد كانت المسكّنات الفكرية والأخلاقية المخصصة للحدّ من هياج الحواس قليلة الفاعلية، فقد كان لدى مؤلفي الحكايات الشعرية الأخلاقية طريقة لتمجيد الفضيلة ومحاربة الرذيلة استلهموها من مسرح هروزفيتا Hroswita. وهي طريقة مثيرة للجدل من حيث نتائجها. فقد كانوا يصوّرون مشاهد الفاحشة الأكثر فظاعة بأبشع الأساليب. ثم إنّهم لمّا يتضرعون إلى المسيح والملائكة والعذارى والشهداء حتى ينجدوا المذنب فإنّهم في الآن نفسه لا يستحون أن يزجّوا بهم في وحل التهتك... وهكذا يتصارع في روح الإنسان وجسده الإله والشيطان، والتعفّف والإخلاد للشهوة الجنسية، صراعا ضاريا. وإذا كان الإله هو المنتصر لامحالة فإنّ المذنب الذي يدخل الجنة ما يفتأ يثير الشفقة.

إن المؤلف لا يزعجه التناقض فكلما كانت آفة الرذيلة شائنة كان نجاح المخلص السماوي معجزا وسمعته القدسية معتبرة.

إن حرب القديسين على الفجور قد رويت بحماس عنيف ضمن سلسلة من الحكايات الشعرية كتبها نساك على قدر كبير من التقوى. وكانت موجهة إلى المسيحيين في قصورهم وإلى الكهنة على موائد طعامهم في الأديرة.

لقد كان القديس أنطونيو Saint Antoine وهو في الصحراء تلاحقه صور البذخ في روما وصور ذكرى عاهراتها: روى القديس جيروم أنه في ظل حكم الامبراطور ديسيوس Décius قرر مضطهدو المسيحيين إرغام أحد الشهداء على الاستسلام لإغراء مماثل فقيّدوا يديه ورجليه وعرّضوه لإثارة امرأة فاجرة. ضاق المؤمن بالوضع ولمّا لم يجد شيئا يقذفه بها قطع لسانه بأسنانه وقذفه بها في وجهها.

= توازنه. كانوا في العادة ينعزلون في أديرة حتى ينقطعوا إلى ممارسة هذه الوقاية الصحية، وفي بعض الأحيان كانوا يمكثون بين أفراد عائلاتهم بجانب صديقاتهم اللواتي يبدين حرصا على العناية بهم. وكانوا يتعلّلون بالفصد ذريعة لمراوغة العذّال والرقباء ولتأمين المواعيد السرية. فكيف نصدّق أن فارسا يقال إنه في يوم علاج ينزوي في بيته لينفرد فيه بسيّدته. فهذا ملك نانت يعلن للناس كلّما رغب في استقبال زوجة قهرمانه أنه في يوم فصد ويدعوهم إلى تركه يستريح وأحيانا يكون الأمر أكثر جدّية فيتواطأ مع حاجبه فيعلن للجميع أنّه بصدد تناول غدائه أو أنّه يلاعب أحدهم الشطرنج.

(Marie de France, t I p. 127, 135)

هذه الحكايات التي كان ينظر إليها في العصر الوسيط على أنها مدعاة للتقوى أضحت نقطة انطلاق الحكايات الشعرية التي نهتمّ بها وكذا نموذجها. وقد أسهب فيها مؤلفوها الأتقياء إلى حدّ التعصب إسهابا أضر بها.

يروى أن أحد أمراء[1] المسلمين يدعى مالك قد احتجز ناسك الجبل الأسود وسعى إلى ثنيه عن عبادته ودفعه إلى الضلال عن طريق النهم والشهوة الجنسية. ولتحقيق ذلك أرسل له إحدى محظياته ترغّبه في وجبة جنسية: «جلست الجارية إلى جانبه ووضعت يديها في يديه وقبّلته رغما عنه وأتخمته مداعبات طيلة الصباح» ولكن الناسك لم ينبس ببنت شفة وكان يدير لها ظهره باستمرار.

علم مالك بفشل الحسناء فبعث له بثانية قدّر أنها أكثر خبرة فبلغ إغراؤها له مبلغا نستحي من ذكر تفاصيله. ومع ذلك فلم تكن النتيجة مختلفة عن الأولى. فأرسل ثالثة واستعملت أقصى ما لديها من حيل. ولما أحسّ الناسك بأنه بدأ يضعف لجأ إلى الأسلوب الذي ذكره القديس جيروم فقطع لسانه ورماه يقطر دما في وجه السرية التي فرت مذعورة[2].

إن مغزى الحكاية هو بالتأكيد مؤثر، ولكن الدرس الأخلاقي لا يدرك إلا بعد دراسة معمّقة للنزعة الكلبية الأكثر وقاحة، وإننا نتساءل هل إنّ بناء خاتمة الحكاية الشعرية قد محا نهائياً التأثير السيئ لبدايتها؟

خضع ناسك في أكيلي Aquilée إلى امتحان لا يقل عن السابق خطورة بل يفوقه غرابة، فبعد عشرين سنة من الترهب وإماتة للجسد لا مثيل لها اعتقد صادقا أنه أصبح أقدس إنسان في الوجود. ولكنّه علم أن أحد قضاة أكيلي كان يعيش مع زوجته حياة أطهر من حياته.

أصابه هذا الزعم بشيء من الحنق فأراد التثبت من الأمر بنفسه ومن ثم توجه إلى أكيلي.

---

(1) استعمل المؤلف صفة Duc (= دوق). وهو منصب أو لقب لاوجود له في الحضارة الإسلامية. (المترجم)

(2) Legrand d'Ausy, Fabliaux, t. V, p. 154-164.

وفي الأثناء خرج القاضي ليشدّ بعض المذنبين إلى المشنقة. ولكنه أوصى زوجته حتى تستقبله مثلما تستقبل زوجها. ابتهج الراهب كثيرا وواصل رحلته... وأحسنت القاضية استقباله فآوته ودللته دلالا حتى إنّها أجلسته إلى جانبها على أريكتها. وليمتنع القارئ عن كل تأويل خبيث، فالمرأة الطاهرة كانت على قدر من الفضل جعلها توائم بين الزواج وما نذرت له نفسها من العفة. وإنه لجدير بزوجها القاضي الذي يوافقها الرأي تماما أن يردد مع إدوارس Edwars ملك إنجلترا «أنه منذ مدة لم يعد واثقا إن كان ذكرا أم لا».

لم يكن الناسك على دراية بمآثر التعفف تلك. لقد وضعته مكارم تلك السيّدة العفيفة في وضع لا ينسجم مع ما نذر له نفسه من الطهر. لقد كان الشيطان يغويه بشدة ويلح عليه بقوة، فما كان منه إلاّ أن استجاب له. غضبت زوجة القاضي غضبة صادقة ودفعته بسخط إلى أن ألقت به في حوض من الماء شديد البرودة أعدّته في الممرّ للغرض. وحصل ذلك في شهر ديسمبر... لم يكن ذلك هو كل ما يدل على فضلها بل كان عليها أن تظهر مروءتها كذلك، لذلك تذكرت أن الشريعة المسيحية لا تسمح بأن نترك أخا مؤمنا يموت بردا في حوض ماء، فأخذت الناسك إلى أريكته وبذلت جهدا لتدفئته ولمواساته. تماسك البائس المحروم، وبعد أن تملّكته الشهوة مجدّدا، سقط من جديد في شرك الشيطان ولكن عند أوّل كلمة نطق بها ألقت به من جديد في حوض الماء.

ولكن، مع الاختبار الثالث أدرك مدى طهر هذه المرأة وقد جسدته بسلوكها الممانع، فلكي تجعل هذه المسيحية المتحمّسة مجاهداتها أكثر صدقا فرضت على نفسها الصوم والزهد في قصر فاخر، وعلى مرأى من خوان فاخر الأطعمة كما فرضت على نفسها أن تظل عفيفة رغم احتكاكها اليومي بالغرباء الذين كانت تستقبلهم في حجرتها.

كان الناسك قد أصابه الذهول من هذا الشطط في السعي إلى الكمال الدنيوي فطلب من زوجة القاضي أن تسامحه على ما أتاه في حقها من سوء ظنّ واعتبرها أغرب قديسة رآها. ومن ثمّ عاد إلى صومعته وقد أدرك أن أعمالا جليلة من الزهد تنتظره ليلزم بها نفسه

حتى يكون في مستوى فضائل سيدة أكيلي[1].

تواصل الصراع بين النزعة الحسية والعفة، وهو صراع يعود إلى الكنيسة البدائية، عبر العصر الوسيط وعبر ما عرفه الظرف من تحوّلات. والشعراء أنفسهم تغنوا بذلك حتى في رواياتهم الأكثر ارتباطا بحياة المجتمع.

من ذلك أنّ الفارس جوفان Gauvain وهو من فرسان قصر أرتوس استضيف من قبل سيد قصر ذي عادات مريبة فأنزله في أحسن غرف القصر. وأوكل على خدمته ابنته الوحيدة ودعاها إلى أن تجيب كل طلباته.

انزعج الفارس من هذه الثقة المفرطة ومن هذا الظرف اللذين قد يكون ثمنهما تعرّضه لمخاطر كان رعاة البلد قد دعوه إلى أن يحذرها. فقد أخبروه بأن مودة سيد القصر اللامحدودة إنما هي ستار لخطط غريبة وجهنمية إذ أنهم كانوا باستمرار يرون المسافرين يخرجون من عنده محمولين على ألواح باتجاه المقبرة.

ولم تتأخر ابنة سيد القصر، وقد انفرد بها في غرفة مغلقة، أن تحدثه بما حدثه به الرعاة. لقد بدأ حبه يتمكنّ منها. وهي لا تتمنى أبدا أن يناله مكروه، لذلك رجته بأن لا يتودّد لها فأدنى تودد منه تجاهها سيعجّل بموته.

اهتم قوفان لهذه الأمور الغريبة، وفي المساء، وبعد العشاء، بلغت مودّة سيد القصر ذروتها فطلب من الفارس أن يتخذ ابنته **صديقة له**. وحتى يسهّل ارتباطهما دون تكلف ادّعى أن لديه عملا ينجره وبذلك ترك ابنته في القصر صحبة الفارس الغريب ودعاها إلى أن تسليه. ولم يكن لدى جوفان أدنى شك حول نوع التسلية التي دعاهما إليها السيّد. فقد أعد سريرا في الغرفة وأشعل اثنتي عشرة شمعة وأغلق دونهما الباب كما لو أنهما كانا عروسين.

بدآ يهمّان ببعضهما البعض دونما وجل وهما في خلوتهما. ورغم التحذيرات السابقة

---

(1) Legrand, t.v, p. 141, 150.

فقد سعى قوفان إلى إثارتها. دفعته الفتاة، وأخبرته بأنّهما ليسا بمفردهما فهناك شيء ما يحرسهما. وهذا الشيء هو سيف مسحور، كأنه سيف ديموقليس الأسطوري، معلق في السقف، وهو جاهز لينقض على المغامرين الذين يجرؤون على استغلال تشجيعات سيد القصر المضللة فيبالغون في غواية الفتاة الشابة دونما حرج.

ثم أضافت: «إنه آخر الاختبارات التي أعدّها أبي لأولئك الذين أسعفهم الحظ يتجاوز الاختبارات السابقة بنجاح، فما إن يتجاوز أحدهم حدوده حتى يخرج السيف من غمده ويطعن المذنب. ومن بين العشرين فارسا الذين قضوا ليلتهم في هذه الغرفة لم ينج أحد من الموت».

ولما كانت قد أحبتّه سعت إلى أن تجنّبه هذا المصير. ورجته أن لا يعرّض نفسه لطعنات هذا السلاح الغيور. كان الوضع خطرا إذ أن الشيطان أدلى بدلوه في المعمعمة وأسرّ لقوفان بنصائح مناقضة تماما لنصائح الفتاة الحذرة. تقدم الفارس المتهوّر بخطى شديدة الثبات، فانفصل السيف عن السقف وأصابه بخدوش ثم عاد إلى موضعه. عندها توقف الفارس وقد أسقط في يديه. ولكن هذه الشمعات اللعينة تضيء وجه أجمل نساء العالمين فاهتاج من جديد فانقضّ عليه السيف مرة أخرى وأصابه إصابة أبلغ من الأولى. عندها عاد قوفان إلى رشده. وعندما ولج سيد القصر من الغد الغرفة ليحمل الجثة الإحدى والعشرين فوجئ بوجود الفارس الظريف في صحة جيدة.

لا ينبغي لنا أن نتوهم أن إبادة السيد للعشاق هو عمل رجل شرير وفاجر. لقد تخصص السيد في هذه المهنة الفظيعة لغايات آية في الصدق والأبوّة فقد كان يهدف، عبر ليلة العرس المؤقتة التي يعدّها، إلى اختبار الراغبين في خطبة ابنته. لقد كان السيف العجيب يسهر على شرف ابنته ولذلك كان يقتل دون رحمة الفجار والأخسّاء ويستبقي أولئك الذين يجمعون بين الظرف والعفة. ولقد استجاب قوفان للشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوفر في الفارس المثالي. وبذلك صار جديرا بأن يصبح زوج الفتاة الشابة، وأقيم لهما

عرس بعد أن تخلت عن حياة التبتل. وفي المساء انفرد العشيقان في الغرفة وقد غاب السيف المسلط على رأسيهما.

9

دور مريم العذراء في الظرف الغزلي العفيف

لم يكن لجوء مسيحيي العصر الوسيط المدفوعين بشغف إلى الظرف الغزلي عن طريق مسابقات الحب ومجالسه إلى الورع أمرا عبثيا.

لقد كان البروفانصاليون يتجاهلون، بعفوية، شفاعة الملائكة والقديسين ذلك أنّهم مازالوا، من هذه الزاوية، يتوجهون بالدعاء إلى الآلهة الوثنية.

وأما أهل الشمال الأكثر إعلانا لأرثوذكسيتهم فإنهم لم يحتفظوا بأدنى ذكرى من هذه الميثيولوجيا الإغريقية والرومانية. والحقيقة أنها لم تكن أبدا مثيولوجيتهم، ولكن الشعوب اليافعة وربما الغرّة، كما كان شأن شعوب العصر الوسيط، لا تحسن أبدا مواجهة محن الحياة، وصروف الأهواء دون طلب حماية السماء... لقد كان الإفرنج والبورقينيون والبروتون والألمان يعولون كثيرا على ساحرات المثيولوجيا الجرمانية. ولكن نفوذهن اللّين والرقيق لا يؤهلهن لمصارعة قوة الشياطين تلك التي كانت الكنيسة تذكّر بها طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. إنّ الحب الذي أضحى رهن مساعدة الكائنات النورانية الجميلة (Sylphes) والساحرات اللواتي تلبسن فساتين من اللؤلؤ وأردية ربيعية الألوان كان مهدّدا بالسقوط بين مخالب الشيطان لو لم يجد حماة سماويين من الطراز الأول متعودين على دحر الشياطين.

لقد أبدى العشاق في هذا الصدد حذرا وجسارة فقد كانوا ينشدون في السماء العون الأكبر بعد عون الإله، عون أرحم الحماة وأكثرهم تأثرا بالصلوات والدموع. لذلك اختاروا معزية الحزاني، أم المخلص... إننا نشعر ببعض الحرج من قول ذلك، ولكننا بصدد كتابة التاريخ لا بصدد دراسة حول الزهد. لقد رمى كثير من المسيحيين بالإنجيل جانبا واستبدلوه بتديّن نفعي. استبدلوا الآلهة الشبقية القديمة بمريم العذراء وطلبوا من **الوردة**

السريّة[1] *Rosa mystica* مكرمات مماثلة لتلك التي تفضّل بها أبولون وجوبيتار قديما على المحبين.

إن تدخل مريم العذراء لكشف الطوالع العاثرة لهو أمر يثير فضول الدارس، وقد تزامن مع بدعة استحدثت في العقيدة المسيحية.

إن التعبّد لمريم العذراء، ودورها في السماء كشفيعة قد ظلاّ طيلة قرون الكنيسة الأحد عشر الأولى ضمن الحدود التي رسمها الإنجيل وآباء الكنيسة. فقد كانت مريم العذراء أم الإله رحيمة بالمذنبين على وجه الخصوص، ورأس القديسات والملائكة. *regina angelorum, regina sanctorum omnium* ولكن في القرن الثاني عشر وبفعل شغف الشعراء الجوالين والفرسان بالمرأة اتخذ التعبّد لمريم أبعادا خطيرة، فلم تعد مريم العذراء أم المسيح فقط بل هي مالكة أمره بمقتضى سلطتها الأمومية في أقصى صورها. فخصصت لها كل الكنائس وكل الكاتدرائيات أغلب الأعياد الدينية. وأضحت هذه الأعياد تفوق أعياد الرب والمخلّص بهرجا وأهمية فواقا لا مراء فيه.

انبرت الفروسية الظريفة لتمجيد سيدة النساء وكذا الجمهور الحريص أشدّ الحرص على اتباع خطاها، فركنوا جميعا إلى الأفكار الأكثر غلوا. لقد توهم ذلك العصر الغرّ أنه يعظم من شأن مريم العذراء عندما ينسب إليها باطلا قدرتها على أن تنجي كل من يمجّدها في صلواته، من عذاب النار وعقاب الإله.

وإذا ما أردت أن تكون فاجرا ولا تحاسب حتى أثناء الطقوس الكنسية فما عليك إلا أن تتعبد للعذراء وأن تلقى السلام على تماثيلها الصغيرة، وأن تذكرها كل ليلة، ومن ثم يمكنك أن تواصل في غيّك وتموت مذنبا إذا عنّ لك ذلك فمريم العذراء لن تنسى أبدا تعبدك لها فتسارع في اللحظة الحرجة لتنجيك من الإله عندما يهمّ بعقابك، ومن الشيطان عندما يكون قد أوقعك في شراكه. ثم تسكنك الجنة ظافرا.

---

(1) تسمية أطلقتها الكنيسة الكاثوليكية على مريم العذراء منذ القرن السادس عشر وترمز إلى عفتها (الحبل بلا دنس). (المترجم).

لم يكن هناك من بين كل الحكايات التي أدمت القلوب في العصر الوسيط أغرب من قصة خادمة في الكنيسة أنقذتها مريم، ملكة السماء، من فضيحة كبيرة وذلك عندما أغشت عيون المسيحيين عن رؤية أعمالها الفاحشة.

لقد هدت الراهبة الشابة طائفة المؤمنين لمدة طويلة بفضل تعبّدها لمريم العذراء، ولكن جاء اليوم الذي أحست فيه بميل من نوع آخر، ميل نحو رجل وسيم، فتبعته خارج الدير رغبة في أن يعرّفها بحياة المجتمع العجيبة تلك التي لم تعشها.

ولّما سعى الشيطان خائبا لغوايتها كانت مريم العذراء تستعد لتخليصها منه.

وفي اللحظة التي فرت فيها الولهانة الشابة مع غاويها، تقمصت مريم العذراء وجهها وصوتها ولبست ملابسها واتخذت مكانها في الصومعة لتؤدي مهامها فلا يتفطن أحد لغيابها.

إن المرأة غريبة الأطوار حقّا فهي تسأم كل شيء حتى اللذة الجنسية فبعد عشر سنوات من حب كلّه لذّة حسّية نفرت الراهبة السابقة من حياة المجون مثلما فعلت سابقا ماري وتاييس في مسرحية هروزفيتا. فهجرت عشيقها وعادت أدراجها إلى الدير. دقت الباب مرتعشة ففُتح فجثتْ على ركبتيها مثقلة بالخجل والندم. وطلبت أن يغفر ضلالها وهروبها. ولكن عن أيّ هروب وعن أي ضلال تتحدث ؟ هل فقدت صوابها، إنها لم تغادر الدير قط ولم ترتكب أدنى ذنب والدليل أنها كانت منقطعة يوميا لأشغالها. ظلت هذه التائبة محتارة وعندما انفضوا من حولها ظهرت لها مريم العذراء وحدثتها عن التقمص الذي لجأت إليه لتحول دون اكتشاف غيابها. فما كان من التائبة إلاّ أن ارتمت عند قدميها وقد أُخذت إعجابا واعترافا بالجميل. ثمّ استعادت ملابسها القديمة ومهامها. ولم يكن لأحد أن يعلم بهذه المغامرة لولم تروها الراهبة بنفسها حتى تمجّد العناية الخاصة التي حبتها بها سيدةالسماء[1].

---

(1) Legrand, t.v., p 109

ويمكننا الاسترسال في سرد آلاف القصص المشابهة، ولكنّنا نكتفي بذكر القصّة التالية: بالغ أحد الشمامسة من =

إن مريم العذراء باعتبارها في هذا السياق سيّدة وصديقة تفي بالتزاماتها طالما لم نتجرأ على أن نتلاعب بوعودنا لها ولو في لحظة سهو. إنّها تتخذ المسيحيين الذين يهبون أنفسهم لها أزواجا مثلما يقبل المسيح العذارى المتبتلات خطيبات له. إن الزواج الصوفي إذا تم ينبغي الحذر من التنكر له فالزوجة السماوية جادّة كل الجد ولا تعدمها الغيرة.

خشى البابا القديس غريغوروس أن لا يعظم الرومان، المحافظون على بقايا من الوثنية، تماثيل القديسين المنصوبة في الكنائس فسحبها وأقامها في الساحات العامة على أنها مجرد تحف للزينة.

كان أحد الشبان الرومان حديث العهد بالزواج يمرح يوما مع أصدقائه تحت الأروقة فنزع خاتمة من إصبعه حتى لا يتضرر بفعل تصارعه مع أصدقائه، ووضعه في إصبع أحد التماثيل وقال له مازحا، «أيتها المرأة، لقد تزوّجتك». ولكن المرمر لا يعرف المزاح. ولما انتهى النزال وأراد الفتى استعادة خاتمه أغلق التمثال، الذي لم يكن سوى تمثال مريم العذراء، يده واحتفظ به رهينة.

لم يكن احتفاظ مريم العذراء بالخاتم هو منتهى حقوقها كزوجة، فعند المساء عاد الزوج

= شارتر Chartres في التعويل على شفاعة مريم العذراء فانغمس في فجور غاية في الوقاحة. ولّما توفّي رفض مجلس الكهنة دفنه في مقابر المؤمنين، ورميت جثّته في خندق خارج المدينة. ولكن العذراء تكفّلت بالدفاع عن محميها فوبخت أحد أعضاء المجلس توبيخا عنيفا على الطريقة التي عولجت بها جثة الشماس. وهدّدت الكاتدرائية بأنّ غضبها سينالها إذا لم تستدرك هذه الإساءة. سارع المجلس إلى إخراج الجثة من الخندق. وكانت المفاجأة: لقد كانت للجثة نضارة جثث الأبرار، وقد نبتت على فم الميت وردة. انبهر الكهنة لهذه المعجزة فاعترفوا بذنبهم ودفنوا الجثة في أفضل مكان في الدير دفنا هو الأكرم في الدنيا (Legrand, t V , p. 55).

ذهبت الطيبة مريم بشفاعتها مذهبا أبعد من السابق .كان ناسك يدعى لياندر Leandre يشقّ كل مساء نهرا على سفينة ليوافي امرأة ولم يكن على الإطلاق مكلفا بتعليمها مبادئ المسيحية .وفي ليلة سقط الكاهن المبتدىء من سفينته وغرق .وإذا ما كان هناك مسيحي قد انتقل إلى العالم الآخر بسلوك طريق العذاب الأبدي فلن يكون سوى هذا الملاّح الليلي .ولكن من حسن حظه أنه كان فطنا إذ كان يعهد بروحه في مفتتح كلّ عمل يأتيه إلى العذراء .لم تذهب هذه الحيطة سدى .فعندما جاءت الشياطين لترفع جثته أسرعت مريم وأعلنت أنه واحد من مريديها .لم تقبل الشياطين هذا الزعم وشكت للربّ انتزاع أمّه لأحد منظوريهم الذي لا ينازعهم فيه أحد .وقف المسيح إلى جانب مريم وفي الأثناء جدّد حكم كاليماك (راجع ص من هذا العمل) فأعاد الناسك إلى الحياة الدنيا حتى يتطير من ذنوبه ويحيا حياة أكثر استقامة.

الشاب إلى زوجته وأراد تقبيلها، وذلك من حقوقه، ولكنّ يدا خفيّة ظهرت فجأة وحالت دون ذلك. قفزت الزوجة الشابة من على السرير مذعورة وسارعت تحضر فانوس الإنارة، وأثناء غيابها القصير ظهرت العذراء للفتى، ورغم أنه كان وثنيا فقد ذكّرته بزواجهما في الساحة العامة وأنذرته بأن يظل لها وفيا. غضب الزوج لهذا الإدعاء. وفي الليلة الموالية طلب مساعدة أحد الكهنة المسيحيين ليبعد عنه ببركة صلواته والماء المقدس المبارك، ذاك الذي حسبه شيطانا ينحشر بينه وبين زوجته. وقف الكاهن عند باب الزوجين يحرسهما آملا أن يوفر لهما الطمأنينة اللازمة، ولكن العذراء لا تعير أي اهتمام بجهوده فعادت تطالب بحقوقها وتمنع زوجها من أن يخونها.

تدخل البابا القديس غريغوريوس في هذا الجدل، ودعا الفتى إلى أن يصنع تمثالا للعذراء وأن يهدّئ من روعها عن طريق الصلوات، والقرابين فوافقت العذراء إثر ذلك على إنهاء هذا الزواج غير المتكافئ على كل الأصعدة. وانتهت مخاوف الزوج من أن يفقد حبيبته[1].

طوال كل هذه المغامرات الغزلية الظريفة العفيفة لم يعاقب أحد عقابا جسديا، فلم يشنق ولم يحرق ولم يسجن أحد فالتوبة والندم هما عقاب أعظم الذنوب. إن الإله بطبعه رحيم وعندما يميل إلى القسوة تتدخل مريم العذراء حتى تغفر الذنوب بأبسط الأعمال.

لقد نجح الظرف الفروسي في أن يرفع من شأن المشاعر الصافية لدى الطبقات الاجتماعية العليا وخصوصا طيّ السرّ. ولكن بقايا العصر الميروفنجيني كانت تحارب هذا المسعى وحفظت لدى بعض الرجال خشني الطباع عادات من فجور متهتّك. ولم تنجح جهود المسيحية في تقويم مثل هذه الأخلاق. لقد سعى بعض الشعراء الشعبيين وبعض النساك مدفوعين إلى ذلك ببساطة تفكيرهم أكثر مما هم مدفوعين بسوء نواياهم إلى أن يوفّقوا بين التدّين والشهوانية دون أن يزعجهم تناقضهما الصارخ. لقد كان الحواريون يريدون للإيمان والحب الشرعي أن يسيرا معا، في حين كانوا هم يرمون إلى الجمع بين

---

(1) Legrand, t.v. p. 71 à 73

الإيمان والنزعة الحسية. لقد اعتقدوا أنه بإمكانهم التوصل إلى ذلك عبر مسخ الدين دجلا، وعبر الاستعاضة عن العقيدة بالحفلات الدينية، وعبر جعل المظاهر الدينية ستارا لشهوات الجسد.

قاد الخجل من الزنى العشاق إلى التوجه إلى الإله بالدعاء في مفتتح كل أفعالهم الأقلّ امتثالا للدين. ويبدو أنهم كانوا يسعون عبر الدعاء، إلى حمله على حماية مواعيدهم الغرامية. بل ذهبوا إلى القول بأنه لا يمكن للمرء أن يكون شهوانيا دون أن يكون مسيحيا قويّ الإيمان وأنه من الضروري أن يتلقى العاشق الأسرار حتى يكون جديرا بفضائل سيدته. وكل زوجة لا تخون زوجها قبل أن تتأكد من صفاء سريرة عاشقها **الخادم**. ففي **الحكاية الشعرية**: «**الفارس إيوناك**» التي نظمتها ماري الفرنسية أبدت سيدة كارونت Caerwent استعدادا تاما لتقبل بهذا الفارس صديقا ولكنها كانت تريد قبل ذلك أن تتأكد من كونه يؤمن بالإله. وقد اقتنع الفارس بأنها كانت محقة كل الحق، لذلك حرص على أن لا يساورها أدنى شك في إيمانه فانبرى يستعرض عن ظهر قلب قانون الإيمان[1] le symbole des Apotres: «إنني أومن إيمانا صادقا بالرب يسوع الذي صلب لأجل تخليصنا من خطيئة أبينا آدم المتمثلة في أكله تفاحة غاية في المرارة، لقد كان وما زال وسيكون إلى الأبد محيا المذنبين وملاذهم. ثم أضاف إذا كنت ما زلت تشكين في ورعي فقولي للقسّيس إنك مريضة وإنك راغبة في تلقي سر القربان المقدس الذي يمحو الذنوب وسألبس ملابسك فأبدو في صورتك ثمّ أتناول العشاء الرباني بعد أن أكون قد أديت دعاء، وإنني أتطلّع إلى أن تقتنعي اقتناعا تاما بصدق مشاعري الدينية».

قبلت السيدة الاقتراح فجاء الكاهن وقدّم الخبز المقدّس للمحب، وإثر هذا الطقس الأرثوذوكسي البات نسيت كونتيسة كارفانت زوجها العزيز نهائيا «وجلست إلى جانب فارسها، فكانا أجمل ثنائي على الإطلاق»[2].

(1) ويسمّى أيضا قانون الإيمان النيقاوي (نسبة إلى مدينة نيقية) أو تسبيحة الإيمان وهو القانون المعتمد في الصلاة لدى المسيحيين. (المترجم)

(2) Marie de France, p 287.=

ليس هنالك فن.بما في ذلك فن الحب نفسه، أو بالأحرى، فن التغزّل بالنساء، وفن نقل الفؤاد من واحدة إلى أخرى على طريقة أوفيديوس، لم يوضع تحت حماية مريم العذراء في قصيدة الشاعر الجوال قيار Guiare التعليمية حول الحب دروس حول حيل الظرف الغزلي وطرق إرسال النظرات الغرامية ونصب الشراك للعذارى، واختلاس قبلات منهن وكيفية التجاوز الظافر للمراحل الثلاث الأكثر أهمية في الحياة: **المرحلة الأولى** هي تلك التي نتخذ فيها صديقة، و**الثانية** هي التي نسعى فيها إلى الحفاظ عليها بعد الفوز بها، وأما **الثالثة** فهي تلك التي نخصّصها لطاعة الإله والقديسين. عندها جاهر الفارس قيار بالاعتراف وأدّى طقوس الأسرار وأعلن التوبة متوّجا كلّ ذلك بصلاة حارّة لمريم العذراء[1].

إلى أين يقودنا هذا الخلط بين المجون والتصوف؟ إلى جماعة الترليبيين Turlupins **أنصار المذهب الطبيعي أو الروح الحرة**[2]. ونحن نعلم أن جماعة مذهب الفناء في القرن الرابع عشر قد دفعوا بشهواتهم إلى أن لا تعير وزنا لكلّ الموانع التي فرضها الإنجيل والأخلاق الطبيعية العادية.

لقد زعموا أن الورع يمكن أن يرفع الإنسان إلى حال من الكمال يكون فيه **معصوما**، وأنّه لّما يدرك هذا المقام الرفيع يمكن للجسد أن يأتي كل أنواع الفجور والدنس؛ فالروح تظل طاهرة ولا مآخذ على الجسد. يمكننا أن نتصور بكلّ يسر الوضع الاجتماعي الغريب الذي كان يمكن أن تفضي إليه هذه **العقيدة** الجديدة لو لم يحرّم غريغوريوس التاسع هذه الطائفة سنة 1371 بعد أن أفزعه ما أتاه أتباعها من بدع. أما شارل الخامس فقد أصدر

= تكرّرت هذه التحفّظات المؤثرة في جملة من الروايات والحكايات الشعرية، من ذلك أنّ الساحرة ميليور Mélior بدت ممدّدة إلى جانب بارتينوباكس دي بلوا Partenopex de Blois تشكو لواعج حبّها الملتهبة وفي الآن نفسه تجاهر بإيمانها المسيحي.(Legrand ,t V , p. 284). كما التزمت سيّدة البال– كوزين Belles- Cousines بأن لا تدخل على قلب جهان دي سنتري Jehan de Saintré البهجة إلاّ بعد تتأكد من كونه يؤدّي واجباته الدينية:

(*Roman de Jehan de Saintré*, t I, ch V , p. 32, ch IX ,p. 72)

(1) Legrand, t II, p 225-229.

(2) هم هراطقة مسيحيون ظهروا في فرنسا وألمانيا وهولندا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ويدعون إلى عدم الاستحياء من كلّ ما هو طبيعي (المترجم)

بحقهم قرارا مماثلا وطاردهم وفي يده السيف والسوط وعاملهم معاملة فينحاس Phinée ابن إليعازر Eléazar بنات موآب Moab وشركائهن في الفجور[1] بيد أن التاريخ هذه المرة لم يخبرنا بأربعة وعشرين ألف قتيل كما كان الحال في التوراة[2].

من السهل أن ندرك حجم ما أفضى إليه الوجد الصوفي الإسباني من عجيب في هذه القصص الشعرية ذات المنحى الورع وكيف أنّها قد فاقت في هذا المجال ذلك الخليط من التقوى والشبق. لقد كان لدى مؤلفي الحكايات الشعرية بعض السذاجة وطريقة بسيطة في التأليف لم يعدمها المعجبون. لقد أنتج الإسبان خليطا معقّدا من كتب **الورع** ومن **الأغاني** Canciones وأغاني رأس السنة الميلادية motets وPleytas و Vilancicos لقد كان ماركيز سانتيان Santillane يحتفي **بأفراح العذراء السبعة**، وكان رودريقاز دي البادرون Rodriguez del padron يحتفي **بأفراح الحب السبعة**. وأما فران سانشيز Ferran Sanchez فقد تكلم بإسهاب عن معرفة الإله بالغيب، وأما ماسياس Macias العاشق **فقد** كان يدعو القلوب الرقيقة لتندب حبه اللاشرعي الذي لا يقل سوء حظ عن حب أبيّار سالف الذكر.

«لقد صورت العصور القديمة الحب في صورة طفل ضال يستخف بكل الآلهة. هذا الطفل كبر. وأصبح حكيما كلّه بهرج وسفسطة لا همّ له سوى أن يضلل النفوس ليغوي القلوب. إن له عقيدة على شاكلة عقيدة الكنيسة، لها إنجيلها ووصاياها العشر وأناشيدها وقداسها وجوقتها Villancico. **فقد** كان جون مانوال Juan Manuel يشبه عذاب الحب في الدنيا بعذاب الآخرة»[3].

كان جون رياز Juan Ruiz رئيس كهنة هيتا Hita يمزج صلواته إلى السيدة (dona) فينوس Venus بالدعاء للعذراء ويجمع بين مشاهد الفجور والمواعظ. وفي أثناء ذلك ظل يروي مغامراته الظريفة لدى الأرملة أندينا Enduna وكان يبدي رضاه التام عن مساعدة

(1) انظر القصة في «**العهد الجديد**»، سفر الأعداد (المترجم).

(2) انظر الجزء الأول من كتابنا ص 62.

(3) De Puybusque, litt. Espa. T.I, p 63.

دون كوبيدون don Cupidon له وتلك العجوز **الفاجرة القوادة** (trota–coventos).

كان تدخل القديسين والملائكة في مغامرات الحب تلك أمرا ضروريا أكثر في إسبانيا منه في مناطق أوروبا الأخرى، فقد سبق أن بيّنا أن الشعوب اليافعة لا يمكنها أن تستغني عن الحماية السماوية في أخصّ خصوصيات وجودها. ولذلك فالإسبان لم يجدوا المعونة لا من الجن ولا من الآلهة العائلية كما كان الحال في إيطاليا ولا من الساحرات والسحرة كما كان الحال لدى الشعوب الجرمانية(1). لقد كان على مريم العذراء وعلى الملائكة والقديسين أن يجيبوا دعوات كل العشاق الحيارى، والإله وحده يعلم ما إذا ما كان الحماة السماويون يسمعون هذا الدعاء الغريب أم لا. وهذه الصلوات الغريبة والاعترافات لا يجرؤ المسيحيون اليوم تبادلها في ما بينهم.

لم يكن الأدب هو الوحيد الذي ترك فيه الظرف الفروسي والظرف الورع آثارا عميقة، فقد ترك الظرف كذلك في فن العصور الوسطى بصمات مميزة؛ فعندما ننظر في الرسم والنحت الرومانسيين في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فإننا نذهل لتشابه أسلوبهما ولتجانس المبدأ الذي ينتظمهما. وسواء تعلق الأمر بأعمال خاصة بالقديسين أو بصور أو تماثيلَ نصفيةٍ لأناس عاديين فإن القماشة والمرمر لا ينطقان سوى عن مشاعر غاية في الانفعالية والتأملية؛ فالقديسون يعظمون الإله ويعبدونه، وعامةّ المؤمنين جاثون عند قبورهم، أو في لوحات ثلاثية الأبعاد منذورة (Ex–voto) وهم إلى جانب أطفالهم ونسائهم يمجّدون أحبّاءهم ومحبوباتهم ويتبادلون تنهدات الحب المسيحي وآهاته.

وكنا قد كتبنا في الجزء الأول من هذا الكتاب بأنه في الفن المصري «ليس للرؤوس سوى تعبير واحد هو التعبير عن شهوة هادئة ودائمة، فقد كان الجميع، إماء وخادمات وملوكا وأميرات يلتمسون اللذة الحسية ويتبادلونها مغتبطين لطافة... لقد كانت أفواههم الباسمة العذبة تتهامس بكلمة: أحب».

وفي فن العصر الوسيط كانت الشخوص تتهامس أيضا بهذه الكلمة الخالدة ولكن

(1) Voir Damas Hinard ,le Romancero du Cid ,pref.

دون أن تكون مشحونة بالشهوانية، ولكن يدافع وحيد هو الحب الفاضل والفروسي، فلا خلاعة في اللباس أو القوام ولا في الابتسامة، ولا حتى أبسط الغنج في طريقة المشي، فلا فساتين مشقوقة أو عارية الجنبات فقد كان الثوب يغطي كلّ الجسد حتى لتخاله قِرَابا. لقد أضحى بلا شكل. ولدينا إحساس أن ربّات القصور ذوات النظرات المحتشمة قد حببن لرفعة نفوسهن ونبل قلوبهن وعذوبة نظراتهن أكثر مما حببن لأجل جمالهن الجسدي فأيديهن وأرجلهن نحيفة وأما الرقبة والقوام فقد غيّبا تحت الثوب. إنّ هذا التمثال البشري لا يسعى إلى إبراز أي شيء ولا يوحي لك بأي شيء إذ هو مكتف بتعابير الوجه ليعبّر عن كل ما لديه وكل ما يشعر به وإننا ندرك هذه العناية الإلهية عبر الحب الإنساني، تلك العناية التي حرص **أوفياء الحب** على أن تكون حاضرة على الدوام في عواطفهم، ففي كل مكان هناك عودة بينة إلى روح الإنجيل... وسواء كانت المرأة زوجة أو **عشيقة** فإن حبها ما يفتأ يطلب شفاعة مريم العذراء طلبا خاليا من مبالغات بعض القصص الشعرية[1] وفظاظتها بل هو من جنس المشاعر الصادقة الرقيقة كما نجدها لدى دانتي ولدى بيتراك. هكذا كان الحب، بمعناه الواسع، في نهاية العصر الوسيط، حب البرجوازية، حب أولئك **السيدات والصديقات** المبجلات والمعشوقات، اللواتي يفتخر بهن الشعراء والنثّار ويرمزون إليهنّ بأسماء النجوم والزهور. لقد كان الشعراء يمجدونهن كما لوكنّ كائنات سماوية إلى درجة يصعب فيها علينا أن نعثر على سمات المرأة وسط المجازات اللطيفة التي يكنّون بها عليهنّ[2]، فلا نعثر لديهم على أدنى وصف لشخوصهن ولا لثيابهن ولا لهيئاتهن،

(1) يمكننا التمثيل لصفاء هذا الشعر العاطفي والديني بهذه الأغنية التي كان ينشدها عاشق لور Laure: «أيتها العذراء الرقيقة، عدوة كل كبر، كوني محبة واعطفي على قلب ذليل منكسر. كم أحببتك بإخلاص وحماس، وسيشهد قبري الندي كم سأظل أحبك يا من جمعت بين الألوهية والنبل. إذا ما خلصتيني من الذلّ الذي أنا فيه سأطهّر دموعي وفكري وكتاباتي وسأهبها لك. فارحمي تقلّبات قلبي.

(2) بهذه العبارات تحدث دانتي عن بياتريكس في «**الحياة الجديدة**»: «كنت أراها تمشي بكل نبل وكبرياء، ويصدق عليها قول هوميروس: إنها لا تبدو ابنة إنسان بل ابنة إله...»

«ثم أضاف: ظهرت لي هذه المرأة الرائعة في حلة بيضاء ناصعة تتوسّط امرأتين نبيلتين تفوقانها سنا، ولما كانت تمر في الطريق ألقت بنظرها على المكان الذي كنت فيه. كنت وجلا احتراما لها، ولأنها كانت ظريفة ظرفا فائق الوصف، هي الآن تجازيني عليه في السماء، فقد حيتني بتحية كان لها عليّ تأثير كبير حتى خلت نفسي في جنّة الخلد.

فما السر في ميل **أوفياء الحب** إلى هذا الكتمان؟ إن طي السر هو ناموسهم الأساسي... قال جيدو أورلندي Guido Orlandi لمايانو Maiano: «لا تخض في أمر الحب، عليك أن تحب في صمت وستغنم أفراحا كثيرة» وقال بقليون Baglione لدانتي دي مايانو Danti de Maiano: «إذا كانت هذه الحسناء إنسية وعلى قيد الحياة فأنت أدرى بذلك، وأنا أثني عليك كثيرا لأنك كتمت الأمر».

إنّ الرسم لم يكن ليتوانى على التعجيل بالكتمان فقد كان العاشق يحتفظ لنفسه بكل ما يعرفه عن عشيقته، فإعجابه العفيف، الصامت بها يظل تأملا صرفا.

صحيح أنّ العصر الوسيط لم يعرف النزعة الكلبية ولكن من المؤكد أن الأهواء الفظة التي ظهرت من خلال القصص الشعرية المتعلقة بالظرف الورع وفي «**مائة حكاية جديدة**» القذرة التي كتبها لويس الحادي عشر، قد ظهرت أيضا في تاريخ عصابات القراصنة الذين كانوا يجوبون أوروبا المضطربة، تلك العصابات التي كانت تهاجم المدن المنكوبة وتغرقها في أتون من الفجور لم يبلغه سكان سدوم وعمّورة.

كانت ضواحي المدن الكبرى تضم أوكارا للرذيلة تفوح منها روائح العربدة المقززة الثاوية في أعماق المجتمع الوضيعة، ففي زمن شكلت فيه الطبقتان النبيلة والبرجوازية الأمة الحقيقية، ولم يكن للشعب أي دور في مسيرة المجتمع والدولة، فإن هذه الفاحشة من لدن جزء من المجتمع يمكن أن نمحوها من المشهد العام للإنسانية... لقد تجنب المؤرخون والشعراء أن يطلعونا على تلك الأسرار التي بدت لهم غير ذات أهمية تماما مثلما كانت آثام العبيد وآلامهم بالنسبة إلى الرومان زمن انحدارهم.

بيد أن الفن الوسيط قد ألقى بعض الضوء على النزعة الكلبية التي كانت تأتيه من الأوكار الأكثر قذارة، ولكن الأمر يتعلق بذلك الفن الثانوي، غير الرسمي وغير الإحتفالي، فن الكاريكاتور فكل ما كان يجرؤ عليه ضمن تسلسل الأفكار هذه، رمى به إلى التماثيل الصغيرة على تيجان الأعمدة وعبر أوراق الأشجار والأغصان المرسومة على رؤوس التيجان، ففي هذا الموضع تكتشف العين الفطنة رسوم أولئك النساك الشهوانيين

الفجار وأولئك الملاعين وقد التفت عليهم الزواحف، تلك الكائنات المقززة التي كانت الشياطين تتسلى بالتغوّط عليها لقتلها. وفي كلمة، نحن بإزاء ما لا يحصى من القحات التي تجاوزت كل ما يعنّ للصغار من ترهات يكتبونها على جدران المدن الكبرى، إننا نكتفي بإبراز جسارات هؤلاء الكاريكاتوريين دون أن ننسب لهم تأثيرا على الفن وعلى الآداب العامة، رغم أنه من الضروري الاهتمام بدراسة هذا التأثير، فلم نستشهد بهم إلا على سبيل التوضيح.

القسم الرابع

الحب منذ عصر النهضة

1

عودة الحب الوثني

كان العصر الميروفنجيني والكارلوفنجيني عصر **السريات والجواري** Gouges [1]. وكان العصر الوسيط عصر **الحبيبات**، أولئك السيّدات المفضلات المدللات.

أما عصر النهضة فقد دشن عصر **العشيقات** ومع ذلك فإن محبوبات الفروسية ظهرن من جديد لفترة وجيزة في بداية القرن السابع عشر في ظل حكم لويس الثالث عشر، ولكنهنّ ما لبثن أن تركن المجال للعشيقات في ظل حكم لويس الرابع عشر. وأما عصر لويس الخامس عشر فهو عصر طائفة جديدة من المحظيات. لقد كان عصر **البغايا**.

لنذكّر بعجالة بخصائص هذه الأصناف الأربعة: **السريّة** هي امرأة غير مؤدبة وغير لطيفة ولكن أهواءها البهيمية ترضي الرجال المتوحشين والأجلاف، إنها المرأة التي لا نعجب بها ولا نحبها على الإطلاق، ونخشاها أحيانا رغم أنها لا تثير فينا انفعالا ولا نحس بميل نحوها.

أما **الحبيبة**، فهي كلمة قديمة تجاوزها الزمن ولكن طلب الحقيقة التاريخية يحتّم علينا أن نحييها، إنّها تعني المرأة المميزة، ذات الحظوة، والتي نعجب بشخصيتها أكثر مما نعجب بجمالها. ونجلها كثيرا فهي تنحدرعلى الدوام من أصل شريف. وهي موضوع هذا الطقس الذي نسميه **الظرف الغزلي**. و فيها تنظم السونيات Sonnets والقصائد الملحمية. وهي التي نحيط اسمها بالكتمان حتى نضفي على تغزّلنا بها هالة سحرية. وفي ظلّها لا يمكن أن نجاهر سوى بالحب العاطفي في حين نتكتّم على الحبّ الجسدي كما لو كان مواد غذائية مهرّبة تنقل وتستهلك خفية.

وأما **العشيقة** فهي تحب لجمالها أكثر مما تحب لخصالها الفكرية أو الأخلاقية. هي أقل احتراما من الحبيبة ولكنها أكثر إجلالا من السريّة. ويمكن القول إنها المرأة التي نشتهيها

(1) تعني الكلمة حسب المعنى الذي احتفظت به اللهجة القاسكونية جارية ضخمة الجثة ودهثمة.

أكثر مما نحبها. لذلك لا يسعى عاشقها إلى أن يجلسها على عرش الشعر الذي أقامه **للسيدة** *Senora* و**للصديقة** *mie*.

ولما كانت تنحدر عادة من الطبقات العليا والوسطى، وتحظى بتربية مناسبة وأحيانا رفيعة ولم تعرف العوز مثل السريّة الماجنة، فهي لا تسعى إلى جمع المال، بل إلى حياة البذخ والشهرة والسلطة. إنها لا تبتذل نفسها لقاء المال وإنما تتحالف مع عشيقها حتى تمهّد له طريق السلطة والمجد ومن ثمّ تقاسمه منافعهما.

إنها أقل خساسة من البغيّ، ولكنها أكثر ترويعا للأفراد وأخطر على الدول، إنها تحتل مكانة وسطي بين السرية و**الحبيبة**. ورغم أنها تأتي زمنيا في المرتبة الثالثة فإنها تعدّ من الناحية الأخلاقية بمثابة صلة الوصل بينهما.

هذا الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى غير منطقي هو ليس كذلك في الواقع. إن أفعال الفكر وأفعال القلب لا تتطوّر بشكل خطّي مطّرد، بل تكون في شكل هزات وقفزات، فكلما ظهرت فكرة سياسية أو أخلاقية أو دينية أو فلسفية إلى الوجود فإنها تقفز بقوة مباشرة من نقطة انطلاقها إلى نقيضها. ولكن الإنسان الذي تذهله سرعة مسيرته المفرطة يبذل جهدا إضافيا ليراجع تلك المسيرة فينتهي به المطاف إلى حلّ وسط.

لقد شكّل الانتقال من عصر **حبيبات** الفروسية إلى عصر **العشيقات** ضربا من هذه العودة إلى الوراء، عودة لا نتأخر في القول إنها قد قرّبته من العصر الميروفنجيني التعيس. إنّ هذا الانقلاب الأخلاقي قد ترك، مثل سابقيه، أثره في الفن والأدب والقانون.

تمثّلت الخاصية العامة للعصر الوسيط في الغموض والرهبة والوجل وسيادة الأفكار المسبقة والمضمرة... فقد كان على المستضعفين في ذلك العصر أن يتواروا عن الأعين وأن يلجؤوا إلى الحيلة لمغالبة أهل القوة والسطوة الذين أرهقوهم ظلما وقهرا. لقد غالت الإقطاعية في كل شيء، فأفضى إفراطها في الاستبداد إلى خضوع ديني للأحكام والتقاليد الدينية الجاهزة، وإلى خضوع سياسي للسيد الإقطاعي، وإلى خضوع اقتصادي لمجلس المحلفين، وأخيرا إلى خضوع عائلي لربّ الأسرة. وكان الحب أولى بذرات الحرية التي

بدأت تينع. ولقد وقفنا على هذه العاطفة التي امتطت صهوة الجسارة الشعرية والفروسية لتهاجم غيرة الأزواج الإقطاعيين وحبسهم لزوجاتهم في القصور. إلا أنّ هذا القبس من الحرية كان قدره أن يظل متخفيا، فقد غطّى الشعراء الجوالون وأوفياء الحب عواطفهم بحجب من التصوف وكنّوا عن أسماء سيداتهم حتى يسلّوهن دون تعريضهن للخطر. لقد كان الكل يتعجّل الحب ولكن لا أحد تقريبا تجرّأ على أن يصرّح به.

ثمّ حلّ القرن السادس عشر وأشهر فجأة مبادئ مناقضة تماما للسابقة. فقد أضحى الفضول والتطفل ديدنه وعقيدته وتصدّرت الرغبة في معرفة كل شيء وإذاعة كل شيء كل قوانينه. وانفلتت القدرية[1] من عقالها، ففي مجال السياسة تخلص المقطعون وبلداتهم من تسلّط أسيادهم، ودينيا حقّ للناس مناقشة كل المواضيع دون استثناء وإنكار كل شيء. أما العاشق فقد أطلق العنان لعواطفه فأضحى معتزا بنفسه يجاهر شعرا ونثرا، في حضرة الآباء والأمهات، باسم المرأة التي يحبها. ولا نيّة لديه لخداع الناس فلا يخفي نواياه الحقيقية تحت حجاب من الحب الأفلاطوني بل هو يصرّح بأن لشكواه ولوعته غايات غير عذرية، وعندما تنجح خطته الغزلية الظريفة يصارح محبوبته بمراده.

يا لها من جسارة ويا لها من شجاعة ..! لقد نزع الفنانون والفلاسفة عن قلب الإنسان وجسده حجاب الحياء الذي كان يكسوهما. إنهم يريدون التعويض عمّا لحقهم من رهبة في العصر الوسيط، فالكل كان يمشي مرفوع الهامة يده في خصره يصوغ طريقته الخاصة في النظر والإحساس. وتبّا للذي ينزعج من هذا السلوك، فليس من باب العبث أنهم كانوا متسلّحين بالخناجر، فإذا ما عاب عليهم أحد هذا السلوك ينبرون لمقاضاته، وكلهم ثقة بأنفسهم، فالعاشق لا يكفّ عن تكرار الحديث عن أسراره، والمفكر الحر عن تكرار حججه، والغيور عن تكرار شكواه. ولن يكفوا عن كلّ ذلك إلاّ بعد أن يتفرّق شملهم. إن الدونجاوانيين أكثر عددا مما نتصور، فدونجوان Don Juan الذي كنا نأخذه على أنه استثناء هو في الحقيقة قاعدة عامة، هو نموذج الإنسان في القرن السادس عشر. لقد كان

(1) نستعمل هذه العبارة بالمعنى الاعتزالي (الإنسان سيد مصيره وقدره) ترجمة لعبارة Libre arbitre

الكل يحب حبّا ماجنا ويتباهى به، ولا أحد كان يتورع عن معاجلة فارس لا يوافقه الرأي بطعنة سيف في صدره، ونفس الصنيع يؤتى اليوم بسبب موعد مفوّت، وقد يؤتى غدا بسبب إخفاق ديني أو سياسي مذلّ. لقد أخبرنا بنفنتو سيلينيBenvento Cellini بنفسه كيف أنه قتل عشرة أنفار مبارزة أو غيلة دون أدنى ندم وذلك بسبب مسائل تافهة تتعلق بالشغل أو بسبب فورة غضب.

فهل بالإمكان أن نظفر بنبيل من النبلاء أو بورجوازي في عصر الحرب الأهلية الكونية هذه لم يقتل خصوما كثيرين، سياسيين وعشاقا؟

إن الوجه الوحيد الذي لا يربط دون جوان بالقرن السادس عشر هو إلحاده. وفي هذا الأمر له عِلْقَة بعصرنا إذ الإلحاد كان أنذاك أمرا شاذا لم يعرفه الشعراء والجمهور بل كانوا يتوجّسون منه خيفة. لم يستطع لوبيريلو Leporello الذي لعب دور إنسان ذي عقل سليم، دور الجمهور، أن يتعوّد على هذا الدور. ولكنه لم يكن يرى مانعا في اتخاذ ما لا يحصى من العشيقات. فهو يسوّغ لنفسه إغواء النساء وخيانتهن وخطفهن فالأمر كان يبدو له مقبولا.

ينبغي ألاّ نتوانى عن القول بأن رعاع المدن، تلك الطائفة من المغامرين التي تعيش على حساب أهواء كبار الأسياد، تشاطر لوبيريلو أفكاره، ومع ذلك فإنّ رفعة قدر دون جوان لم تكن تناسب سلوكها، لذلك اختارت دون جوان مخصوصا، هو دون جوان العامة، هو تلك الدمية المهرّجة الشهيرة المسمّاة بوليشينال Polichinelle. ولكي تجعل العامة هذه الشخصية أكثر مجونا وأكثر فظاظة وأكثر عربدة وأكثر زندقة استلهمت خصائصها بالكامل من الرومان زمن انحدارهم. إنها صورة طبق الأصل من شخصية **ماكوس** *Maccus* المنحدرة من دهماء روما، تلك الدهماء التي تعلمت من ألعاب السرك الفجور والفظاعة. لقد كان ماكوس بمثابة ديونيزيوس Dionosios ولكن بظهر محدودب، وبمثابة سيلان sylène وقد أصبح وقحا، وبمثابة الإله ساتير Satyre وقد أضحى واسع الخيال. أما وريثه المباشر بوليشينال فهو شخصية قد جمعت بداخلها كل عيوب دون جوان.

ولكن عوض أن يثقل رذائله بضرب من البغض الظريف غير الملائم للجمهور فقد جعلها مسلية ومستساغة بواسطة نوبات من الضحك وبدعابات متصنّعة وألاعيب صبيان. إن هذه الخصال تفتن الجموع وتستهويها إلى درجة أنّها سمحت لهذا النموذج الممثل للفجور الصريح بقتل زوجته وأطفاله وحرّاس المدينة والقضاة والجلاد وحتى الشيطان نفسه. وليس لها سوى تشجيعاتها تمنحها لهذا القاتل المغتبط بفعلته على الدوام.

يمثّل دون جوان وبوليشينال على التوالي السيد العظيم والدهماء الخسيسة في القرن السادس عشر، وقد وجدا نفسيهما متفقين تمام الاتفاق على إتيان أعمال طائشة: الأول يدفع **ثمن الخبز وألعاب السرك**[1] *Panem et circences* والثاني يوفّر **المهرجين والجمهور المصفق** *Bravi et Bouffons*.

أفضى هذا التواطؤ المرح السطحي إلى نتائج مفجعة جدا كشف عنها برنتوم Brantôme في مستهل مذكراته «**حياة السيدات الظريفات**» بسرد سلسلة من جرائم القتل والانتقام يشيب لها الرأس. كان الأزواج يتفنّنون في قتل زوجاتهم بوحشية لأدنى شك في وفائهن، وحشية فاقت وحشية الرومان زمن القياصرة، وكان بعضهم يستعيض أحيانا بالسّم عن الخنجر حتى يطيل عذاب زوجته المذنبة وحتى يتمتع غاية التمتع بطول احتضارها. لقد كانت كل هذه الجرائم ترتكب على مرأى ومسمع من الجميع دون وجل ودون عقاب، وبذلك فهي تؤسس حتما وبأكثر وضوح مما أسسه قانون الألواح الإثني عشر استئثار الزوج دون حق بحياة زوجته.[2]

---

(1) مثل لاتيني تعلّق بالرومان في زمن انحدارهم لمّا تخلّوا عن المطالبة بالحرية وانشغلوا بالمطالبة بالأكل والشرب وبمشاهدة الألعاب وحضور الحفلات مجانًا. وتعود هذه العبارة إلى جوفينال Juvénal أحد المثقفين الرومان المعادي لما كانت تأتيه روما من ألعاب رياضية. لمزيد التفاصيل راجع كتاب Paul Veyne *Le Pain et le cirque, sociologie historique d'un pluralisme politique* Paris, Éditions du Seuil, « L'Univers historique1976.(المترجم)

(2) كان لاريوست l'Arioste المطّلع جيدا على أحوال عصره، منزعجا من احتدام جرائم القتل والانتقام بين الأزواج، فصرخ في مفتتح النشيد الخامس: «أيها الرباط الطبيعي العذب، أيها السحر الإلهي الذي يجمع برباطه الخفي، بين ذكر كل الحيوانات وأنثاها. أنت الذي تجعل أنثى الدب واللبؤة تنامان بهدوء مع الدبّ والأسد في عرين واحد. أنت الذي تجعل الذئبة المفترسة والذئب الضاري يعيشان معا في أمان، وأنت الذي تجعل البقرة تقفز فرحا قرب الثور=

وإذا ما كان الأزواج يضطهدون زوجاتهم فإنهنّ في المقابل يقاومنهم وينتقمن منهم أيّما انتقام، ذلك أنّ الأهواء لمّا تحظى بطبع متشدّد تظهر لدى الجنسين جموحا لا يستطيع أحد مقاومته، لا القوانين الرادعة ولا المخاطر المتربصة.

إن برانتوم هو هوميروس العشاق والسيدات الفاضلات، أولئك الذين لا يخشون شيئا ولا يندمون على شيء فيرخون العنان لنزواتهم ويتهافتون على المواعيد الغرامية تهافتهم على ساحات القتال، غير متيقنين هل سيعودون ظافرين أم مجندلين. إنّ ما يثير استغرابنا أكثر، حتى وإن نظرنا بعيون ذلك العصر المتعصب والعنيف، هو أن الدين الذي يضحّي الجميع بحياتهم في سبيله تضحية بطولية لا يبدى أيّ قلق إزاء هؤلاء الذين يخرقون القوانين الإلهية والطبيعية. لقد وضع **أسلافنا الطيّبون**، بوعيهم المتحرر الفجور والقتل في تناغم تام مع الورع والشرف[1]. ويبدو أنّهم تناسوا في غمرة صراعهم حول منصب البابوية، سعيا منهم وراء الانسجام الديني الأساس الأخلاقي للدين. فعندما يعمد مسيحي إلى قتل نفر من الهراطقة فهو يعتقد أن ذلك يخوّل له إشباع كل نزواته الغرامية أوالدموية تماما مثل تلميذ تحصل على أعداد جيدة وتشجيعات فأعطى لنفسه الحق في ارتكاب حزمة من الحماقات جزاء له على نجاحه.

العاطفة والإرادة الشخصية، ولا شيء دونهما، هما القانونان الوحيدان اللذان كان

=المزهو وهي التي تخشى في الواقع قرونه وملامساته العنيفة، أنت الذي من المفروض أن تكون بيدك مقاليد كل الكائنات الحسّاسة فبأي قدر غشوم غبت عن قلب الإنسان ؟ وأي غضب عارم جعل قلوب الرجال والنساء جحودة وهم الذين وجب عليهم عبادتك! وهل يوسعنا أن نرى هذه المرأة الفاتنة معرضة إلى جنون زوج فظ دون أن ينتابنا السخط؟ عجبا لهذا الفراش الزوجي المعد ببهجة الحب والزواج وقد أضحى مضرجا بدموع زوجة بائسة وأحيانا بدمائها! أيها الزوج المتوحش عليك أن ترتعد الآن خوفا واعترف بأن جنونك يسيء إلى الإله وإلى العدالة وإلى الطبيعة. فهل يجوز لك ضرب هذا الوجه الجميل المفعم حبّا ؟ ألست أبشع من الشياطين عندما تسكب السم على صدرها وتغرز الخنجر في جنبها».

(1) لقد برع الإسبان مثل الفرنسيين في هذا الجمع بين القتل والتقوى والزنى، ففي إحدى مسرحيات توريس نهارو Torres-Naharroل لم يدخل الفارس هيماني Hyménée على عشيقته فوبي Phoebé إلاّ بعد أن رسم إشارة الصليب على جبهته وعلى صدره لأن الماركيز عاهد الإله وأقسم بنبله على أن يذبح عاشق شقيقته حالما يراه. ولما واعدت دورين Dorine عشيقها والتقته حيّته بهذه الكلمات: «وداعا: كن شجاعا، إنّ ربّنا يسوع قد صلب فداء للجميع».

معترفاً بهما في عصرالنهضة، وإن القوة الجسدية والسيف كانا سلطتهما التنفيذية. إن البرجوازي المتسلح بخنجره يخال نفسه عِدْلا للنبيل، والنبيل متسلحا بسيفه يرى نفسه عدلا للملك... ولكن إذا ما تباهت الرعية بنفسها، فإنّ الملك بدوره يعظم نفسه، ولا يعترف بأي قانون أخلاقي أو مدني آخر سوى الذي يمليه عليه هواه.

واستنادا إلى رواية برانتوم فإن فرنسوا الأول، بطل معركة مارينيان Marignan قد ذهب بهذا الاستبداد الملكي الفاجر إلى أقصى حدوده. فقد صادف يوما أحد الأزواج وهو في طريقه إلى غرفة نومه فارتمى عليه ووضع سنّ سيفه على صدره وهدده بالقتل فورا إذا عارض هذه الزيارة الليلية، ثم نبهه إلى أنه سيقتله لاحقا إذا ما تجرأ على الاحتجاج. فماذا ترانا نقول بشأن هذه الشواهد القاطعة ؟ أمّا الزوج فقد لزم الصمت حرصا على عدم الإخلال بعلاقات مبنية على قانون الغاب.

اعتبر فرنسوا الأول، عندنا في فرنسا، بطل الحب المتمرد والعنيف، ولكننا نعلم أنه تعلّم ذلك على هنري الثامن الإنجليزي.

لقد كانت العاطفة لدى الفاليين Valois، قوم فرانسوالأول، والتودوريين Tudor، قوم هنري الثامن، مجرّد شهوة متوهجة أكثر منها نزعة شهوانية. وقد ظلت غريبة غربة تامة على كل عاطفة روحية. ومعهم أضحى ما كان حبا غزليا ظريفا **حبا إباحيا ماجنا**، فقد أضحى الفرسان **شياطين مرعبة تمشي على أربع**، وأضحت النساء تماثيل من لحم زاهية الألوان نحتها هؤلاء الفرسان البجماليون الجدد.. لقد أضحوا مطلعين على دقائق أجسادهن فيتأملونها ويبدون إعجابهم بها. إنهم يعشقونهن مثلما كان لوكولوس Lucullus يعشق خمرة فالارم Falerm وسمك «أبو مرينة».

إنهم لا يهتمون كثيرا بأخلاق أولئك النساء فهم لا ينشدون فيهن سوى فضائل كليوباترا وماسالين Messaline. ومن ثمّ لا ينزعجون أبدا من خياناتهن شرط أن لا تخدش كبرياءهم، لذلك فهم لا يذرفون عليهنّ دمعة عندما يقضين أمام أنظارهم. ونحن نعلم كيف كان هنري الثامن يساعدهن على الموت عندما يسأم صحبتهنّ.

لقد تجاوز هذا الملك التودوري، زعيم هذا التفنن في القتل كلبية سيلا الذي طرد بكل لامبالاة زوجته ماتيلا لحظة احتضارها وأرسلها تموت بعيدا عن القصر حتى لا يتكدّر ضيوفه الملاح، بل هو مائل كاتيلينا Catilina الذي تخلّص من زوجته ومن ابنه الذي من صلبه حتى يتزوج أوريلا أورستيلا Aurela Orestilla التي كانت تستحيب لشهواته الماجنة وتلبي طموحه.

يوجد الكثير من هذه الأمراض الأخلاقية التي تصيب الإنسانية في مراحل تاريخية مختلفة. فتظهر المجتمعات في عصور عديدة متباعدة، نفس الغرائز ونفس المخاوف ونفس المعتقدات ونفس الفضائل فالنفوس متماثلة. وقد اكتفى العامل المحرك لهذه المجتمعات بتغير اسمه وهيئته؛ فرومان الحروب الأهلية ظهروا من جديد على ضفاف نهري السان والران وعلى ضفاف نهري التاميز والتيبر، في ظل الفاليين والتودوريين والبورجيا Borgia. وأما معاصرات برانتوم وشارل التاسع فهم على شاكلة سامبرونياSempronia وفولفيا Fulvia وأوراستيلا. وأما أمثال قيزGuise ففي أرواحهم شيء من كاتيلينا. وأما فرنسوا الأول فهو خليط من أنطوان وأوغسطينوس.

هذا الاستجلاب للأهواء الرومانية إلى داخل الفضاء المسيحي أمر يسير التفسير، فالغزو الجرماني الذي دمّر الإمبراطورية لم يستطع أن يغيّر أخلاقها تغييراً شاملا، فإيطاليا ظلت رومانية وظلت عاصمتها، بصفة خاصة، باعتبارها أكثر المدن استقرارا مدينة القياصرة ومدينة قسطنطين وتيودوسوس. والحال أننا نعلم كم لعبت النساء دورا مهمّا وجسورا وطافحا بالمكائد والدسائس طيلة العهد الامبراطوري، ولم يتخلين عن هذا الدور السياسي أبدا حتى في ظل جمهورية البابوات الجديدة. إن تاريخ عاصمة الكاثوليكية مليء حدّ التخمة بمكائد النساء وبحبهن الطموح وزِناهن الوقح. لقد تبوأت الشريفات والبغايا صدارة مثيري الاضطرابات السياسية، بعضهن كن يسعين إلى مغانم الطبقة الأرستقراطية والبعض الآخر كن يسعين إلى تحريض الدهماء على العصيان.

كانت كل المدن الإيطالية على نهج روما، فعندما غزا شارل الثامن شبه الجزيرة الإيطالية

كان هناك أربع نساء يلهبن عواطف الناس ويدرن دفّة الأحداث. كان هناك في اللومباردي بياتريكس دي أست Béatrix d'Este وغريمتها إيزابيلا دي أراغون Isabelle d'Aragon، ابنة ملك نابولي Naples وزوجة دوق ميلانو الشاب، وفي توسكانيا كان هناك الفونسين أورسيني Alphonsine Orsini زوجة بيار دي ميديسيس Pierre de Medicis وفي مقاطعة رومانيا Romagne كان هناك كاترين سفورزا Sforza Catherine التي قاتلت ببسالة حتى تنتزع هذه المقاطعة من الهيمنة الفرنسية.

إنه يكفينا أن نتلفظ باسم المحظية فانوزيا Vanozia وابنتها لوكراش بورجيا Lucrèce Borgia المطلاقة[1] حتى نستحضر ما يمكن للطموح والمكيدة أن تضيفاه للفجور والفظاعة من قبح. كانت تلك الإباحية أمرا مقبولا من قبل الأرستقراطية حتى إن لوكراش بورجيا دخلت يوما روما دخول المنتصرين متبوعة بمئتي امرأة من أشرف العائلات وكل واحدة منهن كانت مصحوبة بفارس يسير على يسارها.

لقد سبقت شبه الجزيرة الإيطالية فرنسا وباقي أوروبا، في الفجور بقرن كامل كما كان الحال في الآداب والفنون الجميلة. وإن فساد الطبقات العليا الأخلاقي هو ذاته فساد نبلاء القرون الأخيرة في الإمبراطورية، لقد كانوا يعرضون في المآدب بغايا عاريات يقدمن الطعام للضيوف ويرقصن ويتصارعن كما كان الحال في **أعياد الزهور** القديمة، لقد بلغ نبلاء ذلك العصر في تقليدهم للحفلات الرومانية حد قتل **السجناء** (*gladiandi*) بالنبال بعد أن يحبسوهم في ساحات مسيجة، ففور الانتهاء من الأكل وتناول العُقْبة Dessert يعتلون الشرفات ويطلقون نبالهم على أولئك التعساء فيتسلون لمنظرهم وهم هلعون يتلوون من الألم ويطلبون الرحمة.

إنه في ذلك المكان سيتعلم جنودنا هذه الدروس المثيرة في فساد الأخلاق وسينقلونها في ما بعد إلى بلدانهم يمهدون بها لميلاد النهضة، فعندما استولى شارل الثامن على كابو Capoue كابدت كل النساء آخر نتائج ما نسميه **قوانين الحرب**، وقد استثنى البرجيون منهن

---

(1) كثيرة الزواج والطلاق(المترجم)

أربعين امرأة، والله وحده يعلم بأي حق استبقين لزينة حفلات المدينة الخالدة.

هل هناك دليل أكثر فظاعة على الفساد الأخلاقي من جريمة سانسي Cenci أحد نبلاء روما المتنفذين. لقد ارتضت ابنته بياتريكس، لمّا لم تجد قوة قادرة على أن تصدها عن هوى جامح بديلا عن هوى Myrrha أن يُقْتَل أبوها، ذلك الأب القاسي. ولكن كليومون الثامن لم يوافق على أن يخفف عنها العقاب في جريمة قتل أبيها فساقها صحبة زوجة أبيها وأخيها الأكبر إلى المشنقة وكان ذلك سنة 1599.

لم تكتفِ الطبقة النبيلة في روما بالتحالف مع الكائدات وكذا كبريات سيّدات المجتمع ذوات الباع في مثل هذا الانحلال الأخلاقي بل إنها هاجمت البرجوازية لرفضها هذه العادات المهلكة. وهكذا لم يعد بإمكان النساء الفاضلات الخروج من منازلهن دون أن يلاحقن ويشتمن، وكنّ أحيانا يتعرّضن للاغتصاب. وفي ظل حكم إنوسنتيوس الثامن كان يرتكب ما لا يقل عن مائة جريمة قتل ومثلها من الاغتصاب أسبوعيا. لذلك كانت النساء معتقلات في بيوتهن اعتقالا أجمل مما كن عليه في الحريم الإغريقي. وأما العازبات فكن يضعن الحجاب في حضرة الغرباء وحتى في حضرة الراغبين في الزواج منهن.

إننا نعثر على أدلة قاطعة حول المخاطر التي كانت تتعرض لها النساء الفاضلات، في بعض ما جرى في ظل حكم البابا سيكتوس الخامس Sixte—Quint فسعيا منه إلى القطع مع شرور بعض الأحداث المنحرفين اتخذ بحقهم أقسى الأساليب العقابية حتى تكون الآداب العامة في مأمن سواء في المجتمع أو في الأديرة.

من ذلك أنّ خادمة خرجت ليلا وفي يدها مصباح بحثا عن قابلة فصادفها **خادم أحد النبلاء** فأطفأ مصباحها ورغب في تقبيلها، صاحت الجارية وفرّت تشكوه إلى سيدها الذي قدّر أن الفعلة لم تكن خطيرة ولا تستدعي إحضار الشرطة، ولكن البابا علم بهذا الإخلال بالآداب العامة وأراد أن يكون المعتدي عبرة لغيره فأمر بالقبض على الخادم وسيق ضربا بقضيب من طرف الشارع الذي اعتدى فيه على الجارية إلى طرفه الآخر.

ومن ذلك أيضا أنّ البابا أبدى تشددا أكبر تجاه ابن أحد قضاة بيروز Perouse الذي

شغف بفتاة كانت أمّه مترددة في تزويجه إياها، فتجاسر على نزع حجابها وتقبيلها حتى يجبر أمه على الموافقة على زواجهما. رفضت الأمّ في المرة الأولى ولكنها ما لبثت أن وافقت على زواجهما جبرا للضرر. إلاّ أنّ البابا لم يقبل هذا الترتيب وحكم على العاشق الشاب بخمسة أعوام أشغالا شاقة.

كان إذن إلى جانب أوروبا المسيحية بؤرة رومانية مازالت محافظة على رذائل وأهواء العهد الوثني. انفجرت هذه البؤرة في القرن السادس عشر ونشرت في فرنسا وإنجلترا وإسبانيا هذا الخليط من النزعة الحسية والتهور وهو الخليط الذي ظل مجهولا في العصر الوسيط. وكانت الإيطاليات قد بدأن بتدريس هذا العلم الجديد للفرسان الفرنسيين الذين قادهم إلى إيطاليا كل من شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسوا الأول. ثم إن نساء حاشية كاترينا دي ميديسيس جئن إلى فرنسا للتعمق في دراسة مثل هذا العلم، فقد كنّ يعلّمن نساء الشمال كيف يقطعن مع الحب لأجل الحب والشهرة والمجد ويتظاهرن بحب الرجال حتى يخضعنهم لنفوذهن فيبادلنهم الظرف الإباحي بالنفوذ.

تطور هذا العلم تطورا سريعا إذ ما لبثت نساء الشمال أن امتنعن عن إبداء أية رأفة إزاء خيانة الرجال إذا كانت تلك الخيانات تهدد نفوذهن، فلم يعدن يستسغن الحب الذي لا يؤدي إلى الظفر بثروة أو سلطة. لقد استعضن عن المشاعر بحسن التدبير، وعن الثقة بالتحفز، وعن الصداقة المتعبة والمتسامحة بالغيرة المنتقمة.

هذه الاستعاضة عن الظرف العاطفي، الذي ساد في القرون السابقة، بالنزعة الحسّية كانت لها، مع ذلك، أسباب أخرى غير تأثير روما. ولكي ندرك جذور هذه الأسباب علينا إلقاء نظرة على الشرق:

لقد كانت بلاد نبوخذ نصرّ Nabuchodonosor وسميراميس مشؤومة على كل من أقام بها. وكنا قد وقفنا على نتائج الانتصارات الرومانية الأولى في تلك الربوع. وها هم الأتراك قد عاشوا بدورهم نفس التجربة.

إننا نرتكب خطأ فادحا عندما ننسب إلى الدين الإسلامي شرعنة الفجور عبر حبس

المحظيات والمخصيين في القصور. إن العرب الذين كانوا يمارسون تعدد الزوجات منذ الجاهلية لم يحبهم القرآن بشيء في هذا المجال. ولقد بينا سابقا كيف أنهم كانوا حذرين ومعتدلين، بصورة عفوية، في ممارسة تعدد الزوجات، فقد قرنوا ذلك بالعفة الجاهلية وبشهامة وعزة نفس الإغريق والرومان في الأزمنة الغابرة الجميلة، وكذلك باحترامهم للمرأة وتلطفهم بها، وهما أمران كانا غير معهودين في ذلك الوقت.

ولكن بعد تسعة قرون انقلبت الأمور رأسا على عقب. لقد أضحت الشهامة الفروسية لدى خلفاء إسبانيا مجرد فجور حقير، فالمرأة التي كان العربي يحيطها بحب جليل لم تعد سوى أمة ذليلة حقيرة تباع طرّا في سوق النخاسة. إنّ استبداد قصر السلطان (السراي) مؤسس على الشهوة والبهيمية. فهذه البدعة لم تفد الإسلام بل على العكس من ذلك أضرت به أكثر من تضرره من معارك بواتيي Poitiers وتولوزا Tolosa وأسكلون Ascalon وفيينا Vienne[1].

فما الذي أحدث هذا الانقلاب في أخلاق المسلمين وجعل البون شاسعا بين قدامى العرب وأتراك اليوم ؟ إنه استقرارهم في ربوع الشرق الأكثر تجذّرا في التحضر وفي الفساد.

إن أتباع محمد لم يفرضوا أخلاقهم على أهل القسطنطينية وأهل دمشق بل على العكس من ذلك تأثروا بظاهرة الحريم الموروثة عن سليمان وأحشويرش وأنطوخيوس Antiochus وآشوربانيبال Sardanapale. إن الحريم ليس اختراعا إسلاميا بل ورثه المسلمون عن الفرس والأشوريين واليهود. لقد أفسدت القسطنطينية السلاطين والمتصوّفة مثلما كانت أنطاكية قد أفسدت القديس بولس السميساطي وكهنته.

لقد أصبح حبس المرأة ضرورة قصوى بالنسبة إلى الأتراك في تلك الربوع الغارقة في الفجور فهناك كانت المرأة تتنفس الفجور بكل كيانها، لقد كانوا يرون وقوعها في السبي

---

(1) يشير المؤلف إلى ما عرف في التاريخ الإسلامي بمعركة بلاط الشهداء (10 أكتوبر 732 م/16 شعبان 114 هـ) التي توقف على إثرها زحف المسلمين داخل أوروبا وإلى فشل الأتراك في الاستيلاء على فيينا. (المترجم)

على نفس درجة خطورة إمكانية فجورها.

كان للعلاقات التجارية بين مدينة البندقية ومدينة جنوة من ناحية، والقسطنطينية وكورنث Corinthe من الناحية الثانية، بالنسبة إلى أوروبا نفس النتائج التي كانت للإستيلاء على الشرق بالنسبة للأتراك، فقبل القرن السادس عشر عرف الغرب البغيّ ولكنه لم يعرف إلى حد كبير تلك البغي المترفة الباذخة الوقحة، لقد كان الفساد الأخلاقي الموشح بكل أبهة الثروة والبذخ سلعة مستوردة من روما والبندقية. فقد اكتشف الملاحون الإيطاليون في الشرق مبدأ الشهوة المنظمة المنتشرة في القصور تحوطها الأبهة والاحتفالات. ولمّا لم تكن الشريعة المسيحية تسمح لهم بإدخال ذلك الفساد الأخلاقي إلى أوروبا في شكله الحريمي حولوا الأمة التركية إلى بغيّ.

ولقد أنبأنا التاريخ بدقة بالفترة التي دخلت فيها هذه البدعة مدينة البندقية وانتشرت فيها. لقد كانت أرستقراطية جمهورية التجار تلك ترخي العنان لأهوائها في القرن الخامس عشر وهكذا أوصلتها وقاحتها إلى أن تفرض **حق التفخيذ** عن طريق الخطف مثلما كانت تستولي على السفن عنوة. وبدل أن يزول هذا الشر تفاقم مما دفع الحكومة إلى إنشاء مؤسسات شبيهة بتلك التي نظمها سولون في ميدان أثينا العتيق.

ولكن عندما كان القضاة منشغلين بحماية المرأة الشريفة من تهور أحداث متفسخين، كانت الآداب العامة، وهي أقوى من الشُّرَط، قد حققت نجاحا أكبر في أن تمهد لهم سبيل الظرف المتهتك. وبالنتيجة ظهرت بدعتان قد كان لهما في هذا الإطار، وإن بدتا تافهتين ظاهريا، نتائج خطيرة: بدعة **لعبة الحظ** *aventurina* وبدعة **القناع** *masque*.

كانت لعبة الحظ تلك عبارة عن حلي وجواهر معروضة للبيع عبر شوارع المدينة، وبفضلها كان يمكن ربح بعض الأشياء ذات قيمة تعادل ورقة يناصيب. هذه الحيلة الإيطالية بامتياز كانت تمكن المتزوجات والعازبات من طرق للحصول على هدايا مشبوهة يرجعن مصدرها إلى الحظ السعيد الذي حبتهن به **لعبة الحظ**.

أما القناع فقد كان تنكرا ضروريا للباحثين عن الحظ السعيد. وقد تكفلت العادة

بحمايته إلى درجة أن حرّمت على أيّ كان نزعه عن الشاب الظريف وعن الشاطر بأية تعلة كانت. وهكذا كان بإمكان الرجال والنساء أن يأتوا ما طاب لهم من الفاحشة في ظل هذا التقنع *masqueria*، فهم لا يتوانون أبدا عن استغلاله[1].

وإذا ما أصبح ضرب المواعيد وتبادل الهدايا أمرا منظما لن تبقى بعد ذلك سوى خطوة واحدة تفصل طبقة السيدات الظريفات عن طبقة البغايا. لقد أصبحت للبندقية، ذلك المركز المشهور بهذه الصناعة، في الغرب مكانة تضاهي ما كانت عليه كورنث في بلاد الإغريق.

هكذا بيّنا كيف تسرّبت كلّ من النزعة الحسّية المتجاسرة الفظة وشهوانية الشرق المتكالبة إلى إيطاليا ومنها إلى فرنسا، ومن ثمّ انتشرت في أوروبا.

---

(1) Venise, Eusebe Salverti, 226.

2
الحقيقة مجردة

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كان فيه على الفارس أن يُقدم على أعمال بطولية خطيرة طموحه الوحيد أن يطيع صديقته وينال رضاها، ففي المدرسة الجديدة اتفق العاشق وسيدته على أن تكون معاناتهما وآهاتهما مثمرة أكثر. فمن ناحية الفارس لم يعد يقنع بنظرة أو بقبلة بريئة بل أصبح يطالب بذلك الجزاء الأجزل الذي تطلب الكثير من الهمة لنياله، وذلك منذ أن أصبح ذلك الجزاء في عداد ذائقة العصر بفضل تأثير روما والبندقية. وأما من ناحية المرأة فقد تجاوز طموحها الثناء والغزل فأضحت تسعى إلى المتعة الحسية والسلطة. إن تعفف الملك إدوارس والملكة إيديت وزوجة قاضي أكيلي المثالي لم يعد يثير سوى ضحكات الاستهزاء. لقد تجاوزنا مثاليات **أوفياء الحب** لنعود مجدّدا إلى واقعية أبيقور وبترونيوس.

ولكن لنكن منصفين: إن إدراك هذه الخطوة الكبيرة التي يمثلها قانون الجزة الذهبية[1] الظريف[2] Toison d'or من شأنه تهييج عواطف الشعراء والفرسان، فهذه الخطوة تلهم البعض إيداع أعمال خالدة جديرة بأن تكون في مستوى أروع عبقريات العصور القديمة. وتلهم البعض الآخر أعمالا حربية جليلة تذكرنا بالمنازلات الفروسية في القرن الرابع عشر[3].

---

(1) ترتبط الجزة الذهبية في الميثولوجيا الإغريقية بالكبش المجنّح كروزومالّوسChrysomallos الذي ركبه كلّ من فريكسوسPhrixos و هالي Hellé هربا من إينوInoـ. زوجة أبيهم. ولمّا وصلا إلى كولشيس Colchide (جورجيا حاليا) قدّم فريكسوس الكبش قربانا للإله زيوسZeus وأهدى جزّته إلى آيتاس **Éétès**، ملك البلاد لحسن استضافته لهما فعهد بها إلى تنين يحرسها. وفي مرحلة لاحقة نظم مجموعة من أبطال الإغريق حملة استردوا من خلالها تلك الجزة الذهبية الشهيرة. (المترجم)

(2) صدر هذا القانون من قبل فيليب لوبون Philippe–le–Bon دوق بورقونيا Bourgogne في بروج Bruges سنة 1429 إكراما لعشيقته الشقراء ماري كرامبروج Marie Crambrugge.

(3) قال برانتوم: «أما أنا فأعتقد أنّ الذين يقومون ببعض رحلات الحرب الرائقة والذين يتعرضون لضغط العدو الرهيب=

لم يكن لاريوست L'Arioste أكبر شعراء المسيحية، الذي كان مطلعا على أحوال عصره أكثر من غيره، يتغنى في قصيدته «**رولان المجنون**» *Roland Furieux* بالحب الذي كان زمن الكارلوفانجيين والذي لم ينتشر انتشارا واسعا، بل كان يتغنى بحب عصر النهضة الذي ملأ الدنيا وشغل الناس. لقد كانت شخوص قصيدته تحوم حول أنجيليك Angelique راغبة فيها باذلة قصارى جهدها لنيل رضاها ولأجلها عاثت في البلاد قتلا وحرقا حتى تحل المعظلة، معظلة من يحوزها. «أيتها المرأة الفاتنة، أيها الفارس المغامر الفخور، أيها الحب، أيتها المعارك، أيهالظرف الغزلي، إنكم أنتم الذين أتغنى بكم». هذا ما قاله الشاعر في مطلع قصيدته، وقد ظل وفيا له إلى آخرها[1].

ولمّا كان الحب الشغل الشاغل للجميع، استعاد الجمال الجسدي قيمته التي شوهها غزو البرابرة تشويها كبيرا، فانبرى الجميع يتعلم كيف يدرسه ويتعمق في دراسته حتى يدرك كنهه.

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر عرّف لوران دي ميديسيس Laurent de Medicis

= تزداد دقات قلوبهم وتتسارع عندما يفكرون في سيّداتهم وفي ما حبينهم به من تذكارات يحملونها معهم، وفي ملاطفاتهن وحسن الاستقبال الذي ينتظرونه منهن إذا ما عادوا سالمين وفي الألم الذي سيصيبهن حزنا عليهم إذا ما لقوا حتفهم. وخلاصة الأمر فحبا فيهن وحنينا لهن تهون أمامهم كل الصعاب، وتضحى كل معركة مجرد منازلة في مجلس حبّ، و الموت في عرفهم سبيلا إلى المجد. (ص 311). تلقى م. دي بوردس M. De Bordes تذكارا من شابة كان يحبها. ولمّا أمر في معركة دروكس Dreux بأن يهاجم كتيبة م. دي قيز M. De Guise ألقى نظرة على ذلك التذكار ثم أرسل فرسه صائحا: «أنا ذاهب لأقاتل ببسالة حبا في عشيقتي أو أموت في ساحة الشرف». وصدق وعده إذ اخترق الصفوف الستة الأولى كلها ليقتل مثخنا بالطعنات في الصف السابع (ص 311).

نفس الأمر حصل مع م. دي بوسي M. De Bossy فتى زمانه الذي كان أكثرهم تقديرا للتذكارات عشيقاته فكان يفتخر بأنه «في كل المعارك الكثيرة التي شهدها، سواء كانت مبارزة أو حربا وقتالا جماعيا، لم يكن يقاتل أبدا دفاعا عن أميره ولا لأجل طموح شخصي، بل فقط للظفر برضى سيدته». لقد كان محقا كما قال برانتوم «لأن كل مباهج الدنيا لا تساوي شيئا أمام حب وعطف سيدة جميلة وشريفة وعشيقة».

(1) كان بويارد Boyarde قد سبق لاريوست في مجال الملحمة الغرامية إذ نشر قبله قصيدة **أورلندو العاشق** *Orlando innamorato* دون أن يتمكن من إتمامها وقد رغب نيكولا أغستيني Nicolas Agostini في مدينة البندقية أن يكملها إلاّ أنّ فرانشيسكو باربي Francesco Berni الذي حذا حذوه نجح في إتمامها أفضل منه رغم ما أضافه إليها من هزل فاحش. لقد ابتدع بذلك جنسا أدبيا جديدا حمل اسمه.

الحب بالقول: «**إنه جوع كافر للجمال**، إنه يهذب النفوس ويرقيها، ويحثّ الناس على الاهتمام بالأشياء المهمة والخطيرة، وعلى **تفعيل** الفضائل التي ما تزال بداخلنا **بالقوة**».

إن هذه العبادة للمرأة الجميلة لم يكن مشغلا حكرا على الطبقات العليا في المجتمع، فقد انتشر بين صفوف كل طبقات المجتمع، فقد ذكر لوران دي ميديسيس أن موت إحدى السيدات الفلورنسيات قد سبب حزنا كونيا.

كتب بشأنها: «لقد كانت ذات حسن لم ير مثله في الوجود لذلك بكاها كل الأدباء الفلورنسيين شعرا ونثرا فموتها همّ الجميع. ورغبة من لوران في مشاركتهم آلامهم نشر أربع سونيات تمجد هذا الحسن الذي غيّبه الموت.

خصصت تولوز نفس الحماسة في القرن السادس عشر **للحسناء بول** ***Paule***. كانت آية في الجمال حتى إن جموع التولوزيين كانت تضج تحت نافذتها طمعا في رؤيتها، لأجل ذلك عني المجلس البلدي عناية خاصة برغباتهم وحمل السيّدة الشهيرة على أن تظهر من شرفتها في أيام وأوقات معلومة حتى تتيح الفرصة لمعجبيها الكثر أن يتأملوا جمالها.

هكذا سعى الجمال الجسدي إلى أن ينفصل منذ مطلع عصر النهضة، عن الجمال الروحي وأن يحصر فتنة عشاقه به في تجانس الأشكال والألوان. لقد أفضى الحب مرتبطا بتفضيل الأشكال والأحجام إلى أن يشكل ذائقة الناس، فغدت دراسة الجماليات أساسه.

كان هذا الجمال الخارجي ما يزال على عهد ميشال آنج Michel–Ange منفذا إلى جمال الروح، وحتى إلى الجمال الإلهي، كما كان ذلك مع أفلاطون[1].

(1) قال ميشال آنج: «قل لي أيّها الحب من فضلك هل إن عينيّ تشاهدان فعلا الجمال الذي أتأمله، أم أن هذا الجمال بداخل قلبي ؟ فأينما وليت وجهي تبدو لي طلعتها وقد ازدادت جمالا عن ذي قبل، عليك أن تعلم ذلك بما أنك تتواطأ معها لتسلباني سكينتي، وهذا ما يثير ثائرتي، ورغم أنني لا أطالبها بشيء ولا حتى بتنهدة أو بلفتة حب وهّاجة. أجاب الحب: إن الجمال الذي بحضرتك هو جمالها حقيقة، ولكنه يزداد ألقا عندما يتنقل إلى مكان أفضل أي عندما يلج إلى روحك ويخترق عينيك، هناك يصبح جمالا إلهيا، شريفا، كما لو أنه يسعى إلى أن يمتزج بشيء خالد، إنّ هذا الجمال هو الذي يظهر لعينيك وليس الجمال الأوّل، ثم أضاف ميشال آنج: إن حب الجميل، ذاك الذي يقودني في حبّي للفنون الجميلة، قد وهبته منذ الولادة شاهدا على موهبتي. ومن وهب ذلك ويتخذ لنفسه سبيلا آخر يرتكب حماقة. إن عبادة هذا الجمال هي وحدها التي ترفعني إلى هذا المصاف وتدعوني إلى أن أنحت وأرسم.»=

ولكن لا أحد ظل حبيس هذا التأمل الروحي فسريعا ما عمد الكتاب إلى المجاهرة بأوصاف بطلاتهم وعشيقاتهم بكل الطرق الممكنة فكفّوا عن التكنية عنهن بأسماء الزهور والطيور بل أضحوا يشيرون إليهنّ بأسمائهن الحقيقية. فإذا كان دانتي لم ينطق باسم بياتريكس إلا بعد وفاتها، وبعد أن تأكد من أن إعجابه بها لن يلطخ سمعتها بأية حال،فإنّ الشعراء من بعده اعتقدوا أنّهم يجلّون النساء اللواتي يحبونهن عندما يذيعون على الملأ محاسنهنّ. ومن هذا المنطلق كانوا يصفونهن بألفاظ آية في الصراحة، فربما خجلوا إذا لم يصفوا محاسنهن بكلّ دقة وبأوضح الأساليب.

لقد قال الفلاسفة إن **الحقيقة مجردة** أولا تكون وأضافت البلاغة: إن الإنسان أُعْطِيَ اللغة **ليتعلم قول الأسماء كلّها**[1].

لقد بلغ لاريوست في النشيد العاشر، جرأة لم يأتها هوراسيوس ولا أوفيديوس نفسيهما، فقد صور أنجيليك مستلقية أمام الوحش البحري عارية عريا لا مثيل له اللّهم إلا عري تـمثال فينوس ميديسوس Venus de Medicis أو عري أسلافنا البدائيين[2]. بل إنه انفرد

= وقال في موضع آخر «إن عينيّ، المشرعتين على كل شيء جميل، وروحي الساعية إلى خلاصها، ليس لها من هدف آخر غير الرنوّ نحو السماء وإدراك الجنة. إن إشراقا ينبعث من أبعد النجوم يشدني إلى رغباتي، ورغبتي هذه تسمى الحب. إن كل قلب صادق لا يتلقى نصائح حكيمة إلا من لدن وجه حسن يؤججه حبا وتنطبع صورته في عينيه».

(1) ليس هنالك أزهى من صورة أرميد Armide في النشيد الرابع من **قصيدة القدس**. لقد وصف لنا الشاعر شعرها الأشقر الذهبي وقد برز من خلال حجابها يلمع كما تلمع الشمس بين ثنايا السحب، إن نظرتها التي تخفيها تحت جفنيها طافحة بالحب. ووجنتاها متوردتان بل إنّ ثغرها العذب وردة تنفتح طلقة زاهية. إن الشاعر يجلب نظرنا الفضولي إلى ذلك الصدر الجميل حيث تشتعل جذوة الحب. إننا اكتشفنا جزءا من جسدها. ونحن نروم الآن رؤية ما تحت الحجاب:

إن صدرها الأبيض في مثل بياض الثلج
يشعل جذوة الحب
ويلهب نار الشهوة
ولكن إذا عزت رؤيته بالعين
فإن القلب ما يفتأ يحبه

(2) «لا شيء كان يحجب لون الزنابق والورد القرمزي الذي كان بهاؤه يغطّي بعناية المواضع التي تزيّن جسدها الجميل. لقد كاد روجي Roger أن يخطئ في نظرته الأولى إذ لولا أنه شاهد الدموع تبلل الزنابق والورود النضرة التي=

بعمل جريء عندما دفع أحد شخوص قصيدته هو ساكريبان Sacripant(النمر؟) إلى التغنّي بمحاسن العذرية[1].

إن الأدب لا يتميز في هذا المجال عن الفن، بل بالعكس من ذلك نرى الفنانين يزايدون على إباحية الشعراء، وقد وصلت الجرأة ببعضهم إلى أن رسموا ونحتوا عشيقاتهم وعشيقات كبار النبلاء في لباس شفاف على غرار لباس أنجيليك في قصيدة لاريوست. لقد كان فرنسوا الأول وشريكه الرسام والنحات بريماتيس Primatice مبتدعي هذا الجنس الفني المبتذل الذي كانت «ديانا البواتيية» Diane de Poitiers ملهمته النموذجية.

لقد انتشر مبدأ **الحقيقة مجردة** وعمّ، فانكب الرسامون والنحاتون على دراسة الشكل بشغف مفرط إذ الرسم الأفضل هو الذي ينزع أكثر من غيره نحو إبراز الرسوم جلية واضحة. وحتى في الرسوم المتعلقة بالقديسين، فإنّ الفنان كان يحرص بكل جهده على أن يبرز من خلال ثياب العذارى والشهداء، عندما يرسمهم، الرقبة والعجيزتين، وكل أجزاء الجسم. فيغدق على الناظر عريا وعلى المادة خلجات خليعة ومثيرة للشهوة.

ولدى كبار أساتذة المدارس الإيطالية والإسبانية كان يتم تلطيف هذا البحث عن كلّ ما هو بارز عبر الدراسة المعمقة للفكر الديني، لقد استلهم كل من رفائيل Raphaïel ودل

= على خدّها، وتتقاطر على طرفي صدرها الجميل، ولولا أن النسيم العليل قد حرك شعرها لحسبها تمثالا من المرمر والرخام.

(1) إن العذراء الشابة تشبه الوردة حديثة التفتح التي تتلألأ على غصن الشوكة التي تغذيها، وطالما لم يقترب منها الراعي وقطيعه فإن النسيم العليل، وقطرات الندى، والماء الذي يبلل ساق الوردة والتراب نفسه الذي يحتضنها، كلها تساهم في محافظتها على نضارتها. إن الشبان المتوقدين من الجنس الآخر يعجبون بها ويشتهونها. البعض منهم يريد أن يزين بها صدره والبعض الآخر يريد أن يزيّن بها شعره.، ولكنها سرعان ما تفقد كل مفاتنها، عندما ننزعها من الغصن الأخضر الطري حيث لم تعد تلك الشويكات قادرة على حمايتها. إن الفتاة العذراء شبيهة بهذه الزهرة ولذلك عليها أن تحافظ على الوردة التي وهبتها إياها الطبيعة حتى لا تقتلع.

«إن محبوبا واحدا، لا قدرة لها عليه، هو الذي تسعده فيحوز حبها لوحده: وفوق ذلك فهي سعيدة بأن تظل محبوبة من ذاك الذي يسلبها كلّ مكنونات صدرها». وما إن قابلت أنجيليك ساكريبان كان هاجسها الأول أن تخبره بأن «رولان قد دفع عنها الموت، والفضيحة، وما لا يعدّ من الأخطار الشديدة. وطمأنته بأنها حافظت، بفضل نجدة هذا الفارس المغامر الشهم، على تلك الوردة الغالية، التي حفظت أمها والطبيعة محاسنها، نقية حصانا».

سارتو Del Sarto الإيمان بشكل قوي في رسمهما للعذارى، كما استلهمه كل من ليونار Léonard وتيتيان Titien في رسمهما للقديسين، إن جمال أجساد العذارى والقديسين لا يوحي بأية نزعة حسية ولكن أغلب الرسامين ارتكبوا، دون وعي منهم، الخطأ الأول فلا يظفرون بالجميل الجسدي إلا على حساب الجميل الروحي.

فقبل أن يبث الرسامون أو النحاتون في المرمر أو القماش الإحساس بالحب وبالسعادة الصافية فإنهم يفرضون عليهما الإحساس بالانتشاء، والرغبة الجامحة في اللذة. إنهم يريدون لألق الألوان وتناسق العضلات وقوتها أن تصدم المشاهد وللأشكال أن تأخذ بكل كيانه. إنه لا شيء يميز بشكل صريح **السيدة والصديقة** في العصر الوسيط عن **العشيقة في** عصر النهضة سوى هذه النزعات الأدبية والفنية. لقد كانت السيدة مرغوبا فيها لحيويتها ورقتها ومروءتها، في حين أن العشيقة تكون محل إعجاب لبياض بشرة قوامها ولبروز صدرها ولتوقد نظرتها. لقد بخسوا القلب قيمته وأعلوا من شأن الجسد الذي أصبح سيدا يسود ويسوس.

وحتى الورع والزهد لم يسلما من هذه الحاجة إلى تعرية الحقيقة والتعبير عن كل ما يجول بفكرنا بأكثر العبارات صراحة. لقد تغلب الإسبان حقيقة على هذا الخلط بين النزعة الإشراقية والنزعة الشهوانية، فنأوا، والحق يقال، بهذه الشهوانية عن حاجات الجسد المادية عبر حرارة الصلوات. ولكن تأثيرها لم يسلم منه القلب والعقل حيث تثير في الغالب أغرب الاضطرابات.

الجميع يعرف صيحة الحب الشهيرة التي أطلقتها القديسة تيريزا Sainte Therese: **إنني أتحرّق شوقا للقاء الحبيب**. إن هذه العبارة موجهة إلى حبيبها الروحي، المسيح، ولكن لمّا حذف اسم المسيح من النص حق للقارئ أن يذهب مذهبا آخر[1].

---

(1) «إنني أحيا دون أن تكون حياتي ملكي، إنني أتشوق إلى وجود أرفع. **إنني أتحرّق شوقا للقاء الحبيب**.

إن هذا الرباط الإلهي الذي يشدني إلى الحب يجعل قلبي طليقا رغم أنني سجينة الاله ولكنني سعيدة جدا بأن أراني سجينة حب الإله. **إنني أتحرّق شوقا للقاء الحبيب**.

كم هي مضنية عذابات النفس وهذا السجن وهذه السلاسل التي تقيّدني. إن مجرد التفكير في التخلص منها يصيبني=

الحب هو كل فلسفة القديسة تيريزا وعقيدتها. ألم تقل بأن «طريق الكمال قد بدا لها أسهل الطرق لأن الفضيلة هي التي تهدينا إليه و**الفضيلة هي الحب**». وإذا كانت أشفقت على البائسين والشياطين «فلأنهم أسرى أبشع أنواع العذاب، عذاب **من لا يستطيع أن يحب**». فلا أحد سواها فهم حقيقة إقدام الشهداء على الموت. «لقد كان يخيل إليها أنها ستموت مثلما ماتوا لأنها كانت تحب مثلما كانوا يحبون». وبالمناسبة فلم يبرهن أبدا على صحة بيت الشاعر اللاتيني «**الروح العذبة في الجسم الجميل؟**» *Mens blanda in corpore blando*» بطريقة أفضل. لقد كانت تيريزا جميلة، قسماتها متناسقة، نظرتها رقيقة وكلامها عذب فكل شيء فيها كان يثير الإعجاب والحب، وإن مجدها كان في كونها قديسة ولكن ليس على شاكلة مريم المجدلية.

لقد ذهب القديس يوحنا الصليب Saint Jean de la Croix مصلح رهبانية الكرمل ومعاصر القديسة تيريزا بالأمر شوطا بعيدا وإلا لمن هو موجه هذا النشيد الذي لا تقل غرابته عن جرأته[1]:

«في ليلة ظلماء أضناني فيها أرق الحب، انفلت من المنزل خفية وكان الصمت يخيم في كل مكان. فيا لها من مغامرة لطيفة!

«في هذه الليلة السعيدة، تسللت خفية، بعيدا عن أعين الرقباء، لم أكن أرى شيئا ولا حتى نفسي، فلا نور كان يقود خطاي غير ذاك النور المتوقد بداخلي.

«إلا أن هذا النور كان يقودني، بثبات أكثر من نور الشمس في واضحة النهار، إلى هناك حيث ينتظرني ذاك الذي أعرفه مليا وإلى المكان الذي لا يلوح فيه أحد.

«أيها الليل الذي قاد خطاي، أيها الليل الأكثر أنسا من الفجر أيها الليل الذي جمع المحبوب بالعاشقة التي فنيت في محبوبها...

=بألم فظيع. **إنني أتحرّق شوقا للقاء الحبيب**.

أيتها الحياة ماذا بإمكاني أن أمنحه لإلهي الذي يعيش بين ضلوعي سوى موتي. أيتها الحياة لكي أذوق حياة أعذب في الإله فأنا راغبة في إدراكها بموتي فكل ما أتوق إليه موجود لديه. **إنني أتحرّق شوقا للقاء الحبيب**.

(1) توفيت القديسة تيريزا سنة 1582 وأما القديس يوحنا الصليب فقد توفي سنة 1591

«وعلى صدري النضر الذي حفظته له حصانا من أكف اللامسين لينام عليه وحده مطمئنا، وسأداعبه (Regalava) وأرسل عليه النسيم بمروحة من خشب الأرز.

«وعندما دخل النسيم عبر النافذة يذرو شعره، مرّر كفه الرقيق على رقبتي فسقطت مغشيا عليّ (*y todos mi sentidos suspendia*)

«ومشدوهة نسيت نفسي وملت بوجهي على صدر حبيبي ودفنت كل همومي بين أزهار الزنابق».

ألا يتعلق الأمر بشابة، تسلّلت ليلا إلى عشيقها حيث سَتُضحّي بين أحضانه بشرفها الذي صانته له ؟ فالقديس يوحنا الصليب قد سمّى ذلك «**نشيد ليلة الروح المظلمة**»، ولكن العنوان لا يفسر شيئا، ويظل النص أجرأ أناشيد الحب وأكثرها إباحية.

عندما نتذكر أنّ آلاف الأناشيد الروحية والدينية قد تغذت من هذه الإيحاءات الإباحية ومن التباسات المعاني منذ القديس يوحنا الصليب إلى الراهبة Nativité[1] فنحن مدعوون إلى أن نفكر مليا في هذه القوة الكونية التي لا تقهر، قوة الحب التي تنهال على أكثر النفوس زهدا وتجبرها على أن تقيس مباهج العالم الآخر على مثال الأهواء الدنيوية.

لا ينبغي أن نهزأ من هؤلاء الإشراقيين المشهورين بل ينبغي أن نتعلم كيف نرثى لحالهم في نفس الوقت الذي نبدي إعجابنا بهم. لقد كان القديس يوحنا الصليب والقديسة تبريزا مصابين بداء الحب بل بداء الشهوة. لقد قذفت بداخلهما النار التي ألهبت قديما فادر Phedre وصافو Sapho وعليسة Didon ومريم المجدلية. ولنتخيل أنهما جاءا إلى الوجود قبل ظهور المسيح، فقد كانا سيكونان بطلي حب وثني يعيشان في الآن نفسه بعواطفهما وبأحاسيسهما. ولكن المسيح بلّغ رسالته: إنها ترن في آذان هؤلاء المحبين المشهورين رنينا عاليا إلى درجة أن خشوا على أنفسهم من فورة الفرح التي أصابتهم وذعروا من الهاوية التي كانت عواطفهم وأحاسيسهم ستدفعهم نحوها. لقد استبسلوا في اعتزال المجتمع

(1) إن قصة حياتها المؤلفة في أربعة مجلدات والمترجمة إلى الإنجليزية والمنشورة حديثا في فرنسا قد تجاوزت كلّ ما يمكن أن نتخيله من جسارة النزعة الكلبية عندما تلبس لبوسا صوفيا إشراقيا.

وتهافتوا على الأديرة وفنوا في حب الإله. صدورهم تلهج حنينا إلى الشهوات وندما على تضييعها، غير أنهم حوّلوا هذه الشهوات عن أهدافها فعوض أن يوجهوها إلى المخلوقات نذروها إلى الخالق ولكنهم حرصوا على أن يسمّوا هذا التوق نحو الإله باسم دنيوي إذ سمّوه الحب. ولتعريفه لجؤوا إلى لغة الشعراء الشبقيين فإذا ما عوضنا كلمة **المسيح** بكلمة **عاشق**، وكلمة **روح** أو **إيمان** بكلمة **عشيقة** فسنكون بإزاء أغاني أعراس epithalames جديرة بالملك سليمان والمتمردة صافو.

لنترك جانبا شعراء إيطاليا وإشراقيي إسبانيا، ولنصعد شمالا، هناك حيث الشعوب التي لم تتخلص نهائيا من الجهالات الجرمانية. إن أسلوب الكتابة أضحى لديهم ركيكا، إذ اتسخ مضمونه الأخلاقي فذهب في ظنهم أن المجاهرة بالفجور هي من باب الإبانة. إنّ هذا الأسلوب لا يأبه للانسجام الذي يراعي ذوق القارئ، فالكتّاب يوشون الحقيقة بألوان زاهية قبل عرضها. فالكاتب الفرنسي مثلا يعرض كل شيء عاريا سواء أكان جميلا أم قبيحا. إن الشواهد النصية تصبح صعبة المنال لأن كبار كتّاب ذلك العصر يسمون برانتوم ورابلي Rabelain وفيلون Villon. وأمّا الأعمال الكبيرة فعناوينها: **مائة قصة جديدة** التي ألفها لويس الحادي عشر و**سباعية الملكة نافار** *Heptamero de le reine Navarre* وحتى رونسار Ronsard نفسه فإنه لم يخش القطع مع غنائية الشعر الجيّد ليتلهى بمواضيع حول **مباهج** الغابات والأزقة وليرسم لوحات ماجنة وسخيفة لم يكن أوفيديوس أوتيبيلوس ليجرأ على أن يمهرها بإمضائه. ومع ذلك فإنّ فجوره يظهر أحيانا نوعا من الصراحة الساذجة تشفع لنزعته الكلبية فيبدو وكأنّه طفل يافع بريء لا فائدة من أن ننهاه عن الكلام الفاحش لأنه لا يعرف معناه. وبفضل هذا التسامح الذي لم تعدمه المخاطر، أصبح هذا الأسلوب الركيك قيد الاستعمال حتى لدى أولئك الذين لا تربطهم صلة بهذا الابتذال الذي نجده في محاوراتنا اليومية. إننا نخطئ كثيرا إذا ما اعتبرنا أصحاب هذه القصص الجسورة إباحيين قادرين على إتيان هذه الأعمال الشائنة التي يروونها بكل أريحية، وجمهورهم بمثابة أشخاص متواطئين معهم. فأغلب هؤلاء القصاص هم مواطنون شرفاء معاصرون لدورنتي

Duranti وتو Thou ومونتاني Montaigne وبايكون Bacon فكانوا لا يرون ضيرا في أن يقصوا على زوجاتهم وبناتهم القصص التي نأنف نحن من قصها على زوجاتنا وبناتنا.

كانت مارغريت دي نافاروا ذاتها قد جمعت بين لغة مفرطة في التحرر من القواعد وسلوك أقوم من سلوك أخيها المتفسخ... فعندما نقرأ **سباعيتها** نخالها تلميذة زاهية من تلاميذة بغايا البندقية، في حين أنها في الواقع ليست سوى سيدة ورثت شرف ربات القصورفي العصر الفروسي. فقد بذلت جهودا حميدة لكي تصالح بين الفرسان وظرف دانتي وبترارك الغزلي. فكانت تعقد في قصرها مجالس تحاكي مجالس الحب. وكانت سعيدة بأن تثير مع السيدات الشريفات والأسياد وحاشيتها ومع **خدمها المقيمين** مواضيع عن الظرف الغزلي الرقيق وعن **مجون الحب** على طريقة فرسان اليروفانص المتوحشين وطريقة **أوفياء الحب** في إيطاليا. لقد أرادت استعادة صداقات الفروسية القديمة، والعلاقات العاطفية مجردة من الشهوانية. وقد سمّت هذه الصداقات والعلاقات «رابطة الأخوة والأخوات». لقد كانت تحدوها رغبة في أن يتحاب الناس وأن يصرّحوا بذلك شعرا ونثرا دون أن يكونوا عرضة للوم شرفاء القوم. وعندما أكد برانتوم «أنها كانت مبرزة في موضوع الدعابات والظرف الغزلي فإن مصدر هذا التفوق هو بالتأكيد معرفتها العميقة بفن الحب لدى الشعراء الجوالين، وليس بفن الحب لدى نبلاء روما والبندقية إطلاقا... لقد تكفلت بتوجيه تكذيب صريح لأولئك الذين نسبوا لها سلوكا ماجنا مجون أسلوبها القصصي. والدليل على ذلك أنّ الأميرال دي بونيفيت Bonivet de الذي هام بها ذكر أنه تجاسر ذات مساء على دخول غرفتها عن طريق فتحة بويب. ولمّا صار قريبا من فراشها لم يلق الاستقبال الذي تمناه إذ صدته كما لو كانت لوكراش Lucrece[1] العنيدة بلحمها ودمها، وأجبرته على أن يتراجع «دامي الوجه بفعل خدوش أظافرها وعضّات أسنانها».

إن مارغريت امرأة أديبة، لطيفة وبشوشة كانت تريد بعث الظرف الغزلي الفروسي

---

(1) يتعلّق الأمر ببطلة رومانية تعرضت للاغتصاب فانتحرت. وكان انتحارها ايذانا بميلاد الجمهورية الرومانية سنة509 قبل الميلاد.(المترجم)

القديم. لقد كانت تبدع أدبا ماجنا إعجابا منها ببوكاس[1] Bocace. وهي لا تتحرج كثيرا من بعض الطيش الذي سوغه عصر النهضة. ولكن سلوكها كان يدل على أنها امرأة شريفة ورقيقة وحيية. ولم ترتكب خطأ سوى أنها توسلت بأسلوب عصرها الإباحي لرجّ رجال الدين الكاثوليك حتى يُعَبِّد طريق الإصلاح الديني. إنها تحيلنا، في هذا الصدد، على المهمة اليائسة التي تكفل بها دافيد ليندساي David Lindsay في إنجلترا عندما ساند بهجائه المقذع لرجال الدين جهود المصلح كنوكس Knox (1553). وإضافة إلى كل ذلك كانت هناك الروايات الماجنة والأسلوب الكلبي وهما شكلان أدبيان معتمدان إذ اعتمدتهما الفلسفة ذاتها فألّفت رسائل أخلاقية وسياسية حقيقية في شكل قصص غاية في الفحش. هذه الظاهرة تذكرنا بمدرسة أثينا الإغريقية، ومدرسة لوسيان Lucien وألكسيس Alexis وأرتيستيب Artistippe.

---

(1) اسمه الكامل هو جيوفاني بوكاسيو **Giovanni Boccaccio** أديب إيطالي عاش ما بين سنتي 1313 و1375 اشتهر بأدبه الإباحي والشبقي.(المترجم)

3
المجون الفلسفي

يعدّ رابلي بلا منازع زعيم أولئك الأخلاقيين غير المألوفين الذين يُتَبِّلون إنتاجهم الأخلاقي بالفجور والشهوانية حتى يدفعوا الجمهور السئيم إلى أن يَلَغَ فيه.

كانت مارغريت دي نافار تبحث من خلال مباهج «**سباعيتها**» عن طريقة مناسبة توصل من خلالها إلى الجمهور تعاليم فلسفية. إن هذا البعد الفلسفي يجعل حكاياتها أعلى قيمة من **مائة قصة جديدة** التي ألفها لويس الحادي عشر. فكل قيمة هذه القصص المائة منحصرة في أسلوب الحكي الذي تكفل به كلّ من هارلوكان Harlequin وبوليشينال Polichinelle إذ يرويان للجنود والبحارة حكايات عن مغامرات ماجنة. أمّا في «سباعية» مارغريت فإنّ المشهد الإباحي الماجن إلى حدّ ما ليس له من غرض سوى جذب القارئ نحو سبر أغوار المشاعر الإنسانية. فالسرد ينتهي دائما بحوار فلسفي يتبادله الحضور، فيناقشون أمر الحب والشجاعة والفضيلة، كما كان يفعل دانتي وبترارك في سونياتهما، وكما كان يفعل الشعراء الجوالون في **مساجلاتهم الشعرية**. وهكذا يخصص اليوم الثالث من «السباعية» «للحديث عن السيدات اللواتي لم يكنّ يبحثن في صداقتهن سوى عن الصدق».

في القصة الثانية والعشرين تمكنت الراهبة ماري هيرويت Marie Heroêt «من التغلب، بفضل عون الإله، على إغراءات غاوٍ جسور كان يلاحقها»[1].

وتهدف القصة الثامنة عشرة إلى إبراز رقة حب صادق ينتصر على كل الاغراءات وكل العقبات التي اعترضت سبيله. تبدأ القصة بتقريظ للتربية والمعرفة «اللتين بفضلهما يكتسب الفضلاء الفضيلة والشرف». ثم تتحدث في ما بعد «عن الخجل (أو الحياء) الذي يتمكّن

(1) ثم أضافت مارغريت: «تذكّرن أيتها السيّدات أنه بدون الرحمة الإلهية لا يوجد رجل يمكن أن ننتظر منه خيرا. ولا غواية يمكننا مقاومتها دون عون الإله.. فيمكنكن التأكد من ذلك عندما ترين ذاك الذي عددناه مستقيما فإذا هو حقير وتلك التي حسبناها خاطئة وخبيثة فإذا هي عظيمة الشأن. كل هذا مصداق لقول المسيح: من يعتز بنفسه يذل ومن يذل نفسه يعتز.

من السيدات فيمنعهن من إظهار إرادتهن(أوكياستهن). ثم تضيف القصة إلى تقريظ التعفف أن من «يقدر أن يكون طاهر وجلدا أمام الحسن والحب ولهو النساء سيكون له فضل التغلب على كل الوساوس».

القصة التاسعة هي نموذج رائع للحب الطاهر العفيف لما احتوته من عبر أخلاقية رقيقة ولعذوبة أسلوبها. وملخص القصة أنّ باولين Pauline التي كانت وصيفة لدى دوقة مانتو Mantoue قد أحبت شابا يشتغل مروض جياد الماركيز. ولكن العائلتين وقفتا في وجه روميو وجوليات الجديدين، وفي عزمهما تزويجهما زواجا فخما من عائلتين من علية المجتمع. وبعد أن سعى مروض الجياد، دون نتيجة، إلى دفع الدوقة والماركيز إلى الموافقة على زواجهما فقد كل أمل فاعتزل الناس وترهب على مذهب القديس فرنسيس الأسيزي Saint François d'Assise[1].

وذات يوم ذهبت باولين إلى الدير فشاهدته يقيم القداس مرتديا زي النساك. مر أمامها غاضا بصره. وعندما رأته في مثل ذلك اللباس الذي زاده وسامة وأناقة، وكان من المفروض عكس ذلك، تأثرت واضطربت حتى إنها عمدت إلى السعال حتى لا تظهر على وجهها علامات التأثر. كان صوت سعالها في أذنيه أكثر صفاء من رنين أجراس الصومعة. ورغم أنه لم يجرؤ على الالتفات نحوها إلا أنه لم يستطع، عندما مر أمامها، أن يمنع نظره من أن يتجه الوجهة التي كان دوما يصوّبه نحوها.

(1) ثمّ قال: «إنني أعلم علم اليقين أنّ الإنسان يمكنه، في كل الحالات، أن ينجو بنفسه حتى يجد سعادة أكثر في تمجيد الكرم الإلهي. وكلّي أمل أن يغفر لي الإله خطايا الشباب ويحبّب قلبي في الآخرة كحبه للدنيا. وإذا ما غفر لي الإله فسأصلّي لأجلك. وأنا أستحلفك بالحب الراسخ الصادق الذي ربط قلبينا أن تتذكّريني في صلواتك وأن تدعوي الإله أن يقوّي إخلاصي لك في غيابك مثلما أعطاني الرضا والسعادة وأنت بجانبي. ولأنني كنت طوال حياتي أتمنّى أن أجد في زواجي منك ما يطلبه كلّ زوج فقد اكتفيت بالأمل. واليوم فقدت هذا الأمل فلن أجد بقربك ما يصبو إليه كلّ زوج لدى زوجته. لذا أرجوك أن تعامليني كأخ وأن تقبليني قبلة الوداع» عندها أدركت التعيسة باولين التي طالما قاومت إغراءاته، الألم الشديد الذي حلّ به، ونبل طلبه، ففي مثل حالة اليأس هذه كان يكتفيان بما هو معقول. لم تلمه بل عانقته وقد انتابتها نوبة من البكاء حتى غصّت بالكلام. ثمّ انهارت بين ذراعيه. كان المشهد مزيجا من الحب والألم والشفقة حتى إن إحدى رفيقاته طلبت النجدة لمّا رأتهما يسقطان بجانب بعضهما البعض. وبُذل جهد كبير حتى استعادا وعيهما.

ولمّا نظر إليها بإجلال أخذته النار التي حسبها انطفأت فسقط مغشيا عليه عند قدميها».

بعد هذه الواقعة اقتنعت باولين أن «ترهّب عشيقها لم ينسه حبّها» فترهبت بدورها وانعزلت في دير القديسة كلار Sainte–Claire.

إنّ مارغريت التي نهلت من مدرسة بترارك ولورون دي ميديسيس لا تعتبر الحب والجمال مسيئين للشعور الديني.

فقالت على لسان بارلمنت Parlament: «ما زالت أؤمن أن الإنسان الذي يروم حب الإله عليه أن يحب بعض مخلوفاته». إنها تسمي «أولئك الذين يحثون فيمن يحبونهم عن كمال ما، في الجمال أو في الفضل عشاقا كمّلا يسعون دوما إلى الفضيلة ولهم قلوب كبيرة وصادقة فلا يريدون، قبل موتهم، جعل هممهم متعلقة بحقير الأشياء التي يأباها الشرف والضمير لأن الروح التي لم تخلق إلا لردّ الجميل لخالقها، لا همّ لها وهي سجينة الجسد سوى الرغبة في الرجعة إلى الإله».

أليست هذه فلسفة، من أرقى الفلسفات وأشرفها ؟ ألم نصب عين الحقيقة عندما قلنا بأن القصة الفكهة الساخرة ليست لدى مارغريت سوى شكل استساغه العصر، هدفه تبسيط ما تفتقت به قريحتها من حكمة ومن ثم ترصّد أفضل الظروف لتعميمها.

وإننا لنجد دروسها الأخلاقية حتى في الأقاصيص الأكثر فحشا. ألم تقل في القصة الخامسة والعشرين (**طيش أمير شاب**): «لما كان الحب يعرف كيف يخدع المخادعين، علينا نحن البسطاء والأغفال أن نخشاه».

ورغم النزعة الكلبية الواردة في القصة السادسة عشرة، حيث تصرف راهبا نيورت Niort بطريقة غير لائقة مع إحدى بحارة ميناء كولون Coulon فإن ما رغريت لم تتأخر عن ختم القصة بعبرة خليقة بالثناء، فعلقت على الواقعة بالقول: «إذا كانت بحارة بسيطة وجاهلة وفظة قد انتقمت لشرفها، فلماذا لا تفعل مثلها السيدات الشريفات اللواتي لهن في ما يرينه يوميا أسوة حسنة. وقد نهلت عواطفهن وقلوبهن من الكتابات والمواعظ

الدينية ؟ أليست الفضيلة جديرة بالتقدير بالخصوص لدى النساء التعسات الجاهلات اللواتي يهجرن الكنيسة ويعرضن عن مواعظها لكسب قوتهن واللواتي يحافظن على عفتهن رغم الضغوط الكبيرة التي يتعرّضن لها، فهناك نتعرف إلى الفضيلة صافية بداخل القلب فحيث يقلّ حضور غريزة الإنسان وقوته، تحضر أعظم آيات رحمة الإله».

وبدوره سعى برانتوم، وبأسلوب أكثر بذاءة، أن يكشف في كتابه «**النساء الظريفات**» عن رغبته في تعليم معاصريه كيف يتخلصون من سطوة أهوائهم بأن أبان لهم عن كل مخاطرها. ما من شك أن مدرسة الأخلاقيين هذه خطيرة التأثير، ولقد نبهنا إلى ذلك عندما تحدثنا عن مسرح هروزفيتا. ولا نعلم لهذه المدرسة من سابقين مهمين، لدى الكتاب الكنسيين الأكثر وقارا ودون أن نستثني منهم آباء الكنيسة والأنبياء.

فقد بيّن برانتوم في الخطاب الأول، بحماس كبير، كم هم مذنبون أولئك الأزواج الذين يدفعون زوجاتهم إلى الخيانة إما باستثارتهن أو بخيانتهن ثم يلجؤون في ما بعد إلى اغتيالهن أو تسميمهن عقابا لهن على ذنوب هم الذين يتحملون مسؤوليتها.[1]

أما في الخطاب السادس فإنه يؤنب الرجال الذين يجرؤون على قذف المحصنات، وينصح المتهورين منهم على تجنب القذف والافتراء بحق نساء تعوزهن الحيلة للدفاع عن أنفسهن. ويختم كتابه بالثناء على السيدات اللواتي ينشدن في الرجال الذين يحببنهم الشهامة وصدق المشاعر قبل أي شيء آخر. ويثني بالمثل على الرجال الذين ينشدون في النساء الحزم والفضيلة.

---

(1) بأي حق يبيح زوج لنفسه قتل زوجته طالما أن الإله وشريعته وإنجيله المقدّس لا يبيحون له سوى تطليقها. فلا مجال فيهما للقتل والدماء والجثث ولا للتعذيب والسمّ والقسوة. أه! لقد بيّن لنا مخلّصنا المسيح بكل وضوح ما في هذه الممارسات وجرائم القتل من شطط. فهو لم يباركها قطّ، فلمّا أحضروا له امرأة ضبطت تزني حتى يعاقبها قال لهم، وهو يكتب بإصبعه على الأرض، «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أوّلا بحجر». وهو ما لم يجرؤ عليه أحد. فقد أحسّ الجميع بتأنيب المسيح الرقيق والحكيم. فربنا لم يعلّمنا أن نتسرّع في إصدار الحكم وفي القتل حتى في مثل هذه الحالات، لأنه عارف بطبيعتنا الضعيفة وما يعنّ له البعض من شطط. فهناك من يقتل زوجته بتهمة الزنى وهو المتورط فيه حتى النخاع. والآخر يقتلها وهي بريئة حتى يتخلّص منها ويتزوّج غيرها وهؤلاء عددهم كبير. لقد كان القديس أوغسطينيوس يقول: ينبغي أن يعاقب الرجل الزاني مثلما تعاقب الزانية. (ص16)

لم يكن المسرح الذي لا يكتفي بسرد الوقائع بل يعرض منها للمشاهدين صورا حقيقية، أقل فضولا وجسارة من الأقصوصة والرواية. ومع ذلك فإن مشاهده الفاحشة لا تنقصها الرغبة في تقويم الأخلاق والارتقاء بها. إن الرغبة في دفع الإنسان نحو الفضيلة عبر الكشف له عن كل فظاعات المجون قد انبثقت تحديدا في عمل اشتهر بمحتواه الفاضح: إنه مسرحية سيليستين La Celestine من تأليف فرديناند دي روجاس Ferdinand de Rojas، وهي كوميديا إسبانية من القرن السادس عشر.إنّ أحداث المسرحية تؤكد بما لا يدع مجالا للشك محتواها الفاضح.

كان السيد لافاردان التوراني شريفا وفيلسوفا صارما قد عثر على هذه المسرحية في إيطاليا فأخذها معه إلى فرنسا وعهد بترجمتها إلى ابنه جاك الذي عكف عليها عدة سنوات حتى ينقل إلى الفرنسية دنس هذه الكائدة التي ولغت في التفسخ الأخلاقي حتى سمّيت سخرية وهزءاً سلستين Scelestina (الراهبة؟؟). ولما أنهى جاك عمله أطلع عليه أطفاله كما لو أن الأمر تعلّق باكتشاف **«مقالة في الواجبات»** (*De Officiis*) لسيشرون (Ciceron) أو بأحد مؤلفات سينكا Seneque. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد: فقد ذكر السيد إميل شازل M.Emile Chasles في عمله المتميز **«المسرحية في القرن السادس عشر»** أن قاضيا شابا انبهر بالتأثير الأخلاقي الذي كان معاصروه ينسبونه لمسرحية سلستين فعكف على تأليف مسرحية ممتازة نثرا وأدمج فيها بعض سمات استوحاها من المسرحية الإسبانية. ولكنه مات في ريعان شبابه. فانقطع ذكره وذكر مسرحيته إلى أن عنّ لأحد ورثته طبعها وإهداءها إلى قاض وذلك بعد ثلاث سنوات من وفاته أي سنة [1]1584.

(1) عرفت هذه المسرحية التي تجاوزت كل ما تجرأ الإنسان على عرضه على المسرح من نزعة كلبية، شهرة فاقت شهرة دون كيشوت Don Quichotte وقد حوكيت كثيرا حتى عادلت المحاكاة جرأة الأصل، وبذلك أمطر القرن السادس عشر بروايات سيلستينية منها: **«الكوميديا الكبرى لسلستين الثانية»** *La grande comedie de la seconde Celestine* من تأليف سالازار Salazar و**«مدرسة سلستين أو السيد الشريف المزيف»** *l'Ecole de Celestine ou l'Hidalgo supposé* من تأليف سالا بارباديلو Sala Barbadillo. وقد ظهرت هذه المسرحيات مشربة بنزعة إباحية كنسية ومؤكدة أنها ليست مناوئة للدين ولا للأخلاق الحميدة، حتى إن سالا بارباديلو ضم إلى مسرحيته مؤلفا صوفيا عنوانه: **أمجاد السعيدة جوانا دي لاكروز الراهبة ومعجزاتها** *Triomphes et miracles de la bienheureuse sœur Juana de la Cruz*.=

وإحقاقا للحق لا أحد كان يجهل فظاعة الأفكار والتعابير والحركات التي كان يأتيها الممثلون الإسبان والإيطاليون. وإننا نحترس من إيراد شواهد لا تبيحها أخلاق العصر فنكتفي بالقول إنهم قد تجاوزوا جسارة بلوت بكثير. فكون المسرحية أصبحت مسيحية لم يغيّر في الأمر شيئا، فقد كانت تعرض على المشاهدين النزعة الكلبية التي كان سيناك وآباء الكنيسة ينسبونها إلى المؤرخين والممثلين على مسارح روما.

لا ينبغي أن نبالغ في اندهاشنا لهذه النتيجة الخائبة: إن مسرح القرن السادس عشر لم يكن بعثا للمسرح الإغريقي والروماني اللذين ظهرا في عصر الأدب الكلاسيكي الذهبي، ولكنه كان سلسلة من الإيماءات يؤديها أولئك المنشدون الشطار الجوالون والبغايا،أولئك الذين ما انفكوا يستغلون طيش الجمهور وفضوله منذ الإغريق إلى العصر الروماني، ومنه إلى عصر الشعراء الجوالين.

حاول عصر النهضة أن يعيد لقواعد المسرح القديمة **عجائبيتها وهزلها** ولكنه لم يستطع بدءا أن يخلّص الفن الجديد من ربقة الأذواق الهابطة ومن مقذعات ممثلي المسرح السخيف.

هذا الوضع صدم لاريفاي Larivey أحد أهمّ الذين أدخلوا المسرح الإيطالي إلى فرنسا في نهاية القرن السادس عشر، فرغم سلطة العادة فقد رأى من الضروري حذف المشاهد الأكثر إباحية في المسرحيات التي كان يحاكيها، ثم خفف من حدة المشاهد الأكثر فحشا. ومع ذلك ظل في هذه المسرحيات ما لا يحصى من المشاهد غير اللائقة.

ولكن علينا التقليل من تشددنا إزاء محاولات الإصلاح الأولى تلك، فقد عادت الكوميديا شيئا فشيئا إلى شعار «**علّم الناس الأخلاق الحميدة وهم يضحكون**» *Castigat*

= ونشر جوان هيريرا Juan Herrera مسرحية «**الحاذقة هيلين ابنة سلستين**» *l'Ingénieuse Hélene fille de Celestine*. ونشر أندري بانا Adres Pana «**مدرسة سيلستين**» *l'Ecole de Celestine* وكذلك «**بكائيات ماجنة على سبات العالم**» *Des lamentations licencieuses sur le sommeil du monde(Comédia Tradala por via phisolofia moral)* وقد أعجب بها غاسبار Gaspar أيما إعجاب فأنصفها بأن ترجمها على إثر ترجمته لـ«**حجج لارتين**» *Ragionamenti* de l'Aretin.

(De Puybusque, t.I, p. 180, 345, 480).

ridento mores. وما فتئت تعمل به.

أما السيناريو، وهو تقريبا مثل سيناريو المسرح الروماني، فقد كانت أحداثه متماثلة تدور حول معاقبة شيوخ يتعدون على حقوق الشباب ويسعون إلى منعهم من اكتساب أذواق مناسبة لسنّهم. هذا التحامل المتمثل في اعتبار الآباء ضحية خدم محتالين وأبناء قليلي البر، كان سيعتبر ضربا من الأخلاقية المشبوهة لو أننا لم نكن نعرف الظروف التي حفت به.

لقد قلنا سابقا بأن أعظم النتائج المترتبة عن «النهضة» تمثلت في أنها بدلت مخاوف العصر الإقطاعي ورعبه حرية فكرية وصراحة في التعبير. إلاّ أنّه طوال الثورة التي امتدت من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر، تقمّص رب العائلة البخيل، والشكاك وذو القلب المتحجر صورة السيد المستبد الإقطاعي. لقد تحول النبيل الريفي الطموح والمستبد إلى برجوازي صغير في صورة بخيل مراب، وتحول طموحه القديم لتوسيع مجاله الترابي إلى بخل.

فلم يعد لأمثال جيرونت Geronte وكاساندر Cassandre إقطاع يدافعون عنه، ولكن أموال للجمع والمنع ولم تعد لهم قصور يحبسون فيها جيادا أو زوجات، ولكن منازل يغلقونها دونهم. وأما حبهم لأطفالهم فهو سعي إلى جعلهم وسيلة للإثراء وليس أبدا حنانا وأريحية يحتاجونهما في سنهم تلك.

وأما الشبان فإنهم لا يقلون إصرارا على أن يحبوا على طريقة أوكاسيون ونيكولات أو باولين ومروض الجياد.. ولقد التزم الشعراء المسرحيون بأن وفروا لهم مساندة الجمهور. ولم يكلفهم ذلك الكثير. إن سبل النجاح التي وفرتها زمرة السكابيين والسلستيين[1] des Scapins et des Celestine وكذا أصحاب المكر والمكائد لم يكن لها أثر حسن معتبر، ولكن لا أحد يشك في أنها أدركت هدفها. إن المتفرج ذا العقل الراجح والمؤمن المسيحي

(1) إشارة إلى شخوص مسرحية موليار خدع سكابان *Les Fourberies de Scapin* وشخوص مسرحية ماليبي سليستين *La Célestine* (المترجم).

ذا الإرادة الحرة يحتجان على أولئك الشيوخ الذين كان عليهم أن يورثوا أبناءهم تجربة فعل الخير، لا أن يعطوهم بدل ذلك دروسا في برود العواطف والأنانية والبغي. في المسرح القديم لم يكن المقصد من المسرحية محددا تحديدا واضحا، لذلك فإنّ الشباب لم يطفئوا شهواتهم الشبابية إلاّ عن طريق خدم فاسدين وعبيد ومومسات. وأمّا مسرح القرن السادس عشر فقد ولج بخطى أكثر ثباتا طريق تهذيب الأخلاق، فأعطى بعض الفضلاء أدوارا إلى جانب الخدم حتى يتمكن من أن يسدي إلى الشيخ الخرف نصائح حكيمة[1].

ومهما يكن من الأمر فإن الدرس يكون دوما عنيفا ولكن فظاعة العقاب هي مسألة عابرة في حين أن الهدف المدرك هو مسألة أخلاقية جوهرية.

وإنه من الثابت أن بعض الفلاسفة ومؤلفي المسرحيات كانوا يخفون خلف إباحيتهم المبتذلة مشاريع إصلاح ذات مصداقية. ومع ذلك فإن أسلوبهم لم يخل من مخاطر، فعندما سقوا الناس سموم الرذائل كانوا يسعون إلى أن تتوافر لهم الفرصة ليقدموا فصاحتهم دواء لها ولكنهم لم يتنبّهوا إلى أن ما لديهم من الموهبة لم يكن كافيا لإيقاف تنامي الشر، وأنه من المستحسن دائما أن نترك الناس في صحة جيدة بدل أن نصيبهم بالمرض لكي نستأثر بمزية علاجهم.

وهكذا وطوال القرن السادس عشر، بدّد الحب بكل جسارة مخاوف العصر الوسيط ووساوسه. لقد أظهر احتداد الأهواء القوية والعنيفة التي لم تختف بل سجلت ظهورا علنيا. لقد أصبح الحب ظاهرة مزاجية ولم يعد قطعا نابعا من القلب أو مسألة ذوق. لقد أصبح ذا ميزة خاصة وغريبة واللغة نفسها أصبحت فاسقة، فقد عُمّمت اللغة الشهوانية حتى إن كل تيارات الفكر الإنساني من فلسفة وشعر وتصوف ديني، استعارت منها أسلوبها الشبقي..

لقد ورثت أوروبا عن العصر الوثني كل ضروب الأهواء الجامحة، فالمرء ينتشي بتفسخه

(1) – هكذا كان الأمر مع مارك أنطونيو Marc–Antonio في «شياطين لاريفي» *Les Esprits de Larivey* فقد طلب من أخيه أريدوزيو Aridosio بأن لا يسعى إلى دفع أطفاله حتى يكونوا بخلاء قساة مثله، لقد كان يريده أن يكون متسامحا إزاء طيش الشباب.

الأخلاقي مثلما ينتشي بمعتقداته الدينية والسياسية.

وعبثا يرتب الزوج العسس حول زوجته ويبدي عزما لقتلها مع شريكها حالما يحسّ بأنه مخدوع. لذلك تعددت طرق مواعدة الحبيب بتعدد المخاطر التي تسببها، فقد كان يقال إن **الحب بدون مخاطر هو سعادة بلا عز**... لقد كان إنسان القرن السادس عشر يبحث قبل كلّ شيء عن الشهرة وعن حياة الأضواء. لقد اتخذت المواعيد الغرامية بعضا من صورة المبارزات والقتال، فالعاشق يذهب إلى هذه المواعيد شاهرا سيفه يحدوه الكِبْرُ أكثر مما يحدوه الحب.

وإن تعاليم الإنجيل التي كانت تردد أغلب الأحيان لم تؤد إلى أدنى صحوة ضمير، فحضور القداس في وقته، والإقرار بالذنوب في نفس الآن الذي ترتكب فيه، والحماس لحضور الأعياد الدينية كل ذلك يكفر أيّما تكفير عن الذنوب. لقد أضحى الورع عملة رائجة نشترى بها في الحال عفو الإله عما نرتكبه من الزنى والقتل تماما مثلما كان شأن الريال الذهبي في ظل شريعة الإفرنج السالبين.

لقد صمدت بعض الأخلاق النبيلة ولكنها كانت مطمورة بين صفوف البرجوازية وقضاة النبلاء فهناك، وكما قلنا ذلك سابقا، حُفْظَ الحب في ظروف طيبة طوال العصر الوسيط.

4
لويس الثالث عشر: الحب رعوّيا

كان هنري الرابع الذي نشأ في عصر الظرف الغزلي الإباحي الذي كنا بصدد السياحة في أرجائه، أول من وضع حدا للفجور والنزعة الكلبية. ومع أنه كان، مثل فرنسوا الأول، شابا ظريفا يافعا فقد كفّ، على الأقل، عن غواية النساء ترهيبا. إنّ عشقه لفلورات Fleurette وكوريزاندر Corizandre لم يعد بنفس قوة عشق فرانسوا الأول لديانا البواتيية. ولكن عوض أن يتغلب على الصعوبات على طريقة البارون الإقطاعي الفظة، فقد لجأ إلى الحيلة لتجاوزها. وهو وإن لم يظهر وفاء المحب الحقيقي فقد أبدى طيبة رجل فاضل وتلقائيته وظرفا غزليا فرنسيا قحا، ظرف **طفل بريء**.

وكان لإليزابيت Elisabeth في إنجلترا نفس رد الفعل. ولكن **الملكة العذراء** استخدمت الوسائل الناجعة أكثر مما استعملها الهائم هنري. لقد هيأ هذا البوربوني Bourbon مجرد مرحلة تحول من الحب الفالي Valoix العنيف إلى ظرف لويس الثالث عشر الغزلي الرعوي. أمّا اليزابيت فقد قطعت فجأة مع التهتك الفاجر والدموي الذي ساد في ظل حكم هنري الثامن وماري Marie. ففرضت فجأة على شعب منهك حبّا وأحلاما عاطفية. لقد حباها الله بقلب محب وحساس ولكنها احترست منه فهي لم تنس ما سببه الحب من تعديات لدى أسلافها، لذلك دفعت عنها بكل قوة وقاحة كونت إيسّكس Essex واكتفت بقليل من الحب العذري منحته إياه. ثم قضت دون أن تعرّض نفسها لأدنى اتهام بممارسة غزل ملوث للشرف في زمن تعوّدت فيه البلاطات على الفضائح الغرامية.

ما كان للحضارة أن تأسف على ذلك، فهذه الملكة العظيمة هي قدوة في هذا المجال. لقد كان عصرها عصر الشعر الرفيع والأنيق والعفيف. ولقد شرّف حكمها أربعة وسبعون شاعرا من أهل الجدارة، هذا فضلا عن الأمراء الشبان الذين كان ذوق العصر يلزمهم بنظم أبيات في التغزّل بسيداتهم كما كان يفعل الفرسان البروفانصاليون القدامى...

توفيت إليزابيت سنة 1603 وهنري الرابع سنة 1610. وهكذا استهل القرن السابع عشر بطالع سعيد فلم يتأخر الرعايا المتوثبون دوما لتقليد ملوكهم عن أن يستجيبوا للإشارة الصادرة عن قصري اللوفر Louvre ووندسور Windsor. لقد أدرك الجميع أن الوقت قد حان لوضع نهاية للنزعة الكلبية.

لم يكن الفرنسيون، الراغبون في نيل رضا ملوكهم مجبرين على هجر عشيقاتهم، فقد كان بإمكانهم أن يتخذوا ما طاب لهم من عشيقات، والشيء الوحيد الذي تغير تمثل في أن قتل الأزواج لزوجاتهم الخائنات لم يعد يمرّ دون عقاب، وفي أنّ العشاق أصبحوا أقل تعجلا لطعن صديقاتهم الخائنات والنساء استنبطن الكثير من طرق التسميم للتخلص من الأزواج الشكاكين الذين كانوا يراقبوهنّ. لقد اكتفى الرجال والنساء المتصارعون بتطبيق شريعة القَصَاص loi de Talion.

لم يكن لرد الفعل أن يتوقف عند ذلك الحدّ. لقد كان لحكم لويس الثالث عشر شرف تدشين إحدى أروع ثورة أدبية وأخلاقية في العصور الحديثة.، ولكن الفضل في ذلك تعدّى شخص الملك نفسه فقد كان لا مباليا بمسائل الحب وغير منشغل بالمعظلة الكبرى المتمثلة في معرفة هل أن هذه العاطفة صادرة عن الجسد أم عن القلب أم عن الدما غ. لذلك ترك لرعاياه أمر الخوض في هذه القضية فأسعفوه بمخرج لم يكن متوقعا على الإطلاق.

لقد فهم أوائل الفضلاء الذين انزعجوا من انفلات الأهواء العنيفة أنّ هناك صعوبة جمة تعترضهم لكبح جماح الرابطيين[1] القدامى وأبنائهم الذين ما زالوا مدّرعين ومتخوذين ومتمنطقين بالسيوف. فكيف نأمل أن نعلمهم أن يتغزّلوا بصديقاتهم غزلا رقيقا وأن يجثوا عند ركبهنّ مطلقين تنهدات رقيقة وهم الذين تعودوا على أن يزمجروا في وجوه خصومهم في روما أو في جنيف، وأن يحرقوا الأخضر واليابس في جدلهم الشهير حول الصور هل هي حلال أم لا وحول الطقوس التي ينبغي اعتمادها هل هي الطقوس اللاتينية

---

(1) ويسمون أيضا «رابطة الكاثوليك»، هي مجموعة كاثوليكية متعصبة أسست سنة 1576. وكان هدفها المعلن تطهير فرنسا من البروتستانت.(المترجم)

أم الشعبية؟

لقد قرّر هؤلاء المصلحون العاطفيون أن يتخلصوا من الرابطيين ومن كل البروتستانت العنيدين، وحتى من كل رجل يحمل سلاحا. إنهم يريدون أن يؤلفوا على الحب أناسا من طبيعة مختلفة كل الاختلاف لا شيء يربطهم بالذين عاشوا قبلهم على وجه البسيطة، أناسا خلقوا خصيصا حتى يدفعوا هذه الديانة الجديدة إلى أرقى درجات إشراقها. لقد كانت هذه الديانة بسيطة وعلى غاية من الرقة والدماثة. لقد وضعت ديانة روما وجنيف جانبا، وكان مقضيا عليها أن تجمع كل المنشقين في حضنها العطر.

لقد تعلّق الأمر بالديانة الرعوية لـ تيتيروس Tityre وماليبوس Mélibée[1].

نعتقد جازمين أن الأمر لم يكن يعني إبادة كل أبناء رجال السياسة والرابطيين، وجلب أهل جدد للحب الرقيق من كوكب مجهول. كان يتوجب عليهم فقط أن يحوّلوا المتبجحين الجموحين في ظل حكم الفاليين Valois، إلى رعاة صغار لطفاء وخجولين... فأية ساحرات سيجرؤن على إنجاز هذه الاستحالة؟ هن ثلاث نساء ظريفات، ثلاث نسخ من الساحرة سيرسي Circé: جوليا سافيلي Julie Savelli، فاتنة إيطالية اللطيفة، وابنتها كاترين فيفون Catherine Vivonne ماركيزة منطقة رامبويي Rambouillet، مرهفة الحس كما لو كانت إحدى قَصَاصات رواية «العُشارية» Decameron، وابنتها جوليا دجيناس Julie Dagennes التي كانت سيدة الظرف من سنة 1629 إلى سنة 1648. كل هؤلاء النسوة كنّ يمارسن ظرفا غزليا شريفا وعفيفا استساغته الملكة إلزابات بالخصوص وكانت كاترين دي فوفون حذرة إلى درجة أنها تجنبت زيارة قصر هنري الرابع المخيف إلى حد ما، واكتفت بالإعجاب الذي أبداه تجاهها الشاعران العجوزان مارتيني Martini ومالبراس Malherbes.

وبإشارة منْ ملكات الذوق و بتأثير الأهواء النبيلة ارتدى النبلاء الشبان اللباس المخصّر الحريري Justaucorps، والحذاء الصغير، والتبان المخيط من القماش الحريري اللّماع،

(1) هما راعيان ذكرهما فرجيليوس Virgile في «الرعويات» *Bucoliques*.(المترجم)

ووضعوا على رؤوسهم القبعة الوردية، وحملوا الجراب بدل الدروع والعصي بدل السيوف، ورعوا الأغنام، وربّوا الطيور، وضفروا أكاليل الزهور.

وما إن سرى هذا التغيير في الملابس حتى أتى أُكلَهُ. فلم يعد هذا الشعب من الرعاة يروم إبادة المنشقين بل الفوز بحب الراعيات. ولم يعد يناقش قضايا العقيدة الدينية بل قضايا الحب، ولم يعد يطلق صرخات الحرب وتهديدات الموت بل تنهدات الحب والعتاب.

كانت ثورة الآداب متزامنة مع ثورة الطباع. لقد زالت حظوة النزعة الكلبية لدى برانتوم ورابلي، ومن سوء الحظ أن الفرنسيين لم يكتفوا بالعودة إلى الأسلوب الشريف النقي، فهم لا يستطيعون على جاذبية رد الفعل صبرا، لقد كانوا ينتقلون بلا هوادة من شطط إلى آخر. وبعد أن أفرغوا ما في جعبتهم من فجاجة عنيفة ألزموا أنفسهم بقانون يقضي بعدم استعمال أي كلمة إلا إذا كانت مجازا أو استعارة. لقد فاقت عفة العبارة الغزلة عفّة العواطف نفسها.

لقد ترك أناس القرن السادس عشر ذوو اللحم والعظم مكانهم لأناس بدوا وكأنهم بلا أجساد، أرواحا خالصة، فكأنّما قُدّوا من نور. لقد أضحى كل العشاق بمثابة دانتي، وكل المعشوقات بمثابة بياتريكس. لقد عاد مجتمع الظرف الغزلي إلى أكثر فترات العصور الوسطى صفاء، حيث كان **خدّام الحب** يجدون في تنهداتهم متعة. ويعتقدون أنه من العار عليهم طلب شيء آخر غير ذلك.

لقد ساهم الفارس ماريني وقد استدعي إلى قصر اللوفر من قبل ماري دي ميديسيس، بفعالية في الترويج لهذه العواطف الهادئة التي كانت تتغذى بالثناء والغزل. لقد كانت قصيدتاه «**قصائد عاشقة**» *Rime Amorose* و«أدونيس» قد أشاعا الدلال المتأنث والعواطف المائعة التي لا يمكنها أن تعيش إلا في الصالونات الحريرية وبين أشجار الريحان[1].

(1) لم تكن هذه العواطف المتكلفة حديثة العهد في إيطاليا، فهذا البلد لم يتخلص منها بصفة نهائية منذ عهد **أوفياء الحب**، ونجد دائما بقايا ديوان «**الحياة الجديدة**» في صلب شعر شعرائها الكبار.

كان أبطال الشاعر تاس Tasse في قصيدته «**القدس**» يتبادلون أحيانا **المفاهيم** *Concelti* في اللحظات الحرجة عندما يكون المرء أقل استعدادا للتعبير بالكلام البارع: «هذه إذن السلاسل التي ينبغي أن تجمعنا في حياتنا، وهذه النار =

كان قصر رامبوياي يستقبل بكل حماس ما كان يأتيه من ضفة الجبال الأخرى من وجبات شهية. فلم يبق شخص واحد حساس لرقة الحقول لم يحركه خرير المياه وزقزقة العصافير وهمهمات الراعيات وثغاء الخرفان.

كان الكونديون les condé والكونتي Conti ولاروشفوكو Larochefoucauld والبوسي Bussy والقرامون Grammont والمونتوزيون Montausier يسارعون إلى **الراقيات** *Précieuses* كما كانوا يسمونهن في المدينة، و**العزيزات** *Cheres* كما كنّ يسمين أنفسهن، يقطفون الأزهار ليقدموها لهن وينظمون فيهنّ قصائد غزلية، فتوصّلوا من فرط الظرف ومعرفتهم بخفايا النفس العاشقة إلى التلطيف من حدة الأشواق المحمومة التي كان أجدادهم قد أظهروها خلال الحروب الأهلية البائسة؛ ففي الموضع الذي كان فرنسوا الأول سيسلّ فيه سيفه أو يلبس قفازاته الحربية طلبا للقوة، وفي الموضع الذي كان ملك نافار سيفعل كلّ ما في وسعه ليدخل الصالون فهذان الملكان كانا دوما يتوجهان مباشرة نحو أهدافهما، فإن أجرأ ما يمكن أن نقدم عليه اليوم هو أن نهدي الآنسة رامبوياي يوم حفلتها ديوان **إكليل جوليا** الشهير[1] *Guirlande de Julie* الذي دوّخ مجتمع ظرفاء الغزل[2].

لقد عوضت الفروسيةُ الفكرية الفروسيةَ المسلحة السابقة، وصراعُ الأهواء المنازلاتِ القديمة والمسابقاتُ الشعرية المناضلةَ بالرماح.

لقد أهاجت الراقيات ومعجبوهنّ الأفاضل العواطف الأكثر غرابة، فأعيد الاعتبار

= التي كنت أتمناها ستحرق قلبينا بنفس القدر من الشوق» هكذا صاح أولاند Olinde عندما ربط إلى المحرقة صحبة حبيبته سافروني Saphronie.

(1) إكليل جوليا هو ديوان شعر من اقتراح دوق مونتازيduc de Montausier وقد أهداه إلى جوليا دانجان Julie d>Angennes التي هام بها. وميزة هذا الديوان أنه جاء على لسان الزهور بحيث تتكفل كل زهرة بالتغزل بجوليا والثناء عليها وقد تقاسم نظم الديوان مجموعة من الشعراء.(المترجم).

(2) – كل ورقة من ورق القضيم كانت مزينة بوردة رسمها روبار Robert إلى جانبها أبيات غزلية نظمها الشعراء الأكثر شهرة. كان بيار كورناي Pierre Corneille الناطق باسم زهرة الزنبق قد ختم مقطعه الشعري بالقول: «بأنه يضع شرف تتويج جوليا فوق كل شرف، فتلك سعادة لا تضاهيها سعادة في هذه الدنيا».

لروايات الفروسية بفضل روايات «**فاتن بلاد الغال**» *l'Amadis de Gaule* و«**كلويلا**» *La Clélie* و« **قصة تيمارات وقصة بيريليز** » *l' Histoire de Timarète et celle de Berelise*.
وإن كل جهد المخيلة التي سعت إلى تخليص النفس من الأحاسيس الطبيعية ودفعها إلى أن تظفر **بأفضل ما في الأشياء، الفضل الكبير، أفضل ما في الأفضل**، حُمِل على أنه علامة عبقرية.

لقد كان قصر رامبوياي يفتخر بأنه تعلم كيف يحب كما لم يتعلم ذلك قط، وكيف يعبر عن ذلك كما لو أنه لم يجرب ذلك قط، إنه يسعى إلى ارتقاء سماء كان إلى ذلك الحدّ يجهلها، ولكي يدركها كان يحاول بناء برج بابل آخر لا بالحجارة والطين ولكن بالفكر العميق اللطيف. ومرة أخرى كان تبلبل الألسن سببا في فشل المحاولة، فبعد أن أُنْجِزت أشياء جميلة كانت الرغبة جامحة في الغُلوِّ بل في مزيد الغلو. وانتهى الأمر إلى أن انعدم التفاهم بين المتحاورين.[1] لقد ذهبت العزيزات، في عزمهنّ على مخالفة عادات القرن السابق إلى حدّ بلبلة العادات الأكثر بداهة، فعوض أن يصرفن **الرفقة** ثم ينمن فإنهن يجلسن على السرير لاستقبالها. فقد كن يتمددن في صالوناتهنّ، تلك التي كانت سيدات برانتوم في «**السباعية**» لا يستقبلن فيها سوى عشاقهن، فيستقبلن القساوسة ورجال البلاط، الذين كانوا يعرفون **أفضل ما في الأفضل**، وكان يساعدهن في استقبال هؤلاء الضيوف **حُجّاب صالونات مشهورون** (أمثال القس بليبات Bellebat والسيد دي بويسّون Dubuisson) كما كان يساعدهن كذلك فتى أهل ثقة يحمل لقب **فارس، وشاعر مناسباتي** مكلف بالتغني بفضائلهن ومفاتنهن.

إن هذا السلوك الغريب يكدر أفكارنا العادية، ومع ذلك لا يمكن أن ننكر أنّ فيه بحثا ذا أهمية معيّنة. إن هؤلاء النسوة مأخوذات في صميمهن بإحساس عفيف مثلما كان المسيحيون الأوائل مأخوذين بالإيمان. إنهن يتلذذن بمصارعة رغباتهنّ في عقر دارها.

---

(1) قال لابروريار Labruyére: «كان هؤلاء الأشخاص يعبرون بالعامية عن قضايا معقولة: إن كلمة تتداول في ما بينهم يمكن أن يستولدوا منها ببساطة كلمة أخرى أكثر غموضا ثم يزيدونها غموضا باقتراح أحجيات صريحة. وكلّ مرحلة من هذه المراحل تشفع باستحسان الجمهور. لقد أفضى بهم ما يسمونه رقة وإحساسا ولطافة إلى أن استعجم كلامهم على سامعيهم وعلى بعضهم البعض.

إنهن يتحدينها ويستثرنها. وإن وجود أمراء يافعين حسان الوجوه، وكذا قساوسة لطفاء بالقرب من أريكاتهنّ يذكرنا بمقاومة زوجة قاضي أكيلي لشهواتها بكل بطولة.

وفي أكاديميات الصالونات هذه كانوا يتناقشون مطولا حول **خريطة الحب** *la carte de Tendre*، أغرب اختراع ظريف عرفه ذلك العصر، عصر الشطارة[1].

ما فتئت رواية أستري Astrée لـ م. دورفاي M. D'urfé تدرس عساها تبوح بما ظلت تخفيه من عذب الكلام ومن رمزية. لقد تم تجاوز بلاغة رواية «الوردة» la Rose، وأضحت رواية أستري بمثابة المدونة والإنجيل الغرامي ينهل منهما كلّ من يفتخر بحسن تفكيره وحسن كلامه.

لقد أنجزت عملية تحويل أمة من أمة مقاتلة إلى عصبة من الرعاة اللطفاء: إن ضفاف نهر لينيون Lignon في الفوراست Forest هي الجنة الأرضية لهذه الإنسانية التي بدلت تبديلا فأضحت مكونةّ من رعاة وراعيات يلبسون الحرير، كلهم جاذبية وحنان ورقة. وتعبيرا منهم عن انشراحهم كانوا يزينون نعاجهم المفضلة بأوشحة وإذا ما اكتأبوا ينزعونها عنها. إنه لا شيء يضاهي هؤلاء العشاق ذوي الإحساس الصادق حياء وعفة... إنهم لا يتوقون

(1) كانت سكيدوري Scudéry هي مخترعة هذه الخريطة وقد نشرتها في روايتها «كلويلا» Clélie: يؤدي مسلك هذه الخريطة عبر ثلاث طرق مختلفة إلى: **حب الهوى** *Tendre-sur-Inclination* وإلى **حب الحظوة** *Tendre-sur-Estime* وإلى **حب الاعتراف بالجميل** *Tendre-sur-Reconnaissance*. ولمّا كان الوصول إلى «**حب الهوى**» سهلا، وجريان ماء النهر سريعا جدا في هذا الموضع فإنه يوصلك إلى الهدف مباشرة. ولم تضع كلويلا أية قرية في هذه الطريق ولذا فلا إمكانية ولا فائدة من التوقف والاستراحة. ولكن «**حب الحظوة**» لا يمكن الوصول إليه بسهولة، ففي الطريق إليه قرى عديدة وفنادق كثيرة. فمن قرية «**الصداقة الجديدة**» نمر على التوالي بقرى «**المفكر**» و«**الأبيات الشعرية العذبة**» و«**كلمات الغزل**» و«**كلمات الظرف**» و«**المصداقية**» و«**القلب الكبير**» و«**الأمانة**» و«**المروءة**» و«**الاحترام**» و«**الاستقامة**» وأخيرا بـ «**الطيبة**» وهي ضاحية من ضواحي «**بلاد الحب**». وإذا ما صعدنا إلى مفرق الطرق في قرية «**الصداقة الجديدة**» لنتجه نحو «**حب الاعتراف بالجميل**» نمر عبر مراحل «**المجاملة**» و«**الخضوع**» و«**الرعاية**» و«**المثابرة**» و«**الملاطفة**» و«**المعروف الكبير**» و«**الإحساس**» و«**الحنان**» و«**الطاعة**» و«**الصداقة الدائمة**». ولكن الطريق ليست واضحة حتى لا نتوه فيها فإذا ما اتجهت انطلاقا من محطّة «**المفكر**» يمينا نحو «**التهاون**» فإن الطريق توصلك إلى «**عدم المساواة**» ثم إلى «**الدفء**» وإلى «**التقلّب**» وتنتهي بك إلى «**النسيان**» عوضا عن الوصول إلى «**الحب**»، فإنّك تسقط في مستنقع: «**اللامبالاة**» ولكن إذا ما اتجهت، انطلاقا من «**المفكر**» شمالا فإنك تتوه في القرى الشريرة، في مفاوز «**إفشاء السر**» و«**الغدر**» و«**الكِبر**» و«**النميمة**» و«**الخبث**» وتنتهي أخيرا إلى «**بحر الكراهية**» حيث تغرق كل المراكب» (Clélie, I. II).

سوى لارتباطات أخوية ولا يساورهم الشك في أنه لا ارتباطات غيرها في الوجود، ولذا فإنّ أدنى استياء يواجهون به يدفعهم إلى القنوط. ومصداقا لذلك فقد استهلت رواية **أستري** بمشهد انتحار سيلادون Celadon الذي رمى بنفسه في نهر لينيون بعدما سمع عزيزته الراعية تقول له بشيء من غضب الرعاة: «أيها الخؤون! ألم يكفك الكذب علي حتى تروم خيانتي مرة أخرى بكل نذالة! هل تجرؤ على النظر إليّ بعد الإهانة التي سببتها لي ؟ ألا تخجل أبدا من هكذا نفاق قذر؟ امض أيها الخائن، امض أيها الغادر، واخدع، إذا أردت، راعية أخرى. ولا تفكر أبدا في خداعي، فلن ألدغ من جحر مرّتين».

بعد صعقة الحب هذه التي قد تبدو لنا غير ذات قيمة، قدّر الحنون سيلادرون أنّ الموت أفضل له من الحياة. ضم إلى قلبه خاتم حبيبته ووشاحها وصاح: «كن شاهدا على أنني فضلت الموت على أن أقطع ما يربطني براعيتي الحبيبة... وعندما أموت فلربما سيلقى بك القدر أمام عيني حبيبتي قاسية القلب، وعندما تراك بين أحضاني ستشهدها على قوة حبي لها وقسوة جحودها في نفس الآن».

أما بقية الرواية فهي على نفس الوتيرة فلا شيء فيها غير حوريات يرقصن في الضيعة، وعشاق حكمت عليهم صديقاتهم بأن يجوبوا أوروبا طولا وعرضا لعلّهم يعثرون على نساء يضاهونهن جمالا. لقد عدنا إلى سلوك الفرسان الهائمين، مع فارق أن هؤلاء العشاق الولهانين يمتلكون، بدل الجياد ومروضيها، خرفانا وكلاب حراسة وفية.

كل شخصيات الرواية هي نماذج من الفضيلة واللطف والحب. وعيبها الوحيد الذي يمكن أن يشينها أنها مزاجية إلى حد ما ومتقلبة. ولا فائدة من إثارة موضوع وثنيتهم، فقد تجنبوا صراحة البلبلة التي أحدثتها العقيدة المسيحية في صلب العائلات والحروب التي سبّبتها بين الدول في القرن المنقضي. ثم إن مجتمع الرعاة الجديد لم يعد يهتم بالإنجيل، فلا آلهة له سوى سكان الأولمب السابقين ليّني العريكة. لقد أصبح الرعاة يقدّمون قرابينهم إلى **معبد الآلهة**، ويبتهلون إلى الحوريات والكاهنات الدرويديات ويتحابون على طريقة دافنيس وكلوبي (تشلو؟) Daphnis et Chloé دون أن يفكروا في الزواج. هذه اللامبالاة

الشاعرية بالدين لم تسئ إلى أحد بما في ذلك الكهنة الذين وجدوا في رواية أستري رائعة من روائع العقل الإنساني[1].

فممّا سنخجل ومغامرات الحب في الرواية تروى بكثير من التأنّي والتشويق؟ فكل أبطالها هم شخصيات معاصرة معروفة، ولكن يكنّى عنها بلطف. وأما الأشياء فهي على خلاف الأشخاص لا يشار إليها بأسمائها؛ فالزواج مثلا يسمى **نبع حقيقة الحب**، والغريب أن «صفاء الحب» يرمز إليه **بوحيد القرن**[2] *Licornes*

في رواية كلويلا لسكودري خضع الرومان الرهيبون في العصر البطولي إلى تحول شبيه بذلك الذي أخضعت له الراقيات محاربي الرابطة الكاثوليكية والمنتفضين في بدايات عهد لويس الرابع عشر، فلم يعودوا سوى رعاة وجلين، فروما هي أكاديمية الظرف حيث يتحدث الناس لغة بلزاك و فواتير Voiture بالطريقة التالية:

إن الحب شر مستحب

لا يشفى منه قلبي أبدا

ولكن عندما يكون قابلا للشفاء

فمن الألطف له أن يموت[3].

(1) روى كامو .Mgr. Camus «أن كاهن Belley، السيد هياتM.Huet قد أثني في «**رسالة روح فرنسوا دي سالاس الشهيرة**» *Traité de l'esprit de François de Sales* على السيد دورفي M. Durfé وروايته بسيل من عبارات الثناء حتى بالغ في ذلك». وكان السيد دورفي الذي لا ينقصه التواضع كما قيل يقول إنه عندما ألف القديس فرانسوا «**فيلوتي**» «*Philotée*» والقاضي فافر دي شامبيري Favre de Chambéry «**شريعة فابريان**»le Code Fabrien وعندما ألّف هو بنفسه «أستري» فإنهم فعلوا ذلك لأجل المستقبل، فكتاب الكاهن كان كتاب التقاة، وكتاب القاضي كان كتاب القضاة وأمّا كتابه فهو كتاب جلساء الأمراء. وكان كل الناس يرون رأيه.

(2) هو كائن خرافي على هيئة حصان أبيض ذي قرن وحيد ذكر في الأساطير الإغريقية واتخذه النبلاء في أوروبا في العصور الوسطى شعارا.ويرمز هذا الحيوان إلى العذرية وكذلك إلى الشبق (المترجم)

(3) يمكننا اعتبار رسالة أدربال Aderbal عاشق كلويلا أفضل مؤلفات الحبّ المتكلّف الذي حلّ محل المشاعر الحقيقية. وجه أدربال غريم أرونس Aronce هذه الرسالة إلى كلويلا Clélie بواسطة سيلار Célère ولكن سيلار هو صديق أرونس ولما كان إتمام المهمة قد يحرجه، سعى إلى تسليته فرجاه أن يفعل شيئا حرص كثيرا في أن لا يتمّ، هو أن لا يسلم الرسالة إلى كلويلا إلا إذا أسعدت أرونس السعادة التي يرغب فيها. وبذلك سيزداد ألمه بعد أن تهجره فيرثي لحاله =

إن حب أبطال الروايات الأكثر شهرة لا يتجاوز هذا الطباق المنمّق. إنه ليس سوى بهلوانيات كلامية، وخليط من الأخلاقية المزيفة.

إن رابطة قصر رامبوياي لم تتأخر عن بسط تأثيرها على باريس وعلى فرنسا كلها. فكلّ أولئك الذين يصرون على الارتفاع فوق **عامة الناس** يغتذون بأساليب عيش ومشاعر مصطنعة، فلكي يصبحوا أعضاء في نادي الراقيات ينبغي أن يكون تفكيرهم وقولهم وفعلهم مناقضا للعادات المتبعة.[1] وهم بذلك يهينون العقل بكل فظاظة. ولكن لا ينبغي لنا أن نقسوا عليهم، فالأخلاق لا تطال كل شيء، ونحن مدعوون إلى التسامح مع هذا الغلوّ في الأسلوب على أساس صفاء النوايا ونفعية النتائج، فإذا كان من الضروري ألاّ نجعل من **العزيزات** اللطيفات ومن **حجّاب صالوناتهنّ**، ومن شعرائهن الخاصين قديسين صغارا تائبين، فإننا لا نتوانى في المقابل عن الإقرار بتفوقهم الأخلاقي على وصيفات كاترين دي ميديسيس والظرفاء الفاليين. ومن فرط الإعلاء من شأن إحساس القلب الصافي، ومن فرط الخجل لأدنى عبارة إباحية تقال، ظهر سلوك محافظ غير معروف لدى معاصري فيليون Villion، فكل شخص يتريث أيّما تريث قبل أن ينطلق في مغامرة لا حدود لها، وأمّا الشباب فإنهم يتريثون قبل أن يفكروا في تجاوز حدود الإعجاب الروحي والعاطفي، فهذا بوسّي رابوتين Bussy—Rabutin الذي أحبّ لأول مرة في سنّ العشرين (كان ذلك سنة 1638) «قد كون لنفسه فكرة مبالغ فيها عن الاحترام الذي ينبغي أن نكنه للسيدات، فقد ذهب به الظن إلى أنه، لكي يحوز فضلهن ويكون جديرا به، عليه أن يقضي سنوات طويلة لا يفعل شيئا سوى التنهد والبكاء والشكوى والكتابة» ولكن أرملة محنكة من بقايا المدرسة القديمة اضطرت إلى أن تنتشله من هذا الضلال فقالت له يوما بشيء من العصبية: «يا إلهي، أيها الصديق المسكين، إن وجلك لا يليق بك فأنت رجل محارب».

إن أخطر نقائص **الراقيات**، في رأينا، تمثلت في أنهن لم يستطعن أن يرجعن الحب الذي

= الجميع، وحتى أرونس نفسه سيشفق عليه. ولن يكون بمقدوره التفكير في عتاب سيلار لأنه سلم كلويلا رسالة صارت، مع الأسف، غير ذات موضوع.

(1) انظر اللوحة المثيرة للبرجوازية الأثيرة في منزل لوك Luce (*Histoire de Francion*, p 205 et suiv)

خلصنه من مملكة الحواس حيث سجنه القرن السادس عشر، إلى موضعه في القلب... فمن فرط بحثهن عن **أفضل ما في الأفضل**، انتهين إلى صناعة إحساس هجين مستقر بكامله في الدماغ.

إن إنجلترا لا تقل شأنا عن فرنسا في هذا المجال، فقصيدة فيليب سيدناي Philippe Sydney المعنونة بـ «أركاديا» *The Arcadia* تذكر بالمشاعر الرقيقة لرواية أستري، ورغم أن إدوارد فار Edouard Verre قد بدا أقل تفاهة من مؤلف سيروس Cyrus فقد أظهر تلطفا أكثر في «**ميلاد الرغبة**» *la naissance du desir*. أمّا سبنسر Spencer فقد تجاوزهم كلهم في «**روزنامة الراعي**» Calendrier du berger. وفي «**ملكة الساحرات**» *La Reine des fées*[1].

وبعد أن حُصِر أغلب كتاب الروايات الدرامية في هذا المناخ المصطنع لم يعد بإمكانهم أن يحلّقوا بعيدا عن هذه العاطفية الدماغية: لقد تعلقوا تعلقا قويّا بالفاضل الشكلي فلم يدركوا جوهر النبيل والعظيم[2]. كان كورناي الوحيد الذي تخلص من عيوب **الراقيات** مع احتفاظه بمحاسنهن: ففي خضمّ بحثه عن **أفضل ما في الأفضل** وعن **أحسن ما في الأحسن** توصل إلى تأليف مسرحية «السيّد Cid» وروائعه الأولى. ولا أحد ضاهاه في البرهنة على

---

(1) يعد هذا المؤلف من أهمّ ما أنتجه العقل الإنساني فهو يحتوي على ما لا يقل عن اثنتي عشرة قصيدة تامة، جامعة لمحاسن ومساوئ الروايات التالية: «**الوردة**» *la Rose* و**أستري** *Astrée* و«**رولان المجنون**» *Roland Furieux* و«**أدونيس**» *Adonis* إن ما استعرضه المؤلف من رمزية كان متعذر الفهم إلى درجة أنه أدرك أنه من الضروري أن يشرح معانيه للقارئ. لقد جمع هذا المؤلف في خليط بين عجائب روايات الفروسية وحساسية المسرحيات الغنائية المطوّلة، فلا نصادف فيه سوى عمالقة وتنانين، رعاة وغانيات، وحوريات وسيلفات، وساحرات وأمراء شبان، كلهم متوثبون لأن يتحابوا وأن يشهروا حبهم وفق قواعد الأدب والظرف.

(2) في مسرحية «بيرام» *Pyrame* قال فيود Viaud على لسان تيسباي Thisbé:

إنه مسموح لي هنا بأن أسمّيك بيرام
إنه مسموح لي هنا بأن أناديك يا روحي
يا روحي، ماذا أنا قائل ؟ إنني أثرثر
فالروح تحييني أما أنت فتقتلينني

ولكن إحقاقا للحق فإن الموت الذي يسبّبه لي حبك هو تحديدا ما اسمّيه حياة.

القول المأثور: **ليس بين السخيف والجليل سوى خطوة واحدة**. لقد كانت مسرحية «السيّد» نوعا من البراعة العاطفية كان قد سعى إليها كلّ من دورفي وسيكيدوري ولكنهما فشلا في إنجازها، أما كورناي فعلى العكس من ذلك اكتشف فيها الفن الحقيقي.

لا أحد قبل ذاك الوقت كان اعتقد أن الحب يمكن أن يبلغ مثل ذلك المجد. إن مسرحية «السيّد» تشبه قليلا **الرومانسيرو** *Romancero*[1]. فالأمر يتعلّق بـ «سيّد» فرنسي لحما وشحما يشبه لويس الثالث عشر شبها تاما، إنه يذهب بالحب والمروءة والاحترام إلى أقصى ما فيهما من قوة. لقد كانت علاقة المحبين بالحب لديهما من جنس علاقة الشهداء بالإيمان. ذلك أنّ قلبيهما مولعان بفكرة واحدة هي أن يتحدا بموضوع حبّهما وإن حبهما لهو العاطفة الأكمل التي أمكن للشعر صياغتها فالشعر هو الذي لملم شتات ما كان مبعثرا في التاريخ. إنهما يتحابان من النظرة الأولى، ويزداد تعلّقهما ببعضهما البعض كلّما اشتدّ الصراع وكثرت العراقيل. إنهما يتّحدان كما المسيحي الحر والفخور الذي لا يعترف بسلطة أعلى من سلطة حرية اختياره اللهم سلطة الإله.

إن هذا الحب لا يعرف كبرا ولا خيانة. إنه يدرك أن الحب يعني نكران الذات، وجعلها تذوب في ذات المحبوب، أي الإيمان يتناسخ الأرواح فتحل روح أحدهما محل روح الآخر.

هذا ما تعلمه الناس في قصر رامبوياي، فبعد مثل هذه النتائج الأساسية كيف لا نغضّ الطرف عن بعض تفاهات الأسلوب.

أمّا إسبانيا فقد وجدت نفسها منذ زمان بعيد تسير في نفس الطريق التي مهد لها حكم هنري الرابع ولويس الثالث عشر، ثم إنه كان لها شرف توجيه تكويننا الأخلاقي والأدبي بأن وضعت بين أيدينا محاسن الأخلاق والأدب ومساوئها. إن تلك الأمة التي تفوقنا حزما وصلابة في كل مبادئها، لا تتصرف عن طريق رد الفعل. فهي لم تتخلّ في القرن السادس عشر، على عكس فرنسا وإيطاليا، عما ورثته عن العرب من طبائع وأخلاق أنتجت ظاهرة

---

(1) جنس أدبي إسباني: مجموعة من القصائد الشعرية مستوحاة من الأغاني القشتالية(المترجم)

الفروسية في العصر الوسيط، كما أنّها لم تعرف عصر الحروب الدينية الرهيبة ولا عرفت الاضطرابات السياسية. لقد كانت وحدتها الكاثوليكية الراسخة خير حصن أمام عودة الأخلاق الوثنية الإباحية والفظة، تلك التي جاءتنا من روما وإيطاليا. لقد ظلت وفية لظرفها الغزلي الفروسي.لذلك هي غير معنية بذلك الفصل الذي خصّصناه للحب العنيف في القرن السادس عشر. فقد كانت في ذلك العصر على غرار ما كانت عليه زمن الشعراء الجوالين مع بعض التطور وبعض المبالغة في نبل المشاعر وأريحيتها، والتكلّف في الرقة، والفخامة في الأسلوب.

عدّت امرأتان أديبتان **عزيزتي** قصر رامبولياي الإسباني، هما ماريانا كارافاجال Mariana Caravajal وماريا دي رايس Maria de Rays.لقد حلقتا بخيالهما بعيدا في سماء كثيفة من الميتافيزيقا الظريفة وكما قال السيد. دي بيبسك M. de Puybusque لم نشهد أهواء.بمثل تلك الميوعة وشرفا.بمثل ذلك الفتور وحبا.بمثل ذلك الانفعال حتى في زمن تراجع شعراء التروبادور[1].

وكان لوي دي قونقورا Luis de Gongora المتوفى سنة 1627 قد رفع الثمين، والمجازي والمتصنع لدى ماريني إلى أعلى المراتب لقد أضحى لقصيدته «**الوحدة**»؟؟ *Soledades* ولـ «**بوليفام**» *Polypheme* تلاميذ مقلدين، فقد أصبح كل الإسبان **مثقفين** *Cultoristes* من أنصار الأسلوب المتكلف أومن **غواة المفاهيم** *Conceptists*، مولعين بكل مبالغات اللغة والفكر التي تنأى بنا عن العقل السليم وعن طبائع الأشياء.

ولا يقلّ المسرح الإسباني تعقيدا في أسلوبه وفي ما يعرضه من أهواء فقد تربع **الغنغوريون** (أصحاب الأسلوب الغامض) على عرش ذلك المسرح لأكثر من قرن وفرضوا على كلّ شخصيات مسرحهم أسماء مجازية تافهة[2].

---

(1) T. I, p. 314

(2) كان توراس نهارّو Torres Naharro سلف غنغورا Congora، مؤسس المسرح الإسباني قد جعل الحسناء **فوبي** *Phoebée* معشوقة من قبل الشاب هيماني *Hyménée*. وقد اعتقد ذاك الذي لعب دور الخادم في المسرحية أنه بلغ غاية الإحساس بقوله للمرأة التي يحبها: إنني أموت حبا فيك حتى إن لم تبادليني الحب، أنت التي رضيت.بموتي» =

فهل هناك حجة أكثر إقناعا عن تشابه الظرف الغزلي الإسباني وظرف كلّ من سكيدوري ودورفاي، وأهاجي سرفانتس Cervantes التي وضعها على لسان دون كيشوت عاشق دولسيني Dulciné الكَلِف.

وعبر هذه المبالغات أنتجت إسبانيا كذلك أمثال روترو Rotrou إن لم نقل أمثال كورناي. لقد أسهم غيلهام دي كاسترو Guilhem de Castro بأكثر من مشهد في مسرحية «السيد» استلهمهما منه المؤلف. وبرهن بذلك أن من كانوا في الجانب الآخر من جبال البيريني ما انفكوا يحبون وفق قواعد الفروسية.

لم يدم سلطان الحب المتكلف طويلا في فرنسا. فرغم أنه دخلها بعد إيطاليا وإسبانيا فإنه سرعان ما اضمحلّ. يمكننا، نحن الفرنسيين، أن نخطئ ولكننا نعرف كيف نتوب.

فقد نجح مصلحان كبيران في تخليصنا من التكلف العاطفي هما الروح الغالي المترع بالمكر وظرف بعض القصاص أمثال شارل سورال Charles Sorel، وعبقرية حكم لويس الرابع عشر، آخر تعبيرات شعار «الوضوح في العظمة والبساطة في القوة».

لقد كان شارل سورال من خلال **«قصة فرانسيون المضحكة»** *Histoire comique de Francion* بمثابة رابلي القرن السابع عشر[1]. لقد استعمل جميع الوسائل ضد عالم رواية «أستري» المتصنع وذلك بفضل دقة ملاحظته ودهائه وأعاد القارئ مجددا إلى حياة الشعراء والخمارين الحقيقية وكذا حياة المجّان والحمقى واللصوص والمحتالين: لقد توسل بالفلسفة الهزلية في القرن السادس عشر أداة للبرهنة واستعاد أسلوب برانتوم بعدما هذّبه قليلا، لقد كانت روايته الهزلية قصة من قصص الملكة نافار ولكن في شكل ملحمة.... لقد كانت مقاصده الأخلاقية نبيلة فقد كان يأمل بكل عفوية تخليص تعليم الفضيلة مما

= (نشر نهارّو مؤلفاته المسرحية سنة 1517.)

(1) – كتب في المقدمة: «لقد شبعنا حكايات تراجيدية لاقيمة لها سوى أنها كانت تشجينا. لذا ينبغي علينا الآن البحث عن أحداث كلها هزل وبوسعها أن توفر اللذة للنفوس الأكثر ضجرا. بيد أنه ينبغي أن ينضاف إلى اللذة شيء من الإفادة إذ ينبغي أن تخلصنا مشاهد النفاق في الحكاية من مثيلاتها في الواقع، وأن تكون الآلام التي نراها تصيب الأشقياء قادرة على أن تنآى بنا عن فعل الشر. وسيستفيد منها كل من كان له عقل حصيف، ففيها آراء كثيرة جادة تتخلل المشاهد الهزلية، وفيها مواعظ لا تني أن تؤثر عميقا في النفوس رغم محدوديتها، شريطة أن تكون النفوس مستعدة لتقبلّها.

أحاطه من ربقة المكائد الخسيسة، فسارع إلى عنونة كتابه بـ: **قصة فرانسيون المضحكة، بلية الفجار**، *fleau des vicieux Histoire comique de Francion*.

لقد كانت رواية «فرانسيون» صورة عن الطبقتين المتوسطة والدنيا كما ظلتا بعد القرن السادس عشر. لم تتورع شخصياتها الشعبية عن الانغماس في وحل الحانات وفي الظرف الماجن الفاضح،ظرف الأحداث. أمّا عالم قصر رامبوياي فقد كان، على العكس من ذلك، عالم المشاعر والفكر الأرستقراطيين، ذلك العالم الذي عرف كيف يتخلص من ذلك الوسط الموبوء. لقد غفر **للراقيات** روحانيتهن المتكلفة وتصرفاتهن الرعوية الصبيانية عندما قارنهنّ بما ظلّ في شخصية **فرانسيون** من بقايا إباحية القرن المنصرم... إن رعاة لطفاء ومتلاطفين يبكون لأتفه الأسباب وينتحرون لمجرد عتاب، لهم أفضل بكثير من خدم لا ينتحرون أبدا ويقتلون، كما اتفق، كلّ من يزعجهم أو يعترض سبيلهم، والذين صنعوا لأنفسهم عقيدة للمجون هي من أوقح العقائد.

لقد نشّط شارل سوريل الصراع بين هذين المجتمعين فالمجتمع الذي دافع عن صراحته الساذجة والشعبية قلبا وقالبا، كان أكثر عددا، أما **الراقيات** وحجاب صالوناتهن فلم يكن لهم، على العكس من ذلك سوى بعض الأفراد النوعيين. لقد أجمعت الأمة بكاملها على إدانتهم بسبب مظهرهم دون الأخذ بعين الاعتبار الخدمات الجليلة التي قدموها للسلم الاجتماعي وللأخلاق،، فلربما سيفسحون المجال، بعد أن أطاح بهم رد فعل الأمة، أمام ظرفاء زمان، وأمام العشيقات الجسورات ولكن غير الطاهرات. وقبلا، بدا أن اللغة المتمردة، قد انتقلت عائدة من تكلف رواية «**أستري**» و«**كلوبلا**» إلى وضوح «**غارغانتيا**» *Gargantua* و«**النساء الظريفات**» الفج. وتعدّ رواية **فرانسيون** إشارة انطلاق تلك العودة... ثمّ ظهر العباقرة، موليار وبوالو Boileau وراسين ولافونتان ولابريار وسان سيمون ونصّبوا أنفسهم قضاة للجدل الدائر، فأجبروا الراقيات على القطع مع الأساليب والمشاعر المتكلفة، كما حملوا شارل سورال والإخباريين على القطع مع فظاظة الأخلاق واللغة، ولكنهم، في المقابل، احترموا سعي الراقيات إلى الكمال في الخير

والجميل، وشارل سوريل والإخباريين أثارتهم للبسيط والطبيعي والحقيقي. وإنه من رحم هذا التوافق العجيب أشرق عصر لويس الرابع عشر العظيم.

5
الجميل والحقيقي والخير

لقد كان عظماء ذلك العصر وعلى رأسهم لويس الرابع عشر، قد لاحظوا الأمر فعرفوا كيف يستفيدون من الغلو الذي ساد قبلهم لذلك لم ينقلوا عن القرون المنقضية سوى ما كان فيها من جيد وجميل. لم يجددوا كثيرا ولكنهم قاموا بعملية انتخاب واختاروا بحصافة مشهودة ما يلائمهم فأتقنوا الأمر إتقانا غير مسبوق.

لقد وُهِب لويس الرابع عشر كبر فرنسوا الأول ومزاجه، فعوض أن يتخذه وهنري الرابع نموذجا يحتذى، فقد كان شديد الفطنة بحيث لم يتخذ في شبابه معلّما في الحب سوى قلبه، و مرشدا له سوى بعض ذكريات قصر رامبوياي.

وأخيرا ولج الحب الحقيقي، الذي طالما أهين من قبل النزعتين الضديدتين، كلبية القرن السادس عشر، وعاطفية عهد لويس الثالث عشر، قصر اللوفر، حيث كان أسيء فهمه أيما إساءة. لقد ولجه صادقا كريما، دون خجل، وواثقا، دون عنف. إنه لا يروم إثبات ذاته إلاّ بفضائله الكبرى، ولا يروم فتنة الناس إلا بهيئته الأنيقة. لقد جمع اللباقة إلى النبل ولم يرث عن مدرسة الفروسية حماسها الأعمى ولكن رفعتها. لقد كان يطلب من الذين يريدون خدمته مآثر عظيمة. فكان يطلب رقة الحب الحقيقي لا رقة حب «خريطة الحب» التافهة، فقد كان يرغب في إظهار القلب شغوفا عاشقا ولكن دون أن ينسى أن الجسد يحويه. وأخيرا فقد كان يفضل طيبة المرأة ولطفها على جمالها، ويستعمل أسلوبا واضحا وجليا للتعبير عن العواطف ولا يلجأ إلى الاستعارة إلا للتعبير عن الرغبات والميولات الجسدية التي لا يبيح العرف التعبير عنها صراحة.

كان لويس الرابع عشر نموذجا يحتذى في كل شيء فهو يعدّ أول من وضع هذه المبادئ الجديدة موضع التنفيذ. ورغم أن أفضل رجال زمانه قد كانت أمامهم فرصة للاختيار،فإنهم لم يتعلقوا، خلافا لسابقيهم، بالنساء الأكثر فتنة وحسنا، بتلك التماثيل

الحية كاملة الحسن الجسدي والتي تجعل الجميع يقولون متحسّرين: سعداء هم أولئك الذين يحوزونها. كان لويس الرابع عشر شابا وبالتالي صادقا ومخلصا، أحب في صمت لأجل نفسه ولم يفعل ذلك جهارا وتفاخرا. كانت «الآنسة مانسيني» كِبْر هواه، قميئة، ضخمة الجثة، تبدو وكأنها نادلة في حانة. ولكن روحها، كما قال بوسي رابتان كانت ملائكية، فعندما نستمع إليها ننسى أنها قميئة».

حتّى لافاليار ذاتها Lavalliere «فهي فتاة متوسطة الطول، رقيقة العود، ليست مرتاحة في مشيتها فقد كانت تعرج، هي شقراء وبيضاء، على وجهها آثار الجدري، عيناها داكنتان، ونظراتها فاترة. وتبدو أحيانا مفعمة حماسا وحبورا وذكاء. ثغرها واسع شديد التورد، أسنانها غير جميلة، لا تظهر لها رقبة، ذراعاها نحيفتان تشيان بدمامة بقية أعضاء جسدها». ولكن، إلى جانب هذه العيوب الجسدية «كان ذهنها وقادا، وكانت كثيرة النشاط والحيوية، حلوة الحديث، قوية الحجة والعلم، حليمة وصارمة وخالية البال وحنونة... صادقة ومخلصة، معرضة عن كل دلال. ولديها قدرة لا تضاهى على المعاشرة الطيبة.

فعندما ثمّن لويس الرابع عشر الروح والفكر ولم يهتم أبدا بصفات الجسد أعاد الحب الصادق الرقيق إلى ذلك العرش الذي لم يعرف منذ زمان طويل سوى المكائد والمجون الفاضح. لم ينشغل لويس الرابع عشر بمغازلة النساء، بل أحب، أحب إلى نهاية سلطان البائسة لافليار، كما لم يحب ملك فرنسي.

ذكر بوسي رابتان أنّه عندما فرّق الكاردينال ما زاران Mazarin بينه وبين الآنسة مانسيني «بكي، وانتحب، وارتمى تحت أقدامه متوسلا إليه أن لا يقطع حبال وصله بها، حتّى أشرف على الموت حزنا. أما عشيقته لافليار، فالجميع يعرف الحب الكبير الذي أغدقه عليها، تلك التي لم يظفر أمير بمثل تسامحها».

إن الحب الفرنسي صريح، وربّما مهذار. وقد انبرى كبار مفكري عهد لوسي الرابع عشر لإصلاح هذه النقيصة بأن خلصوه من عادتي إفشاء السر والجسارة. ولما كانوا أعداء

لكلبية رابلي وكذلك لعاطفية غونغورا وماريني فقد استخدموا أسلوبا مبتكرا لدراسة الأهواء بالتفصيل وجعلها تستعيد كلّ نضارتها دون السقوط في انحرافات زعماء المدارس البائسين... ولإنجاز ذلك... لم يهتموا بالوصف الشاعري والشهواني والمهيّج للغرائز لمحاسن المرأة الجسدية ولكن بتحليل محاسن روحها وشخصيتها. إنهم يتفحصون قلبها، ويسبرون كل أغواره ويبينون عن أهوائها بطريقة لم يعرفها القدماء. إن المسيحية هي الوحيدة التي تدفع الإنسان إلى أن يعامل المرأة بمثل هذه الطريقة باعتبارها مساوية له في الحقوق، ومتفوقة عليه بما لها عليه من احترام. لقد ثأر الحب القلبي ثأرا مدويا من الحب الجسدي المحض الذي ساد في عصر النهضة، ومن الحب الشاطر المتقلب في بدايات القرن السابع عشر.

لم يعد الشعراء والإخباريون يهتمون إلا عرضا بالرغبات الحسيّة، وفي ذلك خيرهم كله، فشخوص أشعارهم وأخبارهم تتحاب وتبدي إعجابها ببعضها البعض وتعبّر عن ذلك شعرا ونثرا. فلا أحد يتطفل على المحبين فيتبعهم في مختلياتهم الحميمية أو في صالوناتهم الصغيرة، حيث يرومون الاستتار عن الأعين.

وبفضل المنهج الأدبي الذي يتمثل في التصريح بما يدور في الجزء العاقل من الإنسان وإخماد ما يضطرم في حواسه، تمكنوا من الكشف عن الأهواء الأكثر عنفا ومن تصوير الفساد الأخلاقي الأكثر إفزاعا، دون الإساءة إلى المخيلة بمثل تلك الصور التي اعتاد قصاص القرن السادس عشر رسمها. لقد أخرج راسين على خشبة المسرح مسرحيتي فادر *Phedre* وأستير *Esthère* في صورة عفيفة مكنته ولوج مدرسة النبيلات[1]. لقد دفع كل من **هارميون** Hermione **وبيريس** *phyrhus* **وأخيل** *Achille* وأبناء **مترياردا** *Mithridate* إلى أن يتكلّموا لغة أظهرت بتوازنها وبحيويتها الحماس الذي يعتمل بداخلهم.

لقد بدأ كورناي تجربة هذه الأساليب الدرامية من خلال شخصيات كلّ من **شيمان**

(1) هي مدرسة أسستها السيدة دي مانتنون de Maintenon زوجة لويس الرابع عشر الثانية وذلك سنة 1686. وقد أوقفتها على بنات الطبقة النبيلة. وقد انتدب راسين من بينهن ممثلات. (المترجم)

و **كاميليا** *Camille*، و **سيفار** *Sévère* و **روديقون** *Rodogune*، و **الأميرة الشابة** *l'Infante* و **ميداي** Médee و **بلخاريا** *Pulcherie*. وإنه بفضل الأهواء التي احتفى بها، على وجه الخصوص، الشعراء الكبار، يمكننا تطبيق ما كنا نقوله بصدد دانتي في ما يخص مشهد **فرانسيسكا** *francesca* في الجحيم. «إن ذلك الحياء، وتلك اللغة المتوازنة لا تكتفي بزيادة سحر القص فقط بل قوة العاطفة أيضا. إن الشاعر يكتفي بأن يضع القارئ على السكة ويترك له أمر التماثل مع حيرة تلك القلوب المكشوفة وانفعالاتها. وهكذا يكتشف القارئ المتطلّع لمعرفة الأحداث الدائرة ما لا يعدّ ولا يحصى من الأسرار. وينفعل بتطوّرات الأحداث أكثر بكثير مما لو كشفها له الشاعر بنفسه».

إن مختلف هذه التلوينات التي يمثلها الحب لم تولد في خيال كورناي وراسين مكتملة، فبذرة عبقريتهما منغرسة في بلاد الإغريق وفي روما وفي إسبانيا، وكذلك في المجتمع الذي كانا يعايشانه، مجتمع النخبة سليل الثورة الأخلاقية والأدبية التي سردنا أطوارها سابقا.

لم يكن كبار السادة والسيدات والمحاربون والفلاسفة في القرن السابع عشر كملا، ولكن طبعهم لم يكن مرذولا. لقد حافظوا على صراحة أهل القرن السادس عشر ولم يتخلصوا سوى من عنفهم وفظاظتهم. فإذا ما أحسّ أحدهم أن فكرة دنيئة أو سافلة قد تسربت إلى نفسه فإنّه يخفيها ويكتمها ويسعى إلى أن يتطهر منها كما لو كانت جرما. كان بإمكانهم أن يهنوا، ولكنهم لم يكونوا ليرضوا بسقوطهم، فلا يبقون حيث سقطوا وينهضون كبارا كما كانوا وكأن شيئا لم يكن.

هنا تكمن عظمة أولئك الرجال في القرن السابع عشر، وقد أورثوها بكاملها للكتّاب الذين اتخذوهم نماذج لشخصياتهم. لقد هذّب المسرح وعظم من شأن كبرى تجسدات الحب التي أمده بها التاريخ وهي بعد مضغة وذلك في مشاهد عز وصراحة. لقد بينا صورة **أندروماك** و **كورنايلي** و **فادر** و **مايداي** و **شيمان** في بلاد الإغريق، وفي روما وفي إسبانيا القرن الثالث عشر، فلنفحص الآن المآل الذي آلت إليه تلك الصورة لدى كورناي وراسين

وكيف أثر فيها الجمهور الذي يستمع إليهما، فسنرى التطور الكبير الذي عرفه الحب، وسندرك أن شأنه لم يعرف قط رفعة مماثلة.

إن التاريخ، وخصوصا الأخبار اللذين ينهلان بولع كبير من آلام الجمهور وفضائحه يشوّهان في أحايين كثيرة صورة العصور التي ينقلان لنا أحداثها. إن السعي وراء رواية قصص ومشاهد جرائم الساسة وتظلمات الشعوب يدفعهما إلى أن يركنا جانبا الحديث عن الفضائل العفيفة والعواطف الصادقة التي تفضل أن تكون في الظل.، ومع ذلك ففي هذه الفضائل والعواطف يكمن الحب الحقيقي والوفاء الصادق فوجب البحث عنهما. وهذا ما سعينا إلى الكشف عنه في غضون هذا المؤلف بالقدر الذي أسعفتنا فيه الوثائق المتعلقة بالموضوع، وخصوصا ما تعلق منها بعَصْرَيْ لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر.

تمثل **باولين وكورنايلي** تجسيدين لنساء النخبة اللواتي نأين بأنفسهن عن ثناء معاصريهن ولجأن إلى الدير بعد حياة شابتها بعض الاضطرابات، وتوصلن إلى محبة الخالق بالقدر الذي كن أحببن فيه مخلوقاته[1]. كما تمثلان تجسيدين لأولئك الأرامل اللواتي ظللن وفيات لأزواجهن المهدورة دماؤهم يتبعونهم في منافيهم دون أن يفقدن حنانهن وحزمهن.

أما **أندروماك وبلخاريا** فقد كشفا لنا عن الفضائل العائلية، والإخلاص العظيم لدى أولئك السيدات اللواتي لم يشتهرن في كتب التاريخ وكنّ مع ذلك، في عيون أطفالهن وأزواجهن، ملائكة قبل أن يكن قديسات في نظر الإله. وإننا لواجدون لدى لاروشوفوكو ولابريار والسيدة سيفيني ومؤرخي ذلك العهد، ملاحظات متفرقة نحتاجها لكتابة **سيرة هؤلاء الفضلاء والفضليات**، وهي السيرة التي لم تكتب بعد، رغم أنها أفضل بكثير من آلاف سير اللئيمات والمحتالين الذين وجدوا حظوة لدى كثير من المؤرخين.

لقد أعاد شعراؤنا من خلال شخصياتهم النموذجية الاعتبار لتاريخ الصدق الجليل

---

(1) انظر تاريخ الراهبات الكرمليات (Carmélites) في نهج القديس جاك Saint. Jacques في كتاب «**السيدة لونغفيل**» Madame de Longueville من تأليف م. كوزين M. Cousin.

والحب الأوّار المنزّه عن الخساسة كما عرفه أجدادنا. ولهذا السبب نحن متعاطفون معهم أيما تعاطف. إنهم يصيبوننا في كعب أخيل ذلك أننا نرى بقلوبنا، ورغما عنا، جداتنا الشريفات فتعلمنا كيف نجلّ ذكراهن.

وإذا كانت العشيقة تلعب دورا مهما في ذلك العهد، فهي مع ذلك لم تكن استثناء فقد كان للزوجة كذلك بطريقة أخرى مطردة نفوذا على زوجها واحترام الناس لها، إنها تتربع على قمة السلّم الاجتماعي في حين أن العشيقة لا تعني للملوك وكبار السادة سوى أنها أداة للتسلية وتلبية النزوات، وذلك أمر قد تبيحه الآداب العامة ولكن يشترط أن لا تسيء العشيقة لا إلى السلطة ولا إلى الآداب العامة ولا إلى الأخلاق، وأن يعوّض عشيقها عن ميعته بكثير من العواطف النبيلة تجاه الآخرين ومن الخدمات العامة.

لقد فهمت محظيات القرن السابع عشر الوضعية الجديدة التي أصبحن فيها، فما كان منهن إلا أن قبلن بنتائجها فتخلين عن العنف في ممارسة نفوذهن، وعن الاستبداد المخيف الذي أبدته الكائدات، و**المجرمات** زمن الإمبراطورية الرومانية وفي حروبنا الأهلية، وعن الأدوار القذرة التي كنّ يقمن بها في عهود الانحطاط، واكتفين بإشهار أناقتهن وذكائهن وتحضّرهنّ.

إننا نرى في كل شيء، وحتى في الظرف الغزلي، آثار تربية قصري رامبوايای وبورت رويال Port–Royal، فلم يعد الشعراء يتخذون بطلاتهم من بين صفوف العشيقات ولكن من بين صفوف السيدات والعذارى الهائمات حبا طاهرا. إن عملية تهذيب الحب هذه لم تكن حكرا على فرنسا، فما زالت إنجلترا تجني النتائج الطيبة لرد فعل الملكة إليزابت. إن شكسبير الذي ضاهى في نفس الوقت كورناي وراسين وربما موليار قد أوقف أبرع ما في عبقريته على ابتكار تلك النماذج من الشخصيات الجليلة التي تمثلها كل من **جوليات** *Juliètte* و**أوفيليا** *Ophelia* و**ديدمونة** *Desdemona* والتي لا تملك قلوبنا عند سماع أسمائها سوى أن تخفق حبا وإعجابا.

ورغم أن إسبانيا كانت تسير في اتجاه مماثل فقد ظلت متخلفة عن الركب مجانبة له. فلم

يتأثر كبيرا شعرائها المسرحيين، لوباز دي فيقا Lopez de Vega وكالديرون Calderon تأثرا كبيرا بذلك الحب الذي رفعه الفرنسيون والأنقليز إلى أعلى المراتب.

لماذا هذه الدونية لدى شعب كان قد درس على العرب أجلّ دروس الحب والأدب؟ والجواب: لقد أوقف انفعالان قويان تطور الحب، وتحديدا في زمن كان قد عرف فيه انتشارا واسعا في بقية مراكز أوروبا. ذينك الانفعالان هما: الشعور المتضخم بالشرف من ناحية والإيمان الديني من الناحية الثانية. ولا يعني ذلك أن هذين الشعورين لا ينسجمان مع الحب فقد برهن كورناي بأكثر ما يمكن من الحجج في مسرحية «السيد» وفي مسرحية بوليكت Polyeucte أنهما، على العكس مما يظن، قادران على إعطائه شحنة عجيبة. ولإنجاز ذلك ينبغي، أن تكون هناك وحدة بين كل تلك الانفعالات المختلفة لا أن يذوب أحدها في الآخر.

ولقد نجح كورناي بتفوق، في إنجاز تلك الوحدة وذلك الخليط ذي النسب المتعادلة أليس هو القائل على لسان بوليكت:

إنني أحبك

أقل بكثير مما أحب الإله ولكن أكثر مما أحب نفسي.

إنما لا يجدي أن أذهب وحيدا إلى السماء، فلدي رغبة في اصطحابك معي.

لقد اختزل كل من لوباز، عندما ضحى بالكبر القشتالي لفائدة الشرف، وكالديرون، عندما ضحى بكل المشاعر الإنسانية حتى تنتصر العقيدة الكاثوليكية، الحب إلى مجرد أداة مسرحية ثانوية، فقد عهدا له بدور بسيط وثانوي في المواضع التي جعله فيها شعراؤنا موضوعا رئيسيا، وعهدوا له بدور البطولة.

لقد شكل المسرح رأس الآداب في القرن السابع عشر. وكان الحب موضوعه وحجر زاويته. كل الجمهور كان يفهم الحب، ولم يعدم الشعراء أية طريقة لتهذيبه والسمو به إلى أعلى المقامات.

لقد اختزل الحب في نهاية الإمبراطورية الرومانية إلى أداة تسلية، ولهو غير بريء، وفي العصر الوسيط إلى بانوراما دينية، ومسرح تَقَوِي[1]. ومع ذلك لم يحاول استعادة شعار: «**علّم الناس الأخلاق الحميدة وهم يضحكون**» إلا في القرن السادس عشر، ولكن محاولته تلك لم تفض إلى نتائج مهمة. هذا الإخفاق دفعه بعزم إلى سلوك الطريق القديمة.

إن أول تهذيب لحق الحب بواسطة مثيلي كورناي، موليار وراسين، تمثل في شطب كلّ الأفاقين من قائمة المسرح أي **أرلوكان وبيرو** *Arlequin et Pierrot* **وكولومبين وكانتاتريس** *Colombine et Cantatrice* **وبنتالون والبالورين** *Pantalon et la Ballerine* **وسكاراموش** *Scaramouche* **وبريغالا** *Brighella* **والكابتن** *Capitan* فقد استطاعت تلك البقايا الحاملة لطبع البروليتاريا[2] الرومانية وأخلاقها أن تخترق ظافرة ما يربو عن الخمسة عشر قرنا دون أن تفقد عيوبها الفطرية ولا خصائصها الوثنية المتفرّدة. كان قدماء الضيافن والمحتالين والعاطلين هم الذين يستثمرون موائد النبلاء ويستغلّون المكائد وطيش السادة الصغار الأثرياء، لاستئجار شركاء في الجريمة. لقد أدخلوا، من خلال ما لديهم من ميولات شهوانية ومن قدرة على الاحتيال، الوثنية إلى المجتمع المسيحي، فقد كانوا يعيشون بين ظهراني ذلك المجتمع دون أن يأخذوا عنه أيّا من مشاعره أو من فضائله، فعندما نسبر أغوار نفوس أولئك المجانين الأذكياء، وأولئك الحمقى الأرقاء، وأولئك الحفاة الذين يسلّوننا، لن نظفر فيها سوى بالنهم والكسل والمكر والمجون، والريبة والخبث، ولن نعثر على أية عاطفة ولو كانت شبه نبيلة، ولا على أي فعل مقدام، أو وطني أو عاطفي، يمكن أن يغطّي على حسّيتهم، ولن نظفر بأية دمعة حب أو ألم يمكن أن يقنعنا بأنّ بداخلهم قلوبا. لقد كان من الصعب أن نؤلف مسرحيات عاطفية بمثل أولئك الأشخاص والشخوص.

---

(1) لم يفقد الحب أبدا هذه الخاصية في إسبانيا، وكما يقول السيد دي بيبوسك Mr Pybusque متحدثا عن كالديرون، «فقد أضحت مسرحيته «**أعياد القربان المقدّس**» على غاية من الأخلاقية والأرثودوكسية الدينية وذلك على مدار أكثر من ثلاثين سنة، إلى درجة أن رجال الدين في مدريد وإشبيلية وطليطلة وغرناطة ما انفكوا يطالبونه بها لإحياء احتفالات عيد القربان».

(2) هم فقراء الامبراطورية الرومانية الذين يتذيلون التراتبية الاجتماعية. (المترجم)

إن الحب الوحيد الذي كان بإمكانهم أن يعبروا عنه هو حب المكائد، عديم الرونق، حب بوليشينال قلبا وقالبا.، لم يكن البرجوازيون الصغار الذين كانوا يزينون ذلك المجتمع الغريب مُبَرّزِين في ذلك الميدان: فإن **كاساندر** *Cassandre* **وهوراسيو** *Horatio* **وإيزابال** *Isabelle* **وليندر Léandre** **ودكتور** *Docteur*، **وليليو** *Lelio*، لم ينسلوا بالتأكيد من أوفياء للحب في العصر الوسيط بل نسلوا على الأرجح من التجار والفرسان التروسوليين Trosuli في مدينتي كورنث وروما، فإذا نحّينا جانبا من تلك النفوس الداعرة الحب الظاهري الذي تكنه **إيزابالا لهوراسيو**، والإعجاب الملحوظ **ليليو بإيزابيلا**، لن نظفر سوى بالبخل والغيرة والغرور والتبجح والكذب والجبن.

وإذا ما نظرنا، من خلال تلك النماذج الكوميدية القديمة، إلى مجتمع القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فلن نظفر سوى بمشهد كاريكاتوري، مسلّ لا محالة، ولكنه يعطينا صورة تافهة وخاطئة عن تلك البرجوازية الفالية التي أبدت حزما وصرامة طيلة الاضطرابات الأهلية.

لقد حاول مؤلفو القرن السابع عشر، يشجعهم جمهور فطن ومثمن للحب الحقيقي والصادق، لا بألاعيب الصالونات، أن يستعيضوا عن تلك النماذج التي تجاوزها الزمن بعدة قرون بشخصيات معاصرة يسهل التعرف عليها وتنال تعاطف الجمهور، وذلك بعد أن ضاقوا ذرعا **بمسرحيات باسكين** وكورناي الهازلة وبتهريج الكوميديين الفاشلين المملّ.

لقد ورث **الممثلون الخدم** عن التهريج المضحك **لأرلوكان وبيارّو وبريغلاّ** الذين أعفوا من مهامهم، حيلة العقل السليم. لقد تركوا جانبا دون رجعة الخطاب الكلبي والتقنع والألبسة البهرجية. **فكولومبين** *Colombine* الخادمة المحتالة حافظت، تقريبا على نفس صورتها عندما أصبحت تسمى **مارينات** Marinette ثم **توانات** *Toinette* فـ **دورين**. *Dorine* ولكن شخصيتي **جيرونت** *Geronte* **وكاساندر** قد خضعتا إلى تبديل كامل فقد أصبحتا على التوالي **كريزال** *Crysale* **وأورغن** *Orgon*، **وألساست** *Alceste*، **وكلاينت** *Cléante*... فليست هناك شخصية تعرضت للتجديد الكامل عدا إيزابيلا، الصبية العاشقة... لقد

تعرضت إلى تغيير حقيقي في ملامحها، فكفت عن تظارفها وتصنعها الحب اللذين ما فتئت التظاهر بهما منذ أن استخدمها مينادر Menadre وصولا إلى بلوت Plaute، ومنذ تيرانس Terance وصولا إلى موليار. ولم يكف الكوميديا رفعها إلى مستوى شخصية ماريان Marianne في مسرحية «**المنافق**» *Tartufe*، وإلى مستوى شخصية إليز Elise في مسرحية «**البخيل**» *L'Avare*، وإلى مستوى شخصية هنريات Henriette في مسرحية «**النساء العالمات**» *les Femmes savantes* وإلى مستوى شخصية **بسيشي** *Psyché*، وكل النماذج اللطيفة التي تجسد الفتاة وقد ظهرت عليها أولى علامات الحب، بل إننا على علم يتطورات حبّها في الفترة اللاحقة لشبابها الأول المفعم أحلاما وأسى شبابيا وغيرة طفولية. فقد شاهدناها وهي تصارع آثار سن الرشد في دور **ساليمان** *Célimene* في مسرحية **ألفير** *Elvire*. لم تكن الكوميديا القديمة تتوفر سوى على مقدار قليل من المشاعر تحت تصرفها، أوقفتها على **الحسناوات الشقراوات** اللواتي تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والعشرين فبعد تلك السنّ تكون المرأة قد أصابها البوار، ولن يكون في قلبها مكان سوى للتفاهات ويضحي وجودها مسخا.

لقد تفطنت كوميديا القرن السابع عشر إلى أن النساء يحتفظن بقلب أخضر أطول مدة مما هو معلوم، وأنه بإمكانهن أن يحببن، وأن يحببن في سن الثلاثين، وفي الخامسة والثلاثين، وفي الأربعين دون أن يعني ذلك أنهن حمقاوات.

لقد أدرك الشعر المسرحي أن الحب لا يمكنه أن يبلغ كماله ويسمو إذا ظل حبيس تفاهات وإزعاجات المسرحيات التي تنتهي دوما بزواج البطل. لذلك أطلق العنان للعشاق يكابدون المصاعب والمخاطر التي تثبّت القلب وتسمو بالعواطف وهكذا ظهرت للوجود جماعة العاشقات العظيمات المأساويات اللواتي كنا أشرنا إلى أشهرهن.

لا يمكن للمسرح أن يسعف الحب بطابع كوني، وبقيمة لم يحزها أبدا في العصور القديمة إلا بشرط أن يجد لدى المعاصرين المشاعر التي يروم عرضها، وفي الروح القومي الوجدان الذي يؤسس الشهرة والنجاح الدائم. إن تذكيرنا بالدور الذي لعبه الحب في

مسرح القرن السابع عشر، يعني، أن نذكر، ضرورة، بما كان عليه في المجتمع. وعندما نلح على أن الشعر لم يرتفع بالحب إلى مثل تلك الدرجة العالية، فإننا نؤكد بذلك أن مكانته بين الناس كانت دونية. إن سلطته، إذا جازت العبارة، أو إشراقه، انطلق من القصر باتجاه الطبقات الوسطى ثم عمّ الأمة بأسرها.

6
الطموح والحب

حافظ الحب على تلك المكانة الكبرى إلى أن طردت البائسة لافاليار[1] Lavalière من قصر فرساي.

لقد كان لذلك الحدث الملكي العائلي نتائج عظيمة، فقد دفع رجال القصر إلى رد فعل سريع وحزين، فعندما ضحى لويس الرابع عشر بلافاليار، امرأة الشهامة والنبل، وفضّل عليها السيدة دي منتاسبان de Montespan امرأة الطموح والمكيدة، فإنه قد روّج بذلك للكبر والأنانية. ولمّا كانت الرعية على حب ملوكها فقد شاعت في نهاية القرن السابع عشر الخيانات الزوجية جريا وراء منفعة مادية أو لأجل غايات معينة.

لقد وجد الحب الحقيقي نفسه محل إنكار وتشويه كبيرين في الأوساط الأرستقراطية، فكان عليه أن يدافع عن نفسه فوجد له ملاذا في أوساط صغار النبلاء والبورجوازية حيث أظهر رباطة جأش وصلابة شديدة جنبته أذى الطبقات العليا الذي ظل يلاحقه. وفي خضم تلك الحملة التي قادتها النزعة الإباحية الجديدة ضد العفة القديمة انقسم الشعراء والأدباء فريقين: فريقاً ظل وفياً للحب الشريف والحقيقي، وفريقاً اختار أن يكون عوناً على المجون.

لقد كان وضع الحب ذاك شبيها بالذي كان عليه في ظل أرستوفان وسوفوكل. ولذلك لم تتأخر نتائج ذلك الصراع عن الظهور. لنتفحص أولا تلك الحملة الإباحية كيف نشأت وتطورت في الواقع.

ليس الطموح سوى صورة أخرى من الأنانية؛ فالإحساس الذي يدفع الملوك إلى أن يضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل مصالحهم، وإلى أن يرفعوا شعار «**الدولة هي أنا**»، هو

(1) اسمها الكامل هو فرانسواز لويز دي لابوم ليبلان *Françoise Louise de La Baume Le Blanc* عينت دوقة على لافاليار. كانت إحدى أهم عشيقات لويس الرابع عشر. أنجبت له أربعة أطفال. انهت حياتها راهبة. (المترجم)

نفسه الذي يدفع الرعايا إلى أن يطمحوا إلى المكرمات وأعلى الوظائف.

إنهم يتخذون شعار فوكاي Fouquet «**لا شيء يقف أمام طموحاتي** jusquoù ne monterai–je pas؟» شعارا لهم في حياتهم، أو شعار إيرازم Erasme «**أنا لا أستسلم** *Cedo nulli*». وما إن أعطى **السيد** المثال عن الأنانية والخيانة حتى ضاق كبار النبلاء والنبيلات ذرعا بمروءة «**السيد**» ونكران الذات الذي أبدته **شيمان** وعادوا يلهثون وراء تدابير أكثر كسبا ماديا.

وإذا كان جوهر شخصيات القرن السادس عشر تمثل في الفردية وروح الانتقام، فإن جوهر شخصيات القرن السابع عشر تمثل في الطموح، وكان على الحب أن يكابد نتائج ذلك التحول الأليم فعزّ وجود أمثال لافاليار وفي المقابل عجت كل الدروب بأمثال مونتينون ولم يعد الرجل والمرأة يتحابان طمعا في رقة الحب نفسه بل طمعا في النجاح الاجتماعي.

لقد كان لدافعي الطموح والكبر تأثير لا يقاوم على النساء بالخصوص، وقد أفضى إلى نتيجتين متناقضتين كل التناقض رغم أن لهما نفس المبدأ، فقد قتل الحب لدى بعض النساء، وهيجه وأثاره لدى البعض الآخر، وإذا كانت النساء في القرون المسيحية الأولى قد لجأن إلى الأديرة بدافع الحماس الديني، أو احتماء من عنف الغزاة أو هربا من نير زوج مستبد، فإن نساء القرن السابع عشر قد لجأن إليها تفاخرا (زهوا وعجبا) فالشابات ذوات الأصل الشريف وذوات الفضل المتعوّدات على حياة البذخ في قصور **أجدادهن**، لما رأين الأخ الأكبر يستولي على كل ميراث العائلة أدركن أن تواضع نصيبهن من الثروة لا يسمح لهن بالعيش في قصور تضاهي تلك التي فيها نشأن[1]. فهن فزعات لمجرد التفكير في زواج يحط من مكانتهن، فيستبد بهن العجب بأرومتهن فلا يجد الحب مكانا في قلوبهن، فكل

---

(1) في مسرحية **إيزارديو كورسو** *Isardo Curcio* التي كتبها كالديرون صارح دون كورسيو don Curcio ابنته بالأمر فنبّهها إلى أن ثروته قد نقصت بشكل واضح وطلب منها أن تترهب حتى يحوز أخوها كل الثروة وبذلك يحفظ شرف العائلة.

من يتقدم لخطبتهن، ولم يكن سيدا شريفا مثل آبائهن، يزدرينه. ولمّا كان الماركيزون والدوقة قليلي العدد، فقد كنّ ينشدن في الدير قصرا وجيشا من الخدم جديرين إلى حدّ ما بأصلهن الشريف. وكانت السيدة دي فونتان De Fontaine مؤسسة كرمليات Carmelites باريس ورئيستها تصرح بذلك علنا لراهباتها المنحدرات غالبيتهن من عائلات فرنسية شريفة إذ كانت تقول لهنّ:

«أجل، نحن من بيوتات شريفة فنحن بنات الملوك، وشقيقاتهم، وزوجاتهم لأننا بنات أبينا الأزلي، وشقيقات المسيح، وزوجات الروح القدس، فالدير هو منزلنا، وليس لنا دونه منزل»[1].

وعندما دفعهن الكبر إلى الترهب، دفعهن ما تبقى في صدورهن من حب إلى أحضان الراهبات الكرمليات. لم اخترنهن؟ لأن راهبات الكرمل هن بنات القديسة تيريزا المرأة التي أحبت فعرفت كيف تحب بشغف، وحَبَت التصوف الديني بلغة الحب وأحيانا بلغة الشهوة الدنيوية.

لقد كن ضحايا النظام الاجتماعي السائد، فكن يأملن الظفر من خلال ذكرى القديسة تيريزا بآخر أوهام الحب. فإلى ذلك المكان لجأت أيضا نساء شريفات، عزيزات قوم ذللن، أو عشن قصة حب فاشلة وفي جرابهن قصص عن عالم مضطرب. ولقد وجدت الصبايا في تلك المشاهد المؤلمة التي، **للأسف** لم يعشنها أبدا، ما يغذي خيالهن. ألم ترج أخبار عن سادة من أكابر النبلاء كانوا يأتون إلى ردهات الدير يخطبن راهبات الكرمل، وكن في غالبيتهن على قدر كبير من الجمال والتميز. وكثيرا ما كانت تلك الزيارات المنتظمة والمواعيد الجادة تكلل بزيجات.

لم تكن الصبايا الأكثر حنكة واللواتي لا يجدن حرجا في التعبير عن تطلعات طموحة، ينشدن التعفف بل هن يرغبن، توسلا بالدير، في مواصلة مغامراتهن العاطفية. إنهن يتسللن إلى صفوف الوصيفات، ذلك المنجم المنتج لمحتالات ظريفات ويتوسلن بمكائد ظريفة

(1) Cousin, Mme de Longueville, 92

يغوين بها الرجال ليتزوجوهن فإذا لم يصلن بذلك الزواج إلى مراتب الملكات أو الأميرات فلا أقل منها مرتبة الدوقة.

إن ذكر كل النساء اللواتي كن يسعين إلى حيازة مآثر الملك سلاحهن الوحيد الطموح، يعني مراجعة قائمة كل عشيقات المُلْك المعظّم. إن ما يجعل محاولاتهن تلك خطيرة أنهن ينتمين كلهن إلى الطبقات العليا وأنهن تعلمن، منذ نعومة أظافرهن فنا عظيما، هو فن النجاح. فللأبّهة، ولعزة النفس، وللمظهر الخارجي، وقد جعلتها الأسرة المالكة أمرا مستساغا، متطلبات كبيرة. ويعدّ الأصل الشريف شرطا مفروضا على كل من يروم التألق ولو عن طريق الظرف. فإذا كانت موهبة المرأة وجمالها كافيين في اليونان القديمة، وإذا كانت روما لا تشترط فيها سوى الجرأة والكيد، فإنّ فرنسا القرن السابع عشر أبدت شروطا أكثر صرامة، فلو أن فينوس ذاتها وقفت على أبواب قصر فرساي فلن يسمح لها بالدخول إلا بشرط أن تشيد ثلاثة أحياء للنبلاء.

لقد مثل ذلك الأمر ثورة في الحب كان لها تأثير في السياسة، فقد عمقت الهوة التي تفصل عامة الناس عن الطبقة الأرستقراطية؛ ففي كل الأزمان كانت مهمة الحب أن يدفع قدما مبادئ المساواة والحرية وحرية الاختيار، فقد كان دائما يجسّر الفجوات التي تفصل الملك عن رعاياه. ومصداقا لذلك فقد وجد شارل السادس لدى الفلاحة الساذجة أوديت Odette بعض وميض من الصفاء. وأما لويس الحادي عشر فقد وجد لدى مزارعات بلاسيس ليتورس Plessis–les–Tours ما به نزع عنه استبداده المنفّر. والكل يعلم في أية طبقة من الخدم كان فرنسوا الأول يبحث عن متعة عابرة توفرها له المحظيات. وأمّا هنري الرابع فكان كثير الكرم مع فلورات البيارنية Fleurette la béarnaise اليافعة، ومع الطحّانة[1] في منطقة ألبارت Albert.

لقد كانت مجرد فلاحة بسيطة تمثل شيئا معتبرا بما أن الملوك كانوا، أجمعهم، يرمقونها بعين الشهوة فالهوة لم تكن أبدا غير مجسرة بين الأقنان وأسيادهم، بما أن أولئك الأسياد

(1) عاملة الطاحونة (المترجم).

كانوا يتكرّمون عليهم باستقبال بناتهم وشقيقاتهم في قصورهم.

وفي ظل حكم لويس الرابع عشر محا قانون اللياقة تلك الأوهام عن المساواة. ذلك أنّ الأرستقراطية التي لم تكن قبل ذلك الحين سوى طبقة، قد حوّلتها أحكام حفظ المقامات، وحق التصدر إلى طائفة (مغلقة). ولكن لنكن منصفين، فذلك الفرز الاجتماعي الصارم كانت له نتائج أخلاقية غاية في الإفادة.

لم يكن للعشيقات ذوات الأصل النبيل، المتعلمات غالبيتهن والذكيات جشع للمال كذاك الذي كان للمحظيات والبغايا من الطبقات الدنيا. فكن ينلن مقابل خدماتهن قصورا ودورا وحفلات يحضرنها، ورغم أنّ تلك المكافآت لم يستسغها الشعب الذي يدفع الضرائب ورآها باهظة، فقد كانت لها مزية أن وطدت قيم الشرف والتميز، وجنبت المجتمع خطر البخل الخسيس، والفساد الفاضح اللذين جلبتهما إلى المجتمع السريات الماجنات ذوات القدر الرخيص.

لقد أعطى أصل العشيقات الشريف وتربيتهن الملكية لفجور ذلك العصر نوعا من اللياقة والسمو رفعه درجات فوق فجور العهود الأخرى.

وإذ تمثلت الحاجة إلى السمو في الاهتمام المتواصل بأولئك العشيقات الراقيات، يحصل مع ذلك أن تلك الرغبة الجامحة في النجاح تغريهم بسلوك مناقض، كل المناقضة، لمبادئ الرقة والصدق. ولمّا كان من غير الممكن نيل إعجاب الملك واحترام قوانين القصر العليا دون إنقاذ الظواهر، تم اللجوء إلى التخفي وصار للفرد حياتان متمايزتان، حياة رسمية، تؤسس للشهرة في التاريخ، وأخرى للنزوات والشهوات الدنيئة تجلب لصاحبها المنافع وتوفر له قوت يومه.

إن مراعاة اللياقة واحترام المرأة من أوكد واجبات المجتمع الجديد الناشئ فقد ذكر سان سيمون أنّ لويس الرابع عشر «لم يمر أبدا أمام امرأة دون أن يرفع قبعته، احتراما لها، وأعني بذلك الخادمات اللواتي يعرفهن بصفتهن تلك» لقد انتهى عهد الفلسفة الرابلية. وكذا عهد المسرح الماجن على طريقة سيلستين فكل ما ينبغي أن تراه العين، من هيئة

وزينة ورياش وكلام وتصنع، سيكون نبيلا وعظيما ورجوليا ولائقا. وسنسير مرفوعي الرأس، بارزي الصدر وسنتحدث بوضوح وصراحة وسنظهر مسيحيتنا وكاثوليكيتنا في كل أعمالنا وحركاتنا وسنخلص الدين من كل المعتقدات الباطلة التي دنسته في العصر الوسيط وسنستعيد وقار الحواريين وبساطتهم، وبذلك انتهى أمر الإباحية الصوفية التي مثلتها الحكايات الشعرية القديمة، وكذا المجون الفلسفي في القرن السادس عشر، ويمكننا القول، انطلاقا مما هو ظاهر للعيان، أن المجتمع قد استعاد فن الحب على طريقة القديس غريغوريوس النيصي. لقد أضحت قصيدته التي نظمها في أولمبياس الشعار الذي يرفعه كل الأزواج. لم تعد حكايات مرغريت وبوكاس تطبع وتنشر، وكان الأمر يتطلب كل ما لدى الملهم لافونتان من صفاء الطوية حتى يكون له شجاعة نظم أبيات عن المباهج، التي لم تعد محل رهان الناس.

ومع ذلك فإذا ما أظهرنا استقامة في وضح النهار فإننا لا نتوانى عن إتيان بعض الفسق بعيدا عن الأعين. إن تلك الكتب «الإباحية الماجنة» التي لم نعد نجرؤ على قراءتها بعد ساعات العمل، على غرار تراجيديات راسين، أو مؤلفات بوسيياي Bossuet، أصبحنا اليوم نُورّقها في جمع من الأصدقاء والأحبة الذين لا يذيعون السرّ أبدا. وعندما يسأم كبار السادة والنساء الراقيات لبس معاطف الحفلات، فإنهم يستبدلونها بالستر Jaquette والتنورات Jupon القصيرة ويتسللون إلى الحانات البائسة في الأحياء المهمشة. وهناك يلتقون بالشخوص التعيسة التي نجدها في مسرحية «**النساء الظريفات**» ومسرحية «**فرانسيون**» ولكنهم لا يتسللون إلى تلك الأماكن حيث الرعاع، إلا بعد أن يتجردوا من ألقابهم ومن معاطفهم الملوكية.

لقد كان بالإمكان إخفاء كلّ هذا الجانب الغامض من حياتهم، استنادا إلى ضخامة ما كان يزينون به أنفسهم من لبوس الفضيلة لو لم يكن مؤرخو مدرسة لابرويار والسيدة دي سيفني وسان سيمون وبوسي رابيتان متحفزين للكشف عن كل مستور وإذاعة كل ما يقع تحت أبصارهم. وعلى عكس بوسي- رابيتان الذي حاول إحياء جسارة المؤرخ

القاسكوني عبر تحوير بسيط في الأسلوب، فإن البقية لم ينقبوا عن أسرار المدن والقصور بوقاحة برانتوم. ولذلك فنحن نلحظ جيدا اختلاف مآل الفريقين، ففي الوقت الذي كان برانتوم ينشر مثالبه علنا، كان بوسي رابتان مجبرا على التخفي لكي يعدّها للنشر. لقد كتبها انتقاما لشخصه واكتفى بتوزيعها مخطوطة على بعض الأصفياء ولم تشتهر بين الجمهور إلا بفضل فضول ماركيزة بوم Beaume، إحدى صديقاته القديمات التي هجرها. وما لبث أن ثار غضب شديد في القصر ضد جرأة القاصّ، وسخطت عليه قريبته السيدة دي سيفني سخطا كبيرا، واهتاج السادة دي كوندي ودي توران ودي لاروشفوكو ودي لوفوا de Louvois وأمير مارسيلاك Marcillac. وبذلك انتهى به المطاف إلى سجن الباستيل (17 أبريل 1661).

ذلك كان ثمن أن ننشر في ظل حكم لويس الرابع عشر أسرارا أقل جرأة من تلك التي كان الفاليون يتفكهون بها ويتسلون. ومع ذلك فإن النساء اللواتي انتقدهن بوسي - رابتان في كتابه «**حب الغاليين**»[1] انتقادا لاذعا لسن في النهاية سوى السيدة دولون Mme Dolonne وشقيقتها مادلان الأرجنية Madelaine d'Argennes. ولم يكن حالهما أفضل مع لابرويار عندما أصبحتا تسميان **كلودي** *Claudie* **ومسالين** *Messaline* فقد أكد سان سيمون أن مجونهما كان كبيرا إلى درجة أن «لا امرأة، بما في ذلك أولئك اللواتي يذممن الظرف، تجرأت على الاختلاط بهما أو الظهور على الملأ معهما».

ذلك كان مبدأ الشرف في ظل حكم لويس الرابع عشر، فيمكننا أن نسمح لأنفسنا ببعض التجاوزات وأن لا نولي كبير اهتمام للفضائل التي نص عليها الإنجيل، وتاريخ الملك

(1) لم تؤد إقامة بوسي ذلك المناصر لمبدإ «**الحقيقة مجردة**» في سجن الباستيل إلى أن يتوب، فإثر خروجه من السجن واصل قدما في نزعته الانتقامية فجمع في قصره صور كل عشيقاته، وصديقاته، وذيّل كلّ صورة بتعليق جمع فيه كلّ مكر سان سيمون: «**لقد كانت السيدة دي لابوم** *de la Beaume* **أجمل عشيقة في الوجود وأحبّهن إلى قلبي، إلا أنها كانت أكثرهن خيانة**». وأما السّيدة دي مونقلاس Mme de Monglas «**فقد تمكنت بفضل خيانتها أن تعيد الاعتبار لسيّدة أفسس** *Ephèse* **وكذا نساء أستولف** *Astolphe*» **والجوكوندا** *Joconde*. وأما السيدة دي سيفني de Sivigné وهي إحدى قريباته «**فقد كانت امرأة على غاية من الذكاء الخارق، وذات فضل مكين وذات طبع ملائم للمتعة**». ولكن كل تلك الصور وما ذيّلت به ظلت حبيسة غرفة استقباله ولم ينشرها بين الناس.

المعظم يسعفنا في ذلك الإطار، وكأنّ الأمر يتعلق بمسألة حرية اختيار تناقش خلف الأبواب المغلقة مع كاهن الاعتراف. إن وداعة اليسوعيين قد جاءت في الوقت المناسب لتسهل المصالحة مع الوعي، وهكذا تحتجب مسألة الضمير عن أعين الناس، فكل ما يظهر للعيان ينبغي أن يكون صادقا لا شية عليه، وفاضلا حسب ما تقتضيه القواعد فنحن لا نصرح سوى بظرف عفيف لا يكلف سوى بمحاسن القلب، فكلّ ما ينتج عن ذلك من حب غير أفلاطوني ينبغي أن يخفى بعناية. لقد كان على الرسامين أن يبدوا نفس الاحتراز، فوظفوا كل موهبتهم في رسم عشيقات الملوك والأمراء الحسناوات، ولكن باعتبارهن بارونات وماركيزيات فقط، فلا شيء في هيئاتهن ولا في ملابسهن يشي بمهنتهن. إنه والحال تلك لم يعد بإمكان الرسام بريماتريس أن يعثر على أمثال ديانا تلهم ريشته الجسورة الفاضحة.

كان هناك امرأتان تجسدان بكل وضوح تلك المراعاة المغالية للمظاهر الفخمة فقد برعتا في إبراز الفضائل وإخفاء صغائرالعيوب وكبائرها. تينك المرأتان هما السيدة دي مونتوزي de Montausier والسيدة دي مانتونون de Mantenon. الأولى كانت، قبل الزواج، تسمى الآنسة دي رامبوياي كانت قاسية على معجبيها إلى حد أن نفرت من الزواج على طريقة أرماند في مسرحية «**النساء العالمات**». وما إن استقرت في قصر فرساي حتى أثّرت أجواؤه في أخلاقها تأثيرا متميزا، فبدت أكثر حماسة لتفضيل أسلوب حب لافاليار ولويس الرابع عشر دون أن تتخلى عن مظاهر الفضيلة الأكثر صرامة.

إن الحب المتآمر والطموح لا يقنع بالتخفي وراء الأقنعة. إنه يؤثر التصنع والتكلف والمغالاة في الورع. أما السيدة دي مانتنون فقد دشنت ذلك الظرف المتشح بالسواد بل ورفعته إلى أعلى درجات الإتقان. لقد كانت تراقب عن قرب عفة وصيفاتها بانتظام كبير، وبفضل فطنتها لم تظهر في صفوفهن أمثال لافليار وفونتانج رغم عددهن الكبير إن الحب لم ينتفع بتلك الصرامة. ولمّا كان لزاما عليه أن يكون له من يدير شؤونه ويصنع أمجاده فقد كان يلجأ إلى المزايدات التي نجح فيها أكثر من مرة. لقد استعاد صوفية القديسة تيريزا والقديس يوحنّا الصليب ووسع من مجالاتها حتى تفوّق عليهما في هذا المجال. لقد جدد

مولينوس[1] Molinos مذهب الفناء الصوفي وطوره وبثّ فيه جرأة غير معهودة فعطّل الإرادة الإنسانية وغيّبها، حتى وصل به الأمر إلى أن أقام بين الروح والجسد في الدنيا، انفصاما مصطنعا شبيها بذلك الذي يحصل بعد الموت.

عندما أدرك الشهداء الموت وتخلصوا بذلك من الأفكار الشريرة، ومن أحاسيس الجسد الأثيمة، فقد كانوا يحمدون الإله على أن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وهي بحضرته، فقد كفوا عن الاهتمام بتلك الجثة التي تركت ملقاة على السرك. لقد تركوها للجلادين، يمارسون على لحمها الميت كلّ ما حلا لهم من الفظاعات.

كان مولينوس يحلم بتجديد تلك الظاهرة في حياة الإنسان لا بعد موته. لقد سعى إلى الفصل بين الروح والجسد، لا بفعل الموت، ولكن بإرادته الخاصة، أو لنقل عن طريق تسكين الإرادة... وعندها تتحد تلك الروح بالإله وتترك الجسد جانبا، وتنسى أنها كانت متحدة به. ولن يكون اهتمامها بالعفة والفضيلة أقلّ شأنا من اهتمام القديسين نزلاء العالم الآخر.

لنا أن نتوقع النتائج المريحة جدا لتلك العقيدة. إن ذلك الجسد الذي لم يكن أقل استعدادا لينفصل عن الروح بطريقة غير طبيعية، يمكنه أن يغنم كل اللذات وأن يأتي كل المحرمات دون أن يحاسبه الإله الذي لا شأن له بالجسد الفاني، فالروح باعتبارها وحدها راجعة بالنظر إلى العدالة الإلهية، تدفع عنها كل مسؤولية عندما تحاسب قائلة، **هذا الجسد لا أعرفه.**

لم نعد إزاء القديسة تيريزا التي ارتفعت بكل هواجس الحب وشهواته التي حبتها بها الطبيعة الحنونة إلى مصاف الحب الإلهي، وحافظت بذلك على عفافها وطهرها بل نحن إزاء الفاجر الماكر اللبق الذي يتخلص من الروح التي تقلقه شهادتها على الجسد، حتى يلغ بكل جوارحه في شهواته الخليعة. لقد خدّر الضمير ذاك الحارس السماوي كما يخدر الغاوي الأم التي تحرس ابنتها حتى يتمكن من تلك البنت المسكينة ويفعل بها ما يحلو له.

---

(1) قس إسباني ولد سنة 1628 وتوفي سنة 1696 يعد من مؤسسي مذهب الفناء الصوفي. (المترجم)

لم تكن تلك نية مولينوس بالتأكيد، ولا نية السيد دي جيون de Guyon، ولقد كان خطأ فينيلون Fenelon، شريكهما الساذج أكبر دليل على ذلك، ولكن تفكيرهما الغريب لم يفض بهما إلى الفصل بين الروح والجسد بواسطة الصلاة والإشراق... ولنفترض أن الفصل حصل، فهل من حد لانغماس الجسد في المجون. وبالتأكيد لم يكن الحب على طريقة أندروماك أو شيمان هو الذي سيستفيد من ذلك الفصل، ولكن المجون الفظ على طريقة المايوتان[1] Maillotins والقائلين بتجديد التعميد[2] Anabaptistes.

لقد نشرت كتب الأخبار المألوفة والمذكرات عادات الظرف على نطاق واسع في القرن السابع عشر حتى إننا اكتفينا بتلخيص متعجّل عن التغيرات التي حملتها معها، ولدينا ما يكفي من الأسباب تدعونا إلى أن نعالج عادات الظرف في القرن الثامن عشر بنفس الكيفية السابقة.

لقد أشاع الكتّاب الصغار غير المتحفظين، والشعراء العاديون، بين الناس بما فيه الكفاية المذكرات الخصوصية لذلك العهد، ولقد كانت تلك الكتابات الصادرة عن الروح الفرنسي تقرأ وتحلل، وتفهم بعمق. وكان من الضروري، والحال تلك، أن ننهل من كتبهم شواهد نتمثل بها، فمجرد اسم علم، أوتاريخ، كافين لاستعادة الأحداث والسمات، والتفاصيل الضرورية لادراك معنى قصتنا.

لم يفتأ الحب في ظل حكم لويس الرابع عشر يمشي مرفوع الرأس، وبخطى ثابتة، مجللا بأبهة القصور، أو برداء الآلهة الوثنية من الطراز الأول، ومع ذلك فقد كشف لنا عن عهدين مميزين، عهد الحب الكبير والصادق والصافي قلبا وقالبا، وهو العهد الذي تلا عهد لويس الثالث عشر وعهد الحب اللائق مظهرا فقط والذي لا غذاء له سوى من الموضة، وأساليب عيش الطبقات الراقية، ولكنه لم يكن في الواقع حبا بل مجرد إحساس أناني،

(1) هم عامة فرنسا الذين انتفضوا سنة 1382 في عهد شارل السادس مطالبين بإلغاء الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم. (المترجم)

(2) هم يمثلون تيارا بروتستانتيا يرى أن التعميد يجب أن يتم عن اختيار حر وواع.أي عندما يصبح الفرد قادرا على فهم معناه ومتطلباته(المترجم)

ومنفعي ولا يفضي في النهاية سوى إلى الخيلاء في المجتمع، وإلى إرضاء ذوي الطموح، وأن يكون لهم وسيلة للنجاح والرقي.

7
آخر التحولات

لقد وضعت حكومة لويس الخامس عشر وملكه حدّا لذلك التحول المؤلم. فقد وصل الأمر بالمغامرات الشائنة، التي كانت تتم بعيدا عن الأعين، في آخر العهد السابق إلى أن نزعت عنها ثياب الأبهة وكذا الطلاء اللذين كانا يخفيان تهافتها الأخلاقي، فأضحى إشهار الفجور والافتخار به أمرا مستساغا وسلوكا اجتماعيا وهو الذي لم يكن يؤتى إلاّ خفية. وانحدرت النساء من أداء أدوار البطولة التي كنّ يؤدينها إلى لعب دور الخادمات في المسرحيات الإيطالية، وإلى راقصات في **حفلات الرقص** في مدينة البندقية. في بداية حكم لويس الرابع عشر كان الناس يتجنبون مخالطة الزمر المشبوهة على غرار سيدات أرجان Argennes. «ولكن ذلك السلوك تغيرً تغيرّاً كبيراً» كما قال سان - سيمون في خاتمة مذكراته فلم يعد الناس يخجلون من مخالطة النساء المشهورات بظرفهن، بل يسعون إليهن سعيا، ويفتخرون بالتردد على الآنسة دي مايي de Mailli المعروفة لدى الجميع بسلوكها المشبوه.

لقد كان الحب النبيل في القرن السابع عشر يحظى بدعم شعر كورناي وراسين، وبدعم فلسفة موليار الفكهة والمتميزة. وبدل هذه المسرحيات الرائعة المبكرة استعيض عنها بحيل رونيار Regnard التي جمعت بين الإباحية والتسلية، وبتظارف ماريفو Marivaut ذي النظر الدقيق ولكن ذا الشعور الفاتر، ودعابات كولي colé وفادي Vadé. وأما قصاص العادات الجارية، بيرون Piron وكريبليون الابن Cébillon fils، وديدرو Diderot ولا نستثني منهم فولتير voltaire فقد قلدوا أسلوب برانتوم الوقح ونشروا روايات من بينها: **الساذج** *Candide* **والأكاجو** *l'Acajou*، و**الراهبة** *la Religieuse* **والحلي المتبرج** *Bijoux indiscrets* وصوفا **le Sopha**، والماجن ذو **المكانة الرفيعة** *le Libertin de qualité* وهي أقلّ وقاحة من غيرها من الروايات. لقد سقط هجاء سان سيمون الحادّ والصادق في

الآن نفسه، بين أيدي هجائين محترفين ومؤرخين رسميين كلبيين، رغم أنه لم يتميز أبدا بجانبه العاطفي. والنتيجة أنّ الجمهور كان يتخطف **الصحف البدائية**[1] وقصائد الهجاء الصادرة ضمن سلسلة باكومون Bachaumont، وأهاجي لوبران Lebrun ودي دليزل De Delisle.

ومن المؤكد أنّ العري لم يكن يقلق رسامي ونحّاتي القرن السابع عشر، ولكن شخصياتهم، التي يرسمونها أو ينحتونها، كانت آلهة ذكرا وأنثى وقد كان أصلها المتعالي ذلك يعطي لبساطة هيئاتها شيئا من الصدق والوقار يجعلها بمنأى عن فضول الجمهور وهزئه اللاذع.

إن الرغبة في التجديد وفي إحياء الرغبات المقرفة قد ألهمت فناني القرن الثامن عشر اختراعا مدهشا، تأسست عليه طوال قرن أهم أعمالهم الناجحة. تمثل ذلك الاختراع في ابتكار الصور المقلوبة وغير منسجمة الأجزاء Coup de vent وصور لعبة الغميضة، ولعبة الأرجوحة. إن تلك الصبيانيات التي عنّ لها، ضمن ذلك الاختصاص، كل من بوشي Boucher وفاتّو Vatteau وفراغونار Frangonard ولانكري Lancret، **رسام الحفلات الظريفة**، قد تجاوزت بكثير العري الساذج، والصامت والبسيط، الذي كانت عليه الآلهة التي رسمها لوبران ونيكولا منيار Nicolas Mignard. لقد كانت المغتسلات والراعيات اللواتي يرسمونهن قد تخلصن من الهالة الأسطورية التي تحوطهن ليظهرن في غاية الأريحية. لقد أصبحن بمثابة بنات باريس *Les filles de Paris*. إنهن ينكشفن على الملإ في ثياب داخلية... لقد كانت عروسات البحر تلك المزعومات، أولئك المتدللات راعيات الأغنام، ذوات الصدور المكشوفة، والفساتين المشمرة، يمثلن النساء المرغوب فيهن. فأضحين سيدات شريفات راجت سوقهن في حفلات قصري تريانور Trianon ولوسيان Luciennes الماجنة. وبإمكانك التعرّف عليهنّ من خلال ابتساماتهن الأليفة،

(1) نقترح عبارة «الصحف البدائية» ترجمة للعبارة الفرنسية les nouvelles à la main وهي الصحف الأولى التي تمثل مرحلة ما قبل ظهور الصحف والجرائد وكانت تكتب بخط اليد وتوزع سرا. (المترجم).

ونظراتهن الحادّة نوعا ما، وبإمكانك مصادفتهن في حفلات السيد بارتان Bertin **أمين مال الضرائب الملكية**، وفي حفلات السيد دي فرونساك de Fronsac، ومشاهدة تلك السيقان الرشيقة وتلك الأقدام اللطيفة، ترقص، في حفلة السيد دي لوزان **رقصة الركل**[1] ***Fricassée*** الشهيرة التي ابتدعتها الآنسة غيمار Guimard.. إن الممازحات التي ينساق إليها الجميع هنالك، وكذا الفضول الذي يثيرونه، يسقط الاحترام الذي كان يكنّ للطبقات العليا، ذلك أن الاحترام هو الشيء الذي يسعون جاهدين إلى التخلي عنه في كلّ مكان يحلون به فيجعلونه مثار استهزاء. أولئك الراعيات الماجنات والمحتالات، وأولئك الماركيزيون الوقحون والمشككون، يشكلون كلهم مجتمعا مخصوصا شريف الأصل، ولكنه بذيء ومقزز في كل شيء، وإلى ذلك فهو شهواني وخليع، إلى درجة لا يمكننا معها إلا احتقاره. وليس له إلا التسليم بهذا الاحتقار. فبالنسبة إلى ذلك المجتمع الجسد هو كل شيء والقلب لا شيء. وقد كان يمكن أن يكون مجتمعا بلا روح لولا بقايا نفس من الحياة، تلك التي يمثلها لطف الفرنسيين. ولكن تلك الروح لا ترسل أبدا نورها باتجاه القلب لايقاظه، بل باتجاه الجسد لتشعل بداخله نار الشهوة، وتكون النتيجة تخمة من النشوة المتوقدة، ومن الهياج العصبي و الإغواء الشيطاني.

إن تلك المبالغة في تقديس المادة، وذلك الإبراز للأحاسيس قد أفضيا إلى بروز نزعة تكلف شبيهة بتلك التي كان جماعة قصر رامبوياي يدرسون بها الاحساس والذكاء سعيا إلى تهذيبهما. لقد كانت العزيزات يخضعن الحب والروح لمصفاة الثمين والمرهف ليستخلصن منهما جوهر فن الحب، فمن فرط ما سعين إلى جمع الكمال إلى الكمال انتهين إلى القضاء نهائيا على كل ما هو طبيعي ومنطقي.

ومن ناحيتهم أخضع الماركيزيون والسيدات الظريفات في ظل حكم لويس الخامس

---

(1) رقصة الركلْ هي رقصة شعبية من أصل بروفانصالي تجسّد خصام الزوجين ثم تصالحهما. ولمّا كانت رقصة بدون ضوابط وتجسّم عراك الزوجين سمّيناها رقصة الركل. وقد استوحينا العبارة من «المقامة البربرية» للسرقسطي وقد وصف فيها عرسا بربريا فكتب ساخرا يصف الراقصين والمغنين: «وركلوا هنالك ركلا طويلا واستعادوا حنينا أو عويلا». (المترجم)

عشر فن التمتع بالحياة إلى نفس طريقة البحث عن الكمال. لقد كانوا يبحثون عن **أفضل ما في الأفضل** من اللذة والشهوة مثلما بحث سابقوهم عن أفضل ما في الأفضل من **الظرف** ومن **الحب**. ولكن سعيا منهم إلى بهجة دون لباقة، وجنون بلا حدود، ثاروا ثورة عارمة ضد كل من يتمسك بالحقيقة الصادقة، وبالبساطة الحق، وبذلك انتهى بهم الأمر إلى سيادة الفحش والرياء في كل شيء. لقد خيل إلى أولئك الشباب والشابات أنهم يقوّمون الخلق ويعلمونه. لقد كانوا وهم يظهرون في لبوس الشيخوخة يفرضون على الحب لغة العجز المقزّزة مثلما كانت العزيزات قد أحطنه بسذاجة طفولية مفرطة. لقد اتخذت النساء المتزينات هيئة تماثيل ضخمة، وصرن يشبهن في رقة خصورهن الدبابير بحيث أدت الفساتين الفضفاضة المنتصبة robes à panier التي كن يلبسنها إلى ابتكار المنطاد. وبلغ فن تزيين الوجه منتهاه فلم تعد النساء يكتفين باستعادة نضارة الوجه التي أتى عليها الزمن، والتخلص من التجاعيد التي حفرت بمرّ السنين، بل عمدت الشابات الغضيضات اللطيفات منهن إلى اصطناع وجه بكامله عن طريق تزيين الخدّين ببقع زرقاء mouches de veines bleues وتلطيخ الشفاه باللون الأرجواني، واستعارة جفون غريبة. وهكذا تصبح الملامح متسقة مع قلب مصطنع بارد وقاس هنّ له مجرد زينة. وإنهن بذلك تفوّقن بامتياز على إنجازات المصريين القدامى و**وسيمي** عهد أوغست Auguste في مجال المتصنع.

وفي ظل تلك الثورة العارمة على كلّ ما هو بسيط ومنطقي، أضحت للسيف نعومة الإبرة فلم يعد بذلك سوى لعبة مسلية وعلامة أبهة. ولم تعد النساء يغزلن الصوف ولكن ينظمن الشعر ويحملن عصا الرعي. والمُقَدَّماتِ منهنّ اشتهرن بنظم غزليات والإقعاء على مناضد صغيرة عند أقدام سيّدات المجتمع يمدحنهنّ. ليست لتلك الصبيانيات التي تؤثر في الصالونات براءة الطفولة، ولكن وقاحة شيخوخة فانية أضحت تخبط خبط عشواء فلم تهتد إلى الوسيلة المثلى لاستعادة حياة آفلة.

إنه لمن المقبول جدا أن تكون الهيئات فاضحة في الأوساط الراقية، وأن تُلبَس ثياب المومسات الباريسيات المثيرة، وأن تُشرَب المسكرات على طريقة الغلمان، وأن تلعب لعبة

الورق الثلاثية الكبرى، لعبة برولان *brelan*. وإن يوما أو يومين يقتطعان من الأسبوع للعربدة ليحبيان الرجال ذوي الأصل الشريف بآخر مظهر من مظاهر العيش المتحضر. لقد تجاوزت انحرافات الأوبرا وحفلات الرقص التنكرية والمختليات كل ما كان لسلطان بغايا مدينتي البندقية وروما من تأثير مستساغ في إيطاليا.

كانت تلك الزمرة الجميلة ذات الذكاء المتواضع والمكونة من الماركيزين وحجاب الملوك والتي تمثل الجزء الاجتماعي الظاهر والصاخب والمضطرب من الطبقة النبيلة، تتوه وتنغمس حتىّ النخاع في ما لا يعدّ ولا يحصى من مغامرات الصالونات، صحبة **الآنسات** من طبقة **غرادي** *Gradi* **وبوبري** Beaupré **ولا برايري** *la Prairie*. وكأنّ المجتمع الفرنسي قد عاد إلى عهد ألسيبياد Alcibiade وتاييس Thais وكاتيلوس Catulle وفلورا Flora. فعوضت البغي دوبري Dubarry صانعة القبعات، لافاليار، وشكلت بذلك منتهى ذلك الحب الجسور والوقح، والذي يفتخر بكل ذلك، ويتخذ له بكل وقاحة شعار الملوك وينال دعمهم.

لم يملّ السيد الظريف الجدير بالنساء اللواتي يعاشرهن الجري وراء غزوة نسائية جديدة يضيفها إلى رصيده، فهو قنوع بمتعة الغزوة في حد ذاتها. كل شيء تفاخرٌ وزهوٌ وتصنّعٌ فهم لا يتوانون عن إتيان ضروب من المبالغات ومن الهوس لأجل الظفر بشرف إشاعة الفضيحة، وعن مصاريف باهظة يدفعونها وعن إثارة بلا معنى،، وعن شعر ركيك ينظمونه ورسائل ماجنة يحبّرونها. إنهم يعظمون الصغائر التي ينجزونها. وفي ظل عجزهم عن أن يكونوا بمنزلة دون جوان فيصرعون الفرسان فلا أقل من أن يكونوا في منزلته من حيث كثرة ضحاياهم، فيفتخرون بما يسببوه لهم من آلام، ولا يأبهون بما يسببوه لهم من فراق أليم. إنهم يفتخرون بزناهم ويمجّدون مكرهم الخسيس.

لقد برع ذلك الحب اللوباركالي في التخلص من كل ما كان يعوق حريته، فأحياء النبلاء التي كانت في ما مضى توفّر عشيقات للملوك أو لكبار النبلاء، قد حظرت عليهم اليوم، لذا تتجه عنايتهم نحو جلب المومسات من بين الطبقات الدنيا بمثل العناية التي كانت

تختار بها الصديقات والسيدات من بين الطبقات العليا. لقد طاردت الطبقة الأرستقراطية بكل قوة كل ما هو جمال شعبي وابتدعت لأجل ذلك الفعل **تسفّل** *s'encanailler*: إنه من باب النبل والتميز أن نظهر الخساسة ونضرب عرض الحائط بكل مبادئ الحياء. لقد كان ماركيزيو موليار مغرورين وحمقى إلى حد ما، وأما ماركيزيو رونيار Regnard وليزاج Lesage والقس بريفوست Prevost فقد كانوا يسكرون ويترددون على المنازل المشبوهة ويفتخرون بذلك، إذ يبدو أنهم اتخذوها مستقرا لهم.

لا تشبه الراعيات المستساغات في بارك أو سارف[1] Parc–aux–Cerfs، وفي غابات شوازي Choisy وفي حفلات الأوبرا الراقصة، في أي شيء البطلات العاطفيات على ضفاف نهر لينيون Lignon. إنهن «**حمامات**» ماكرات كما قلنا سابقا. وإذا كان الأسياد الشبان يميلون كثيرا إلى ملاحقتهن عبر الحقول فلأنهن كنّ غير ممتنعات عنهم. ولا يتطلب التمكن منهن أشهرا طويلة من الآهات والاختبارات التي كان دورفي وسكيدوري قد فرضاها على شخصياتهما العاشقة. لقد كان فلوريان Florian الوحيد الجاد جدية صادقة في النظر إلى الراعيات على أنهن شريفات، فأضاف إلى رواية آستري فصله الشهير عن **إستيل ونيمورين** *Estelle et Némorin*.

وإلى حد ذلك الوقت، كان الشعراء يتوجّهون إلى الحقول ويختلطون بالفلاحين حتى يظفروا بحب بسيط وحقيقي يغيظون به فجور القصور والمدن الكبرى. لقد حرم القائمون الجدد على وجبات اللذائذ الحب من ذلك الملاذ، ومن طيبة الفلاحين. فلم يعد الحب يندس بين صفوف الراعيات إلا سعيا وراء لذة عابرة لا تحتاج حتى مجرد التكلّف والتصنّع. إن ظرفاء المدرسة الجديدة ينزعجون من أن يكون لهم احترام يظهرونه أو رباطة جأش يلزمونها، إنهم بصفتهم أطفال عهد الوصاية[2] المدللين، لهم رغبة في اغتنام الملذات

(1) هو اسم أحد الأحياء في فرساي في عهد لويس الخامس عشر. وقد جمعت فيه السيدة دي بومبادور Madame de Pompadour إحدى محظيات لويس الخامس عشر جمعا من النساء جعلتهن محظيات الملك. وشيئا فشيئا أصبح المكان في الذاكرة الشعبية بمثابة ماخور. (المترجم)

(2) المقصود بذلك عهد الوصاية الذي عرفته فرنسا من 1715 إلى 1723 بسبب أن ولي عهد لويس الرابع عشر(ت 1715)=

بطرق مباشرة دون مجهود إضافي ودون تأن يثقل حركتهم. لقد تخلّصوا من كلّ ما يعوقهم فوثبوا على الخادمات وعلى **مومسات باريس** اللواتي ازداد عددهن، وعلى آنسات المسرح اللواتي وجدوا فيهن ضالتهم أكثر مما وجدوها لدى سيدات المجتمع اللواتي قد يتجاسرن على اشتراط شيء من الصداقة والإخلاص واللباقة.

وفعلا، فنحن نخطئ كثيرا إذا ما اعتبرنا النساء المرموقات شركاء في ذلك الفساد المتأنق. لقد نأى معظم الكونتيسات والبارونات، وقلة محترمة لا يستهان بها من البارونات (الذكور) والماركيزات بأنفسهم عن تلك المباهج الماجنة، بل هم يبدون أسفهم وحسرتهم لحصولها. وأما السيدات فقد ابدين تجاهها ازدراء أكثر حدة خصوصا لمرأى أكثر المخلوقات نذالة تدخل القصور لابسة زي دوقات المسرح، ممرغة بذلك الأسماء الأرستقراطية الكبرى وأمجادها في وحل **السوقة**.

ومع الأسف توارت تلك النخبة من النبلاء الوفية للمشاعر العميقة والإخلاص الحقيقي إلى الكواليس ولزمت الصمت. ولكن لا أحد اهتم بتلك الفضائل، لا الآلهة رونومي[1] Renommée، ولا الأوبرا ولا المسرح الفرنسي ولا حفلات الموسيقى في حديقة تيولوريز Tuileries التي لم تعد تشهر أسماء جديرة بالاحترام.

لقد كانت سير أكثر المحتالات وقاحة أشهر من سير ماركيزات ضاحية سان جرمان Saint Germain اللواتي لا غبار على سيرتهن. **فالتاريخ** المعاصر يبدو أنّه أضحى حكرا على السفهاء والمجانين والمحتالين وضحاياهم المغفّلين. فكم من سمسار وكم من تاجر وسيط، ومن أمثال **موراند** Morand **وليبال** Lebel يترصّدون نزوات ودسائس أولئك الشبان أبناء العائلات الشريفة، وكم من محتال ومتبجح يشجعون محاولات أولئك الذين يسعون ويسهلون الإطاحة باللواتي لا يطلن الممانعة. لقد كان آلاف الأوغاد الكلبيين والسماسرة

=كان بعد حدثا (عمره خمس سنوات وتسعة أشهر) و بالتالي لا يصلح للحكم. (المترجم)

(1) هي في الميثولوجيا الإغريقية رسولة الإله زوس Zeus إلى الإغريق. أما لدى الرومان فهي آلهة مجنحة تمتلك أفواها وعيونا عديدة تسمح لها بالاطلاع على أسرار الناس وإذاعتها. (المترجم)

المحنكين يتربصون بمغفلي البيوتات الشريفة من قصر فرساي إلى عمق المقاطعات البعيدة جدا. إنهم يتكالبون على إشاعة الأذى في المجتمع الذي منه يقتانون ويتقوّون. لقد كفوا عن أن يقتلوا انتقاما لحب فاشل كما كان يفعل الفتيان في القرن السادس عشر، أو غيرة، فقتلهم العشاق لا يجلب لهم منافع أكثر من تلك التي يغنمونها لو أبقوهم على قيد الحياة. إنهم يرومون رؤية الصلح يعقب كل خصومة عابرة، ومعاهدات السلام تعضد المعاهدات التجارية. إن **المجرمين وقطاع الطرق** قد أغمدوا خناجرهم وسيوفهم، فلم يعودوا يتوسلون إلى النجاح سوى برسائل الحب المختصرة والمفاتيح المقلدة والمسدسات.

ولكن هل هناك حقا ما يمكن أن يقف بوجه نفوذهم ؟ لقد أدرك الأمر باقتدار كلّ أصناف **الشطار**. إن الشهوانية وحدها هي التي ألقت على الإنسان حجابا كثيفا يسلبه وعيه وقوّتَه ويدفعه إلى الاستهانة بقيمة الحياء. إنهم يستحضرون مثل شمشون ودليلة، وهرقل وأومفال Omphale. لذلك عملوا على أن يجعلوا من الأرستقراطية، التي كانت إلى ذلك الحين، ترعب الجميع، وتسيطر على كل شيء، شمشونا، أسدا عاشقا، ولكنه عاشق لدليلة التي من جنسهم فتخدم مصالحهم.

إن الحب الصادق، حب مدرسة الفروسية وبدايات القرن السابع عشر، بالنسبة إلى السيدات المرموقات لا يمكنه أن يكون في خدمة تلك المكيدة، فبدل أن يشلّ ذلك الضرب من الحب حركة الأرستقراطية فقد زاد من سرعتها أضعافا، وعوض أن يعمي بصيرتها فقد زاد من حدّة ذكائها. لقد كان من المفروض أن يقضي جنون نشوة المجون والرغبة الجامحة في معاشرة العاهرات، إلى انهيار كامل في القوى وإلى استحمار فكري[1]. وإن غفلة شاملة ستسمح لذلك الساقي بأن يمد يده إلى كيس سيّده فيسلبه نقوده الذهبية، ثم ينتزع منه عهودا فألقابا وأخيرا امتيازات.

لقد تآمرت تلك الطبقة المقيتة من الخدم والسماسرة والمشعوذين والمتملقين، الورثة

---

(1) تعود هذه العبارة للمفكر الإيراني علي شريعتي وقد نحتها للتعبير عن «العلم الذي يؤدّي إلى تدجين العقول». (المترجم)

المباشرين للانحلال الأخلاقي الروماني وضغائن رعاع روما لإضعاف الطبقة النبيلة متوسلة بالانحلال الأخلاقي.

أما الأرستقراطية فقد وقعت في الفخ، ووضعت نفسها تحت رحمة المقامرين والنساء ذوات السير المشبوهة، فكان أن أزالت، بنفسها، حواجز الأدب التي وضعها بعناية لويس الرابع عشر بين الملوكية المتيقظة على الدوام، وعامة الناس الذين جرأتهم «النهضة» على الملوك. وهكذا ما لبث أن جاء يوم وجد فيه كبار السادة أنفسهم وقد اختلطوا بجمهور الحانات ودور البغاء فعاشوا ردحاً من الزمن وهم يصادقون جمهور الحانات الرخيصة، أولئك الذين كانوا يساعدونهم على إفساد أخلاق زوجات البعض وغواية بنات البعض الآخر.

كان الملك قد رفع إحدى صانعات القبعات إلى مرتبة نبيلة. وكان ذوو الألقاب يتزوجون العاهرات، وأصبح الغلمان موظفين كبارا، وشغل المشعوذون وظائف حساسة، وهكذا استبيحت القصور من قبل القائمين على توفير اللذة للملك، ومن قبل الممولين ومعاونيهم، ومن قبل خدمهم وخدم خدمهم.

لقد نجحت عصبة الماكرين تلك نجاحا باهرا فكان أن تنازل لها القسم الكبير من الطبقة النبيلة من تلقاء نفسه عن مكانته وثروته، وعن أمجاده السابقة ومصالحه المستقبلية. لقد تجاوز نجاح تلك العصبة كل التوقعات حتى أضحت نتائجه مقلقة.

لقد استفادوا من عيوب الأرستقراطية استفادة كبيرة. ولكن استفادتهم تلك جعلتهم لا يطمحون أبدا إلى تحطيم مصدر رزقهم. لقد كانوا يرغبون في إضعاف الطبقة النبيلة وتضليلها والحط من شأنه ولكن دون إزاحتها عن مقامها الاجتماعي.

إلاّ أنهم غفلوا عن أن هنالك من كان يتربص بهم. وإنّ تلك الأرستقرطية الرهيبة المحترمة تظل رهيبة ومحترمة طالما كانت في الصدارة، وأما عندما تنزل إلى الحضيض لتتعرّى في الحفلات الظريفة فهي تغدو ضعيفة وتافهة وحقيرة.

وعندما يفاجؤها الشعب، وهي تكفر بذاتها، فإنه يقيّم قوته الجسدية والفكرية وعندها

يدرك أن جسد الرجل الشريف هو أقل صلابة من جسد حمّال وحداد. في تلك اللحظة تكون الثورة قد قامت.

لقد قسم ذلك الحدث الأخلاقي العظيم الأمة شيعا نرى من المجدي تحديد خصائصها. لقد كنا بصدد الحديث عن الأوغاد والمحتالين والبغايا والانتهازيين الذين عملوا على تحطيم الأرستقراطية عبر الحطّ من شأنها، ولكن ظهر إلى جانب ذلك الصنف من المفسدين المأجورين رعاع آخرون. ولئن كانوا في مثل رذالتهم فقد كانوا دونهم مهارة ويفوقونهم فقرا. إنهم رعاع المدن الكبرى، الذين كانت تحدوهم رغبة كبيرة في المشاركة في إفساد النبلاء، وحضور حفلات العربدة في المختليات. وحضور مآدب العشاء في فندق **الجراند بانت** *la Grande Pinte* الريفي. ولكنّهم كانوا غير محظوظين إذ لا يؤذن لهم بالدخول بحجة أن البقاع محدودة. فليس في مقدور أيّه امرأة أن تكون صاحبة الملك ولا أي رجل أن يكون نديمه أو حاجبه. لم يجد أولئك الرعاع، وهم في قمة سخطهم، مجالا يستغلون فيه امكانياتهم فيحتجون، ويتملّكهم الحسد ويتآمرون على المتآمرين، ولا يتوانون عن قلب الأوضاع رأسا على عقب حتى يحضروا الولائم، وتكون لهم بدورهم شهواتهم الخاصة ونشواتهم الخاصة. وهكذا فإن تاريخ 1793 [1] قد أُعدّ له قبل اندلاع ثورة 1789. ولكن من حسن حظ الأمة أنها تضم مجموعتين أخريين أكثر عددا هما على النقيض من مجموعة الفاسدين الظافرين والفاسدين الجشعين.

إن القسم الشريف والسويّ من الشعب، أي الحرفيين والفلاحين الذين يشكلون ثلاثة أرباع الأمة هم أيضا لا يكنون سوى الكره والسخط لأولئك الذين مرّغوا، أو سمحوا بإلقاء طبقة النبلاء وسط أوباش الحانات وصخب الحفلات التنكرية الراقصة. لقد أصابهم الحنق، فهددوا بدورهم، بخلع الأبواب والانضمام إلى **العصابة الكبيرة** ولكن لأجل طرد البغايا والمجرمين، ومن ثم غلق الأبواب ومنعهم من الدخول مجددا. لقد كان أولئك الحرفيون والفلاحون مدفوعين إلى إعطاء ذلك الدرس الكبير بواسطة فطرية أخلاقهم التي

---

(1) يشير المؤلف إلى المرحلة الثانية من الثورة الفرنسية حيث قوي التيار الثوري وأقام نظاما جمهوريا متشددا. (المترجم)

تقودهم، وبواسطة التقاليد الدينية التي لم تستطع أذواق العصر أن تجرّدهم منها.

ليس الخطأ خطأَهم إن هم ظلوا بسطاء في طريقة رؤيتهم للأشياء، وإن هم تصرفوا كما تصرف آباؤهم، إنهم يؤمنون بوضوح أن الشابات خلقن لكي يحببن أولا ثم يتزوجن في ما بعد، لا لكي يزين القاعات حيث العربدة ولا أن يندمجن في المجتمع ويدركن سنّ الشيخوخة دون أن يعشقن على الإطلاق ولا أن يتزوجن. وعندما كانوا يلحظون ظرفاء مشبوهين يدورون حول منازلهم فإنهم يطاردونهم ضربا بالسياط.

ونجد في الأخير طبقة البرجوازيين وهي طبقة شريفة وحكيمة إلى أبعد الحدود، ولقد رأينا الحب الجاد والصادق يجد فيها ملجأً قبلاً في العصر الوسيط. لقد كانت تلك الطبقة ما تفتأ تفكر وتتأمل ملياً الأسباب والنتائج. لقد خبرت دروس التاريخ والتقاليد المسيحية الحكيمة. فقد استمعت بانتباه إلى مواعظ كلّ من القسّ بوسيات Bossuet والقس ماسيون Massillon والأب أرنولد Arnaulde واللاهوتي باسكال Pascal، إنها تميّز جيّدا بين الفضيلة والرذيلة. وهي تعرف أن صلابة المجتمعات وعظمتها يتأسسان على الحب الصادق والطبيعي والشريف، وأن الفجور والأنانية، على العكس من ذلك، يقودان الدول حتما إلى الخراب. لذلك لم تنخرط انخراطا أعمى في صخب الحفلات، بل انحصر دورها في هذا المجال على الحياة الأسرية ومجالس الأدب والأنس.

للبرجوازية شعراؤها أيضا وفلاسفتها وهم إن كانوا أقل تسلية من منشدي الشعر والهجّائين فإن ما يصدر عنهم كان أكثر صدقا، ويتوّج بأفراح أكثر دواما وذلك لأنها أفراح أفضى إليها الحب والزواج. لقد كانت تلك البورجوازية الصالحة تكرر تلقائيا ما كان قاله في القرن الخامس عشر الكاهن الألماني ألبار دي إيب Albert de Eybe، في كتابه عن الزواج:

«آه، الزواج، إنه لذة جميلة، وشيء لطيف. فهل هناك في الزواج، أمتع وألطف من كلمة أبي وأمي يطلقها الأطفال وهم يتعلقون برقاب والديهما ويقبلونهما قبلا عذبة؟ وهل هناك أمتع وألطف من ذينك الزوجين يكنان لبعضهما البعض مثل ذلك الحب ومثل

تلك المودة؟ فما يحبه أحدهما يحبه الآخر أيضا. وما يسرّ به أحدهما للآخر يحفظه كما لو أنه باح به لنفسه. ولمّا كانا يتقاسمان السرّاء والضرّاء فإن سعادتهما تتضاعف ويقدران على تحمل مصائب الحياة بيسر».

تلك شرعة البورجوازية وذلك عقدها الاجتماعي ونظريتها الكبرى عن القوة والسعادة، وعن النجاح والمجد. ذلك ما أخبره بها برندان دي سان بيار .Bernadin de Saint–Pierre وهي مؤمنة بما قاله إيمانها بخلود الروح.

لقد كتب ذلك الشاعر ذو الأحاسيس النبيلة والعواطف الصادقة، قصة **بول وفرجيني**[1] *Paul et Virginie* خصيصا لكي يعلم الإنسان التواق إلى السعادة والقوة كيف يستهل حياته بالحب وعطف القلوب على بعضها البعض. إنه هو ذاته الذي نشر قصة «**الكوخ الهندي**» *la Chaumière indienne* حتى يتيح لنفسه مجالا آخر ليقول ويؤكّد بأن «لا سعادة إلا بجانب زوجة رضية».

إن غروز Greuse ذلك الرسام العاطفي والبورجوازي حتى النخاع والحالم هو الذي رسم ذلك الحب الأسري. إنها لمفارقة عجيبة، ففولتار نفسه، تلميذ بوفلارس Bouflers، عندما تعلق الأمر بالشبق، كتب «**العذراء**» *La Pucelle* و«**الساذج**» *Candide*، ولكنه أصبح تلميذ راسين عندما رغب في تصوير الحب الصادق. لقد قصر مسرحه على الاحتفاء بنبل وسموّ بتلك العاطفة التي شانها الرجال ذوو المنزلة الرفيعة وحطّوا من قدرها وحقروها. إن شخصيات مسرحه من أمثال **ألزير وميروب** *Alzire et Mérope* **وتنكراد وزايير** *Tancrède et Zaire* لا ينقصهم شيء لكي يكونوا في مستوى كبار عشاق القرن السابع عشر.

وإلى حد ظهور روسو لم يتراخَ أحد في الدفاع عن الحب الصادق العفيف، فبالنسبة إليه، من المؤكد، أن العاطفة لا شأن لها بأخلاق الإنجيل والقوانين المدنية، ورغم هذه المفارقات الخطيرة، فإن إبرازه المبالغ فيه للأحاسيس الطبيعية لا يقل عن أن يكون احتجاجا

(1) هي القصة التي «نقلها» إلى العربية مصطفى لطفي المنفلوطي تحت عنوان «الفضيلة». (المترجم)

قويا على الشهوات الجشعة والخسيسة في ذلك العصر. إنّ بطلته إيلويز[1] Héloise تحب بصدق وحماس وبالتأكيد فحبّها ليس مجرد خليط من العُجْب والبخل. إنّها تحب على الطريقة الوثنية، أجل، ولكن ذلك الحب هو أفضل من الانحلال الأناني الباهت الرائج بين صفوف معاصريه.

هكذا انقسمت فرنسا إلى مجموعتين كبيرتين: الشعب والبرجوازية اللذين ظلاّ يؤمنان بالحب البريء والصادق، وبالوفاء بين الزواج. أما القسم الكبير من النبلاء والعصبة الفاجرة فقد كانا يهزآن من كل حماقات الحياء. وبالنتيجة فقد كانت فرنسا البورجوازية تنهض في حين كانت فرنسا الأرستقراطية تنحط.

لذلك ينبغي أن لا نندهش من الأهمية التي نوليها لفجور الطبقة النبيلة وإلى نزعتها الريابة في مسائل الحب، فقد شكّل ازدراء العواطف الصادقة والمشاعر الطبيعية الإهانة التي هزت بعمق، وفي كل العصور، النفوس. إن الشعوب يمكنها أن تبيح المناظرات مهما كانت حامية عندما يتعلق الأمر بالحرية والاضطهاد والجباية غير القانونية والعدالة، ولكنها لا تتسامح أبدا في المسائل الحساسة شأن احترام المرأة، وسلامة الأسرة وحرية مشاعر الحب. أفلم تكن اثنتان من أكبر ثورات الشعب الروماني بسبب اغتصاب لوكراش Lucrèce وتدنيس فيرجيني Virginie؟

إن دعابات الأرستقراطية لم تفض في فرنسا إلى فضائح في مثل ذلك الصدى الكبير ولا في مثل تلك المأساوية. فالشعب بأسره والأمة الحق ما كان لهما أن يفزعا من مجرّد ماجنة متهورة لم تعد تكن احتراما لأي شيء. وإنها لتعد بالآلاف حوادث التغرير بالقصّر واختطاف الصبايا واحتجازهن، سرا، في حديقة بارك أو سارف وفي مخابئ مماثلة لا تعد ولا تحصى. وفي كل يوم تتضخم قائمة المغامرات الفاضحة إذ يعمد الفجار النبهاء إلى غواية النساء والصبايا ذوات الأصل الشريف عن طريق إغرائهن بالحلي، فيجتذبوهن إلى المنازل المشبوهة فيلطخون بذلك سمعة عائلاتهن. ولقد كان الماكرون والمحتالون يهللون لتلك

(1) إشارة إلى رواية روسو جوليا أو إيلويز الجديدة *Julie ou la Nouvelle Héloise* الصادرة سنة 1761. (المترجم)

البطولات بل يضاعفون عددها، وينشرونها بين الناس بعد تضخيمها. وهكذا يجد النبلاء أنفسهم في وضع حرج لا ناقة لهم فيه ولا جمل، فالبعض كان مجبرا على التباهي بِشَرّ لم يرتكبه والبعض الاخر كان يعتبر الأمر منتهى الفضيحة. لقد كانت أمثال حديقة بارك أو سارف منتشرة في كل مكان، فهل، نستغرب بعد ذلك عندما يزبد الفضلاء ويرعدون، وينبري الشعب يستعد للانتقام لنفسه.

ومما لا شك فيه أن عهد لويس الرابع عشر قد عرف فسادا، ولكن الشعب لم يكن يأبه له كثيرا لأن السادة الكبار والملوك كانوا يختارون عشيقاتهم من بين السيدات ذوات الأصل الشريف. إن النزعة الحسية كانت شأنا ملوكيا يُتَداولُ في القصور.ثم إنّ ظرف الأرستقراطية كان منحصرا داخل وسطها الأسري. أما الشعب والطبقة البورجوازية فلم يكونوا مجبرين على أن يوفرا للملوك، محظيات يتمتّعون بهنّ ثمّ يهجروهنّ بعد أفول جمالهنّ.

إن تلك الشهوانية الأميرية كانت تتم وراء الحجب مما يجعلنا نشك في وجودها، فهي لم تكن ماثلة أمام الأعين، ولكن كل طبقات المجتمع أبدت سخطها، في ما بعد، عندما انتقلت الإباحية من القصور إلى الشعب وأصبح النخاسون ينصبون فخاخ الفساد والنخاسة في أكثر الأوساط فقرا. لقد كان لويس الرابع عشر يلقي التحية على خادمات قصره البسيطات احتراما **للمرأة**، وأمّا ماركيزيو لويس الخامس عشر فقد كانوا يراودون شابات صغيرات بسيطات احتقارا للشعب ولكل النساء.

ينبغي ألا نغفل عن تثمين موقف تلك الطبقات المتوسطة، والقوية والوطنية والصادقة، مقارنة بطبقة نبيلة لم تحافظ على كيانها فتخلّت في الآن نفسه عن شرفها وسلطتها. ومن حسن الحظ أن عهد وصاية لويس الخامس عشر لم يصل إلى درجة الانحطاط الروماني. لقد هلكت روما بفعل التوحش والانهيار الشامل، وذلك عندما شمل الإنحدار والفساد الأخلاقيين كل طبقات الأمة وبنفس الدرجة. أمّا فرنسا فقد عرفت ثورة ولكنها لم تعرف أبدا الدمار لأن الأقلية النبيلة اللائقة الظاهرة للعيان هي وحدها التي انهارت، وأن

الفكر المتحرر الماجن كان ما زال يحترم السواد الأعظم من الأرستقراطية والبورجوازية والشعب.

لم يكن هناك، في فرنسا، فساد اجتماعي واسع الانتشار بل أمراض محددة، وبالتالي كان بالإمكان مداواتها، ولكن، مع الأسف، عولجت تلك الأمراض بطريقة غريبة، فالفرنسيون الذين انساقوا بعمى وراء فكرة رد الفعل وبالغوا فيها لم يستطيعوا التوقف عند الحدود التي رسموها لأنفسهم مسبقا فلم تكن لديهم رغبة سوى مطاردة آل بوبادور Pompadour وآل دوباري Dubarry. وما إن نشط ناهبو الأموال العمومية ومدنسو الشرف الملكي والأرستقراطي حتى أطردوا أكثر النساء نبلا وبراءة، أولئك اللواتي كن أوّل من عانى من الفجور الذي كان عقابه شديدا، بل إن الأمر أخطر من ذلك، فقد تمكن أولئك السوقة، الذين أثار فساد الطبقة النبيلة شهيّتهم، والمتعطشين إلى أن ينغمسوا بدورهم في الدعارة وشرب الخمر، من قلب بورجوازية 1789. وهكذا عوَّضَ مارات Marat وميّار Maillard كوندورسات Condorcet وبايلي Bailly. وأضحت الحائكات Tricoteuses[1] وحسناوات القصر الملكي يفتتحن حفلات الرقص في الأعياد الوطنية ويتصدرن الحفلات الملكية.

ويبدو أن لعنة ظلت تلازم المصلحين ذوي النيات الحميدة فيبدون على غاية من العجل في أساليب عملهم. إن البرجوازية ذاتها التي تمكنت من السلطة بعد أن أطردت منها طبقة النبلاء، ورغبة منها في إصلاح ما أفسدته، فقد تزينت في الآن نفسه بمزاياها وبعيوبها. لقد سالت دماء غزيرة ما بين سنتي 89 و96 فهل تحسن الوضع الأخلاقي تحسنا ملحوظا ؟ وهل كان حب لابسي السراويل الطويلة[2] les Sans–Culottes أكثر صدقا من حب صغار

---

(1) هن نساء الطبقات المحرومة في فرنسا وقد تحررن بفضل الثورة الفرنسية. وكن يحضرن الاجتماعات السياسية والبرلمانية وهن يطرزن ويحكن الصوف. (المترجم)

(2) كانت الملابس إحدى أهم تعبيرات الثورة الفرنسية. ولمّا كان قسم كبير من الثوار ينحدر من الأوساط الحرفية والعمالية فقد كان ارتداؤهم للسراويل الطويلة دليلا على انتمائهم الاجتماعي، فهي التي تمييزهم عن النبلاء الذين= =كانوا يلبسون السراويل القصيرة Culottes. (المترجم)

الماركزيين ؟ وهل كان الشبان الإعجاب والمتأنقون الذين كانوا ينظمون بعض الأبيات الشعرية عن **الحب غير المتكلف والطبع الصافي**، وعن **الحرية والصداقة**، يحبّون بجدية أكثر من سابقيهم في مرحلة ولاية العهد؟

إن الطبقات الاجتماعية هي مثل الأمم... وسواء قُوّضت واستبدلت بأخرى عن طريق الثورات أو الحروب الأهلية أو عن طريق الغزو أو الفتح فإنّ الغالبين معرضون على الدوام إلى أخذ عيوب المغلوبين في نفس الوقت الذي يستولون فيه على حكمهم وثرواتهم. إن الحب الصادق والعميق والعفيف الذي نشرته مدرسة الفروسية في العصر الوسيط والذي أعيد له الاعتبار في القرن السابع عشر، قد انتهى وجوده في طبقات المجتمع العليا في ظل عهد ولاية العهد وفي ظل حكم لويس الخامس عشر، ولم تستطع الثورة البورجوازية سنة 89 رغم صدق إرادتها أن تعيد له مكانته.

وعبثا حاول كبار الكتاب والشعراء والأخلاقيين رفعه من كبوته وذلك بالاحتفاء في كتبهم بالوفاء المطلق والوجد البطولي. وقد سعت مدرسة بوفارس Boufflers المعارضة، ومدرسة فولتير ذلك الشاعر الماجن، إلى أن تحصر اهتمام الأمة في ملذات الفكر والغرائز والمزاح.

على سبيل الخاتمة(1)

لنلخص الآن بإيجاز الوضع العام للحب في أوروبا

«لكل شيء في الطبيعة ضده، كما أسلفنا القول فالماء يطفئ النار، وكل نبتة لها حشرتها القارضة، وإن الروح بلا مشاعر لا تعدّ لدى الكثير من الناس سوى من باب قساوة القلب. إن تلك الروح، التي كانت أيضا روح هوراسيوس قد انتشرت طوال القرن الثامن عشر، وبفضلها أصبح الحب الفرنسي مجرد مسألة خيلاء وموضة، ومناسبة للبذخ والرفاهية والشهرة الاجتماعية. ذلك الحب لا هدف له سوى التبجّح.

لقد صنع لنفسه حياة كلها ملذات سهلة المنال، ولذائذ حسية بلا موانع... ولما لم تكن الغاية من الارتباط العاطفي التعاون على مواجهة مصاعب الحياة بل التمتع باللذة بأيسر السبل وإشباع الشهوة دون نصب، فإن ذلك الحب يسقط منذ أول خلاف، فيُنقَضُ العقد عند أول عقبة تعترض المحبين.

في ألمانيا القرن الثامن عشر، حيث العيوب أقل وضوحا، بدأ رد الفعل ضد العصر الوسيط بأكثر تأنّ. لقد ظل الحب فيها أكثر وفاء مما كان عليه سابقا. إنه يبرز أقل تعجلا لإثارة قلاقل وفضائح. فهناك، أنشأ غوته Goethe وشيلر Schiller تلك المجالس النبيلة حيث يضج الشعور الصادق ضد الظرف الباهت والشطارة التي شغلت قرننا الثامن عشر.

لقد ألّفا «**ماري ستيوارت**» *Marie Stuart* و«**دون كارلوس**» *Don Carlos* و«**الخطيبة**» *La Fiancée*، و«**مارغريت**» *Marguerite* و«**كلافيقو**» *Clavigo* «**إيفيجيني**» *Iphigénie* و«**دوروتاي**» *Dorothée*، ووصولا إلى «**وأرتر**» *Werther*، التي بدت لنا، نحن الفرنسيين غير المكترثين كثيرا بشهوات القلب غاية في التفاهة. ومع ذلك فهي أصدق تعبير، عن الحب في ما وراء نهر الران.

---

(1) هذا العنوان من وضعنا. (المترجم)

لنتذكر هَوَسَ قصر رامبوياي، وذاك التمجيد المبالغ فيه للروح، وذلك الشعور الذي أصبح مرضيا من فرط رغبته في الانفصال عن الجسد، وعندها سنحظى بحب أولئك الحالمين الفضلاء، ولن نملك سوى أن نجلّه. إنّنا بإزاء انبعاث **لأوفياء الحب**، أولئك الذين تواروا عن الأنظار منذ زمن دانتي وبيتراك ثم عاودوا الظهور من خلال غزليات جسنر Gesner البدوية وأغاني موزارت Mozart العاطفية وألحان بيتهوفن Beethoven العذبة.

أما الحب الأنجليزي فهو ما فتئ يقترب من نموذج الحب الصادق والقوي ولكن دون أن يدركه. إن لديه اندفاعا قويا ومثابرة حميدة، وإخلاصا عميقا، إلاّ أنّ ميزته الأساسية أن روح هوراسيوس لم تفسده. وغاية ما في الأمر أنه اصطدم بالمبدأ نفسه الذي شكل قوته. كان في البداية مندفعا وصادقا ولكن سرعان ما انحدر إلى الخيلاء البريطانية وإلى حساسية حرية الاختيار الوجلة. ومنذ العقبة الأولى التي تعترضه يصب جام غضبه على ذلك الرباط الدائم، رباط الزواج، في حين كان من المفروض أن يمتنه. وهكذا فالطلاق القانوني مضافا إلى الخيلاء البريطانية، يفصم عرى الزيجات التي تبدو أكثر انسجاما وتوافقا.إن هذه العادة القومية قد ظهرت بكل وضوح في حياة الشاعر اللورد بايرون Byron العاطفية، فقد أحب ذلك الشاعر الجوال أكثر مما أحب جيل بأكمله، ومع ذلك لم يدرك منتهى الحب ولا كماله.

أما الإسباني، ذلك الوفي الصادق للماضي، فإنه يتقاسم مع الألماني إرث العصر الوسيط، ففي اللحظة التي كان فيها إنسان الشمال الأوروبي يسير على خطى **خدّام الحبّ وأوفيائه**، كان إنسان الجنوب يسترد الجانب الصاخب والشاعري والمتحمس من مدرسة الفروسية، إن له ظرفا صاخبا متوقدا ومثيرا ورثه عن أحفاد «السيد». إنه يحب بكل ثبات، ولكن لديه رغبة في البوح بحبه والتغني به وهو إلى ذلك ما زال يرغب في أن يقدم سيدته على أنها أجمل السيدات ونفسه على أنه قادر على أعظم البطولات، وعلى إظهار إخلاص كبير في سبيل تحقيق هدفه. ومع الأسف، فإن حدة عاطفته تفضي في الغالب إلى نفس النتائج التي يفضي إليها خيلاء الرجل الأنقليزي، إن العاشق الجموح يعتقد أنّ من حقّه أن

يطالب بعلامات حب وإعجاب مساوية لتلك التي يظهرها لعشيقته، ولكن الطرفين لا يتوصلان دائما إلى الاتفاق حول نوعية المشاعر المتبادلة. وهكذا فإن حبا صادقا غاية في القوة يصمد سنوات، ينتهي به الأمر إلى أن يذوي من فرط كثرة الاشتراطات.

إن الفرنسي وبحكم ميوعته ورغبته الدائمة في التغيير، متقلب، وأما تقلب الأنجليزي فبحكم خيلائه، والإسباني بحكم الضرورة.

أمّا الحب الإيطالي فله نفس خصائص الحب الفرنسي، لقد ترك مجون هوراسيوس وكاتيلوس المستساغ بصمته على الأول قبل أن ينتقش في الثاني، فعلى مدى قرون عديدة كانت تلك خاصية الحب في ما وراء جبال الآلب إلى درجة أنه احتفظ بالطموحات الصوفية والورعة التي كانت عبّرت عنها الحكايات الشعرية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ولكن ذلك اللبوس من الاحتشام قد تجاوزه الزمن منذ مدة، فالمرأة الإيطالية تفوقت على المرأة الفرنسية في علاقاتها الاجتماعية.

لقد بينا من خلال هذه النظرة السريعة الصلة الصميمة التي تربط تحولات عاطفة الحب بالتغيرات السياسية وحتى الدينية، فكيف لهذه العاطفة الأكثر ارتباطا بالإنسان أن تساير الأحداث التي تكون في الغالب لا منطقية ومحكومة بالصدفة، والتي تشكل التاريخ بحصر المعنى ؟ فهل هذا التوافق هو بسبب تأثير الثورات الاجتماعية والسياسية في الحب أم بسبب تأثير الحب فيها ؟ إن الجواب، في منظورنا، لا يحتمل الالتباس.

إن الحب ليس نتيجة، إنه سبب فرِفعَةُ الشعوب تبدأ برفعة الحب مثلما أن انحطاطها يبدأ بذهاب أخلاقها. وهل يجوز أن يكون الأمر على خلاف ذلك ؟ إن الحب هو أول شعور قوي ينمو لدى الإنسان، بل إن من خصائصه أن فترة سطوته تتفق مع فترة عنفوان شباب المرء الذي يشعر به. إننا نحب بشغف قبل أن نعير أدنى اهتمام بالسياسة وبالعلم وبالجدل الديني. إن النفس البشرية تستعدّ لأحاسيس الحياة وأهوائها بواسطة الإحساس وعاطفة الحب. أليس من الطبيعي أن كل احتياجاتها الظاهرية هي نتيجة العاطفة الباطنية، العاطفة الأم، تلك التي مهدت لنشأتها وعبّدت لها الطريق.

إن الشجاعة والمروءة والوطنية ترتبط أكثر مما نتصور بالحماسة والإخلاص اللذين ادخرناهما للحب قبل أيّ شيء آخر. وإن وضوح الفكر وسموه مرتبطان ارتباطا وثيقا بعظمة المشاعر التي نحسها بداخلنا والتي ننميها داخل القلب. ذلك ما أدركته على نحو رائع مدرسة الفروسية فكان لسان حالها يقول: «انتظروا كل الفضيلة والبطولة من لدن ذلك الذي يعرف كيف يحب، فلا شيء يصعب على قلب عشق بصدق».

ألم تقل مارغريت دي نافار مقاسمة أفلاطون وميخائيل آنج وجهة النظر هذه: إنه من الصعب أن نحب الخالق دون أن نحب أحد مخلوقاته ؟

ونحن نقول بدورنا، لا تنتظروا خيرا من ذلك الذي يبدأ حياته بالشهوات الحسية دون أن يحس بحبٍ صادقٍ، ومن ذلك الذي خدّر ملكات روحه قبل أن ينميها. وغير مجد إن كان يتوافر على قدر كافٍ من الذكاء والمعرفة. إن ذلك الذي لا يبحث أبدا في الحب سوى عن إشباع عابر لشهواته الحسّية لن يدرك الحياة سوى بصفتها لعبة يسعى فيها إلى الربح بالتحايل ما أمكن ذلك. إن التعود مبكرا على خيانة الزوجة الموعودة بالحب والتعود على الاستهانة بتلك التي نتظاهر بإحاطتها بالود الأكثر حميمية يعني الاستعداد لخيانة الأصدقاء وحتّى الوطن نفسه، إن العاشق عديم المروءة والحانث باليمين، يصعب عليه أن لا يكون مواطنا خسيسا بلا ذمّة.

لهذا السبب، على الإنسان العازم عزما مكينا على الاخلاص لوطنه، والساعي إلى أن يكون عادلا مع أبناء جلدته وعطوفا على عائلته، أن ينأى بنفسه عن تلك النزعة الحسية الفاقدة للحب، ولتلك النزوات التي يأباها القلب وعن تلك الخيانات التي تساهلنا معها تحت مسميات ظرف مستساغ وضربة حظ. قد يقال **ينبغي التسامح مع الشباب**، ولكن هل بالسماجة والكذب يروم الشاب النضج والشرف والكرامة؟ وهل يعقل أن يعتبر الشاب الإيفاء بديون القمار واجبا مقدسا في حين يهزأ بدين الحب ويسخر منه؟

ينبغي أن نكون حذرين فالمجون، ومهما كان اللبوس الذي يتخذه، يؤدي ضرورة إلى تبلّد الأحاسيس وهوان الروح والانحراف الكلي للحس الأخلاقي. إنه جرثومة تتمكن

من القلب كما تتمكن جرثومة الطاعون من الجسد، ثم إنك عندما تحتاج إلى روح طاهرة قوية لإنجاز متطلبات الوجود لن تجد بين يديك سوى مشاعر سئيمة متعودة على الأنانية والحسابات الضيقة وعلى الخيانة. إنك لم تحسن حب الكائن الذي خلقه الإله ليكون العنصر الذي يحتاجه وجودك. لقد استغللت رقته وضعفه، وكذا شقاءه وثقته بك، وتريد، بعد كل ذلك، أن تتعلّم كيف تحب بلادك، وأبناءك وأبناء جلدتك. إنك لن تحب سوى شيء واحد، هو نفسك، وإن هذا الحب لهو شهادة موت كل العواطف الأخرى. فأن تكون عاشقا خائبا في البدء، يعني أن تكون ضرورة ابنا عاقا، وزوجا خائنا، ومواطنا فاشلا. وفي النهاية تسعى إلى خداع الإله نفسه كما خدعت الجنس البشري.

قائمة بأهم المصطلحات

(l') Amante	الحبيبة
Abatardissement	الاستحمار
Abbesse	رئيسة الدير
Abnégation	نكران الذات
(s')Adoniser	تبرج
Alcôve	مخدع
Ambition	الطموح
Amour complicité	الحب اللدود
Anatheme	اللعن الكنسي
Apôtres	الحواريون
Athlétique	صنديد
Bachelette	صبية
Béatification	التطويب
Beau-frère	السلف
Bohème	أفّاق
Bouffonnerie	تهريج
Bouges	أوكار
Bourgeois	وضيع
Compagne	الوصيفة/ الرفقة
Canaille	السوقة
Cantiques	الأناشيد
Caprices	النزوات
Carte de Tendre	خريطة الحب
Cautère	الكي
Causeuse	أريكة ذات معقدين
Chambellan	حاجب

Charité	المحبة
Châtelaine	سيدة القصر/ربة القصر
Chères	العزيزات
Cilices	مسوح
Claustration	حبس
Cloitre	الدير
Concile	مجمع كنسي
Concubinat	الزواج الحر/غير القانونى
Concubine	سرية
Confesseur	كاهن الاعتراف
Consolatrice des affligés	معزيّة الحزانى (مريم العذراء)
Continence	تعفف/ زهد
Coquetterie	دلال/ غنج
Cordon	وشاح
Corruptio	الفاحشة
Coupe gorge	مفاوز
Courtisan	جليس الأمير
Courtisane	مومس/ بغي
Courtoisie	ملاطفة
Cynisme	النزعة الكلبية
Dague	خنجر
Damoisel	شاب نبيل
Débauche	فجور
Dérèglement	فسق
Derniers outrages	الاغتصاب
Dévergondage	مجون
Devise	شعار
Dévotion	تعبّد / ورع
Diaconesse	كاهنة إنجيلية

Dissolution	تفسخ/ انحلال أخلاقي
Donjon	حصن
Droit du seigneur	حق التفخيذ
Ecarts	انحرافات
Empêchements au mariage	موانع الزواج الشرعية
Enfant naturel	ابن غير شرعي
Epithalames	أغاني الأعراس
Erotisme	الشبق/ الإباحية
Eunuque	خصيّ
Fantaisie	نزوة
Fard	خضاب
Faveur	تذكار
Favorite	محظية
Femme de mauvaise vie	عاهرة
Femmes folles	عاهرة
Femme Louve	عاهرة
Femme perdue	عاهرة
Festin	مأدبة
Fideles d'amour(les)	أوفياء الحب
Forcer (une femme)	اغتصب
Fredaine	طيش
Fricassée	رقصة الركل
Gaietés	مباهج
Galanterie	ظرف/ ظرف غزلي
Générosité	مروءة
Gouge	جارية دهثمة
Graveleux	ماجن
Gravité	وقار
Grison	شيخ مغفل

Grossièreté	فظاظة
Guette	الرقيب
Gynécée	الحريم
Haquenée	مطية ذلول
Hardiesses	جراءات/ جسارة
Haubert	درع
Heaume	خوذة
Hétaire	مومس (إغريقية من طبقة راقية)
Impudique	فاجر/ فاحش
Inconstance	تقلب
Infante	الابنة الثانية
Ingénieux	حاذق
Intrigue	كيد
Jongleur	شاعر منشد
Jongleuse	بهلوانية
Jouvencelle	فتى
Libertinage	مجون
Licence	فجور/ إباحية
Lubricité	الدعارة
Lupanar	ماخور
Maitresse	عشيقة
Mansuétude	الدماثة
Marâtre	زوجة الأب
Marraine	الكافلة
Matrone	سيدة رومانية
Médisances	مثالب
Mercenaire	متكالب
Mie [1]	الصديقة

(1) تصغير لـ mon amie

Misanthrope	بُغَضة
Monastère	صومعة
Morgan gabé [1]	هدية الصباح
Office	هري
Orgie	العربدة/ القصف
Page	غلام
Parlements d'amour	مجالس الحب
Parlements de joie	مجالس الأنس
Parrain	الكافل
Pastoral	رعوي
Patriarches (l'époque des)	الجاهلية
Petites maisons	مختليات
Possédé	مجذوب
Posséder (une femme)	جامع
Precieuses	الراقيات
Prostitué	مومس/ بغيّ
Prouesses	مآثر/ بطولات
Proxénète	وسيط الفحشاء
Puberté (l'age de)	سنّ البلوغ
Pucelle	عذراء
Pudeur	الحياء
Pupile	ربيب
Quintessence	لطافة
Rapsode	راوية الشعر
Rapt	خطف النساء
Récalcitrantes	المتمرّدات
Rédemption	الخلاص
Religieuse	الراهبة

(1) لفظة ألمانية.

Résignées	الخانعات
Retour (l'age de)	سِنّ اليأس
Rosa Mystica	الوردة السرية (مريم العذراء)
Roué	الشاطر
Ruban	وشاح
Ruelles	الصالونات
Saigné	الفصد
Sardanapale	ماجن/زير نساء
Satrape	مرزبان
Sensualisme	النزعة الحسية
Sexe)le)	المرأة
Sicaire	قاتل مأجور
Siècle	الدنيا
Sœur	الراهبة
Solitaire	ناسك/راهب
Soubrette	الخادمة
Suborneur	الغاوي
Suivante	الوصيفة
Symbole des Apôtres	قانون الإيمان/تسبيحة الإيمان
Talisman	تميمة
Tensions	المساجلات الشعرية
Toile	القماشة
Toison d'or	الجزة الذهبية
Urbanité	الكياسة/الشطارة
Vélarium	كِنة
Verger	الروضة
Vergogne	الحياء
Vierges folles	العذارى الجاهلات
Vierges sages	العذارى الحكيمات

Viol des tombeaux	نبش القبور
Vœu de virginité	التبتل
Volage	تقلب القلوب
Volupté	الشهوانية

الضمائم

الضميمة 1: نماذج أخرى من مساجلات مجالس الحب والأنس[1]

- رجل حكيم وفاضل التمس حبّ سيّدة. ثم أتى بعده رجل آخر أكثر منه نزاهة وطلب بإلحاح أن يكون محبوب السيّدة. أيّهما يفضل الآخر ليكون محبوبها؟
- هل ينبغي أن تستحسن الغيرة بين المحبين؟
- شاب تعوزه الأمانة والإخلاص وفارس زان ولكنه مخلص التمسا حب سيّدة. وادعى الشاب أنه أحق بحبها لأن حبها له سيمكنه من اكتساب الإخلاص وسيكون فخرا كبيرا للسيدة إذ بفضلها سيصبح رجلا مخلصا. أيهما أجدر بحبها؟
- عاشق فقد – وهو يحارب ببسالة – عينه فطردته حبيبته باعتباره غير أهل لها. فهل يحق لها ذلك؟
- محب يستمتع بسريته وآخر يحبها مثله على أمل أن يستمتع بها قريبا فإن ماتت أي واحد من الاثنين سيحزن عليها؟
- ما الذي يجعل المحب أكثر سعادة: الأمل بالاستمتاع أم الاستمتاع نفسه؟
- أيهما تحب أكثر: أن تكون سريتك ميتة أم متزوجة من غيرك؟
- من يشغل وقته أحسن: رجل يطارد امرأة ماهرة مع أمل الاستمتاع بها أم الرجل الذي يحب حمقاء ويستمتع بها؟
- أيهما يسبب ألما أكثر للمحب: موت المرأة التي يحبها أم خيانتها؟
- فارس أغرى امرأة مدة طويلة عبثا ولما يئس منها أحب امرأة أخرى فتواعدا على اللقاء ولكن المرأة الأولى تكرمت عليه أخيرا بحبها وضربت له موعدا في نفس ساعة الموعد الآخر. إلى إيهما ينبغي أن يذهب؟
- سيّدة جالسة بين ثلاثة عشاق أيّهم المكرم أكثر؟

(1) المصدر: مريم البغدادي، شعراء التروبادور ط1 تهامة/جدّة 1981 صص 80–81–83–85–88–111–112. (بتصرّف).

- هل يستطيع الحب الحقيقي أن يجد مكانا بين الأزواج؟
- اقترن أحدهم دون علمه بامرأة حامل. ولما اكتشف حملها طلب حريته منها ولكن المرأة التي تعلقت به طمعت بالاحتفاظ به مؤكدة أنهما أحب أحدهما الآخر قبل أن تحمل. فهل ينبغي له هجرها؟
- رجلان متساويان في كلّ شيء ولكن تفرق بينهما الثروة. أي الاثنين ينبغي أن تفضله السيدة؟[1]

(1) كما نحيل القارئ على المناظرة الشيقة والمطولة التي دارت بين امرأتين حول الموضوع التالي: أيهما أصلح للمرأة أن تتزوج أم أن تظلّ عذراء؟: راجع

Pierre Bec , Ecrits sur les troubadours et la lyrique médiévale, Editions Paradigme , Paris 1992 pp 311-320.

الضميمة 2: قائمة العشاق المذكورين في الكتاب

Civilis et Velleda	سيفيلوس وفاليدا
Sabinus et Eponine	سابينوس وإيبونين
Hialimar et Ingerbuge	هياليمار وانقروبوج
Hagbart et Signe	هاقبارت وسيني
Alf et Alpnilde	آلف وألفيلد
Rolf et Thoborge	رولف وتوبورج
Aucassion e Nicolette	أوكاسيون ونيكولات
L'ecuyer et Pauline	مروض الجياد وباولين
Nebridus et Olympias	نبريدوس وأولمبياس
Olande et Saphronie	أولاند وسافرونى
Celadron et la bergère	سيلادرون والراعية
Daphnis et Chloé	دافنيس وكلوبي
Nemorin et Estelle	نيمورين وإيستال
Samson et Dalila	شمشون ودليلة
Hercule et Omphale	هرقل وأومفال
Paul et Virginie	بول وفرجيني
Medjnoun et Leilah	المجنون وليلي

الضميمة 3: أصناف البغايا المذكورات في الكتاب وأسماء الشهيرات منهنّ.

1 أصناف البغايا

- Courtisane: تعني الكلمة في الأصل البغي التي ظهرت في المدن الإيطالية وخصوصا في مدينة البندقية. ثم أصبحت تطلق على البغي في العصور القديمة وأهم ما يميزها أنها أنيقة إلى حدّ ما، وأغلب زبائنها من علية القوم.
- Gouge: تعني الكلمة حسب المعنى الذي احتفظت به اللهجة الجاسكونية (L'idiome gascon) جارية ضخمة الجثة ودهثمة أي سهلة المنال.
- Hétaire: بغي إغريقية من طبقة اجتماعية راقية.
- Dame Louve: هي المرأة التي تخلت عنها عائلتها أو زوجها فاضطرت إلى ممارسة البغاء.
- Meretrix: هي البغي المعلنة والمشهورة. وكانت قد ظهرت لأول مرة في ظل الامبراطورية الرومانية.
- Trotacoventos : كلمة إسبانية تعني العجوز الفاجرة القوادة. (وسيطة الفحشاء)

2 – شهيرات البغايا

- أسبازيا (Aspasie): هي بغي إغريقية من طبقة اجتماعية راقية اشتهرت بجمالها وذكائها. عاشت في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت تدير ماخورا. وقد اتخذها كل من رجل السياسة بيريكليس Périclis والفيلسوف سقراط عشيقة.
- صافو (Sapho): شاعرة إغريقية عاشت في القرن السابع قبل الميلاد. فشلت في حياتها الزوجية فنفرت من كل الرجال واتجهت نحو بنات جنسها تمارس معهن السحاق. تركت مجموعة من القصائد الشعرية تمجد فيها علاقاتها الجنسية مع عشيقتها المفضلة

آتيس.

- فريني (Phrynée): بغي إغريقية من طبقة اجتماعية راقية عاشت في القرن الرابع قبل الميلاد. و يقال إن أجرتها كانت باهظة جدا مما مكنها من جمع ثروة كبيرة. من أشهر عشاقها النحات براكسيتال Praxitèle (400 ق.م / 326).
- لازبيا (Lesbia): هي بغي من الطبقات الاجتماعية الدنيا. اتخذها الشاعر كاتيلوس (87 ق.م / 54) عشيقة. ونظم فيها عديد القصائد.

الضميمة 4: أهم مؤلفات الحب المذكورة في الكتاب

- الأستري (L'Astrée): من أضخم الروايات التي عرفها الأدب العالمي إذ تضم ستة أجزاء وأربعين حكاية و 5399 صفحة. مؤلفها هونوري دورفاي Honoré d'Urfé (1567–1625). وتدور أحداثها حول قصة حب رعوية بين البطلة أستري وحبيبها سيلادرون Céladron. وقد نشرت الرواية ما بين سنتي 1607 و 1627.
- إكليل جوليا (Guirlande de Julie): ديوان شعر من تأليف جماعي. يمثل إحدى ثمرات أدب الصالونات في القرن السابع عشر بفرنسا. فقد أحب الدوق شارل دي سانت مور، دوق منتازيCharles de Sainte–Maure ، duc de Montausier أثناء تردده على قصر رامبواي L'hôtel de Rambouillet جوليا الأرجنية Julie d'Angennes ومن ثمّ طلب من كل رواد القصر وكانوا من الأدباء والشعراء أن يساهموا معه في التغني بمحاسن حبيبته والتغزل بها فاقترح عليهم نظم ديوان شعر يساهم فيه كل واحد منهم بقصيدة تكون على لسان وردة. نشر الديوان لأول مرة سنة 1729.
- حب الغاليين (Histoire amoureuse des Gaules) قصص تحكي مغامرات عاطفية ماجنة من تأليف بوسي رابتان Bussy–Rabutin (1618–1693). وقد ألف الكتاب سنة 1666
- حياة السيدات الظريفات (Vie des dames galantes) من تأليف بيار دي بورداي Pierre de Bourdeille المعروف باسم برانتومBrantôme (1540–1614).
- السباعية (L'Heptaméron): مجموعة قصص من تأليف «Marguerite de France (1492–1549)». وتعود تسميتها بالسباعية إلى كون القص يمتد على سبعة أيام.
- سلستين (La Célestine): مسرحية من تأليف الكاتب المسرحي الإسباني فرناندو دي روجاس Fernando de Rojas (1475–1541) وتصور المسرحية قصة حب مليئة بالمكائد

والعنف بين ميليباي Mélibée 18912. ابن التاجر الثري وسلستين الفاجرة القوادة. نشرت المسرحية سنة 1499.

- السيّد (Le Cid): مسرحية من تأليف بيار كورناي «Pierre Corneille» (1606–1684). عرضت المسرحية لأول مرة سنة 1636..
- كلويلا: قصة رومانية (Clélie، histoire romaine): رواية من تأليف مادلان دي سكودوري Madeleine de Scudéry (1607– 1701). ويعتبرها النقاد رواية الظرف ونساء الطبقات الراقية «الراقيات Les Précieuses». نشرت الرواية في ثمانية أجزاء ما بين سنتي 1654–1660.
- مائة قصة جديدة (Cent Nouvelles nouvelles): ينسب البعض هذا المؤلف إلى لويس الحادي عشر في حين ينسبه آخرون إلى أنطوان دي لاسال Antoine de La Sale. والمؤلف في الأصل مجموعة مسامرات كانت تقام في بلاط فيليب لوبون Philippe le Bon دوق بورقونيا، حيث نفي لويس الحادي عشر، ما بين سنتي 1456 و1461. ويقرب محتوى الكتاب من حكايات ألف ليلة وليلة.

نبذة عن المؤلف:

هو كاتب وباحث فرنسي ولد سنة ١٨١٤، وتوفي سنة ١٨٧١. إنتاجه غزير ومتنوع إذ كتب الرواية التاريخية والبحوث التاريخية والجغرافية والفلسفية. وقد كانت تحكمه، في جلّ كتاباته، نزعة أخلاقية.

أهمّ مؤلفاته:

١ – المومس والشهيد (١٨٣٧)

٢- عذراء الغابة (١٨٣٨)

٣- الكنيسة الرومانية والحرية (١٨٤٨)

٤ – حكايات شعبية قسكونية (١٨٦١)

٥ – المسيحيون أو سقوط روما (ديوان شعر) (١٨٦٥)

٦ –تاريخ الحب في العصور القديمة لدى العبرانيين وشعوب الشرق والإغريق والرومان (١٨٦٢).

نبذة المترجم :

أستاذ الحضارة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس. متحصل على الدكتوراة في اللغة والآداب العربية (١٩٩٣). وعلى الأستاذية في الفلسفة (٢٠٠٧).

أهمّ المنشورات:

١- الجهاد : من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة. دار الطليعة بيروت ٢٠٠٢.

٢- ما الثورة الدينية : الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة . المؤسسة العربية للتحديث الفكري- دار الساقي ٢٠٠٤ . (ترجمة من الفرنسية).

٣- الدين والإيديولوجيا : جدلية الديني والسياسي في الإسلام وفي الماركسية . دار الطليعة بيروت ٢٠٠٥.

٤- أدبيات النقد الذاتي في الفكر العربي من النكبة إلى غزو بيروت. . دار الحوار سوريا ٢٠٠٧ .

٥- مفهوم الدهر: في العلاقة بين المكان والزمان في الفضاء العربي القديم. الشبكة العربية للأبحاث والنشر . بيروت ٢٠٠٩.

تاريخ الحب

"تاريخ الحب في العصور الحديثة لدى الغاليين والمسيحيين والبرابرة ومن العصر الوسيط إلى القرن الثامن عشر" هو الجزء الثاني من البحث الذي خصصه المؤلف لتتبع تاريخ الحب منذ العصور القديمة إلى القرن الثامن عشر. صدر الكتاب بباريس سنة ١٨٦٣ عن مؤسسة أميوت للنشر (Amyot Editeur). ويحتوي على أربعة أقسام هي على التوالي:

- الحب لدى الغاليين والمسيحيين
- الحب في ظل غزو البرابرة
- الحب في ظل الشعراء الجوالين: التروبادور والتروفار
- الحب منذ عصر النهضة.

وقد عمد المؤلف إلى تتبع تاريخ الحب في أوروبا استنادا إلى تاريخها السياسي والحضاري وكان هدفه المعلن بيان العلاقة الجدلية بين الحب وما عرفته أوروبا من تحولات سياسية ودينية واجتماعية وأدبية.







